

لآلى القرآن

قبس من أنوار الذكر الحكيم

الجزء الأول

تصنيف

محمد جمال امام

١٥ ذو الحجة ١٤٣٧ هـ

١٧ سبتمبر ٢٠١٦

الفهرست

الصفحة	
٦	توطئة
٧	جواهر القرآن: حجة لإسلام الإمام أبي حامد الغزالي
١٢	مقتطفات من مقدمة الإمام الحافظ ابن كثير لكتابه: تفسير القرآن العظيم
١٤	فضائل القرآن
١٥	جمع القرآن
١٨	تأليف القرآن
١٩	اغتياب صاحب القرآن
٢١	خيركم من تعلم القرآن وعلمه
٢١	الترتيل في القراءة
٢٢	في كم يُقرأ القرآن
٢٣	رأي ابن كثير في الإسرائيليات
	مقتطفات من مقدمة كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح
٢٦	الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي
٢٧	باب ذكر جمل من فضائل القرآن
٢٨	باب كيفية التلاوة لكتب الله وما يُكره منها وما يُجزم
٢٩	باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه
٣٠	باب ما جاء في فضل تفسير القرآن

٣٠	باب ما جاء في حامل القرآن
٣٠	باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته
٣٢	باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي
٣٣	باب كيفية التعلم والفقہ لكتاب الله تعالى وسنة نبيه
٣٤	باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغة العرب
٣٥	باب ذكر نكت في إعجاز القرآن
٣٩	مقتطفات من مقدمة كتاب "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب
٤٦	سورة الفاتحة
٥٩، ٤٩	الاستعاذة
٧٩، ٦١، ٥١	البسملة
٦٩	فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين
٨٦	آية الكرسي
٩٦	سورة الإخلاص
١٠٣	إن في خلق السماوات والأرض
١٣٩	ومن يتق الله
١٦٧	وإذا المؤودة سئلت
١٩٨	الخنس الجوار الكنس

٢٢٠	إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
٢٣٢	فصبر جميل
٢٥٣	إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى
٢٦١	وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ
٢٧١	وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
٢٧٨	يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
٢٨٩	لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ
٣٠١	وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ
٣١١	الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
٣٣٥	مَنْ قَبِلَ أَنْ نَبْرَأَهَا
٣٤٦	قَالُوا لَا ضَيْرَ
٣٥٥	وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
٣٦٤	لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
٣٧٦	وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً
٣٨٤	كَمَا رِيَانِي صَغِيرًا
٣٩٩	وَبِرًا بِوَالِدِيهِ
٤٢٣	أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
٤٤١	أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ

٤٥٢	بل مكر الليل والنهار
٤٥٦	يسألونك عن الساعة
٤٧٧	وعنده مفاتيح الغيب
٤٨٩	وأشرقت الأرض بنور ربها
٥٠٢	وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِيكُمُ
٥١٨	يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
٥٢٨	فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
٥٣٩	وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ
٥٥٠	حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كثيرا ما يقرأ بعضنا آيات القرآن الكريم وهو غافل قلبه، أو وقد شغله الوسواس الخناس بالتفكير في أمور دنيوية، حتى يشاء الله سبحانه وتعالى له أن يستيقظ فجأة عند آيات بينات، أو كلمات بليغة من سور القرآن، فيجد نفسه في نور قرآني لم يكن يتيسر له لولا رحمة الله، فتتكشف له من المعاني والمغازي ما يثير دهشته أن كان غافلا عما فيها من الأنوار الربانية التي تنير له طريقه في الدنيا والآخرة. وهو ما يشير إليه الإمام الغزالي في مقدمة مصنفه "جواهر القرآن" بقوله: "كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها، أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها، أو ما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها... فتنبه لهذا النمط من التصرف في قوارع القرآن وما يتلوه عليك ليغزر علمك، وينفتح فكرك فترى العجائب والآيات، وتنشرح في جنة المعارف وهي الجنة التي لا نهاية لأطرافها، إذ معرفة جلال الله وأفعاله لا نهاية لها".

وهو ما يعبر عنه أيضا بأبلغ العبارات الدكتور محمود محمد الطناحي في تقديمه لكتاب الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة "من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن"، إذ يقول: "فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضا من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد تتلو الآية أو السورة في صلاتك، أو في مغدائك ومراحك، وعند أخذ مضجعك، وتمر عليها مرا، ثم تتلوها نفسها في ساعة أخرى من ساعاتك، وفي حالة مباينة من حالاتك، أو تسمعها من قارئ غيرك، فإذا بما تهزك هزا، وإذا بما تملأ كل ما حولك بحجة وضياء، ثم تتفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بما عهدا، وتعجب، كيف عُيب عنك كل هذا الخير فيما سلف من الأيام".

وهذه اللآلئ كما ترى فتح من الله ومنة، وفيض من كرمه، على عبده الفقير إلى رحمته وغفرانه وعفوه يرجو أن تكون قرية له إلى ربه الكريم، وأن يجد فيها القارئ ما ينفعه ويفتح أمامه كما يقول الدكتور الطناحي ينابيع من الحكمة والهدى وتملأ كل ما حوله بحجة وضياء. وعلى الله قصد السبيل.

محمد جمال امام

القاهرة الجديدة، القاهرة، مصر

١٥ ذو الحجة ١٤٣٧ هـ

١٧ سبتمبر ٢٠١٦

جواهر القرآن

حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول في أن القرآن هو البحر المحيط وينطوي على أصناف الجواهر

والنفائس

أما بعد حمد الله الذي هو فاتحة كل كتاب، والصلاة على رسله التي هي خاتمة كل خطاب، فإني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقف من معانيه ظواهر وجملاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها، أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها وتساfer إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها، أو ما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها، أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين.

الفصل الثاني في حصر مقاصد القرآن ونفائسه

سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى. فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع، ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة؛ وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتممة. أما الثلاثة المهمة فهي:

1- تعريف المدعو إليه؛ 2- وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه؛ 3- وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتممة، فأحدها تعريف أحوال الجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب؛ وثانيها حكاية أحوال الجاحدين وكشف فضائحتهم وجهلهم بالمجادلة والمحااجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير؛ وثالثها تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد. فهذه ستة أقسام.

الفصل الثالث في شرح مقاصد القرآن

القسم الأول في تعريف المدعو اليه

وهو **شرح معرفة الله تعالى**، وتشتمل هذه المعرفة على: 1 - معرفة ذات الحق تبارك وتعالى، 2 - ومعرفة الصفات، 3 - ومعرفة الأفعال. وهذه المعارف الثلاثة ليست على رتبة واحدة، بل أنفُسها معرفة الذات، ثم يليه معرفة الصفات، ويليه معرفة الأفعال. معرفة الذات أضيقتها مجالا، وأعصرها منالا، وأعصاها على الفكر وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق، كقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}، وسورة الإخلاص؛ وإلى التعظيم المطلق كقوله: {سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض}. وأما الصفات فالجمال فيها أفصح ونطاق النطق فيها أوسع، ولذلك كثرت الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة والكلام والحكمة والسمع والبصر وغيرها. وأما الأفعال فبحر متسعة أكنافه، ولا تُنال بالاستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله وكل ما سواه فعله، لكن القرآن يشتمل على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة كذكر السموات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب النبات والحياة وهي التي ظهرت للحس؛ وأشرف أفعاله وأعجبها وأدناها على جلاله صانعها ما لم يظهر للحس، بل هو من عالم الملكوت وهي الملائكة والروحانيات والروح والقلب.

القسم الثاني في تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى

وذلك بالتبتل، كما قال الله تعالى: {وتبتل اليه تبتلا}، أي انقطع اليه، والانتقطاع إليه يكون بالإقبال عليه والإعراض عن غيره، وترجمته قوله: {لا اله إلا هو فاتخذة وكيفا}. والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتركية القلب عنها والفلاح نتيجتها، كما قال الله تعالى: {قد أفلح من تركى وذكر اسم ربه فصلى}. فعمدة الطريق أمران: الملازمة والمخالفة. الملازمة لذكر الله تعالى والمخالفة لما يُشغَل عن الله، وهذا هو السفر إلى الله.

القسم الثالث في تعريف الحال عند ميعاد الوصال

وهو يشتمل على ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون، والعبارة الجامعة لأنواع روحها الجنة وأعلاها لذة النظر إلى الله تعالى؛ ويشتمل أيضا على ذكر الخزي والعذاب الذي يلقاه المحجوبون عنه بإهمال السلوك، والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم وأشدّها ألما ألم الحجاب والإبعاد أعادنا الله منه. ولذلك قدمه في قوله تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم}.

.....

المبحث الثاني: علوم اللباب

وهي على طبقتين:

أ - الطبقة السفلى من علوم اللباب وهي علوم الأقسام الثلاثة التي سميناها التوابع المتممة. فالقسم الأول معرفة قصص القرآن وما يتعلق بالأنبياء وما يتعلق بالجاحدين والأعداء. والقسم الثاني هو محاجة الكفار ومجادلتهم ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات. وأما الطبقة العليا من نمط اللباب فهي السوابق والأصول من العلوم المهمة، وأشرفها العلم بالله واليوم الآخر، لأنه علم المقصد، ودونه العلم بالصرائط المستقيم وطريق السلوك وهو معرفة تركية النفس وقطع عقبات الصفات المهلكات وتحليلتها بالصفات المنجيات. والعلم الأعلى الأشرف علم معرفة الله تعالى فإن سائر العلوم تراد له ومن أجله، وهو لا يراد لغيره. وطريق التدرج فيه الترقى من الأفعال إلى الصفات ثم من الصفات إلى الذات فهي ثلاث طبقات، أعلاها علم الذات ولا يحتملها أكثر الأفهام، ولذلك قيل لهم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله. وإلى هذا التدرج يشير تدرج رسول الله في ملاحظته ونظره حيث قال: "أعوذ بعفوك من عقابك"، فهذه ملاحظة الفعل، ثم قال: "وأعوذ برضاك من سخطك"، وهذه ملاحظة الصفات، ثم قال: "وأعوذ بك منك"، وهذه ملاحظة الذات؛ فلم يزل يترقى إلى القرب درجة درجة، ثم عند النهاية اعترف بالعجز، فقال: "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك". فهذا أشرف العلوم، ويتلوه في الشرف علم الآخرة، وهو علم المعاد كما ذكرناه في الأقسام الثلاثة، وهو متصل بعلم المعرفة، وحقيقته معرفة نسبة العبد إلى الله تعالى عند تحققه بالمعرفة، أو مصيره محجوبا بالجهل.

الفصل الخامس في انشعاب سائر العلوم من القرآن

ولعلك تقول إن العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشرح أعضائه وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك. فاعلم أنا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه، أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد فلذلك لم نذكرها، ووراء ما عدده علوم أخر يُعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها ولا حاجة إلى ذكرها. بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في إلامكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا إدراكها وإحاطة بها. ثم هذه العلوم ما عددها وما لم نعددها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فإن جميعها مغتربة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال. فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واذا مرضت فهو يشفين، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، اذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: {الشمس والقمر بحسبان}، وقال: {وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب}، وقال: {وحسب القمر وجمع الشمس والقمر}، وقال: {يولج

الليل في النهار ويولج النهار في الليل}، وقال: {والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم}، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وحسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هياكل تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه. ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك} إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

.....

الفصل الخامس عشر في علة كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن

وأما قوله عليه السلام "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن"، فما أراك أن تفهم وجه ذلك، فتارة تقول هذا ذكره للترغيب في التلاوة وليس المعني به التقدير وحاشا منصب النبوة عن ذلك، وتارة تقول هذا بعيد عن الفهم والتأويل وأن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية فهذا القدر كيف يكون ثلثها، وهذا لقلّة معرفتك بحقائق القرآن ونظرك إلى ظاهر ألفاظه، فتظن أنها تكثر وتعظم بطول الألفاظ وتقصّر بقصرها. فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعا وارجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن إذ هي معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع؛ وسورة الإخلاص تشتمل على واحد من الثلاث وهو معرفة الله وتوحيده وتقديسه عن مُشارك في الجنس والنوع وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفوؤ، ووصفه بالصمد يشعر بأنه الصمد الذي لا مقصد في الوجود للحوائج سواه؛ نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم وقد ذكرنا أن أصول مهمات القرآن معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم، فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال عليه السلام الحج عرفة أي هو الأصل والباقي توابع.

الفصل السابع عشر في تخصيص النبي آية الكرسي بأنها سيدة آي القرآن

والفاتحة بأنها الأفضل

لعلك تقول لم خصصت آية الكرسي بأنها السيدة والفاتحة بأنها الأفضل، أفيه سر أم هو بحكم الاتفاق كما يسبق اللسان في الثناء على شخص إلى لفظ وفي الثناء على مثله إلى لفظ آخر؟
فأقول هيئات فان ذلك يليق بي وبك وبمن ينطق عن الهوى لا بمن ينطق عن وحي يوحى. فلا تظن أن كلمة واحدة تصدر عنه في أحواله المختلفة من الغضب والرضا إلا بالحق والصدق. والسّر في هذا التخصيص أن الجامع بين فنون الفضل وأنواعها الكثيرة يسمى فاضلا، فالذي يجمع أنواعا أكثر يسمى أفضل، فان الفضل هو الزيادة، فالأفضل هو الأزيد، وأما السؤدد فهو عبارة عن رسوخ معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع وأبى التبعية. واذ

راجعت المعاني التي ذكرناها في السورتين علمت أن الفاتحة تتضمن التنبيه على معان كثيرة ومعان مختلفة
فكانت أفضل، وآية الكرسي تشتمل على المعرفة العظمى التي هي المتبوعة والمقصودة التي يتبعها سائر
المعارف فكان اسم السيدة لها أليق؛ فتنبه لهذا النمط من التصرف في قوارع القرآن وما يتلوه عليك ليغزر علمك،
وينفتح فكري فترى العجائب والآيات، وتنشرح في جنة المعارف وهي الجنة التي لا نهاية لأطرافها، اذ معرفة جلال
الله وأفعاله لا نهاية لها.

مقتطفات من مقدمة الإمام الحافظ ابن كثير لكتابه: تفسير القرآن العظيم

الحمد لله الذي أرسل رسله {مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَىٰ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: {لَا نُنذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]. فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتَازُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: {قَدْ زُيِّنَ وَمَنْ يُكذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ} [القلم: ٤٤، ٤٥]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ"، قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغًا لَهُمْ عَنْ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلًا مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢]. وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تَفَهُمِهِ، فقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]. فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧]. فدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا- أيها المسلمون- أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: {أَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ* اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد: ١٦، ١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تشبيهه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

* فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، فإن أعيك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا} [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"، يعني: السنة. والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، وحيثنذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك ما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالإمامة الأربعة والخلفاء الراشدين والإمامة المهديين.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار". ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أي أرض تقلني وأي سماء تظلمي إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم". وقال أبو عبيد أيضًا: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس، أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الآب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر". وقال عبدة بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، فقال: ما الآب؟ ثم قال: "إن هذا لهو التكلف فما عليك ألا تدريه". وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن: {يَوْمَ كَانَ مِثْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ} [السجدة: ٥]، فقال له ابن عباس: فما {يَوْمَ كَانَ مِثْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحديثي. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على ترجعهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا، فلا حرج عليه. ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في

التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكنوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: {لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: "من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار". فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتهم، ومنه ما لا يُعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤمّل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد عن الأعرج، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

فضائل القرآن

حدثنا المثني، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية عن علي-يعني ابن أبي طلحة- عن ابن عباس في قوله: {وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ}، قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وفي رواية: شهيدا عليه. وقال سفيان الثوري وغير واحد من الإئمة عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس: {وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ} قال: مؤتمنا. وأصل المهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَبَ الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيم، وفي أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شيء، والرقيب: الحفيظ بكل شيء.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن أنه ابتدئ بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان. ولهذا يُستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان، لأنه ابتدئ نزوله فيه، ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفي فيها عارضه به مرتين تأكيداً وتثبيتاً. وأيضاً في هذا الحديث بيان أنه من القرآن مَكِّي ومنه مدني، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو غيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة.

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة". وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيتها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أي: ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتباعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدته في زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإنما كان معظم ما آتاه الله وحياً منه إليه

منقولاً إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، ولهذا قال الله: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: ١]، وقال تعالى: **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}** [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [يونس: ٣٨]، وقصر التحدي على هذا المقام في السور المكية كما ذكرنا وفي المدينة أيضا كما في سورة البقرة، حيث يقول تعالى: **{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك في المستقبل أيضا، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، **لكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوي على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: {وَوَعَدْنَاكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}** [الأنعام: ١١٥].

جمع القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر -مقتل أهل اليمامة- فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استَحَرَّ بِقُرْآنِ، وإني أخشى أن يستحرق القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. فتتبع القرآن أجمعه من العُشْبِ واللِّخَافِ وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره: **{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ}** [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم.

وأما قول زيد بن ثابت "فتتبع القرآن أجمعه من العُشْبِ واللِّخَافِ وصدور الرجال"، وفي رواية: "من العشب والرِّقَاعِ والإضلاع، وفي رواية: "من الأكتاف والأقناب وصدور الرجال". أما العُشْبُ فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من السعف فويق الكَرْبِ لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف. واللِّخَاف: جمع لِحْفَةٍ وهي القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العشب وغير

ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاها زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لحافه، ومن صدر هذا، أي من حفظه، وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال الله تعالى: **﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾** [المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألمهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: **"إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟"**. فقالوا: نشهد أنك قد بُلِّغْتَ وأدِّيت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: **"اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد"**. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب، وقال: **"بَلِّغُوا عني ولو آية"** يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراءه، فبَلِّغُوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآنا، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **"من كتب عني سوى القرآن فليمحاه"**، أي: **لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه ألا يحفظوا السنة ويرووها**، والله أعلم.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان: **يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى**. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: **إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، وإنما أنزل بلسانهم، ففعلوا**. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في محل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾** [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف. وهذا - أيضا - من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقته على ذلك جميع الصحابة. وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثني بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الإئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"،

ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" فوضعتها في السبع الطوال.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفي متلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيراً. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضي الله عنه.

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عمي، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: يا أيها الناس عهدكم ببيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمتون في القرآن، وتقولون: قراءة أبي وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك، وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به. فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمله عليك فيقول: نعم. فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت. قال: فأبي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمثل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون قد أحسن.

قلت: وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جدًّا، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيء من قرية هناك يقال لها بقة، ثم هذبوه ونشروه في جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار. قلت: والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو علي مقلد الوزير، وصار له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قرئها علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابة لما كانت في ذلك الزمان لم تُحکم جيداً، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى.

* الحديث الرابع : قال البخاري: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد. ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التي كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: {أَفْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق: ١] فإنه استلبث الوحي بعدها حيناً يقال قريباً من سنتين أو أكثر، ثم حمى الوحي وتتابع، وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة: {يَأْتِيهَا الْمُدَّتُّرُ * فَمُ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ١، ٢].

* الحديث الخامس : حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس، قال: سمعت جندبا يقول: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ١ - ٣]. والمناسبة في ذكر هذا الحديث والذي قبله في فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعاً عليه ولم يقطعه عنه. ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقاً ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام.

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف ابن ماهك، قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف، قالت: "وما يضرك أياه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ} [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده"، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه أي السور. وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به والمراد من التأليف هاهنا ترتيب سورته. وهذا العراقي سأل أولاً عن أي الكفن خير، أي: أفضل، فأخبرته عائشة رضي الله عنها أن هذا لا ينبغي أن يُعنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الإستعداد، فإن في هذا تكلفاً لا طائل تحته، وكانوا في ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت في الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: "انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم!" ثم سأله عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يُقرأ غير مؤلف، أي غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق بالمصاحف الإئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله

أعلم. ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأي سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار، وهذه إن لم تكن "اقرأ" فقد يُحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولاً فأولاً وهذا من حكمة الله ورحمته. ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداية بما في أوائل المصحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده. **فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم**، كما تقدم تقرير ذلك، ولهذا لم تُرخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأي سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو آخر. ثم قال القاضي: "ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم"، وكذا ذكره مكي في تفسير سورة براءة قال: **"فأما ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل فهو من النبي صلى الله عليه وسلم"**. وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: **سئل ربيعة: لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألهه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه ولا يُسأل عنه**. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: **إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم**. قال أبو الحسن بن بطلال: إنا نجد تأليف سورة في الرسم والخط خاصة ولا يُعلم أن أحداً منهم قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أيه قرأت قبل. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها. وأما ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوساً وقالوا إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنينا بذلك من يقرأ السورة منكوساً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

* فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلوا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكروا أنه كان محمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر، والله أعلم. وقال يحيى بن أبي كثير: "أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر آي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم".

اغتياب صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب،... أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار"**. ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم،... عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"لا**

حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل". ومضمون هذين الحديثين أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الحال، فينبغي أن يكون شديد الاغتراب بما هو فيه، ويستحب تغيبه بذلك، يقال: غبطه يغبطه غبطاً: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمني زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا؛ وهذا مذموم شرعاً، مهلكٌ، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم عليه السلام على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعي الممدوح هو تمني مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة، ولهذا قال عليه السلام: "لا حسد إلا في اثنتين"، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]. وقد روي نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إلي أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد،... عن يزيد بن الأحنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأقوم كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأصدق به". وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير،... عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه، قال: فهذا بأفضل المنازل؛ وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لي مال عملت بعمل فلان، قال: فأجرهما سواء؛ وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يجبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل؛ وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بعمل فلان. قال: هي نيته فوزرهما فيه سواء". وقال أيضاً: حدثنا وكيع،... عن أبي كبشة الإنماري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهما في الأجر سواء؛ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يجبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فهما في الوزر سواء".

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان،... عن عثمان بن عفان، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه". والغرض أنه عليه الصلاة والسلام قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسول، وهم الكمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن يبتفع، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام: ٢٦]، في أصح قول المفسرين في هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل في نفسه وأن يسعى في تكميل غيره، وكما قال الله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحا، وقال قولاً صالحا، فلا أحد أحسن حالا من هذا.

الترتيل في القراءة

وقول الله عز وجل: {وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ٤]، وقوله: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: ١٠٦]، يُكره أن يهد كهذه الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: {فَرَقْنَاهُ} فصلناه. وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة،... عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورجب إليه.

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة،... عن ابن عباس في قوله تعالى: {لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} [القيامة: ١٦]: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفثيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي، وهو متفق عليه، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكير، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: ٢٩]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن سفيان،... عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يقال لصاحب القرآن: اقرأ واُزق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها". وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأديرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول.

في كم يُقرأ القرآن

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكفي الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل،... عن عبد الله بن عمرو، قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كِنْتَه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفنا منذ أتيناها، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ألقي به"، فلقيته بعد، فقال: "كيف تصوم؟". قلت: كل يوم. قال: "وكيف تحتم؟". قلت: كل ليلة. قال: "صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر". قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: "صم ثلاثة أيام في الجمعة". قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: "أفطر يومين وصوم يوما". قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: "صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة"، فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك أني كبرت وضعفت، ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير،... عن عبد الله بن عمرو قال: "قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ القرآن في شهر". قلت: إني أجد قوة. قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك". فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد... عن قيس بن أبي صعصعة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: في كل خمس عشرة". قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال: ففي كل جمعة".

حديث آخر: قال أبو عبيد... عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث".

قال البخاري: اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم: حدثنا أبو النعمان... عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه ومعنى الحديث أنه عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملاها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا". وقال: أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل، وفي اللفظ الآخر: أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل".

رأي ابن كثير في الإسرائيليات

الحافظ ابن كثير، رحمه الله له كلمات قوية في شأن الإسرائيليات وروايتها¹، وتفسيره يعد من الكتب الخالية من الإسرائيليات، اللهم إلا القليل الذي يحكيه ثم ينبه عليه، والنادر الذي يسكت عنه. وقال في مقدمة تفسيره: "ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدُ مِنَ النَّارِ" رواه البخاري عن عبد الله. ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق، فذاك صحيح؛ والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه؛ والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نُؤمِّنُ به ولا نكذِّبه، وتجاوزُ حكايته لما تقدَّم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ ديني.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك. كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدَّتْهم، وعصا موسى من أيِّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُربَ به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التي كلمَ الله منها موسى إلى غير ذلك مما أجمعه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} إلى آخر الآية [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لردده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ}، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو

¹ نقلا عن المقدمة التي كتبها سامي ابن محمد سلامة مصحح الكتاب

جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

وقال ابن كثير عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف، بعد أن ذكر أقوالا في "إبليس" وإسمه ومن أي قبيل هو: "وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل لِيُنظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُفطَع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا. وفي القرآن غُنيَّة عن كلِّ ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفَّاظ المُتقين الذين يَنفون عنها تحريفَ العالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفَّاظ الجياد، الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّروه، وبيَّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعين والكذَّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال. كلُّ ذلك صيانةٌ للجناب النبويِّ والمقام المحمديِّ، خاتم الرسل وسيد البشر، صلى الله عليه وسلم، أن يُنسب إليه كذبٌ أو يُحدَّث عنه بما ليس منه.

وقال عند تفسير الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الأنبياء، بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات: "وما قصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم، فعامَّتْها أحاديثُ بني إسرائيل، فما وافق منها الحقُّ مما بأيدينا عن المعصوم قِبَلنا، لموافقته الصحيح، وما خالف منها شيئا من ذلك ردَّدناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ لا نصدِّقه ولا نكذِّبه، بل نجعله وَقفاً. وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد رخص كثير من السلف في روايته. وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصلٌ له مما يُنتفع به في الدين. ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبيَّنته هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ. والذي نَسَلُكُه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المروَّج عليهم. فإنهم لا تُفرِّقَ عندهم بين صحيحها وسقيمها."

وقال عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة: "وقد رُوي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسُّدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والرَّبِيع بن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم، وقصَّها خلقٌ من المفسرين، من المتقدِّمين والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متَّصلُ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بسطٍ ولا إطناطٍ فيها، فنحن نؤمِّن بما ورد في القرآن على ما أَرادَه اللهُ تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال".

وقال في أول سورة ق: "وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق، جبل مُحيطٌ بجميع الأرض، يقال له جبل قاف!!! وكانَ هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعضُ الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يُكذَّب. وعندِي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاقي بعض زنادقتهم، يَلبِسُون به على الناس أمرَ دينهم. كما افترَي في هذه الأمة - مع جلاله قدر علمائها وحُفَاطها وأئمتها- أحاديثٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما بالعهد من قِدم. فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى، وقلة الحُفَاط التُّقَاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلمَ عن مَوَاضِعِهِ وتبديل كُتُبِ الله وآياته. وإنما أباح الشارحُ الروايةَ عنهم في قوله: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" فيما قد يُجَوِّزُه العقل. فأما فيما تحيِّله العقول، ويُحَكِّم فيه بالبُطلان، ويغلبُ على الظنون كذبُه، فليس من هذا القبيل".

وقال عند تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة النمل - وقد ذكر في قصة ملكة سبأ أثرًا طويلاً عن ابن عباس، وَصَفَه بأنه "منكر غريب جداً" - ثم قال: "والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاةٌ عن أهل الكتاب، مما وُجد في صُحُفهم، كروايات كعب وَوَهَب، سألحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، وما حُرِفَ وبدلَ وتُسحَّح. وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلغُ. والله الحمد والمنة".

وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت- بعد أن رَوَى الحديث: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"، قال: "ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدته".

وقال عند تفسير قوله تعالى: {وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى} [طه: ١٨]: "أي مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أجمته، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام، صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية".

مقتطفات من مقدمة كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الرب الصمد الواحد الحي القيوم الذي لا يموت، ذو الجلال والإكرام والمواهب العظام، والمتكلم بالقرآن، والخالق للإنسان والمنعم عليه بالإيمان، والمرسل رسوله بالبيان محمداً صلى الله عليه وسلم ما اختلف الملأون وتعاقب الجديدان، أرسله بكتابه المبين الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار، فقال تعالى: { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }. خاطب به أوليائه ففهموا وبين لهم فيه مراده فعملوا، فقرأ القرآن حملة سر الله المكنون وحفظة علمه المخزون وخلفاء أنبيائه وأمنائه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفيائه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أهلين منا قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته". فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيته، ويتذكر ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحيه فإنه قد حمل أعباء الرسل وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، قال الله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ }. ألا وإن الحججة على من علمه فأغفله أو كد منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيته فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحا ومن الجرائم فضوحا كان القرآن حجة عليه وخصما لديه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القرآن حجة لك أو عليك"، خرّجه مسلم. فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبها، قال الله تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ }. وقال الله تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ }

وبعد فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل به السنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مني بأن أكتب فيه تعليقا وحيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما ومبين ما أشكل منهما بأقوال السلف ومن تبعهم من الخلف، وعملته تذكرة لنفسي وذخيرة ليوم رمسي وعملا صالحا بعد موتي قال الله تعالى: {يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}، وقال تعالى: {عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ}. وقال رسول الله صلى وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا في ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يُقال من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يُعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، والله الموفق للصواب. وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها وترشد للطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل هكذا إلى آخر الكتاب وسميته بـ (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان) جعله الله خالصا لوجهه وأن ينفعني به ووالدي ومن أراد به إنه سميع الدعاء قريب مجيب؛ آمين.

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستعمله

والعامل به:

اعلم أن هذا الباب واسع كبير ألف فيه العلماء كتبا كثيرة نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه وعملوا به. فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء وصفة من ليس له شبيه ولا ند، فهو من نور ذاته جل وعز وأن القراءة أصوات القراء ونغماتهم.

وأما ما جاء من الآثار في هذا الباب فأول ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي"

² النكتة: الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس/ المسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر (المعجم الوجيز)

السائلين". عن علي رضي الله عنه وخرجه الترمذي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشعب منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم." وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران". التتبع: التردد في الكلام عيا وصعوبة، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله لأنه قد كان القرآن متعنا عليه ثم ترقى عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة، والله أعلم. وروى الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف". قال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقد روي موقوفا. وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في الصفة فقال: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم فقلنا يا رسول الله كلنا نحب ذلك؛ قال أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل".

وقال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: {فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}. قال ابن عباس فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ذكره مكي أيضا. وقال الليث: يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}. و{لَعَلَّ} من الله واجبة.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، وما يكره منها وما يحرم، واختلاف الناس في

ذلك

روى البخاري عن قتادة قال: سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "كان يمدّ مَدًّا، إذا قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يمدّ بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم". وروى الترمذي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته، يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ثم يقف، {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ثم يقف، وكان

يقرأها {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قال: حديث غريب وأخرجه أبو داود بنحوه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن الناس صوتا من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى". وروي عن زياد النميري أنه جاء مع القراء إلى أنس بن مالك فقيل له: اقرأ فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حسّن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام: "زينوا القرآن بأصواتكم" رواه البراء بن عازب أخرجه أبو داود والنسائي. وبقوله عليه السلام: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" أخرجه مسلم. قلت: القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتي. وأما ما احتجوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره، وإنما هو باب المقلوب؛ أي زينوا أصواتكم بالقرآن. قال الخطابي: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "زينوا القرآن بأصواتكم". أي المهجوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل معناه الحض على قراءة القرآن والدؤوب عليه. وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "زينوا أصواتكم بالقرآن". وروي عن عمر أنه قال: "حسنوا أصواتكم بالقرآن". قلت: وإلى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" أي ليس منا من لم يُحسّن صوته بالقرآن. ومُعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُتَأَوَّلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْقُرْآنَ يَزِينُ بِالْأَصْوَاتِ أَوْ بغيرها، فمن تأول هذا فقد وقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن إلى من يزينه، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بمجته واستنار بضياءه. وقد قيل: إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك أي زينوا القراءة بأصواتكم؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة، كما قال تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} أي قراءة الفجر، وقوله: {فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أي قراءته.

باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص في طلبه لله عز وجل كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره في الصلاة أو في غير الصلاة لتلا ينسأه، روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره وإذا لم يقم به نسيه". وقال عبدالله بن عمرو: لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن لأن في جوفه كلام الله تعالى، وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاوم عن طرق الشبهات، ويقبل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار؛ وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمرء ويأخذ نفسه بالرفق والأدب، وينبغي له أن يكون ممن يُؤمّن شره ويُرحى خيره ويُسلم من ضره، وألا يسمع ممن تم عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ويزينه ولا

يشينه. وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلو ولا يدره، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا. وينبغي له أن يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ماخاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام وما زاد عليه من الفرائض في آخره، فالمدني هو محمود للمكي في أكثر القرآن ولا يمكن أن ينسخ المكي المدني لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل محمود له. ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ ويزيل عنه الشك فيما يتلو. وقد قال الضحاك في قوله تعالى: **{وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}**، قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها.

باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين فمن ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم فقال له رجل: جُعِلت فداؤك! تصف جابرا بالعلم وأنت أنت! فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ}**. وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يُعلم فيما أنزلت وما يُعني بها. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب.

باب ما جاء في حامل القرآن ومن هو وفيمن عاده

قال أبو عمر: روى من وجوه فيها لين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة: الإمام المقسط وذو الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجاني عنه" وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "القرآن أفضل من كل شيء، فمن قرء القرآن فقد قرء الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى، حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، المعظمون كلام الله، الملبسون نور الله، فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى".

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمة

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في (نوادير الأصول): فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهرا، ومن حرمة أن يقرأه وهو على طهارة، ومن حرمة أن يستاك ويتحلل فيطيب فاه إذ هو طريقه. ومن حرمة إذا تشاءب أن يمسك عن

القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج والتناؤب من الشيطان. قال مجاهد: إذا تئاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيماً حتى يذهب تناؤبك. وقاله عكرمة يريد أن في ذلك الفعل إجلالاً للقرآن. ومن حرمة أن يستعبد بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداءً قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمة إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الأدميين من غير ضرورة. ومن حرمة أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء. ومن حرمة أن يقرأه على تودة وترسيل وترتيل. ومن حرمة أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يُخاطب به. ومن حرمة أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجبر بالله منه، ومن حرمة أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمة أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمة إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم ويشهد على ذلك أنه حق فيقول: صدقت ربنا وبلغت رسلك ونحن على ذلك من الشاهدين اللهم اجعلنا من شهداء الحق القائمين بالقسط، ثم يدعو بدعوات. ومن حرمة إذا قرأه ألا يلتقط الآي من كل سورة فيقرأها، فإنه روي لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً فأمره أن يقرأ السورة كلها، أو كما قال عليه السلام. ومن حرمة إذا وضع المصحف ألا يتركه منشوراً وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب علماً كان أو غيره. ومن حرمة أن يضعه في حجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمة أن يعطي عينيه حظهما منه فإن العين تؤدي إلى النفس وبين النفس والصدر حجاب والقرآن في الصدر، فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدي إلى النفس، فإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. ومن حرمة ألا يتأوله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا، حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي قال حدثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك جئت على قدر يا موسى؛ ومثل قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمة ألا يُتلى منكوساً كفعل معلمي الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الخدق من نفسه والمهارة فإن تلك مخالفة. ومن حرمة ألا يُقَرَّ في قراءته كفعل هؤلاء الحمزيين المبتدعين والمنتنعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفاً فإن ذلك محدث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمة ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية فإن ذلك كله زيغ. ومن حرمة ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليه حتى يبغض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة. ومن حرمة ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن ينأوله. ومن حرمة أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون في هيئة المهجور.

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، والجرأة على ذلك، ومراتب

المفسرين

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل. قال ابن عطية: ومعنى هذا الحديث في مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى. ومن جملة مغيباته ما لم يُعلم الله به كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقري من ألفاظه كعدد النفحات في الصور وكرتية خلق السموات والأرض. روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا الحديث علي إلا ما علمتم فمن كذب علي متعمدا فليؤأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليؤأ مقعده من النار". قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد فسر حديث ابن عباس تفسيرين: أحدهما، من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله. والجواب الآخر، وهو أثبت القولين وأصحهما معنى: من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليؤأ مقعده من النار. ومعنى يتؤأ ينزل ويحل. وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلًا بمجرد رأيه .

قلت: هذا صحيح وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء، فإن من قال فيه بما سنع في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطيء وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح . وإنما النهي يحمل على أحد وجهين :

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل في طبعه وهو فيتأول القرآن على وفق رأيه وهو ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد بالآية ذلك ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهل وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهو فيكون قد فسره برأيه، أي رأيه حملة على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه؛ وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى: {أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، ويشير إلى قلبه ويوميء إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسیناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلظه ودخل في زمرة القرآن بالرأي، والنقل والسمع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم، والاستنباط والغرائب التي لا تفهم إلا بالسمع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ألا ترى أن قوله تعالى: {وَأَتَيْنَا مُؤَدَّ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَّمُوا بِهَا}، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا في القرآن كثير وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه والله أعلم. قال ابن عطية: وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم. قال أبو بكر الأنباري: وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن، فبعض يقدر أن الذي يفسه لا يوافق مراد الله عز وجل فيحجم عن القول، وبعض يشفق من أن يجعل في التفسير إماماً يبيّن على مذهبه ويقتفي طريقه فلعل متأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطيء فيه ويقول إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف.

باب كيفية التعلم والفقهاء لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما

جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الداني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً. وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله ابن عمر مكث على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها. وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ في كتابه المسمى أسماء من روي عن مالك عن مرداس بن محمد أبي بلال الأشعري قال حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا. وذكر أبو بكر الأنباري حدثني محمد بن شهر يار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبي مسلم أبي عمرو عن زياد بن مخرق قال قال عبد الله بن مسعود: إننا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به. حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به.

حدثني حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبي العنبر حدثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال سمعت خلف بن هشام البرزاق يقول ما أظن القرآن إلا همام في أيدينا وذلك إنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة في بضع عشرة سنة فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يدي فيقرأ ثلث القرآن لا يسقط منه حرفا، فما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا. وقال معاذ بن جبل: اعلمو ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعلموا.

باب هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاما لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط؛ واختلفوا هل وقع فيه غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب والطبري وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه وأن القرآن عربي صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم. وذهب بعضهم إلى وجودها فيه وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، ولا رسول الله عن كونه متكلمًا بلسان قومه؛ فالمشكاة الكوة، ونشأ قام من الليل، ومنه {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} و{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ} أي ضعفين، {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} أي الأسد، كله بلسان الحبشة، والغساق البارد المنتن بلسان الترك، والقسطاس الميزان بلغة الروم، والسجيل الحجارة والطين بلسان الفرس، والطور الجبل واليم البحر بالسريانية، والتنور وجه الأرض بالعجمية، قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العارية التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلي قريش وكسفر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاص وعمار بن الوليد إلى أرض الحبشة وكسفر الأعشى إلى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلمت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرى مجرى العربي الصحيح ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح بما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك. قال ابن عطية: وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظه فذلك بعيد بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر لأننا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شادا. قال غيره: والأول أصح، وقوله هي أصل في كلام غيرهم دخيلة في كلامهم ليس بأولى من العكس، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بما أولا فإن كان الأول فهي من كلامهم إذ لا معنى للتعهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة. فإن قيل ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه قلنا ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها، فقد بحث القاضي عن أصول أوزان كلام العرب ورد

هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية. وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم والله أعلم.

باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها وشرائطها خمسة فإن احتل منها شرط لا تكون معجزة.

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه. وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت في زمان يصح فيه مجيء الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذي ادعاه معجزة له ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر وانشقاق القمر وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر.

والشرط الثاني هو أن تحرق العادة، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعي للرسالة آيتي مجيء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله فلم تُفعل من أجله وقد كان قبل دعواه على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه، والذي يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه وذلك أن يقول الدليل على صدقي أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواي على الرسالة فيقلب هذه العصا ثعبانا ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة أو ينبع الماء من بين أصابعي كما ينبع من العين أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادة التي ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه لو أسمعنا كلامه العزيز وقال صدق أنا بعثته.

والشرط الثالث هو أن يستشهد بما مدعي الرسالة على الله عز وجل فيقول آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به.

الشرط الرابع هو أن تقع على وفق دعوى المتحدى بما المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي للرسالة: آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت كذب وليس هو نبي، فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه.

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة، فإن تم الأمر المتحدي به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدمة فهي معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتي بمثل ما أتى به يعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه؛ ولهذا قال المولى سبحانه: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، وقال: {أَمْ يَتَوَلَّوْنَ افْتِرَاءَهُ قُلْنَ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}، كأنه يقول إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سور من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله.

فصل - إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين: الأول- ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني- ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله واستفاضت بثبوته ووجوده ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة. ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا وأن يكونوا علمين بما نقلوه علما ضروريا، وأن يستوي في النقل أولهم وآخرهم ووسطهم في كثرة العدد حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب. وهذه صفة نقل القرآن ونقل وجود النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضي الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة والمعجزات، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل. فنقل القرآن في الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ونقله، إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلوه ويسمعونه لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضروري بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به. فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومعجزة كل نبي انقضت بانقراضه أو دخلها التبديل والتغيير كالتوراة والإنجيل.

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}. ومنها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب. ومنها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال وتأمل ذلك في سورة {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} إلى آخرها، وقوله سبحانه: {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} إلى آخر السورة. وكذلك قوله سبحانه: {وَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ عَافِيًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: {لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ولا أن يقول ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء. قال ابن الحصار: وهذه الثلاثة من النظم والأسلوب والجزالة لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية. وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع

التحدي والتعجيز ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة. فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قصار وهي أقصر صورة في القرآن وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين أحدهما: الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل، والثاني الإخبار عن الوليد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد على ما يقتضيه قول الحق: **{ذَرِينِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَيْنَ شُهُوداً وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيداً}**، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده وانقطع نسله. ومنها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه. ومنها: الإخبار عن الأمور التي في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحذوه به من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام وحال ذي القرنين فجاءهم وهو أمي من أمة أمية ليس لها بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته فتحققوا صدقه. قال القاضي ابن الطيب: ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا متردداً إلى المتعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي. ومنها: الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله سبحانه وينقسم إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، وإلى وعد مقيد بشرط كقوله: **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** **{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ}** **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً}** و**{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ}** وشبه ذلك. ومنها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي فمن ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ}** الآية، ففعل ذلك. وقال الله تعالى: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}**، وقال: **{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}**، وقال: **{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ}**، وقال: **{أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ}**، فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين أو من أوقفه عليها رب العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه. ومنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام. ومنها: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي. ومنها: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف قال الله تعالى: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً}**.

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماءنا رحمة الله عليهم. قال ابن عطية: وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره

والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا، قط فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين؛ ويظهر لك قصور البشر أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطي لآخر بعده فيأخذها بقرينة جامدة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله تعالى لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد.

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جل ذكره ذكر في آية واحدة أمرين وتبيين وخبرين وبشارتين وهو قوله تعالى: **{ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ }**، الآية، وكذلك فاتحة سورة المائدة أمر بالوفاء ونهي عن النكث وحل محل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن حكمته وقدرته وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه. وأنبأ سبحانه عن الموت وحسرة الفوت والدار الآخرة وثوابها وعقابها وفوز الفائزين وتردي المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا ووصفها بالقليلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى: **{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }**، الآية، وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين وعواقب المهلكين في شطر آية، وذلك في قوله تعالى: **{ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا }**، وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة واستقرار السفينة واستوائها وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عز وجل: **{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَثُرْسَاهَا }**، إلى قوله تعالى: **{ قِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }** إلى غير ذلك. فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت إن النبي صلى الله عليه وسلم تقوله أنزل الله تعالى: **{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ قَلِيًّا تَوْأَمًا لِيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ }**، ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال: **{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ }**، فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار إلى مثل سورة من السور القصار فقال جل ذكره: **{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ }** فأفحموا عن الجواب وتقطعت بهم الأسباب مع كونهم أرباب البلاغة واللحن وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن. فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتي من جوامع الكلم واختص به من غرائب الحكم إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم في صفة الجنان وإن كان في نهاية الإحسان وجدته منحطا عن رتبة القرآن وذلك في قوله عليه السلام: **"فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"**. فأين ذلك من قوله عز وجل: **{ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ }**، وقوله: **{ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ }**. وبهذا قامت الحجة على العرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة كما قامت الحجة في معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أربع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمان عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمان محمد صلى الله عليه وسلم.

مقتطفات من مقدمة كتاب "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

في ظلال القرآن: الحياة في ظلال القرآن نعمة. نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزيهه. والحمد لله، لقد منّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزيهه. لقد عشت أسمع الله - سبحانه - يتحدث إليّ بهذا القرآن، أنا العبد القليل الصغير، أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟ وعشت - في ظلال القرآن - أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال، وأعجب .. ما بال هذا الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيثة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزيهه؟

عشت أتملى - في ظلال القرآن - ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود، لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني، وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب، وأسأل، كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟

وعشت - في ظلال القرآن - أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريد الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله، ثم أنظر .. فأرى التخبط الذي تعانیه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملئ عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟ يا حسرة على العباد!!! وعشت - في ظلال القرآن - أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود، أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه، إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده، وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها. والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاوّل، والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق. وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه مقدمة كله، إنما هو قسط من ذلك النصيب. وما يفوته هنا من الجزء لا يفوته هناك. فلا ظلم ولا بحس ولا ضياع. على أن المرحلة التي

يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود. كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظلالهم بالغدو والآصال}.. {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}. أي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟

وعشت- في ظلال القرآن - أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد، إنه إنسان بنفخة من روح الله: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، ومسخر له كل ما في الأرض: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً}، ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الأصرة التي يتجمع عليها البشر هي الأصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة، جعلها أصرة العقيدة في الله. فالعقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلاً ومرعى وقطيع وسياج! والمؤمن ذو نسب عريق، وضارب في شعاب الزمان. إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام. {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون}. هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قدم، يواجه- كما يتجلى في ظلال القرآن- مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقسام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد، ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله، متعلقاً بالرجاء فيه، متوقفاً في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا. فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ. ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}. موقف واحد وتجربة واحدة، وتهديد واحد، وبقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم، وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف. وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد.

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}.. {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}، وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما

تنشئ الأسباب والمقدمات سواء: { لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا }، { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ }.
والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله
وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجوة من الهواجس والوساوس: { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }.

ومن ثم عشت- في ظلال القرآن - هادئ النفس، مطمئن السريرة، قدير الضمير. عشت أرى يد
الله في كل حادث وفي كل أمر. عشت في كنف الله وفي رعايته. عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها
{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }، { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }، { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }، { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ }، { فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ }، { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ. إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ }، { مَا مِنْ ذَايَبٍ إِلَّا
هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا }، { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ }، { وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مُكْرِمٍ }، { وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }. **إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء. فهناك دائما وراء**
السنن الإرادة المدبرة، والمشية المطلقة، والله يخلق ما يشاء ويختار. كذلك تعلمت أن يد الله تعمل،
ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة وأنه ليس لنا أن نستعجلها ولا أن نقترح على الله شيئا. فالمنهج الإلهي - كما يبدو
في ظلال القرآن - موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من
حالات النفس البشرية الواحدة. وهو موضوع لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض، آخذ في الاعتبار فطرة هذا
الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتره. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحترق دوره
في الأرض، أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته، سواء وهو فرد أو وهو عضو في جماعة. كذلك هو لا يهيم
مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته، وفوق مهمته التي أنشأها الله لها يوم أنشأها. ولا يفترض في كلتا
الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجمرة قلم! الإنسان هو هذا الكائن بعينه، بفطرته وميوله
واستعداداته، يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم
ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله. ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى
الطويل الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومُنزل هذا القرآن، ومن ثم لم يكن معتسفا ولا عجولا في تحقيق غاياته العليا
من هذا المنهج. إن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحته رغبة فان، يخشى أن يعجله الموت عن
تحقيق غايته البعيدة كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون
الفطرة المتزنة الخطى لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن! وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر، وتسيل
الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور؛ ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق
الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأما الإسلام فيسير هينا لينا مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من
هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرهما ولا يحطمهما. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية

المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف. فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك، كذلك ينبت الإسلام ويمتد في ببطء وعلى هينة وفي طمأنينة، **ثم يكون دائما ما يريد الله أن يكون**. والزرعة قد تسقى عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ، وقد يغرقها الري، ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود، إنه المنهج الإلهي في الوجود كله، **{وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}**.

والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود، ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة غير مقصودة. إن الله سبحانه هو الحق، ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}**. وقد خلق الله هذا الكون بالحق لا يتلبس بخلقه الباطل: **{مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ}**، **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ}**، والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك: **{وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}**، ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر، ولا بد للباطل أن يزهق. ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}**. والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق، باقية بقاءه في الأرض: **{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}**، **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**. أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكونة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟

وانتهيت من فترة الحياة- في ظلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم، إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة، إلا بالرجوع إلى الله. والرجوع إلى الله- كما يتجلى في ظلال القرآن- له صورة واحدة وطريق واحد، واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم. إنه **تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شؤونها.** وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله: **{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}**.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن تَبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}. إن الاحتكام إلى منهج الله في كتاب ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان، أو فلا إيمان {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}. والأمر إذن جد، إنه أمر العقيدة من أساسها، ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها. إن هذه البشرية، وهي من صنع الله، لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تُعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلوق، وشفاء كل داء: {وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}. {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ}. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمرض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها، ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساره ومدخله إلا الذي أبدعه وأنشأه: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ}. ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة، البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير! ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات. لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذابت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة و{ظَهَرَ الْقَسَادُ فِي النَّبْرِ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}. تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشرعية المستمدة من هذا التصور. فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء. نعم، لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق، بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أرادها لها، وحققه في حياتها، في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشرعية القرآن. ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ونُحي الإسلام عن القيادة. نُحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة. صورة التفكير المادي الذي تتعجب به البشرية اليوم، كما يتعجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان! إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى ثم يقولون لها: اختاري!!! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد

الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله!!! وهذا خداع لئيم خبيث. فوضع المسألة ليس هكذا أبداً، إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة، ذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض. هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع. على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقييد بشرطه في عقد الخلافة وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله. فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى، فهم سيئو النية، شريرون، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال وهمت أن تسمع لصوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة، وأن تطمئن إلى كنف الله. وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية ولكن ينقصهم الوعي الشامل، والإدراك العميق. هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية، وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة. فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية، وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة ويجعلون للقوانين الطبيعة مجالاً، وللقيم الإيمانية مجالاً آخر، ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية، وتعطي نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا، اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه، حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس! هذا وهم، إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما في حقيقتهما غير منفصلين. فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء. ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره. وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن. ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}**. وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً}**. وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**.

إن الإيمان بالله، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض، كلها إنفاذ لسنن الله. وهي سنن ذات فاعلية إيجابية، نابعة من ذات المنع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار. ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتماً في نهايته. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية. وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما. وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى

الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا. وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالبائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيبض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك، لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحده العلاج والدواء. إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون. والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهي موضوعة لتنفيذ في مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم. وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير، ونظافة في الشعور، وضخامة في الاهتفامات، ورفعة في الخلق، واستقامة في السلوك. وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود. والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود، وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته ونشاطه، هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود، وكلها تعمل متناسقة، وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق، بينما تفسد آثارها وتضطرب، وتفسد الحياة معها، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم: **{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }**، فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين ماجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع. ولا يوحى بتمزيق هذا الارتباط، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى وينبغي لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم.

سورة الفاتحة

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) }

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) }

يقول الإمام الغزالي في تناوله لسورة الفاتحة في مصنفه "جواهر القرآن":

الفصل الثاني عشر في أسرار الفاتحة وبيان جملة من حكم الله في خلقه

وإذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على ثمانية مناهج: فقوله تعالى {بسم الله الرحمن الرحيم} نياً عن الذات. وقوله {الرحمن الرحيم} نياً عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرها، ثم تتعلق بالخلق وهم المرحومون تعلقاً يؤنسهم به ويشوقهم إليه ويرغبهم في طاعته لا كوصف الغضب لو ذكره بدلا عن الرحمة، فإن ذلك يُحزن ويُخوف ويقبض القلب ولا يشرحه. وقوله {الحمد لله رب العالمين} يشتمل على شيئين، أحدهما أصل الحمد وهو الشكر، وذلك أول الصراط المستقيم وكأنه شطره، فإن الإيمان العملي نصفان، نصف صبر ونصف شكر؛ وفضل الشكر على الصبر كفضل الرحمة على الغضب، فإن هذا يصدر عن إلتياح وهزة الشوق وروح المحبة، وأما الصبر على قضاء الله فيصدر عن الخوف والرغبة، ولا يخلو عن الكرب والضيق؛ وسلوك الصراط المستقيم إلى الله تعالى بطريق المحبة وأعمالها أفضل كثيرا من سلوك طريق الخوف، ولذلك قال رسول الله "أول ما يُدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال". والثاني قوله تعالى {رب العالمين} إشارة إلى الأفعال كلها، وإضافتها إليه بأوجز لفظ وأتمه إحاطة بأصناف الأفعال لفظ "رب العالمين"، وأفضل النسبة من الفعل إليه نسبة الربوبية، فإن ذلك أتم وأكمل في التعظيم من قولك أعلى العالمين وخالق العالمين. وقوله ثانياً {الرحمن الرحيم} إشارة إلى الصفة مرة أخرى، ولا تظن أنه مكرر فلا تكرر في القرآن، إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة، وذكر الرحمة بعد ذكر العالمين وقبل ذكر مالك يوم الدين ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفضيل مجاري الرحمة، إحداهما تلتفت إلى خلق رب العالمين، فإنه خلق كل واحد منهم على أكمل أنواعه وأفضلها وآتاه كل ما يحتاج إليه. فأحد العوالم التي خلقها عالم البهائم وأصغرها البعوض والذباب والعنكبوت والنحل، فانظر إلى البعوض كيف خلق أعضائها، فقد خلق عليها كل عضو خلقه على الفيل حتى خلق له خرطومًا مستطيلاً حاد الرأس، ثم هداه إلى غذائه إلى أن يمص دم الآدمي فتراه يغرر فيه خرطومه ويمص من ذلك التجويف غذاء، وخلق له جناحين ليكون له آلة الهرب إذا قصد دفعه. وانظر إلى

الذباب كيف خلق أعضائه وخلق حدقتيه مكشوفتين بلا أجفان إذ لا يحتمل رأسه الصغير الأجفان، والأجفان يُحتاج إليها لتنصيف الحدقة مما يلحقها من الأقداء والغبار، وانظر كيف خلق له بدلا عن الأجفان يدين زائدتين فله سوى الأرجل الأربع يدان زائدتان تراه إذا وقع على الأرض لا يزال يمسح حدقتيه بيديه يصقلهما عن الغبار. وانظر إلى العنكبوت كيف خلق أطرافها وعلمها حيلة النسج، وكيف علمها حيلة الصيد بغير جناحين إذ خلق لها لعبا لزجا تعلق نفسها به في زاوية وتترصد طيران الذباب بالقرب منها فتزوم إليه نفسها فتأخذه وتقيد به بخيطها الممدود من لعبها فتعجزه عن الإفلات حتى تأكله أو تدخره. وانظر إلى نسج العنكبوت لبيتها كيف هداها الله نسجه على التناسب الهندسي في ترتيب السدى واللحمة. وانظر إلى النحل وعجائبها التي لا تُحصى في جمع الشهد والشمع، ونبهك على هندستها في بناء بيتها فإنها تبني على شكل المسدس كيلا يضيق المكان على رفقاتها لأنها تزدحم في موضع واحد على كثرتها، ولو بنت البيوت مستديرة ل بقي خارج المستديرات فرج ضائعة، فإن الدوائر لا تراص وكذلك سائر الأشكال، وأما المربعات فتراص ولكن شكل النحل يميل إلى الإستدارة فيبقى داخل البيت زوايا ضائعة، كما يبقى في المستدير خارج البيت فرج ضائعة، فلا شكل من الأشكال يُقرب من المستدير في التراص غير المسدس، وذلك يُعرف بالبرهان الهندسي. فانظر كيف هداها الله خاصية هذا الشكل. وهذا نموذج من عجائب صنع الله ولطفه ورحمته بخلقه، فإن الأدنى بينة على الأعلى. وثانيها تعلقها بقوله {مالك يوم الدين}، فيشير إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤبد في مقابلة كلمة "عبادة"، وشرح ذلك يطول والمقصود أنه لا مكرر في القرآن، فإن رأيت شيئا مكررا من حيث الظاهر فانظر في سوابقه ولواحقه لتتكشف لك مزيد الفائدة في إعادته. وأما قوله {مالك يوم الدين}، فإشارة إلى الآخرة في المعاد، مع الإشارة إلى معنى الملك وذلك من صفات الجلال. وقول {إياك نعبد وإياك نستعين}، يشتمل على ركنين عظيمين أحدهما العبادة مع الإخلاص بالإضافة إليه خاصة، وذلك هو روح الصراط المستقيم؛ والثاني اعتقاد أنه لا يستحق العبادة سواه، وهو لباب عقيدة التوحيد، وذلك بالتبري عن الحول والقوة، ومعرفة أن الله منفرد بالأفعال كلها، وأن العبد لا يستقل بنفسه دون معونته. فقوله {إياك نعبد} إشارة إلى تحلية النفس بالعبادة والإخلاص؛ وقوله {وإياك نستعين} إشارة إلى تزكيتها عن الشرك والإلتفات إلى الحول والقوة. وقد ذكرنا أن مدار سلوك الصراط المستقيم على قسمين، أحدهما التركيبية بنفي ما لا ينبغي والثاني التحلية بتحصيل ما ينبغي، وقد اشتمل عليهما كلمتان من جملة الفاتحة. وقوله {إهدنا الصراط المستقيم}، سؤال ودعاء وهو مخ العبادة، وهو تنبيه على حاجة الإنسان إلى التضرع والابتهاج إلى الله تعالى وهو روح العبودية، وتنبيه على أن أهم حاجاته الهداية إلى الصراط المستقيم، إذ به السلوك إلى الله تعالى. وأما قوله {صراط الذين أنعمت عليهم}، إلى آخر السورة، فهو تذكير بنعمته على أوليائه ونعمته وغضبه على أعدائه لتستثير الرغبة والرغبة من صميم الفؤاد. وقد ذكرنا أن ذكر قصص الأنبياء والأعداء قسمان من أقسام القرآن عظيمان، وقد اشتملت الفاتحة من الأقسام العشرة على ثمانية أقسام: الذات، والصفات، والأفعال، وذكر

المعاد، والصراط المستقيم بجميع طرفيه أعني التزكية والتحلية، وذكر نعمة الأولياء، وغضب الأعداء، وذكر المعاد؛ ولم يخرج منه إلا قسمان: محاجة الكفار، وأحكام الفقهاء وهما الفنان اللذان يتشعب منهما علم الكلام وعلم الفقه.

ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره لسورة الفاتحة:

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تُفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم". ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدي عبدي"، الحديث. فسُميت الفاتحة: صلاة، لأنها شرط فيها. وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة (!!!)، والأول أشبه لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر: ٨٧]، والله أعلم. وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه. وهي سبع آيات بلا خلاف. وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها، كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ قالوا: وكلما تم خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب، أنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة. وقيل: **إنما سُميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته.** قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمًّا. قال: وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها. ويقال لها أيضًا الفاتحة، لأنها تُفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بما كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تُثنى في الصلاة، فتُقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأُم القرآن: "هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم". وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة

رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني". وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن غالب بن حارث، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي، ثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب".

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة ونقله الباقلائي أحد أقوال ثلاثة هذا أحدها، وقيل: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} كما في حديث جابر في الصحيح، وقيل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]، وهذا هو الصحيح.

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني حبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم أجبه حتى صليت وأتيت، فقال: "ما منعك أن تأتيني؟" قال: قلت يا رسول الله، إني كنت أصلي. قال: "لم يقل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: "لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد". قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. قال: نعم، الحمد لله رب العالمين، هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

الاستعاذة

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا. وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد، استعذ. قال: "استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم" ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم، بلسان جبريل. وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليُعرف فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأنم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كُفي في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: {فَاسْتَعِذْ} وهو أمر ظاهره الوجوب وبموازبة النبي صلى الله عليه وسلم عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته. وقال الشافعي

في الإملاء، يُجهر بالتعوذ، وإن أُسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخيير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة. واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يُستحب التعوذ فيها، على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعيد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة، وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي وحكي عن بعضهم أنه يقول: أستعبد بالله من الشيطان الرجيم، لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور، والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، وهو قول أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة. ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بُرْهَانَكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٥] ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أومله... ومن أعوذ به ممن أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فصل: معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضربني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحنيني على فعل ما نُهييت عنه، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمًا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لمن رابعة، قوله في الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: {وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة "قد أفلح المؤمنون": {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونَ} [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِيْنَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كُتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كُتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا. وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدركه أيضًا. ومن حُكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعليّ؛ ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن زَاهَوِيه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله. وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول في بعض طرق مذهبه، هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان. وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله. هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا. فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفترع على هذا. فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها. وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يُجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاها ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعليّ، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وهو غريب. وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت قراءته مدا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن الرحيم. وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل. وعند الإمام مالك: أنه لا يُقرأ بالبسملة بالكلية، لا جهرًا ولا سرًا. فهذه مأخذ الأئمة رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة، لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

وقد روى ابن مَرْدُويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فتستحب في أوّل الخطبة لما جاء: "كل أمر لا يُبدأ فيه بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فهو أجذم". وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أتيت أهلَكَ فسم الله؛ فإنه إن ولد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات"، وهذا لا أصل له، ولا رأيت في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

{الله} عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ، لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وقال تعالى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]. وهو اسم لم يُسم به غيره تبارك وتعالى.

{الرحمن الرحيم} اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يُفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك. وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن؛ وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه. وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرّجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته". قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق. قال: وإنكار العرب لإسم الرحمن لجهلهم بالله وما وجب له، قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم؛ قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: "إن الله رقيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف". وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يُسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من

حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يسأل الله يغضب عليه"، وقال بعض الشعراء:

لا تطلبن بني آدم حاجة... وسل الذي أبوابه لا تُغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله... وبني آدم حين يُسأل يغضب

قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعت العززمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٥٩]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] **فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته،** وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣] **فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.**

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}. ولما تجهم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكّد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت ولا يلزم فيه ما ذكره. **وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي مُنع من التسمية به لغيره،** كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]. **وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره** حيث قال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢]. **والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره،** كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك. فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن، لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص. فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة، فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه **لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى.** والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]. ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "اكتب

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، رواه البخاري. وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: ٦٠]. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهَّال: أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفِتَاةُ هَجِينَهَا... أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رِيَّ يَمِينَهَا. وقال سلامة بن جندب الطهوي :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَيْنَا عَلَيْكُمْ... وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ

قال أبو جعفر بن جرير: معنى {الحمد لله} الشكر لله خالصًا دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجيال المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغداهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً. وقال ابن جرير: {الحمد لله} ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا: {الحمد لله}. قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السُّكُونِي، حدثنا بقر بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك". وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطي أفضل مما أخذ". وقال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن الدنيا بخذا فيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك". قال القرطبي وغيره: أي **لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا**، لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم: "أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا يا رب، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده-: ماذا قال عبدي؟ قالوا يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلتقاني فأجزيه بها".

ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم. والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات والأرض في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً. واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو

عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم. وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى {رب العالمين}، قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته (!!!). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح.

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وتخصيص المثلث بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: {يَوْمَ يَفُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: {وَوَخَّشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٨]، وقال: {يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيٌُّّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥]. والمثلث في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ}. وفي القرآن العظيم: {لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. والدين الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}، وقال: {أئنا لمدينون} أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"، أي حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تحفى عليه أعمالكم: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}".

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أي: مذلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقُدِّم المفعول وهو {إِيَّاكَ} وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هود: ١٢٣]، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: ٢٩]، {رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [الزمر: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} . وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة، لأنه لما أتى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی، وإرشاد لعباده بأن يشوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك. وقال قتادة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أمركم. وإنما قدم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

{**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا {**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} فتضمن معنى أهدنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ {**وهديناه النجدين**} [البلد: ١٠] أي: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: {**اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [النحل: ١٢١] {**فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**} [الصفافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: {**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [الشورى: ٥٢]، وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: {**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**} [الأعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا. وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: **أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن "الصراط المستقيم" هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه**، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب. قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه. **ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول، فروي أنه كتاب الله**، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثني يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصراط المستقيم كتاب الله"**. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: {**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**} قال: **هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره**. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل السقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي- أعني: {**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**}- أن يكون معنياً به: **وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك من الصراط المستقيم**. فإن قيل: كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تشييته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمهده بالمعونة والثبات والتوفيق، **فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ}**،

الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل، لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم. وقال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يقولوا: {رَبَّنَا لَا تُرْغُ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}. فمعنى قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، و{الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} [النساء: ٦٩، ٧٠]. وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، الآية [النساء: ٦٩]. وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، قال: هم النبيون. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه. والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم وأشمل، والله أعلم. وقوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} والمعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعملوا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن تم مسلكن فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} أي: غير صراط المغضوب عليهم. اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، ثم قال تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} ومنهم من زعم أن (لا) في قوله: {ولا الضالين} زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ"، وهذا إسناد صحيح، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي، لئلا يُتوهم أنه معطوف على {الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، وللفرق بين الطريقتين، لُتحتب كل منهما. فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول

الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال فيهم: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ} [المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال: {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧] ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار.

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلياء، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: {عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} [الكهف: ١٧]، وقال: {مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف: ١٨٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدريّة ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغبي، وقد ورد في الحديث الصحيح: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم"، يعني في قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} [آل عمران: ٧] ، فليس - بحمد الله - مبتدع في القرآن حجة صحيحة، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف، لأنه من عند الله ، تنزيل من حكيم حميد.

فصل: يُستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين [مثل: يس]، ويقال: آمين. بالقصر أيضاً [مثل: يمين]، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: {عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فقال: "آمين"، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي : هذا حديث حسن. وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم، وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا {عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قال: "آمين" حتى يسمع من يليه من الصف الأول، رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن. وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود. قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو

خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفردًا أو إمامًا أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غُفر له ما تقدم من ذنبه"؛ ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غُفر له ما تقدم من ذنبه". قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: "إذا قال، يعني الإمام: {ولا الضالين}، فقولوا: آمين، يجبكم الله". وقال جُوَيْر، عن الضحاک، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: "رب افعل"، وقال الترمذي: معناه: لا تحيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي. وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَيِّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وإذا قال، يعني الإمام: {ولا الضالين}، فقولوا: آمين". الحديث. واستأنسوا- أيضاً- بحديث أبي موسى: "وإذا قرأ: {ولا الضالين}، فقولوا: آمين".

ويقول الإمام القرطبي:

القول في الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: ٩٨] أي إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضي موقع المستقبل، أراد ما يكون في غد؛ وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: ٨]، المعنى: فتدلى ثم دنا؛ ومثله: {افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١] وهو كثير.

الثانية: هذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة، واختلفوا فيه في الصلاة. حكى النقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون في الصلاة كل ركعة، ويمثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها قراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ويراه في قيام رمضان.

الثالثة: أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء في التعوذ لأنه لفظ كتاب الله تعالى. وروي عن ابن مسعود أنه قال: قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا ابن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم".

.....

السابعة: روي عن أبي هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود. قال أبو بكر بن العربي: "انتهى العي يقوم إلى أن قالوا: إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيد بالله من الشيطان الرجيم". وقد روى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة، وهذا نص. فإن قيل فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها امتثال الأمر، وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها في امثالها أمراً أو اجتنابها نهياً؛ وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْأَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [الحج: ٥٢]. قال ابن العربي: "ومن أغرب ما وجدناه قول مالك في المجموعة في تفسير هذه الآية: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: ٩٨] قال: ذلك بعد قراءة القرآن لمن قرأ في الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس أن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن في الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسر هذه الرواية.

الثامنة: في فضل التعوذ: روى مسلم عن سليمان بن سرد قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هل تدري ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفاً؟ قال: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقال له الرجل: أجنوناً تراني! أخرجته البخاري أيضاً. وروت خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل". أخرج الموطأ ومسلم والترمذي وقال: حديث حسن غريب صحيح.

التاسعة: معنى الاستعاذة في كلام العرب: الاستحارة والتحيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه؛ يقال: عدت بفلان واستعدت به؛ أي لجأت إليه. وهو عيادي، أي ملجأ.

.....

الحادية عشرة: الرجيم أي المبعد من الخير المهان. وأصل الرجم: الرمي بالحجارة، وقد رجمته أرحمه، فهو رجيم ومرحوم. والرجم: القتل واللعن والطرده والشتيم، وقد قيل هذا كله في قوله تعالى: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} [الشعراء: ١١٦]، وقول أبي إبراهيم: {لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ} [مريم: ٤٦].

القول في البسملة

وفيهما سبعة وعشرون مسألة:

الأولي: قال العلماء: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق، وإني أفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبري. و{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} مما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصاً بعد سليمان عليه السلام. وقال بعض العلماء: إن {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح.

الثانية: قال بن أبي سكينه: بلغني أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظر إلي رجل يكتب {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فقال له: جودها فإن رجلاً جودها فغفر له. وقال علي بن الحسين في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ وَلَوْ أَنِّي عَلَّمْتُ لَأُذَبَّرَهُمْ نُفُورًا} [الإسراء: ٤٦] قال معناه: إذا قلت {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

الثالثة: روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب {بِسْمِ اللَّهِ} فكتبها، فلما نزلت: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} [الإسراء: ١١٠] كتب {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، فلما نزلت: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: ٣٠] كتبها. وفي مصنف أبي داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حتى نزلت سورة "النمل".

الرابعة: روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال: البسملة تيجان السور. قلت: وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها. وقد اختلف العلماء في هذا المعنى على ثلاثة أقوال:

الأول- ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك. الثاني- أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك. الثالث- قال الشافعي: هي آية في الفاتحة، وتردد قوله في سائر السور، فمرة قال: هي آية من كل سورة، ومرة قال: ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها. ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل. واحتج الشافعي بما رواه الدارقطني من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد

بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقروا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّمَا أَمُّ الْقُرْآنِ وَأَمُّ الْكِتَابِ وَالسَّعِ الْمَثَانِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَحَدَ آيَاتِهَا". رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين، وأبو حاتم يقول فيه: محله الصدق، وكان سفيان الثوري يضعفه ويحمل عليه. ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور. وحجة ابن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أبي أنس قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "نزلت علي آتفا سورة"، فقرأ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُؤُتْرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: الآية].

الخامسة: الصحيح من هذه الأقوال قول مالك، لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه. قال ابن العربي: "ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه". والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا في النمل وحدها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل قُسمت الصلاة بيني وبين عبدني نصفين ولعبدني ما سأل، فإذا قال العبد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال الله تعالى حمدي عبدني، وإذا قال العبد {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قال الله تعالى أثنى علي عبدني، وإذا قال العبد {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} قال مجدي عبدني - وقال مرة فوض إلي عبدني - فإذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قال هذا بيني وبين عبدني ولعبدني ما سأل، فإذا قال {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قال هذا لعبدني ولعبدني ما سأل". فقله سبحانه: "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها، فجعل الثلاث الآيات الأولى لنفسه، واختص بها تبارك اسمه، ولم يختلف المسلمون فيها. ثم الآية الرابعة جعلها بينه وبين عبده، لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منه، وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى، ثم ثلاث آيات تنمة سبع آيات. ومما يدل على أنها ثلاث قوله: "هؤلاء لعبدني" أخرجه مالك، ولم يقل: هاتان، فهذا يدل على أن {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية. قال ابن بكير: قال مالك: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية، ثم الآية السابعة إلى آخرها. فثبت بهذه القسمة التي قسمها الله تعالى، ويقول عليه السلام لأبي: "كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة" قال: فقرأت {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} حتى أتيت على آخرها، أن البسملة ليست بآية منها، وكذا عد أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة، وأكثر القراء عدوا {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية. وأما أهل الكوفة من القراء والفقهاء فإنهم عدوا فيها {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ولم يعدوا {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}. فإن قيل: فإنها ثبتت في المصحف وهي مكتوبة بخطه ونقلته، كما نقلت في النمل، وذلك متواتر عنهم؛ قلنا: ما ذكرتموه صحيح، ولكن لكونها قرآناً أو لكونها فاصلة بين السور، كما روي عن الصحابة: كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، أخرجه أبو داود؛ أو تبركا بها كما قد اتفقت الأمة على كتبها في أوائل الكتب والرسائل؟ كل ذلك محتمل. والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعي الاضطراري. ثم قد اضطرب قول الشافعي فيها في أول كل سورة فدل

على أنها ليست بأية من كل سورة؛ والحمد لله. فإن قيل: فقد روى جماعة قرآنياتها، وقد تولى الدارقطني جمع ذلك في جزء صححه. قلنا لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها، ولنا أخبار ثابتة في مقابقتها، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات. روت عائشة في صحيح مسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث. وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} لا في أول قراءة ولا في آخرها. ثم إن مذهبنا يترجح في ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور، ومرت عليه الأزمنة والدهور، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اتباعا للسنة؛ وهذا يرد أحاديثكم. بيد أن أصحابنا استحَبوا قراءتها في النفل وعليه تحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السعة في ذلك. قال مالك: ولا بأس أن يُقرأ بها في النافلة ومن يعرض القرآن عرضاً. وجملة مذهب مالك وأصحابه أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلي في المكتوبة ولا في غيرها سراً ولا جهراً، ويجوز أن يقرأها في النوافل. هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. وعنه رواية أخرى أنها تُقرأ أول السورة في النوافل، ولا تُقرأ أول أم القرآن. وروى عنه ابن نافع ابتداء القراءة بها في الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال. ومن أهل المدينة من يقول: إنه لا بد فيها من {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} منهم ابن عمر، وابن شهاب؛ وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد. وهذا يدل على أن المسألة مسألة اجتهادية لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذي يلزم على قوله تكفير المسلمين، وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور، والحمد لله. وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بما مع الفاتحة، منهم: أبو حنيفة والثوري؛ وروى ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وعمار وابن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ وبه قال أحمد بن حنبل وأبو عبيد؛ وروى عن الأوزاعي مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البر في "الاستذكار". واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. وما رواه عمار بن رزيق عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر، فلم أسمع أحداً منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم. قلت: هذا قول حسن، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف في قراءة البسمة.

السادسة: اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد عن الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

السابعة: قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله: مبسمل، وهي لغة مولدة، وقد جاءت في الشعر؛ قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السكيت والمطرز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله. يقال: قد أكثرت من البسملة، أي من قول بسم الله. ومثله حوقل الرجل، إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهلل، إذا قال: لا إله إلا الله. وسبحل، إذا قال: سبحان الله. وحمدل، إذا قال: الحمد لله. وحصيل، إذا قال: حي على الصلاة. وجعفل، إذا قال: جعلت فداك. وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك. ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك. وحيفل، إذا قال: حي على الفلاح. ولم يذكر المطرز: الحivelse، إذا قال: حي على الصلاة.

الثامنة: ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر؛ والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} [الأنعام: ١١٨]، {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّهَا} [هود: ٤١]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخمر إنياءك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله". وقال لعمر بن أبي سلمة: "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك". وقال: "إن الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه"، وقال: "من لم يذبح فليذبح باسم الله".

التاسعة: قال علماءنا وفيها رد على القدرية وغيرهم ممن يقول إن أفعالهم مقدورة لهم. وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا. فمعنى {بِسْمِ اللَّهِ} أي بالله. ومعنى "بالله" أي بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه. وقال بعضهم: معنى قوله {بِسْمِ اللَّهِ} يعني بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز.

.....

الثالثة عشرة: {بِسْمِ اللَّهِ}، تكتب بغير ألف استغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال؛ بخلاف قوله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق: ١] فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال. واختلفوا فيحذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائي وسعيد الأخفش: تحذف الألف. وقال يحيى بن وثاب: لا تحذف إلا مع {بِسْمِ اللَّهِ} فقط، لأن الاستعمال إنما أكثر فيه.

.....

الموفية عشرين: قوله: {الله} هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يشن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلي قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مریم: ٦٥] أي تسمى

باسمه الذي هو "الله". فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه. وقيل: معناه الذي يستحق أن يُعبد. وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد.

.....

الثانية والعشرون: واختلفوا أيضاً في اشتقاق اسمه الرحمن، فقال بعضهم: لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، وأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال: الله رحمن بعباده، كما يقال: رحيم بعباده. وأيضاً لو كان مشتقاً من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم، وقد قال الله عز وجل: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٦٠] الآية. ولما كتب علي رضي الله عنه في صلح الحديبية بأمر النبي صلى الله عليه وسلم: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قال سهيل بن عمرو: أما {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فما ندري ما {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم، الحديث. وذهب الجمهور من الناس إلى أن "الرحمن" مشتق من الرحمة مبني على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثنى ولا يجمع كما يثنى "الرحيم" ويجمع. قال ابن الحصار: ومما يدل على الاشتقاق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته"، وهذا نص من الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشتقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له.

.....

الخامسة والعشرون: أكثر العلماء على أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به غيره، ألا تراه قال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} [الإسراء: ١١٠] فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره. وقال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥] فأخبر أن "الرحمن" هو المستحق للعبادة جل وعز.

السادسة العشرون: "الرحيم" صفة مطلقة للمخلوقين، ولما في "الرحمن" من العموم قُدم في كلامنا على "الرحيم" مع موافقة التنزيل والله أعلم.

سورة الفاتحة وفيه أربع أبواب

الباب الأول في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل:

الأولى: روى الترمذي عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبيد ولعبيد ما سأل".

الثانية: اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض لأن الكل كلام الله وكذلك أسمائه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري والقاضي أبو بكر بن الطيب وأبو حاتم محمد بن حبان البستي وجماعة من الفقهاء، وروي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: {تَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة: ١٠٦] قال: محكمة مكان منسوخة. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول والذاتية في الكل واحدة وهي كلام الله وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البستي: ومعنى هذه اللفظة "ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل ما يعطي لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله هذه الأمة على غيرها من الأمم وأعطاهما من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة. قال ومعنى قوله: "أعظم سورة" أراد به في الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض." وقال قوم بالتفضيل وأن ما تضمنه قوله تعالى {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٦٣] وآية الكرسي وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا في {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} [المسد: ١] وما كان مثلها. والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها لا من حيث الصفة وهذا هو الحق. وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل: إن جميع القرآن فيها. وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده ولا تصح القرية إلا بها ولا يلحق عمل بثوابها؛ وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم؛ كما صارت {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تعدل ثلث القرآن إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فيها التوحيد كله. وبهذا المعنى وقع البيان في قول عليه السلام لأبي. "أي آية في القرآن أعظم؟" قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]؛ وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها؛ كما صار قوله: "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يُستبعد ذلك في قدرة الله تعالى.

.....

الرابعة: في أسمائها، وهي اثنا عشر اسما: "الأول": الصلاة، قال الله تعالى: "قسمت الصلاة بيني وبين عبيد نصفين" الحديث، وقد تقدم. "الثاني": سورة الحمد، لأن فيها ذكر الحمد، كما يقال: سورة الأعراف والأنفال والتوبة ونحوها.

"الثالث": فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظاً وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطأ وتفتتح بها الصلوات. "الرابع": أم الكتاب، وفي هذا الاسم خلاف جوزه الجمهور وكرهه أنس والحسن وابن سيرين. قال الحسن: أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى: {**آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**} [آل عمران: ٧]. وقال أنس وابن سيرين: أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ، قال الله تعالى: {**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ**} [الزخرف: ٤]. "الخامس": أم القرآن، واختلف فيه أيضاً فجوزه الجمهور وكرهه أنس وابن سيرين والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين. روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني**" قال: هذا حديث حسن صحيح. وقيل: سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه، "السادس": المثاني، سميت بذلك لأنها تتلى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها استثنت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها. "السابع": القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن وذلك أنها **تشتمل على الشاء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة تعالى وعلى الابتغال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم وكفاية أحوال الناكثين وعلى بيانه عاقبة الجاحدين....** "الحادي عشر": الوافية، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تتنصف ولا تحتل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز. "الثاني عشر": الكافية، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها. يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الإسكندراني قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضاً**".

.....

السادسة: ليس في تسميتها بالمثاني وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل: {**كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي**} [الزمر: ٢٣] فأطلق على كتابه مثاني لأن الأخبار تتلى فيه. وقد سُميت السبع الطول أيضاً مثاني لأن الفرائض والقصاص تتلى فيها.

السابعة: المثاني جمع مثنى وهي التي جاءت بعد الأولى والطول جمع أطول. وقد سميت الأنفال من المثاني لأنها تتلو الطول في القدر. وقيل: هي التي تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المعين. والمعون: هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية.

.....

الباب الثالث في التأمين، وفيه ثمان مسائل:

الأولى: ويسن لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون { وَلَا الضَّالِّينَ } : أمين ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن.

الثانية: ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث: الأولى: تأمين الإمام، الثانية: تأمين من خلفه، الثالثة: تأمين الملائكة، الرابعة: موافقة التأمين، قيل في الإجابة وقيل في الزمن وقيل في الصفة من إخلاص الدعاء لقوله عليه السلام: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" .

الثالثة: روى أبو داود عن أبي مصبِّح المقراني قال: كنا نجلس إلى أبي زهير النميري وكان من الصحابة، فيحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بأمين، فإن أمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألح في المسألة فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوجب إن ختم"، فقال له رجل من القوم: بأي شيء يختم؟ قال: "بأمين فإن ختم بأمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذي سأل النبي فأتى الرجل فقال له: اختم يا فلان وأبشر.

الرابعة: معنى أمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى أمين؟ قال: "رب افعل". وقال مقاتل: هو قوة للدعاء واستنزال للبركة. وقال الترمذي: معناه لا تخيب رجاءنا.

.....

السادسة: اختلف العلماء هل يقوله الإمام وهل يجهر بها، فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيين إلى ذلك. وقال الكوفيون وبعض المدنيين: لا يجهر بها. وهو قول الطبري وبه قال ابن حبيب من علمائنا. وقال ابن بكير: هو مخير. وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول أمين وإنما يقول ذلك من خلفه، وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك. وحجتهم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلما صلواتنا فقال: "إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله"، وذكر الحديث، أخرجه مسلم. قال الترمذي: وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين ولا يخفيها، وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق. وفي الموطأ والصحيحين قال ابن شهاب: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

"آمين". وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال: ترك الناس آمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال: {غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قال: "آمين" حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد.

السابعة: قال أصحاب أبي حنيفة: الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء وقد قال الله تعالى: {اذْعُوا رَبِّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥]. قالوا: والدليل عليه ما روي في تأويل قوله تعالى: {قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا} [يونس: ٨٩]. الجواب: أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء. وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره، وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها، فإذا كان الدعاء مما يسن الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين.

....

الباب الرابع فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين:

وفيه ست وثلاثون مسألة:

الأولى: قوله سبحانه وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ". وفي "نوادير الأصول" عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذاقها بيد رجل من أممي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أعطي الدنيا ثم أعطي على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هي من الباقيات الصالحات، قال الله تعالى: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [مریم: ٧٦]. كذلك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من العبد والدنيا من الله، وكلاهما من الله في الأصل، الدنيا منه والكلمة منه، أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة. وروي عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الظهور شرط الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض"، وذكر الحديث.

الثانية: اختلف العلماء أيما أفضل قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله؟ فقالت طائفة: قوله الحمد لله رب العالمين أفضل لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إله إلا الله أفضل لأنها تدفع الكفر والإشراك وعليها يقاوم الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله". واختار هذا القول ابن عطية قال: والحاكم بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

الثالثة: أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدل على أن الإيمان فعله وخلقه، والدليل على ذلك قوله: "رب العالمين". والعالمون جملة المخلوقات ومن جملتها الإيمان.

الرابعة: الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة. فالحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد. والحمد أعم من الشكر؛ والحمد: الذي كثرت خصال المحمودة. والمحمدة: خلاف المذمة. وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد. وأحمدته: وجدته محمودا، تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه.

الخامسة: ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء وليس بمرضي. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه لأن قولك شكرا إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالحوارج والقلب والحمد إنما يكون باللسان خاصة. وقيل: الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وقال الله لنوح عليه السلام: {فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّأْنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون: ٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [إبراهيم: ٣]. وقال في قصة داود وسليمان: {وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل: ١٥]. وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} [الإسراء: ١١١]. وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} [فاطر: ٣٤]، {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]؛ فهي كلمة كل شاكر. قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وعلى هذا الحد قال علماءنا: الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على

الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر. ويُذكر الحمد بمعنى الرضا، يقال: بلوته فحمدته، أي رضيته. ومنه قوله تعالى: {مَقَامًا مَّحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩].

السادسة: أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره، بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام فقال: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]. فمعنى "الحمد لله رب العالمين" أي سبق الحمد مني لنفسي أن يحمد نفسه أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلته، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه في الأزل فاستفراغ طوق عباده هو محمل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك". وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم على القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهناً لديهم، حيث أسقط به ثقل المنة.

السابعة: وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من "الحمد لله". وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج: "الحمد لله" بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: "الحمد لله" بالرفع مبتدأ وخبر وسبيل الخبر أن يفيد فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدا، إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وفي الحديث: "من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: "الحمد لله" ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك.

الثامنة: قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو ربه، فالرب: المالك. وفي الصحاح: والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، والرب: السيد، ومن قوله تعالى: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢].

....

العاشرة: متى أدخلت الألف واللام على "رب" اختص الله تعالى به، لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال: الله رب العباد وزيد رب الدار فالله سبحانه رب الأرباب يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق. قوله تعالى: {الْعَالَمِينَ}، اختلف أهل التأويل في "العالمين" اختلافا

كثيراً، فقال قتادة: العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم. وقيل: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥] أي من الناس. وقال ابن عباس: العالمون الجن والإنس، دليله قوله تعالى: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] ولم يكن نذيراً للبهائم. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين. ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. قلت: والقول الأول أصح هذه الأقوال، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء: ٢٣] ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده. كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة.

.....

الثالثة عشرة: قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} وصف نفسه تعالى بعد {رَبِّ الْعَالَمِينَ} بأنه {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} لأنه لما كان في اتصافه بـ"رب العالمين" ترهيب قرنه بـ"الرحمن الرحيم" لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال: {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩ ، ٥٠]. وقال: {عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ} [غافر: ٣]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" .

....

الخامسة عشرة: قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} اختلف العلماء أيما أبلغ: ملك أو مالك؟ والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر. ذكرهما الترمذي فقليل: "ملك" أعم وأبلغ من "مالك"، إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا، ولأن الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك قال أبو عبيدة والمبرد. وقيل: "مالك" أبلغ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التملك.

السادسة عشرة: لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض"

السابعة عشرة: فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهوما، قال الله العظيم: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} [البقرة: ٢٤٧].

....

الموفية العشرين: اليوم: عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما. وقد يطلق اليوم على الساعة منه، قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣] وجمع يوم أيام وأصله أيام فأدغم.

الحادية والعشرون: الدين: الجزء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريح وقتادة وغيرهم، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويدل عليه قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُؤْفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} [النور: ٢٥] أي حسابهم. وقال: {الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [غافر: ١٧] و {الْيَوْمَ نُجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الحاثية: ٢٨] وقال: {إِنَّا لَمَدِينُونَ} [الصفات: ٥٣] أي مجزيون محاسبون. وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دينا "بفتح الدال" ودينا "بكسرها" جزيته ، ومنه الديان في صفة الرب تعالى أي المجازي ، وفي الحديث : "الكيس من دان نفسه" أي حاسب.

.....

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلويح، لأن من أول السورة إلى ههنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه كقوله {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١]، ثم قال: {إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جِزَاءً}. و {نَعْبُدُ} معناه نطيع والعبادة الطاعة والتذلل، وطريق معبد إذا كان مذللا للسالكين. ونُطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك. {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أي نطلب العون والتأييد والتوفيق.

.....

السابعة والعشرون: قوله تعالى: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك. قال بعض العلماء: فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا في هذه السورة، نصفها فيه بجمع الثناء ونصفها فيه بجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به الداعي لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين فأنت

تدعو بدعاء هو كلامه الذي تكلم به، وفي الحديث: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء". قال محمد بن الحنفية في قوله عز وجل {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره.

....

التاسعة والعشرون: قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} صراط بدل من الأول بدل الشيء من الشيء، كقولك: جاءني زيد أبوك. ومعناه: آدم هدايتنا، فإن الإنسان قد يهدى إلى الطريق ثم يقطع به. وقيل: هو صراط آخر، ومعناه العلم بالله جل وعز والفهم عنه، قاله جعفر بن محمد.

الموفية الثلاثين: قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضي الله عنهما "صراط من أنعمت عليهم". واختلف الناس في المنعم عليهم، فقال الجمهور من المفسرين: إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩]. فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأفعال والله المستعان.

الحادية والثلاثون: في هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعال منه طاعة كانت أو معصية، لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سأله الهداية إلى الصراط المستقيم فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربه لما سأله الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة، وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: الآية]. فكما سأله أن يهديهم سأله ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون: {رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: ٨] الآية.

الثانية والثلاثون: قوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} اختلف في "المغضوب عليهم" و"الضالين" من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه في اليهود: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: ٦١ وآل عمران: ١١٢]، وقال: {وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٦]؛ وقال في النصارى: {قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]، وقيل: "المغضوب عليهم" المشركون، و"الضالين" المنافقون.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)}

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) { يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع، سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة على الحد الأدنى، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً غير الفرائض والسنن. ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عبادة بن الصامت: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها. تبدأ السورة: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، ومع الخلاف حول البسملة، فهي آية من كل سورة أم هي آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة، وبها تحتسب آياتها سبعة. وهناك قول بأن المقصود بقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات «مَنْ الْمَثَانِي» لأنها يثنى بها وتكرر في الصلاة.

والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...}، وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}، فهو سبحانه الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بده، فباسمه إذن يكون كل ابتداء، وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه. ووصفه سبحانه في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها، وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن. فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمن، ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان. ومهما يُختلف في معنى الصفتين، أيتها تدل على مدى أوسع من الرحمة، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه في هذه الظلال إنما نخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها. وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوي عليه من توحيد الله وأدب معه يمثل الكلية الأولى في التصور الإسلامي، فإن استغراق معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها في صفتي {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يمثل الكلية الثانية في هذا التصور، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد. وعقب البدء باسم الله الرحمن الرحيم يجيء التوجه إلى الله بالحمد ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والشناء. وفي كل لحظة، وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتوأكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلها، وبخاصة هذا الإنسان. ومن ثم كان الحمد لله ابتداء، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي

المباشر: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ...}. ومع هذا يبلغ من فضل الله سبحانه وفيضه على عبده المؤمن، أنه إذا قال: الحمد لله، كتبها له حسنة ترجح كل الموازين. والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله، أما شطر الآية الأخير: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية. والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية. والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين، أي جميع الخلائق، والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملاً، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربیه. وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين. والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة. والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغيب الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها الفاطعة. وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة. ولقد يبدو هذا غريباً مضحكاً، ولكنه كان وما يزال. ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، كما قال عن جماعة من أهل الكتاب: {اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَزُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}. وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة، بوصفها أرباباً صغاراً تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون! فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب، ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة، وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبداً ولا تفتقر ولا تغيب. لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة، والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون، ولا يستقر منها على يقين. وكان التيه الذي لا قرار فيه ولا يقين ولا نور، هو ذلك الذي يحيط بتصوير البشرية لإلهها، وصفاته وعلاقته بخلائقه، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص. ولم يكن مستطاعاً أن يستقر الضمير البشري على قرار في أمر هذا الكون، وفي أمر نفسه وفي منهج حياته، قبل أن يستقر على قرار في أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته، وقبل أن ينتهي إلى يقين واضح مستقيم في وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل. ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام، وحتى يروى هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري. ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين. ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل، الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد، هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام، وظل يجلوها في الضمير، ويتبع فيه كل هاجسة وكل

شائبة حول حقيقة التوحيد، حتى يخلصها من كل غبش، ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور.

كذلك قال الإسلام كلمة الفصل يمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة. فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تحبط فيه الفلسفات والعقائد كما تحبط فيه الأوهام والأساطير مما يتعلق بهذا الأمر الخطير، العظيم الأثر في الضمير الإنساني، وفي السلوك البشري سواء. وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها، كل هذا لا ينجلي للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات، وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم. عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة، رحمة حقيقية للقلب والعقل، رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجارب مع الفطرة مباشر عميق.

{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، هذه الصفة التي تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة، في آية مستقلة، لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه، وبين الخالق ومخلوقاته، إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء، إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية.

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير في الحياة البشرية كلها، كلية الاعتقاد بالآخرة. والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة، ويوم الدين هو يوم الجزاء في الآخرة. وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية الله وخلقه للكون أول مرة ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء، والقرآن يقول عن بعض هؤلاء: {وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، ثم يحكي عنهم في موضع آخر: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب. إذا متنا وكنا ترابا؟ ذلك رجع بعيد}! والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض، وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات، ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين. ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان؛ بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية؛ مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا التي أرادها الله الرب لعباده، والصور المشوهة المنحرفة التي لم يقدر لها الكمال. وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد

لها، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمدا على العوض الذي يلقيه فيها. وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من الخلق، وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء. وهذا هو مفرق الطريق.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة، فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله. وهنا كذلك مفرق طريق، مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص الضمير البشري من استدلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استدلال الأساطير والأوهام والخرافات. وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية، ومن القوى الطبيعية. فأما القوى الإنسانية - بالقياس إلى المسلم - فهي نوعان: قوة مهتدية تؤمن بالله، وتتبع منهج الله، وهذه يجب أن يؤازرها، ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح؛ وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه، وهذه يجب أن يحارها ويكافحها ويغير عليها. ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية. فهي بضالها عن مصدرها الأول - قوة الله - تفقد قوتها الحقيقية، تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها؛ وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب، فما يلبث أن ينطفئ ويبرد ويفقد ناره ونوره، مهما كانت كتلته من الضخامة، على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}، غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول، وباستمرارها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعا. وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصدقة، لا موقف التخوف والعداء. ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيتته، محكومتان بإرادة الله ومشيتته، متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه. إن عقيدة المسلم توحى إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقا مساعدا متعاوننا وأن سبيله إلى كسب هذه الصدقة أن يتأمل فيها، ويتعرف إليها، ويتعاون وإياها، ويتجه معها إلى الله ربه وربها. وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها، ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها. ولقد درج الغربيون - ورثة الجاهلية الرومانية - على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم: «قهر الطبيعة». ولهذا التعبير دلالة الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله، وبروح الكون المستحيب لله. فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسيحة لله رب العالمين، فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة. إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعا، خلقها كلها وفق ناموس واحد، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس، وأنه سخرها للإنسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها، وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيا له أن يظفر بمعونة من إحداهما. فالله هو الذي يسخرها له، وليس هو الذي يقهرها: {سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}. وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ولن تقوم بينه وبينها المخاوف. إنه يؤمن بالله

وحده، ويعبد الله وحده، ويستعين بالله وحده؛ وهذه القوى من خلق ربه، وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها، فتبذل له معونتها، وتكشف له عن أسرارها، فيعيش معها في كون مأنوس صديق ودود. وما أروع قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إلى جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه». ففي هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم من ود وألفة وتجاوب بينه وبين الطبيعة في أضخم وأخشن مجالها.

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي وتقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة، يبدأ في التطبيق العملي لها بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.
}

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته. فالمعرفة والاستقامة كلتاها ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته. والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين، وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين. ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}، فهو طريق الذين قسم لهم نعمته، لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفة الحق ثم حيدتهم عنه، أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه.. إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين.

وبعد فهذه هي السورة المختارة للتكرار في كل صلاة، والتي لا تصح بدونها صلاة. وفيها على قصرها تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور.

ويقول الإمام ابن تيمية عن مسألة "البسمة" في فتاويه الكبرى:

مسألة ٦٢: في حديث نعيم المعمر قال: كنت وراء أبي هريرة فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم} ثم قرأ بأم الكتاب حتى بلغ {ولا الضالين} [الفاتحة: ٧] قال: آمين، وقال الناس: آمين، ويقول كلما سجد: الله أكبر. فلما سلم قال: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان المعتمر بن سليمان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها ويقول: ما آلو أن أقتدي بصلاة أبي، وقال أبي: ما آلو أن أقتدي بصلاة أنس، وقال أنس: ما آلو أن أقتدي بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم. فهذا حديث ثابت في الجهر بها. وذكر الحاكم أبو عبد الله: أن رواية هذا الحديث عن آخرهم ثقات فهل

يحمل ما قاله أنس وهو: صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يذكر {بسم الله الرحمن الرحيم} على عدم السماع وما التحقيق في هذه المسألة والصواب؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين. أما حديث أنس في نفي الجهر فهو صريح لا يحتمل هذا التأويل فإنه قد رواه مسلم في "صحيحه" فقال فيه: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون {بسم الله الرحمن الرحيم} في أول قراءة ولا في آخرها. وهذا النفي لا يجوز إلا مع العلم بذلك، لا يجوز بمجرد كونه لم يُسمع مع إمكان الجهر بلا سماع. واللفظ الآخر الذي في "صحيح مسلم": صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يجهر، أو قال: يصلي بسم الله الرحمن الرحيم. فهذا نفي فيه السماع ولو لم يُؤز إلا هذا اللفظ لم يجز تأويله بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ جهراً ولا يسمع أنس لوجوه، أحدها أن أنساً إنما روى هذا ليبين لهم ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله إذ لا غرض للناس في معرفة كون أنس سمع أو لم يسمع إلا ليستدلوا بعدم سماعه على عدم المسموع. فلو لو يكن ما ذكره دليلاً على نفي ذلك لم يكن أنس ليروي شيئاً لا فائدة لهم فيه، ولا كانوا يروون مثل هذا الذي لا يفيدهم. الثاني: أن مثل هذا اللفظ صار دالاً في العُرف على عدم ما لم يدرك. فإذا قال: ما سمعنا أو ما رأينا لما شأنه أن يسمعه ويراه كان مقصوده بذلك نفي وجوده، وذكر نفي الإدراك دليل على ذلك. ومعلوم أنه دليل فيما جرت العادة بإدراكه. وهذا يظهر بالوجه الثالث وهو: أن أنساً كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم من حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة إلى أن مات، وكان يدخل على نسائه قبل الحجاب ويصحبه حضراً وسفراً، وكان حين حج النبي صلى الله عليه وسلم تحت ناقته يسيل عليه لعابها، أفيمكن مع هذا القرب الخاص والصحبة الطويلة أن لا يسمع النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بما مع كونه يجهر بما؟ هذا مما يُعلم بالضرورة بطلانه في العادة. ثم إنه صحب أبا بكر وعمر وعثمان وتولى لأبي بكر وعمر ولايات ولا كان يمكن مع طول مدتهم أنهم كانوا يجهرون وهو لا يسمع ذلك. لكن مع هذا ليس في حديث أنس نفي لقراءتها سراً لأنه روى "فكانوا لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم"، وهذا إنما نفى هنا الجهر، وأما اللفظ الآخر لا يذكرون فهو إنما ينفي ما يمكنه العلم بانتفائه، وذلك موجود في الجهر، فإنه إذا لم يسمع مع القرب عُلم أنهم لم يجهروا. كما قال الدارقطني لما دخل مصر وسئل أن يجمع أحاديث الجهر بما فجمعها، فقليل له: هل فيها شيء صحيح فقال: أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا، وأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف. وسئل أبو بكر الخطيب عن مثل ذلك فذكر حديثين: حديث معاوية لما صلى بالمدينة وقد رواه الشافعي رضي الله عنه، قال حدثنا عبد المجيد عن ابن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم أن أبا بكر بن حفص بن عمر أخبره أن أنس بن مالك قال: صلى معاوية بالمدينة فجهر فيها بأمر القرآن فقرأ {بسم الله الرحمن الرحيم} [الفاحة: ١] لأمر القرآن ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها، ولم يُكبر حين يهوي حتى قضى تلك الصلاة، فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين من كل مكان: يا معاوية! أسرقت الصلاة أم نسيت؟

فلما صلى بعد ذلك قرأ {بسم الله الرحمن الرحيم} للسورة التي بعد أم القرآن وكبر حين يهوي ساجداً. فإذا كان أهل المعرفة بالحديث متفقين على أنه ليس في الجهر حديث صحيح ولا صريح فضلاً أن يكون فيها أخبار مستفيضة أو متواترة، امتنع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بها، كما يمتنع أن يكون كان يجهر بالاستفتاح والتعوذ ثم لا يُنقل. ومع هذا فنحن نعلم بالإضطرار أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان يجهر بالفاتحة، كذلك نعلم بالإضطرار أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجهر بالبسملة كما كان يجهر بالفاتحة، ولكن يمكن أنه كان يجهر بها أحياناً، أو أنه كان يجهر بها قديماً ثم ترك ذلك فهذا محتمل.

وأما الجهر العارض: فمثل ما في "الصحيح" أنه كان يجهر بالآية أحياناً، ومثل جهر بعض الصحابة خلفه بقوله: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ومثل جهر عمر بقوله: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ومثل جهر ابن عمر وأبي هريرة بالاستعاذة، ومثل جهر ابن عباس بالقراءة على الجنابة لِيَعْلَمُوا أنها سنة. ويمكن أن يقال: جهر من جهر بها من الصحابة كان على هذا الوجه ليعرفوا أن قراءتها سنة لا لأن الجهر بها سنة. ومن تدبر عامة الآثار الثابتة في هذا الباب علم أنها آية من كتاب الله وأهم قراءها لبيان ذلك لا لبيان كونها من الفاتحة وأن الجهر بها سنة، مثل ما ذكر ابن وهب في "جامعه" قال: أخبرني رجال من أهل العلم عن ابن أسلم وابن شهاب مثله بغير هذا الحديث عن ابن عمر أنه كان يفتتح القراءة بسم الله الرحمن الرحيم. قال ابن شهاب: يريد بذلك أنها آية من القرآن فإن الله أنزلها، قال وكان أهل الفقه يفعلون ذلك فيما مضى من الزمان.

وحديث ابن عمر معروف من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر أنه كان إذا صلى جهر بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا قال: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} [الفاتحة: ٧] قال: {بسم الله الرحمن الرحيم} [الفاتحة: ١]، فهذا الذي ذكره ابن شهاب الزهري وهو أعلم أهل زمانه بالسنة يبين حقيقة الحال. فإن العمدة في الآثار في قراءتها إنما هي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وقد عُرف حقيقة حال أبي هريرة في ذلك، وكذلك غيره رضي الله عنهم أجمعين، ولهذا كان العلماء بالحديث ممن يروي الجهر بها ليس معه حديث صريح لعلمه بأن تلك أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. من المعلوم أن مع طول الزمان وتعدد الإسناد لا تضبط الجزئيات في أفعال كثيرة متفرقة حق الضبط إلا بنقل مفصل لا مجمل، وإلا فمن المعلوم أن مثل منصور بن المعتمر وحماد بن أبي سليمان والأعمش وغيرهم أخذوا صلاتهم عن إبراهيم النخعي وذويه، وإبراهيم أخذها عن علقمة والأسود ونحوهما، وهم أخذوها عن ابن مسعود وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الإسناد أجل رجالاً من ذلك الإسناد؛ وهؤلاء أخذ الصلاة عنهم أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وأمثالهم من فقهاء الكوفة، فهل يجوز أن يجعل نفس صلاة هؤلاء هي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الإسناد حتى في موارد النزاع. ونظير هذه احتجاج بعضهم على الجهر بأن أهل مكة من أصحاب ابن جريج كانوا يجهرون وأنهم أخذوا صلاتهم عن ابن جريج وهو أخذها عن عطاء وعطاء عن ابن الزبير وابن الزبير عن أبي بكر الصديق وأبو بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا ريب أن الشافعي رضي الله عنه أول ما أخذ الفقه في هذه المسألة

وغيرها عن أصحاب ابن جريج كسعيد بن سالم القداح ومسلم بن خالد الزنجي، لكن مثل هذه الأسانيد المحملة لا يثبت بها أحكام مفصلة تنازع الناس فيها. ولئن جاز ذلك ليكون مالك أرجح من هؤلاء، فإنه لا يستريب عاقل أن الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين كانوا بالمدينة أجل قدراً وأعلم بالسنة وأتبع لها ممن كان بالكوفة ومكة والبصرة، وقد احتج أصحاب مالك على ترك الجهر بالعمل المستمر بالمدينة، فقالوا: هذا المحراب الذي كان يصلي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم الأئمة وهلم جرّاً، ونقلهم لصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نقل متواتر كلهم شهدوا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلاة خلفائه، وكانوا أشدّ محافظة على السنة وأشدّ إنكاراً على من خالفها من غيرهم، فيمتنع أن يغيروا صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومثل هذا أيضاً يظهر ضعف حديث معاوية الذي فيه أنه صلى بالصحابة بالمدينة فأنكروا عليه ترك قراءة البسملة في أول الفاتحة وأول السورة حتى عاد يعمل ذلك، فإن هذا الحديث وإن كان الدارقطني قال: إسناده ثقات، وقال الخطيب: هو أجد ما يُعتمد عليه في هذه المسألة، كما نقل ذلك عنه نصر المقدسي، فهذا الحديث يُعلم ضعفه من وجوه، أحدها أنه يُروى عن أنس أيضاً الرواية الصحيحة الصريحة المستفيضة الذي يرد هذا. الثاني: أن مدار ذلك الحديث على عبد الله بن عثمان بن خثيم وقد ضعفه طائفة وقد اضطربوا في روايته إسناده ومتناً كما تقدم وذلك يبين أنه غير محفوظ. الثالث: أنه ليس فيه إسناده متصل السماع بل فيه من الضعفة والاضطراب ما لا يؤمن معه الانقطاع أو سوء الحفظ. الرابع: أن أنساً كان مقيماً بالبصرة ومعاوية لما قدم المدينة لم يذكر أحد علمناه أن أنساً كان معه بل الظاهر أنه لم يكن معه... السادس: أن معاوية لو كان رجوع إلى الجهر في أول الفاتحة والسورة لكان هذا أيضاً معروفاً من أمره عند أهل الشام الذين صحبوه ولم ينقل هذا أحد عن معاوية بل الشاميون كلهم خلفاؤهم وعلماءهم كان مذهبهم ترك الجهر بها، بل الأوزاعي مذهبه فيها مذهب مالك لا يقرأها سراً ولا جهراً. فهذه الوجوه وأمثالها إذا تدبرها العالم قطع بأن حديث معاوية إما باطل لا حقيقة له، وإما مُغير عن وجهه وأن الذي حدّث به بلَغَه من وجه ليس بصحيح فحصلت الآفة من انقطاع إسناده. وقيل: هذا الحديث لو كان تقوم به الحجة لكان شاذاً لأنه خلاف ما رواه الناس الثقات الأثبات عن أنس وعن أهل المدينة وأهل الشام، ومن شرط الحديث الثابت أن لا يكون شاذاً ولا معللاً وهذا شاذ معلل، إن لم يكن من سوء حفظ بعض رواته. والعمدة التي اعتمدها المصنفون في الجهر بها ووجوب قراءتها إنما هو كتابتها في المصحف بقلم القرآن، وأن الصحابة جردوا القرآن عما ليس منه، والذين نازعوهم دفعوا هذه الحجة بلا حق كقولهم القرآن لا يثبت إلا بقاطع، ولو كان هذا قاطعاً لكُفِّر مخالفه. وقد نقل عن الشافعي أنها ليست من أوائل السور غير الفاتحة، وإنما يُستفتح بها في السور تبركاً بها، وأما كونها من الفاتحة فلم يثبت عنه فيه دليل. **والقول الوسط: إنها من القرآن حيث كُتبت، وأنها مع ذلك ليست من السور، بل كُتبت آية في أول كل سورة وكذلك تتلى آية منفردة في أول كل سورة كما تلاها النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزلت عليه سورة {إنا أعطيناك الكوثر} [الكوثر: ١]، كما ثبت ذلك في "صحيح مسلم".** وكما في قوله: "إن سورة من القرآن هي ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي سورة تبارك الذي بيده الملك"، رواه أهل

"السنن" وحسنه الترمذي. وهذا القول قول عبد الله بن المبارك وهو المنصوص الصريح عن أحمد بن حنبل، وذكر أبو بكر الرازي أن هذا مقتضى مذهب أبي حنيفة عنده، وهو قول سائر من حقق القول في هذه المسألة، وتوسط فيها جمع من مقتضى الأدلة وكتابتها سطرًا مفصلاً عن السورة. ويؤيد ذلك قول ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه {بسم الله الرحمن الرحيم}، رواه أبو داود. وهؤلاء لهم في الفاتحة قولان هما روايتان عن أحمد، أحدهما: إنها من الفاتحة دون غيرها تجب قراءتها حيث تجب قراءة الفاتحة. والثاني وهو الأصح: لا فرق بين الفاتحة وغيرها في ذلك، وأن قراءتها في أول الفاتحة كقراءتها في أول السور، والأحاديث الصحيحة توافق هذا القول لا تخالفه. وحينئذ الخلاف أيضاً في قراءتها في الصلاة ثلاثة أقوال، أحدها: إنها واجبة وجوب الفاتحة كمذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين وطائفة من أهل الحديث بناء على أنها من الفاتحة، والثاني: قول من يقول قراءتها مكروهة سرًا وجهراً كما هو المشهور من مذهب مالك، والقول الثالث: إن قراءتها جائزة بل مستحبة، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وأكثر أهل الحديث، وطائفة من هؤلاء يسوي بين قراءتها وترك قراءتها ويخبر بين الأمرين معتقدين أن هذا على إحدى القراءتين وذلك على القراءة الأخرى. ثم مع قراءتها هل يُسن الجهر أو لا يسن على ثلاثة أقوال: قيل: يسن الجهر بها، كقول الشافعي ومن وافقه؛ وقيل: لا يسن الجهر بها كما هو قول الجمهور من أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار؛ وقيل: يخبر بينهما، كما يروى عن إسحاق وهو قول ابن حزم وغيره. ومع هذا فالصواب أن ما لا يُجهر به قد يُشعر الجهر به لمصلحة راجحة، فيُشعر للإمام أحياناً لمثل تعليم المأمومين، ويُسَوِّغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحياناً، ويُسَوِّغ أيضاً أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب واجتماع الكلمة خوفاً من التنفير عما يصلح، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية وحشي تنفيرهم بذلك ورأى أن مصلحة الاجتماع والاتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم. وقال ابن مسعود لما أكمل الصلاة خلف عثمان وأنكر عليه التربع فقال له في ذلك فقال: الخلاف شر. ولهذا نص الأئمة كأحمد وغيره على ذلك في البسملة وفي وصل الوتر وغير ذلك مما فيه العدول عن الأفضل إلى الجائز المفضول مراعاة اتلاف المأمومين أو لتعريفهم السنة وأمثال ذلك. والله أعلم.

مسألة ١٧٩: في {بسم الله الرحمن الرحيم} [الفاتحة: ١] هل هي آية من أول كل سورة أفتونا ماجورين؟

الجواب: الحمد لله. اتفق المسلمون على أنها من القرآن في قوله: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} [النمل: ٣٠] وتنازعوا فيها في أوائل السور حيث كتبت على ثلاثة أقوال، أحدها: إنها ليست من القرآن وإنما كتبت تبركاً بها، وهذا مذهب مالك وطائفة من الحنفية، ويحكي هذا رواية عن أحمد ولا يصح عنه، وإن كان قولاً في مذهبه. والثاني: إنها من كل سورة، إما آية، وإما بعض آية، وهذا مذهب الشافعي رضي الله عنه. والثالث:

إنها من القرآن حيث كتبت آية من كتاب الله من أول كل سورة، وليست من السورة، وهذا مذهب ابن المبارك وأحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيرهما، وذكر الرازي أنه مقتضى مذهب أبي حنيفة عنده، وهذا أعدل الأقوال فإن كتابتها في المصحف بقلم القرآن تدل على أنها من القرآن، وكتابتها مفردة مفصولة عما قبلها وما بعدها تدل على أنها ليست من السورة. ويدل على ذلك ما رواه أهل "السنن" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي {تبارك الذي بيده الملك}" [الملك: ١]. وهذا لا ينافي ذلك فإن في "الصحيح" أن النبي صلى الله عليه وسلم أغفى إغفاءة فقال: "لقد نزلت علي أنفأ سورة"، وقرأ {إنا أعطيناك الكوثر} [الكوثر: ١] لأن ذلك لم يذكر فيه أنها من السورة، بل فيه أنها تقرأ في أول السورة، وهذا سنة فإنها تقرأ في أول كل سورة، وإن لم تكن من السورة. ومثله حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف فصل السورة حتى تنزل {بسم الله الرحمن الرحيم}، رواه أبو داود، ففيه أنها نزلت للفصل وليس فيه أنها آية منها، و{تبارك الذي بيده الملك} [الملك: ١] ثلاثون آية بدون البسمة، ولأن العاديين لآيات القرآن لم يعد أحد منهم البسمة من السورة. لكن هؤلاء تنازعوا في الفاتحة، هل هي آية منها دون غيرها على قولين، هما روايتان عن أحمد، أحدهما: إنها من الفاتحة دون غيرها، وهذا مذهب طائفة من أهل الحديث، أظنه قول أبي عبيد، واحتج هؤلاء بالآثار التي رويت في أن البسمة من الفاتحة، وعلى قول هؤلاء تجب قراءتها في الصلاة وهؤلاء يوجبون قراءتها وإن لم يجهروا بها. والثاني: إنها ليست من الفاتحة كما أنها ليست من غيرها، وهذا أظهر فإنه قد ثبت في "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها له، ولعبي ما سأل. يقول العبد: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢]، يقول الله: [حمدي عبدي]. يقول العبد: {الرحمن الرحيم} [الفاتحة: ٣]، يقول الله: أتني علي عبدي. يقول العبد: {مالك يوم الدين} [الفاتحة: ٤]، يقول الله: مجدي عبدي. يقول العبد: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥]، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل. يقول العبد: {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] إلى آخرها، يقول الله: فهؤلاء لعبي ولعبي ما سأل". فلو كانت من الفاتحة لذكرها كما ذكر غيرها. وأيضاً فإن الفاتحة سورة من سور القرآن والبسمة مكتوبة في أولها فلا فرق بينها وبين غيرها من السور في مثل ذلك، وهذا من أظهر وجوه الاعتبار. وأيضاً فلو كانت منها لتليت في الصلاة جهراً كما تتلى سائر آيات السورة، وهذا مذهب من يرى الجهر بها كالشافعي وطائفة من المكيين والبصريين فإنهم قالوا: إنها آية من الفاتحة يُجهر بها كسائر آيات الفاتحة، واعتمد على آثار منقولة بعضها عن الصحابة وبعضها عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد حُكي القول بالجهر عن أحمد وغيره بناء على إحدى الروايتين عنه من أنها من الفاتحة فيُجهر بها كما يُجهر بسائر الفاتحة، وليس هذا مذهبه بل يخاف بها عنده، وإن قال هي من الفاتحة لكن يُجهر بها عنده لمصلحة راجحة مثل أن يكون المصلون لا يقرأونها بحال فيجهر بها ليعلمهم أن قراءتها سنة. وكذلك فسر بعض أصحاب أحمد خلافه أنه كان يجهر بها إذا كان المأمومون ينكرون على من لم يجهر بها وأمثال ذلك، فإن الجهر بها والمخافتة سنة، فلو جهر بها المخافتة صحت صلاته بلا ريب، وجمهور العلماء

كأبي حنيفة ومالك وأحمد والأوزاعي لا يرون الجهر لكن منهم من يقرأها سرّاً كأبي حنيفة وأحمد وغيرهما، ومنهم من لا يقرأها سرّاً ولا جهراً كمالك، وحجة الجمهور ما ثبت في "الصحيح" من أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا لا يجهرون بيسم الله الرحمن الرحيم، وفي لفظ لا يذكرون {بسم الله الرحمن الرحيم} في أول قراءة ولا آخرها. والله أعلم.

آية الكرسي

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)}

يقول الإمام ابن كثير:

هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح، عن أبي- هو ابن كعب- أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله: "أي آية في كتاب الله أعظم؟" قال: الله ورسوله أعلم. فردها مرارًا ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: "لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لسانًا وشفقتين تقدس الملك عند ساق العرش" وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريري - به وليس عنده زيادة: "والذي نفسي بيده... إلخ."

فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبدًا القيم لغيره، وكان عمر يقرأ: "القيَام" فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥] وقوله: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} أي: لا يعتربه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتربه سنة ولا نوم. فقوله: {لَا تَأْخُذُهُ}، أي: لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: {وَلَا نَوْمٌ} لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات، فقال: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ-أَوْ النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ". وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر، قال: "وقع في نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما". قال: "فجعل ينام تكاد يداه تلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان". قال: ضرب الله له مثلاً عز وجل: أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض". وهذا حديث غريب جدا والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم.

وقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه كقوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مریم: ٩٣ - ٩٥]، وقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، كقوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦] وكقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتحاصر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة. وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: {وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مریم: ٦٤]. وقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه: ١١٠].

وقوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن مطرف بن طريف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ}، قال: علمه، وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم كلاهما عن مطرف بن طريف به. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي موضع القدمين ثم رواه عن أبي موسى والسدي والضحاك ومسلم البطين. وقال شجاع بن مخلد في تفسيره: أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الدُّهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، قال: "كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل". كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس، فذكره وهو غلط؛ وقد رواه وكيع في تفسيره: حدثنا سفيان عن عمار الدُّهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي عن محمد بن معاذ عن أبي عاصم عن سفيان-وهو الثوري- بإسناده عن ابن عباس موقوفاً مثله وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزاري الكوفي - وهو متروك- عن السدي عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح أيضاً. وقال السدي عن أبي

مالك: الكرسي تحت العرش. وقوله: {وَلَا يُتَوَدُّهُ حِفْظُهُمَا} أي: لا يثقله ولا يُكرِّهُه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه. فقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} كقوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} وكقوله: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَال} [الرعد: ٩].

وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، هذه آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية، كما تقدم بيانه في الفاتحة، ونزلت ليلا ودعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها. قال أبو عبد الله: فهذه آية أنزلها الله جل ذكره، وجعل ثوابها لقارئها عاجلا وآجلا، فأما في العاجل فهي حارسة لمن قرأها من الآفات. وروي في الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حم - المؤمن - إلى إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حُفِظَ بِمَا حَتَّى يَمْسِي، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يَمْسِي حُفِظَ بِمَا حَتَّى يَبْصَح" قال: حديث غريب. وهذه الآية تضمنت التوحيد والصفات العلا، وهي خمسون كلمة، وفي كل كلمة خمسون بركة، وهي تعدل ثلث القرآن، ورد بذلك الحديث، ذكره ابن عطية. و"الله" مبتدأ، و{لَا إِلَهَ} مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود. و{إِلَّا هُوَ} بدل من موضع لا إله. وقيل: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} ابتداء وخبر، وهو مرفوع محمول على المعنى، أي ما إله إلا هو، ويجوز في غير القرآن لا إله إلا إياه، نصب على الاستثناء. قال أبو ذر في حديثه الطويل: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم؟ فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. وقال ابن عباس: أشرف آية في القرآن آية الكرسي. قال بعض العلماء: لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمرة وظاهر ثماني عشرة مرة.

قوله: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ} نعت لله عز وجل، وإن شئت كان بدلا من "هو"، وإن شئت كان خبرا بعد خبر، وإن شئت على إضمار مبتدأ. ويجوز في غير القرآن النصب على المدح. و"الحي" اسم من أسمائه الحسنی يسمى به، ويقال: إنه اسم الله تعالى الأعظم. قال الطبري عن قوم: إنه يقال حي قيوم كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه. وقيل: سمى نفسه حيا لصفه الأمور مصاريفها وتقديره الأشياء مقاديرها. وقال قتادة: الحي الذي لا يموت. وقال

السدي: المراد بالحي الباقي. وقد قيل: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم. "القيوم" من قام؛ أي القائم بتدبير ما خلق؛ عن قتادة. وقال الحسن: معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها، من حيث هو عالم بما لا يخفى عليه شيء منها إلا لأمر شأنه عظيم.

ثم نفى عز وجل أن تأخذه سنة ولا نوم. والسنة: النعاس في قول الجميع. والنعاس ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نومًا، وفرق المفضل بينهما فقال: السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب. قلت: وبالجملة فهو فتور يعتري الإنسان ولا يفقد معه عقله. والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال. قلت: والناس يذكرون في هذا الباب عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى على المنبر قال: "وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه ملكًا فأرقه ثلاثًا ثم أعطاه قارورتين في كفه يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فينحي أحدهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان - قال - ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تمتسك السماء والأرض" ولا يصح هذا الحديث، ضعفه غير واحد منهم البيهقي.

قوله تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي بالملك فهو مالك الجميع وربه وجاءت العبارة بـ "ما" وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود.

قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} "من" رفع بالابتداء و"ذا" خبره؛ و"الذي" نعت لـ "ذا"، وإن شئت بدل، ولا يجوز أن تكون "ذا" زائدة كما زيدت مع "ما" لأن "ما" مبهمة فزيدت "ذا" معها لشبهها بها. وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى؛ كما قال: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]. قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} الضميران عائدان على كل من يعقل ممن تضمنه قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}. وقال مجاهد: {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} الدنيا {وَمَا خَلْفَهُمْ} الآخرة.

قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} العلم هنا بمعنى المعلوم، أي ولا يحيطون بشيء من معلوماته. فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض. ومعنى الآية لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه.

قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} وسائر الروايات عن ابن عباس وغيره تدل على أن المراد به الكرسي المشهور مع العرش. وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، ويستفاد من ذلك عظم قدرة الله عز وجل إذ لا يؤده حفظ هذا الأمر العظيم. و{يُؤَوِّدُهُ} معناه يثقله؛ يقال: آدني الشيء بمعنى أثقلني وتحملت منه المشقة.

و"العلي" يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان؛ لأن الله منزّه عن التحيز. و"العظيم" صفة بمعنى عظيم القدر والخطر والشرف. وحكي عن قوم أنهم أنكروا ذلك وقالوا: لو كان بمعنى معظم لوجب ألا يكون عظيماً قبل أن يخلق الخلق وبعد فنائهم، إذ لا معظم له حينئذ.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ؟ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}

وكل صفة من هذه الصفات تتضمن قاعدة من قواعد التصور الإسلامي الكلية. ومع أن القرآن المكّي في عمومه كان يدور على بناء هذا التصور، فإننا نلتقي في القرآن المدني كذلك في مناسبات شتى بهذا الموضوع الأصيل الهام الذي يقوم على أساسه المنهج الإسلامي كله، ولا يستقيم هذا المنهج في الحس إلا أن يستقيم ذلك الأساس، ويتضح، ويتحول إلى حقائق مسلمة في النفس، تتركن إلى الوضوح واليقين. ولقد تحدثت فيما سبق عند تفسير سورة الفاتحة عن الأهمية البالغة لوضوح صفة الله سبحانه في الضمير الإنساني. بما أن الركام الذي كان يرين على هذا الضمير من تصورات الجاهلية كان معظمه ناشئاً من غموض هذه الحقيقة، ومن غلبة الخرافة والأسطورة عليها، ومن الغبش التي يغشيها حتى في فلسفة أكبر الفلاسفة، حتى جاء الإسلام فجلاها هذا الجلاء، وأنقذ الضمير البشري من ذلك الركام الثقيل، ومن ذلك الضلال والخبث في الظلماء! وكل صفة من هذه الصفات التي تضمنتها هذه الآية تمثل قاعدة يقوم عليها التصور الإسلامي الناصع، كما يقوم عليها المنهج الإسلامي الواضح.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة -بعد الرسل- كعقيدة التثليث المبتدعة من الجماع الكنسية بعد عيسى عليه السلام، ولا لأي غبش مما كان يرين على العقائد الوثنية التي تميل إلى التوحيد، ولكنها تلبسه بالأساطير، كعقيدة قدماء المصريين- في وقت من الأوقات- بوحدانية الله، ثم تلبس هذه الوحدانية بتمثل الإله في قرص الشمس ووجود آلهة صغيرة خاضعة له! هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها. فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة، فلا يكون إنسان عبداً إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله، وما يأمره الله به من الطاعات. وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده. فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله. وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله، ولا

شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله، وهكذا إلى آخر ما ينبثق عن معنى الوجدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج حياة الناس في الأرض على السواء.

{ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى. كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية، فهي متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية. ومن ثم يتفرد الله سبحانه كذلك بالحياة على هذا المعنى. ثم إنها هي الحياة المطلقة من الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة. فالله سبحانه ليس كمثل شيء، ومن ثم يرتفع كل شبهة من الخصائص التي تتميز بها حياة الأشياء، وتثبت لله صفة الحياة المطلقة من كل خصيصة تحدد معنى الحياة في مفهوم البشر، وتنتفي بهذا جميع المفهومات الأسطورية التي جالت في خيال البشر! أما صفة { الْقَيُّومُ } فتعني قيامه - سبحانه - على كل موجود، كما تعني قيام كل موجود به فلا قيام لشيء إلا مرتكنا إلى وجوده وتدييره. وبحسب أن في هذا التصور تنزيها لله وتعظيما وهو يقطع الصلة بينه وبين هذا الوجود الذي خلقه وتركه. فالتصور الإسلامي تصور إيجابي لا سلبي، يقوم على أساس أن الله سبحانه قائم على كل شيء، وأن كل شيء قائم في وجوده على إرادة الله وتدييره، ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء من حوله مرتبطا بالله الواحد الذي يصرف أمره وأمر كل شيء حوله، وفق حكمة وتديير، فيلتزم الإنسان في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير ويستمد منه قيمه وموازينه، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازن.

{ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ } وهذا توكيد لقيامه - سبحانه - على كل شيء، وقيام كل شيء به. ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله سبحانه لكل شيء، { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } وهي تتضمن نفي السنة الخفيفة أو النوم المستغرق، وتنزهه - سبحانه - عنهما إطلاقا. وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وحزئياته في كل وقت وفي كل حالة، حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورهما، وحين يسبح بخياله المحدود مع ما لا يحصيه عد من الذرات والخلايا والخلائق والأشياء والأحداث في هذا الكون الهائل ويتصور، بقدر ما يملك، قيام الله سبحانه عليها وتعلقها في قيامها بالله وتدييره. إنه أمر لا يتصوره الإدراك الإنساني، وما يتصوره منه - وهو يسير - هائل يدير الرؤوس ويحير العقول، وتطمئن به القلوب.

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } فهي الملكية الشاملة، كما أنها هي الملكية المطلقة، الملكية التي لا يرد عليها قيد ولا شرط ولا فوت ولا شركة، وهي مفهوم من مفاهيم الألوهية الواحدة. فالله الواحد هو الحي الواحد، القيوم الواحد، المالك الواحد وهي نفي للشركة في صورتها التي ترد على أذهان الناس ومداركهم. كما أنها ذات أثر في إنشاء معنى الملكية وحقيقتها في دنيا الناس. فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء،

إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلي الذي يملك كل شيء. ومن ثم وجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية. وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم في شريعته فليس لهم أن يخرجوا عنها وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف، ووقعت تصرفاتهم باطلة، ووجب رد هذه التصرفات من المؤمنين بالله في الأرض. وهكذا نجد أثر التصور الإسلامي في التشريع الإسلامي، وفي واقع الحياة العملية التي تقوم عليه. وحين يقول الله في القرآن الكريم: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} فإنه لا يقرر مجرد حقيقة تصويرية اعتقادية إنما يضع قاعدة من قواعد الدستور للحياة البشرية ونوع الارتباطات التي تقوم فيها كذلك. على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير، مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك- سبحانه- لما في السماوات وما في الأرض، مجرد تصور الإنسان لخلو يده من ملكية أي شيء مما يقال إنه يملكه ورد هذه الملكية لصاحبها الذي له ما في السماوات وما في الأرض، مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم، مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع، وحدة الشح والحرص، وحدة التكالب المسعور. وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق، والسماحة والجود بالموجود وأن يفيض على القلب الطمأنينة والقرار في الوجدان والحرمان سواء فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ولا يتحرق القلب سعارا على المرموق المطلوب! {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وهذه صفة أخرى من صفات الله توضح مقام الألوهية ومقام العبودية. فالعبيد جميعا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع الذي لا يقدم بين يدي ربه ولا يجرؤ على الشفاعة عنده إلا بعد أن يؤذن له، فيخضع للإذن ويشفع في حدوده، وهم يتفاضلون فيما بينهم، ويتفاضلون في ميزان الله، ولكنهم يقفون عند الحد الذي لا يتجاوزوه عبد، إنه الإيحاء بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية. يزيد هذا الإيحاء عمقا صيغة الاستفهام الاستنكارية التي توحى بأن هذا أمر لا يكون وأنه مستنكر أن يكون. فمن هو هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فزعموا لله سبحانه خليطا يمازجه أو يشاركه بالبنوة أو غيرها من الصور في أي شكل وفي أي تصور، أو زعموا له- سبحانه- أن دادا يشفعون عنده فيستجيب لهم حتما. أو زعموا له- سبحانه- من البشر خلفاء يستمدون سلطاتهم من قرابتهم له. في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعدة لا تخطر على الذهن ولا تجول في الخاطر، ولا تلوح بظلمتها في خيال! وهذه هي النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي فلا تدع مجالاً لتلبس أو وهم، أو اهتزاز في الرؤية! الألوهية ألوهية، والعبودية عبودية، ولا مجال لالتقاء طبيعتهما أدنى التقاء. والرب رب، والعبد عبد، ولا مجال لمشاركة في طبيعتهما ولا التقاء. فأما صلة العبد بالرب، ورحمة الرب للعبد، والقربى والود والمدد، فالإسلام يقرها ويسكبها في النفس سكباً ويملاً بها قلب المؤمن ويفيضها عليه فيضاً ويدعه يعيش في ظلالها الندية الحلوة، دون ما حاجة إلى خلط طبيعة

الألوهية وطبيعة العبودية، ودون ما حاجة إلى الغبش والركام والزغلة والاضطراب الذي لا تتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة!

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} وهذه الحقيقة بطرفيها تساهم كذلك في تعريف المسلم بإلهه، وفي تحديد مقامه هو من إلهه. فالله يعلم ما بين أيدي الناس وما خلفهم. وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولهم. فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم ويشمل غيبهم الذي كان ومضى والذي سيكون وهو عنهم محجوب. كذلك هو يشمل ما يعلمونه من الأمور وما يجهلونه في كل وقت. وهو على العموم تعبير لغوي يفيد شمول العلم وتفصيله، أما هم فلا يعلمون شيئاً إلا ما يأذن لهم الله أن يعلموه. وشطر الحقيقة الأول، علم الله الشامل بما بين أيديهم وما خلفهم، من شأنه أن يحدث في النفس رجة وهزة، النفس التي تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديها وما خلفها، يعلم ما تضرع علمه بما تجهر، ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل، ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت مما لا تعلمه هي ولا تدريه. شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزة الذي يقف عريانا بكل ما في سريره أمام الديان كما أنه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه. وشطر الحقيقة الثاني أن الناس لا يعلمون إلا ما شاء الله لهم أن يعلموه، جدير بأن يتدبره الناس طويلا، وبخاصة في هذه الأيام التي يفتنون فيها بالعلم في جانب من جوانب الكون والحياة.

{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} إنه - سبحانه - هو الذي يعلم وحده كل شيء علما مطلقا شاملا كاملا. وهو - سبحانه - يتأذن فيكشف للعباد بقدر عن شيء من علمه تصديقا لوعده الحق: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، ولكنهم هم ينسون هذه الحقيقة ويفتنهم ما يأذن الله لهم فيه من علمه، سواء كان هذا الذي أذن لهم فيه علم شيء من نواميس الكون وقوانينه أو رؤية شيء من غيبه في لحظة عابرة وإلى حد معين، يفتنهم هذا كما يفتنهم ذلك فينسون الإذن الأول الذي منحهم الإحاطة بهذا العلم، فلا يذكرن ولا يشكرون. بل يتبححون وقد يكفرون. إن الله سبحانه وهب الإنسان المعرفة مذ أراد إسناد الخلافة في الأرض إليه، ووعده أن يريه آياته في الآفاق وفي الأنفس ووعده الحق، وصدقه وعده فكشف له يوما بعد يوم، وحيلا بعد جيل، في خط يكاد يكون صاعدا أبدا، عن بعض القوى والطاقات والقوانين الكونية التي تلزم له في خلافة الأرض، ليصل بها إلى أقصى الكمال المقدر له في هذه الرحلة المرسومة. ويقدر ما أذن الله للإنسان في علم هذا الجانب وكشف له عنه، بقدر ما زوى عنه أسراراً أخرى لا حاجة له بها في الخلافة. زوى عنه سر الحياة وما يزال هذا السر خافيا، وما يزال عصيا، وما يزال البحث فيه خبطا في التيه بلا دليل! وزوى عنه سر اللحظة القادمة، فهي غيب لا سبيل إليه، والستر المسدل دونها كثيف لا تجدي محاولة الإنسان في رفعه، وأحيانا تومض من وراء الستر ومضة لقلب مفرد بإذن من الله خاص ثم يسدل الستر ويسود السكون ويقف الإنسان عند حده لا يعتداه! وزوى عنه أسراراً كثيرة، زوى عنه كل ما لا يتعلق بالخلافة في الأرض، والأرض هي تلك الذرة الصغيرة الساجدة في الفضاء كالهباءة.

ومع ذلك يُفتن الإنسان بذلك الطرف من العلم، الذي أحاط به بعد الإذن، يُفتن فيحسب نفسه في الأرض إلهًا! ويكفر فينكر أن لهذا الكون إلهًا! وإن يكن هذا القرن العشرون قد بدأ يرد العلماء حقا إلى التواضع والتطامن، فقد بدأوا يعلمون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا! وبقي الجهال المتعلمون الذين يحسبون أنهم قد علموا شيئا كثيرا!

{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} وقد جاء التعبير في هذه الصورة الحسية في موضع التجريد المطلق على طريقة القرآن في التعبير التصويري، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا. فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك. فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعها سلطانه. وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية. ولكن الصورة التي ترتسم في الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن. وكذلك التعبير بقوله: {وَلَا يَؤُدُّهُ حِفْظُهُمَا} فهو كناية عن القدرة الكاملة. ولكنه يجيء في هذه الصورة المحسوسة، صورة انعدام الجهد والكلال. لأن التعبير القرآني يتجه إلى رسم صور للمعاني تجسمها للحس، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحسن. ولا حاجة بنا إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات في القرآن، إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية ولم نستعز من تلك الفلسفات الأجنبية الغريبة التي أفسدت علينا كثيرا من بساطة القرآن ووضوحه. ويحسن أن أضيف هنا أنني لم أعثر على أحاديث صحيحة في شأن الكرسي والعرش تفسر وتحدد المراد مما ورد منها في القرآن. ومن ثم أوتر أن لا أخوض في شأنها بأكثر من هذا البيان.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} وهذه خاتمة الصفات في الآية، تقرر حقيقة، وتوحي للنفس بهذه الحقيقة، وتفرد الله سبحانه بالعلو، وتفرد سبحانه بالعظمة. فالتعبير على هذا النحو يتضمن معنى القصر والحصر. فلم يقل وهو عليّ عظيم، ليثبت الصفة مجرد إثبات، ولكنه قال: «الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك! إنه المتفرد بالعلو، المتفرد بالعظمة. وما يتناول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ويرده الله إلى الخفض والهوان وإلى العذاب في الآخرة والهوان. وهو يقول: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا}. ويقول عن فرعون في معرض الهلاك: {إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا} ويعلو الإنسان ما يعلو، ويعظم الإنسان ما يعظم، فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم. وعندما تستقر هذه الحقيقة في نفس الإنسان، فإنها تثوب به إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه وترده إلى مخافة الله ومهابته وإلى الشعور بجلاله وعظمته وإلى الأدب في حقه والتحرج من الاستكبار على عباده، فهي اعتقاد وتصور، وهي كذلك عمل وسلوك.

ويقول الإمام الغزالي في مصنفه "جواهر القرآن":

الفصل الرابع عشر في كون آية الكرسي سيدة آي القرآن وبيان الإسم الأعظم

فأقول هل لك أن تتفكر في آية الكرسي أنها لم تسمى سيدة الآيات، فإن كنت تعجز عن استنباطه بتفكيرك فارجع إلى الأقسام التي ذكرناها والمراتب التي رتبناها، وقد ذكرنا لك أن معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته هي المقصد الأقصى من علوم القرآن. وآية الكرسي تشتمل على ذكر الذات والصفات والأفعال فقط ليس فيها غيرها. فقوله: {الله} إشارة إلى الذات، وقوله: {لا إله إلا هو} إشارة إلى توحيد الذات، وقوله: {الحي القيوم} إشارة إلى صفة الذات وجلاله، فان معنى القيوم هو الذي يقوم بنفسه ويقوم به غيره، فلا يتعلق قوامه بشيء ويتعلق به قوام كل شيء، وذلك غاية الجلال والعظمة. وقوله: {لا تأخذه سنة ولا نوم} تنزيهه وتقديس له عما يستحيل عليه من أوصاف الحوادث. وقوله: {له ما في السموات وما في الأرض} إشارة إلى كملها وأن جميعها منه مصدرها، وإليه مرجعها. وقوله: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} إشارة إلى انفراده بالملك والحكم والأمر، وأن من يملك الشفاعة فإنما يملك بتشريفه إياه والإذن فيه، وهذا نفى للشركة عنه في الملك والأمر. وقوله: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} إشارة إلى صفة العلم، وتفضيل بعض المعلومات، والانفراد بالعلم، حتى لا علم لغيره من ذاته، وإن كان لغيره علم فهو من عطائه وهبته وعلى قدر إرادته ومشئته. وقوله: {وسع كرسيه السموات والأرض} إشارة إلى عظمة ملكه وكمال قدرته، وفيه سر لا يحتمل الحال كشفه، فإن معرفة الكرسي ومعرفة صفاته واتساع السموات والأرض معرفة شريفة غامضة ويرتبط بها علوم كثيرة. وقوله: {ولا يؤوده حفظهما} إشارة إلى صفات القدرة وكماها وتنزيهها عن الضعف والنقصان. وقوله: {وهو العلي العظيم} إشارة إلى أصلين عظيمين في الصفات.

والآن اذا تأملت جملة هذه المعاني ثم تلوت جميع آيات القرآن لم تجد جملة هذه المعاني من التوحيد والتقديس وشرح الصفات العلى مجموعة في آية واحدة منها، فلذلك قال النبي "سيدة آي القرآن" فإن {شهد الله} ليس فيه إلا التوحيد، و {قل هو الله أحد} ليس فيه إلا التوحيد والتقديس، و {قل اللهم مالك الملك} ليس فيه إلا الأفعال وكمال القدرة، والفاتحة فيها رموز إلى هذه الصفات من غير شرح، وهي مشروحة في آية الكرسي، والذي يقرب منها في جميع المعاني آخر الحشر وأول الحديد اذ اشتملا على أسماء وصفات كثيرة، ولكنها آيات لا آية واحدة، وهذه آية الكرسي آية واحدة اذا قابلتها بإحدى تلك الآيات وجدتها أجمع المقاصد، فلذلك تستحق السيادة على الآي.

سورة الإخلاص

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإخلاص:

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

وهي مكية.

ذكر سبب نزولها وفضيلتها: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعد محمد بن مُيسر الصاغاني، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}. زاد ابن جرير والترمذي - قال: {الصَّمَدُ} الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث، {وَمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثلته شيء.

حديث آخر في فضلها: قال البخاري: حدثنا محمد - هو الذهلي - حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنا عمرو، عن ابن أبي هلال: أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في حجر عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم - عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم ب {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟". فسألوه، فقال: "لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله تعالى يحبه".

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن: قال البخاري: حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعيد، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فرددتها، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقأها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن".

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَمَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)}

قد تقدم ذكر سبب نزولها. وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عُزَيْرَ ابن الله. وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر. وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان؛ أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله، عز وجل ؛ لأنه الكامل في جميع

صفاته وأفعاله.

وقوله: {اللَّهُ الصَّمَدُ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفاء، وليس كمثل شئ، سبحانه الله الواحد القهار. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: {الصَّمَدُ} السيد. وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه. وقال الحسن أيضا: {الصَّمَدُ} الحي القيوم الذي لا زوال له. وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيرا له، وهو قوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} وهو تفسير جيد. حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن عمرو بن رومي، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش، حدثني صالح بن حيان، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال - لا أعلم إلا قد رفعه - قال: {الصَّمَدُ} الذي لا جوف له. وهذا غريب جدا، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة. وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيرا من هذه الأقوال في تفسير {الصمد}: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا، عز وجل، وهو الذي يُصمَد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَمَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. قال مجاهد: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، يعني: لا صاحبة له. وهذا كما قال تعالى: {بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٨٨ - ٩٥] وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٦ ، ٢٧]، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} [الصفات: ١٥٨ ، ١٥٩] وفي الصحيح، صحيح البخاري: "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافهم".

ويقول الإمام القرطبي:

سورة الإخلاص: مكية، في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر. ومدنية، في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي. وهي أربع آيات.

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} أي الواحد الوتر، الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك. و{أَحَدٌ} مرفوع، على معنى: هو أحد. وقيل: المعنى: قل: الأمر والشأن: الله أحد.

{اللَّهُ الصَّمَدُ} أي الذي يصمد إليه في الحاجات. كذا روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الذي يُصمد إليه في الحاجات؛ كما قال عز وجل: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ}. قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يُصمد إليه في النوازل والحوائج. وقال قوم: الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: تفسيره ما بعده {لم يلد ولم يولد}. قال أبي بن كعب: الصمد: الذي لا يلد ولا يولد؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يورث. قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبينة في الصمد، في (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق، وهو القول الأول، ذكره الخطابي. {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، قال: لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثلته شيء. قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} أي لم يكن له مثلاً أحد. وفيه تقدم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفواً أحد؛ فقدم خبر كان على اسمها، لينساق أو آخر الآي على نظم واحد.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يرددها؛ فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن". وعنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة" فشق ذلك عليهم، وقالوا: أيننا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن" خرج مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه. وخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احشدوا فيني سأقرأ عليكم ثلث القرآن"، فحشد من حشد؛ ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خيراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: "إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن". قال بعض العلماء: إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو {الصَّمَدُ}، فإنه لا يوجد في غيرها من السور. وكذلك {أَحَدٌ}. وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعيد، وثلثاً منه أسماء وصفات، وقد جمعت {قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ { أَحَدُ الْأَثَلَاتِ، وَهُوَ الْأَسْمَاءُ وَالصَّفَاتِ. وَدَلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ مَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ جُزْأً ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} جُزْأً مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ». وَهَذَا نَصٌّ؛ وَبِهَذَا الْمَعْنَى سَمِيَتْ سُورَةُ الْإِحْلَاصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثانية: روى مسلم عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختمهم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟" فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله عز وجل يحبها". وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما أفتتح سورة يقرأها لهم في الصلاة يقرأ بها، أفتتح بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}؛ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى منها تحريك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإذا أن تقرأ بها، وإما أن تدعوا وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببتهم أن أوكمهم بما فعلت، وإن كرهتم تركتكم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر، فقال: "يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟" فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن حبها أدخلك الجنة". قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ابن العربي: فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماما من جملة الثمانية والعشرين إماما، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراف؛ فيقرأ في كل ركعة {الْحَمْدُ لِلَّهِ} و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} حتى يتم التراويح؛ تخفيفا عليه، ورغبة في فضلها؛ وليس من السنة ختم القرآن في رمضان. قلت: هذا نص قول مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

مكيّة وآياتها أربع

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة. قال البخاري: حدثنا إسماعيل: حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعد، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يرددّها. فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالمها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلاث القرآن»؛ وليس في هذا من غرابة. فإن الأحذية التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلنها: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، هذه الأحذية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وقد تضمنت السورة من ثم أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة.

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وهو لفظ أدق من لفظ «واحد»، لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثلته شيء. إنها أحادية الوجود. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية. وهي، من ثم، أحادية الفاعلية. فليس سواه فاعلا لشيء، أو فاعلا في شيء، في هذا الوجود أصلا. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضا. فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المنفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية. خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود، إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا! فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته! وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة، فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهام. يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيه يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله؟ ومن ذا يهرب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟ ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصبحه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها. وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله. كذلك سيصبحه نفي فاعلية الأسباب، ورد كل شيء، وكل حدث، وكل حركة، إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحى الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}، {وَمَا نَنْصُرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، {وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وغيرها كثير.

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتحجج الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود! وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجدبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده. وأن لا فاعلية إلا فاعليته. ولا يريد طريقا غير هذا الطريق! من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات، منهج لعبادة الله وحده، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته. ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة، في السراء والضراء، في النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا، وإلى غير فاعل في الوجود أصلا؟! ومنهج للتلقي عن الله وحده، لتلقي العقيدة والتصور والقيم والموازن، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير. ومنهج للتحرر والعمل لله

وحده، ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة، سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرغبة لشيء من أشياء هذا الوجود! ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب. فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها، فكلها خارجة من يد الله وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق، الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال، ولا الكراهية ولا الهروب، إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريد. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص. إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه. وهذا هو الانطلاق، انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية، وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم.

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب. لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب. والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات. على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة.

ومعنى أن الله أحد، أنه الصمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح: {اللَّهُ الصَّمَدُ}.. ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه. والله سبحانه هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المحبب وحده لأصحاب الحاجات. وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضى أحد معه. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد.

{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } .. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية، لا تتورها حال بعد حال. صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال. والولادة انبثاق وامتداد، ووجود زائد بعد نقص أو عدم، وهو على الله محال. ثم هي تقتضي زوجية، تقوم على التماثل، وهذه كذلك محال. ومن ثم فإن صفة «أَحَدٌ» تتضمن نفي الوالد والولد.

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } .. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ، لا في حقيقة الوجود، ولا في حقيقة الفاعلية، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية. وهذا كذلك يتحقق بأنه «أَحَدٌ» ولكن هذا توكيد وتفصيل، وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشئ إلهًا يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض. وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة حيث للفرس دولة وسلطان!! هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك، وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه.

ويقول الإمام البخاري في كتابه "جواهر القرآن"

الفصل الخامس عشر في علة كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن

وأما قوله عليه السلام "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن"، فما أراك أن تفهم وجه ذلك، فتارة تقول هذا ذكره للترغيب في التلاوة وليس المعني به التقدير وحاشا منصب النبوة عن ذلك، وتارة تقول هذا بعيد عن الفهم والتأويل وأن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية فهذا القدر كيف يكون ثلثها، وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ونظرك إلى ظاهر ألفاظه فتظن أنها تكثر وتعظم بطول الألفاظ وتقصّر بقصرها. فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعا وارجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن إذ هي **معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة** و**معرفة الصراط المستقيم**، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع؛ وسورة الإخلاص تشتمل على واحد من الثلاث وهو **معرفة الله وتوحيده وتقديسه عن مشارك في الجنس والنوع وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفو، ووصفه بالصمد يشعر بأنه الصمد الذي لا مقصد في الوجود للحوائج سواه؛** نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم وقد ذكرنا أن أصول مهمات القرآن معرفة الله تعالى ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم، فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال عليه السلام الحج عرفة أي هو الأصل والباقي توابع.

إن في خلق السماوات والأرض

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (١٦٤)

يقول الإمام ابن كثير:

{وَاللَّهُمَّ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (١٦٣)، يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفْرُدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدِ بْنِ السَّكَنِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: {وَاللَّهُمَّ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} و {الْم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: ١ ، ٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَفْرُدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِتَفْرُدِهِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِمَّا ذَرَأَ وَبَرَأَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَقَالَ: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

ويقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهابها وغمراتها وما فيها من المنافع. {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ} [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا. {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء. {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا

تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٣ - ٣٦]. {وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]. {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ} أي: تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعها، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبور وهي غربية تغد من ناحية دبر الكعبة؛ والرياح تسمى كلها بحسب مرورها على الكعبة. {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} أي: سائر بين السماء والأرض يُسَخَّرُ إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى: {لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَغْفِلُونَ} أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ويقول الإمام القرطبي:

فيه أربع مسائل:

الأولى: قال عطاء: لما نزلت {وَالِهَيْكُمُ إِلَهًا وَاحِدًا} قالت كفار قريش: كيف يسع الناس إله واحد، فنزلت {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} . ورواه سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال: لما نزلت {وَالِهَيْكُمُ إِلَهًا وَاحِدًا} قالوا هل من دليل على ذلك؟ فأنزل الله تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فكأنهم طلبوا آية فيبين لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بد له من بان وصانع. وجمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووجد الأرض لأنها كلها تراب، والله تعالى أعلم. فأية السموات ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها، ودل ذلك على القدرة وخرق العادة، ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغارية نيرة وممحوة آية ثانية. وآية الأرض بحارها وأثمارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها.

الثانية: قوله تعالى: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، قيل: اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر من حيث لا يعلم. وقيل: اختلافهما في الأوصاف من النور والظلمة والطول والقصر. والليل جمع ليلة، مثل ثمرة وتمر ونخلة ونخل؛ ويجمع أيضا ليالي وليال بمعنى، وهو مما شذ عن قياس الجموع، كشبه ومشابه وحاجة وحوائج وذكر ومذاكر. والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. قال النضر بن شميل: أول النهار طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك من النهار. وقال ثعلب: أوله عند العرب طلوع الشمس؛ قال الزجاج في كتاب الأنواء: أول النهار ذور الشمس. وقسم

ابن الأنباري الزمن ثلاثة أقسام: قسما جعله ليلا محضاً، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر؛ وقسما جعله نهاراً محضاً، وهو من طلوع الشمس إلى غروبها؛ وقسما جعله مشتركاً بين النهار والليل، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار. قلت: والصحيح أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يدل عليه ما ثبت في صحيح مسلم عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت **{حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [البقرة: ١٨٧] قال له عدي: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالا أبيض وعقالا أسود، أعرف بهما الليل من النهار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إن وسادك لعريض إنما هو سواد الليل وبياض النهار"**. فهذا الحديث يقضي أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وهو مقتضى الفقه في الإيمان، وبه ترتبط الأحكام، وقول النبي هو الفيصل في ذلك والحكم.

الثالثة: قوله تعالى: {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} الفلك: السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث، والفلك المفرد مذكر، قال تعالى: {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [يس: ٤١] فجاء به مذكراً، وقال: {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ} فأنث، ويحتمل واحداً وجمعاً، وقال: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ} [يونس: ٢٢] فجمع، فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر، وإلى السفينة فيؤنث. وقيل: واحده فلك، مثل أسد وأسد، وخشب وخشب، وأصله من الدوران، ومنه: فلك السماء التي تدور عليه النجوم؛ وفلكت الجارية استدار ثديها، ومنه فلكة المغزل. وسميت السفينة فلكا لأنها تدور بالماء أسهل دور. ووجه الآية في الفلك تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها.

الرابعة: هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقاً لتجارة كان أو عبادة، كالحج والجهاد. ومن السنة حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، الحديث. وحديث أنس بن مالك في قصة أم حرام، أخرجهما الأئمة مالك وغيره. ففيه دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء، وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهما المنع من ركوبه. والقرآن والسنة يرد هذا القول، ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الذين قالوا له: إنا نركب البحر. وهذه الآية وما كان مثلها نص في الغرض وإليها المنزع. وقد تؤول ما روي عن العميرين في ذلك بأن ذلك محمول على الاحتياط وترك التغيرير بالمهيج في طلب الدنيا والاستكثار منها، وأما في أداء الفرائض فلا. ومما يدل على جواز ركوبه من جهة المعنى أن الله تعالى ضرب البحر وسط الأرض وجعل الخلق في العدوتين، وقسم المنافع بين الجهتين فلا يوصل إلى جلبها إلا بشق البحر لها، فسهل الله سبيله بالفلك، قاله ابن العربي. قال أبو عمر: وقد كان مالك يكره للمرأة الركوب للحج في البحر، وهو للجهاد لذلك أكره، والقرآن والسنة يرد قوله، إلا أن بعض أصحابنا من أهل البصرة قال: إنما كره ذلك مالك لأن السفن بالحجاز صغار، وأن النساء لا يقدرن على الاستتار عند الخلاء فيها

لضيقتها وتراحم الناس فيها، وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البر ممكنا، فلذلك كره مالك ذلك. وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس. قال: والأصل أن الحج على كل من استطاع إليه سبيلا من الأحرار البالغين، نساء كانوا أو رجالا، إذا كان الأغلب من الطريق الأيمن، ولم يخص بحرا من بر. قلت: فدل الكتاب والسنة والمعنى على إباحة ركوبه للمعنيين جميعا: العبادة والتجارة، فهي الحجة وفيها الأسوة. إلا أن الناس في ركوب البحر تختلف أحوالهم، فرب راكب يسهل عليه ذلك ولا يشق، وآخر يشق عليه ويضعف به، كالمائد المفرط الميد³، ومن لم يقدر معه على أداء فرض الصلاة ونحوها من الفرائض، فالأول ذلك له جائز، والثاني يحرم عليه ويمنع منه.

الخامسة: أن البحر إذا أرتج لم يجز ركوبه لأحد بوجه من الوجوه في حين ارتجاجه ولا في الزمن الذي الأغلب فيه عدم السلامة، وإنما يجوز عندهم ركوبه في زمن تكون السلامة فيه الأغلب، فإن الذين يركبونه حال السلامة وينجون لا حاصر لهم، والذين يهلكون فيه محصورون.

السادسة: قوله تعالى: {بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ}، أي بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم. وبركوب البحر تُكتسب الأرباح، وينتفع من يُحمل إليه المتاع أيضا.

السابعة: قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} يعني بما الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق، وجعل منه المخزون عدة للانتفاع في غير وقت نزوله.

الثامنة: قوله تعالى: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي فرق ونشر، ومنه {كَالْفَرَّاشِ الْمُبْتُوثِ} [القارعة: ٤] ودابة تجمع الحيوان كله، وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود، قال الله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦] فإن الطير يدب على رجله في بعض حالاته.

التاسعة: قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ} تصريفها: إرسالها عقيما ومُلقحة، وصرا ونصرا وهلاكها، وحرارة وباردة، ولينة وعاصفة. وقيل: تصريفها إرسالها جنوبا وشمالا، ودورا وصبأ، ونكباء، وهي التي تأتي بين مهبي ريحين. وقيل: تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها، والصغار كذلك، ويصرف عنهما ما يضر بهما، ولا اعتبار بكبر القلاع ولا صغرهما، فإن الريح لو جاءت جسدا واحدا لصدمت القلاع وأغرقت. والرياح جمع ربح سميت به لأنها تأتي بالروح غالبا. قال ابن الأعرابي: النسيم أول هبوب الريح.

....

³ ماد الشيء ميلا وميدانا: تحرك واضطرب (المعجم الوجيز)

الحادية عشرة: قال العلماء: الريح: تحرك الهواء، وقد يشتد ويضعف. فإذا بدت حركة الهواء من تجاه القبلة ذاهبة إلى سمت القبلة قيل لتلك الريح "الصبا". وإذا بدت حركة الهواء من وراء القبلة وكانت ذاهبة إلى تجاه القبلة قيل لتلك الريح "الدبور". وإذا بدت حركة الهواء عن يمين القبلة ذاهبة إلى يسارها قيل لها "ريح الجنوب". وإذا بدت حركة الهواء عن يسار القبلة ذاهبة إلى يمينها قيل لها "ريح الشمال". ولكل واحدة من هذه الرياح طبع، فتكون منفعتها بحسب طبيعتها، فالصبا حارة يابسة، والدبور باردة رطبة، والجنوب حارة رطبة، والشمال باردة يابسة. واختلاف طباعها كاختلاف طبائع فصول السنة. وذلك أن الله تعالى وضع للزمان أربعة فصول مرجعها إلى تغيير أحوال الهواء، فجعل الربيع الذي هو أول الفصول حارا رطبا، ورتب فيه النشء والنمو فتنزل فيه المياه وتُخرج الأرض زهرتها وتُظهر نباتها، ويأخذ الناس في غرس الأشجار وكثير من الزرع، وتتوالد فيه الحيوانات وتكثر الألبان. فإذا انقضى الربيع تلاه الصيف الذي هو مشاكل للربيع في إحدى طبيعته وهي الحرارة، ومباين له في الأخرى وهي الرطوبة، لأن الهواء في الصيف حار يابس، فتتضج فيه الثمار وتيبس فيه الحبوب المزروعة في الربيع. فإذا انقضى الصيف تبعه الخريف الذي هو مشاكل للصيف في إحدى طبيعته وهي اليبس، ومباين له في الأخرى وهي الحرارة، لأن الهواء في الخريف بارد يابس، فيتناهى فيه صلاح الثمار وتيبس وتجف فتصير إلى حال الادخار، فتقطف الثمار وتحصد الأعناب وتفرغ من جمعها الأشجار. فإذا انقضى الخريف تلاه الشتاء وهو ملائم للخريف في إحدى طبيعته وهي البرودة، ومباين له في الأخرى وهو اليبس، لأن الهواء في الشتاء بارد رطب، فتكثر الأمطار والثلوج وتهدم الأرض كالجسد المستريح، فلا تتحرك إلا أن يعيد الله تبارك وتعالى إليها حرارة الربيع، فإذا اجتمعت مع الرطوبة كان عند ذلك النشء والنمو بإذن الله سبحانه وتعالى. وقد تهب رياح كثيرة سوى ما ذكرناه، إلا أن الأصول هذه الأربع. فكل ريح تهب بين ريحين فحكمها حكم الريح التي تكون في هبوبها أقرب إلى مكانها وتسمى "النكباء".

الثانية عشرة: قوله تعالى: {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} سُمِّي السحاب سحابا لانسحابه في الهواء، وسحبت ذليلي سحبا، وتسحب فلان على فلان: اجترأ. والسحب: شدة الأكل والشرب. والمسخر: المذل، وتسخيروه بعثه من مكان إلى آخر. وقيل: تسخيروه ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر. وقد يكون بماء وبعذاب، وفي التنزيل: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ} [فاطر: ٩]، وقال: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ} [الأعراف: ٥٧] وهو في التنزيل كثير. وخرج ابن ماجه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى سحابا مقبلا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه وإن كان في صلاة حتى يستقبله فيقول: "اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به" فإن أمطر قال: "اللهم سيبا نافعا" مرتين أو ثلاثا، وإن كشفه الله ولم يمطر حمد الله على ذلك. أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سر به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته فقال: "إني خشيت أن يكون عذابا سلط على أمتي". ويقول إذا رأى المطر: "رحمة". فهذه الأحاديث والآي تدل على صحة القول الأول وأن تسخيورها ليس ثبوتها، والله تعالى

أعلم، فإن الثبوت يدل على عدم الانتقال، فإن أريد بالثبوت كونها في الهواء ليست في السماء ولا في الأرض فصحيح، لقوله "بين" وهي مع ذلك مسخرة محمولة، وذلك أعظم في القدرة، كالطير في الهواء، قال الله تعالى: {أَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ} [النحل: ٧٩] وقال: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} [الملك: ١٩].

.....

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {آيَاتٍ} أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته، ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: {وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ويل لمن قرأ هذه الآية فمخ بها" أي لم يتفكر فيها ولم يعتبرها. فإن قيل: فما أنكرت أنها أحدثت أنفسها. قيل له: هذا محال، لأنها لو أحدثت أنفسها لم تخل من أن تكون أحدثتها وهي موجودة أو هي معدومة، فإن أحدثتها وهي معدومة كان محالا، لأن الإحداث لا يتأتى إلا من حي عالم قادر مريد، وما ليس بموجود لا يصح وصفه بذلك، وإن كانت موجودة فوجودها يغني عن إحداث أنفسها. وأيضا فلو جاز ما قاله لجاز أن يحدث البناء نفسه وكذلك النجارة والنسج، وذلك محال، وما أدى إلى المحال محال. ثم أن الله تعالى لم يقتصر بها في وحدانيته على مجرد الأخبار حتى قرن ذلك بالنظر والاعتبار في آي من القرآن، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس: ١٠١] والخطاب للكفار، لقوله تعالى: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}، وقال: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٥] يعني بالملكوت الآيات. وقال: {وَيَوْمَ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: ٢١]، يقول: أولم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر حتى يستدلوا بكونها محلا للحوادث والتغيرات على أنها محدثات، وأن المحدث لا يستغني عن صانع يصنعه، وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير مريد سميع بصير متكلم، لأنه لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه وذلك محال. وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون: ١٢] يعني آدم عليه السلام، {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ} أي جعلنا نسله وذريته {نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [المؤمنون: ١٣] إلى قوله {تُبْعَثُونَ}. فالإنسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفة، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال، لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ أشده عضوا من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز. وقد يرى نفسه شابا ثم كهلا ثم شيخا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم، ولا اختاره لنفسه ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي

فعل تلك الأفعال بنفسه، وأن له صانعا صنعه وناقلا نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

إن وحدة الألوهية هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني. فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله- تختلف التصورات حول ذاته وحول صفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده- ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة، حقيقة وجود إله، إلا في هذه الأيام الأخيرة حين نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة، منقطعة عن أصل الفطرة، تنكر وجود الله. لذلك اتجه السياق القرآني دائما إلى الحديث عن وحدة الألوهية، بوصفها التصحيح الضروري للتصور، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور، ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية المنبثقة من هذا التصور، تصور وحدة الألوهية في هذا الوجود: {وَالْهُكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} .. {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} ..

ومن وحدانية الألوهية التي يؤكدونها هذا التأكيد، بشتى أساليب التوكيد، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ويتوحد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ويتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق. وهنا، والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم في الأرض، يعيد ذكر هذه الحقيقة التي تكرر ذكرها مرات ومرات في القرآن المكّي، والتي ظل القرآن يعمق جذورها ويمد في آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل، وكل جوانب الحياة والوجود، يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقوم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف، ثم يذكر من صفات الله هنا: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، فمن رحمته السابعة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف.

وهذا الكون كله شاهد بالوحدانية وبالرحمة في كل مجاله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ. وَتَضْرِيغِ الرِّيَّاحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديدة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون. العجائب التي تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإيجاءتها للقلب والحس، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين، متوفر الحس، حي القلب. وكم في هذه المشاهد المكرورة من عجيب وكم فيها من غريب. وكم اختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة، ودهشة المباغتة، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب. تلك السماوات والأرض، هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة، والعوالم المجهولة، هذا التناسق في مواقعها وجريانها في ذلك الفضاء الهائل الذي يدير الرؤوس، هذه الأسرار التي توصل للنفس وتلتف في

رداء المجهول، هذه السماوات والأرض حتى دون أن يعرف الإنسان شيئاً عن حقيقة أبعادها وأحجامها وأسرارها التي يكشف الله للبشر عن بعضها حينما تنمو مداركهم وتسعفهم أبحاث العلوم. واختلاف الليل والنهار، تعاقب النور والظلام، توالي الإشراق والعتمة، ذلك الفجر وذلك الغروب؛ كم اهتزت لها مشاعر، وكم وجفت لها قلوب، وكم كانت أعجوبة الأعاجيب، ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتهها مع التكرار، إلا القلب المؤمن الذي تتجدد في حسه هذه المشاهد ويظل أبدا يذكر يد الله فيها فيتلقاها في كل مرة بروعة الخلق الجديد. والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وأشهد ما أحسست ما في هذه اللفتة من عمق قدر ما أحسست ونقطة صغيرة في خضم المحيط تحملنا وتجري بنا، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا، والفلك ساجحة متناثرة هنا وهناك، ولا شيء إلا قدرة الله، وإلا رعاية الله، وإلا قانون الكون الذي جعله الله، يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمتها الرعيب!

{وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض} وكلها مشاهد لو أعاد الإنسان تأملها - كما يوحي القرآن للقلب المؤمن- بعين مفتوحة وقلب واع، لارتحف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها. تلك الحياة التي تنبعث من الأرض حينما يجودها الماء، هذه الحياة المجهولة الكنه، اللطيفة الجوهر، التي تدب في لطف، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية، هذه الحياة من أين جاءت؟ كانت كامنة في الحبة والنواة! ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة؟ أصلها؟ مصدرها الأول؟ إنه لا يجدي الهرب من مواجهة هذا السؤال الذي يلح على الفطرة، لقد حاول الملحدون تجاهل هذا السؤال الذي لا جواب عليه إلا وجود خالق قادر على إعطاء الحياة للموات، وحاولوا طويلا أن يوهمو الناس أنهم في طريقهم إلى إنشاء الحياة- بلا حاجة إلى إله!- ثم أخيرا إذا هم في أرض الإلحاد الجاحد الكافر ينتهون إلى نفض أيديهم والإقرار بما يكرهون: استحالة خلق الحياة! ثم تلك الرياح المتحولة من وجهة إلى وجهة، وذلك السحاب المحمول على هواء المسخر بين السماء والأرض، الخاضع للناموس الذي أودعه الخالق هذا الوجود، إنه لا يكفي أن تقول نظرية ما تقوله عن أسباب هبوب الرياح، وعن طريقة تكون السحاب، إن السر الأعظم هو سر هذه الأسباب، سر خلقه الكون بهذه الطبيعة وبهذه النسب وبهذه الأوضاع، التي تسمح بنشأة الحياة ونموها وتوفير الأسباب الملائمة لها من رياح وسحاب ومطر وترية، سر هذه الموافقات التي يعد المعروف منها بالآلاف، والتي لو احتلت واحدة منها ما نشأت الحياة أو ما سارت هذه السيرة، سر التدبير الدقيق الذي يشي بالقصد والاختيار، كما يشي بوحدة التصميم ورحمة التدبير. إن في ذلك {لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، نعم لو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مستطلعة، وقلب نوره الإيمان؛ ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينه كل ومضة، وتلفت سمعه كل نامة، وتلفت حسه كل حركة، وتهمز كيانه تلك الأعاجيب التي ما تني تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر. إن هذا هو ما يصنعه الإيمان. هذا التفتح، هذه الحساسية، هذا التقدير للجمال والتناسق والكمال. إن الإيمان رؤية جديدة للكون، وإدراك جديد للجمال، وحياة على الأرض في مهرجان من صنع الله، آناء الليل وأطراف النهار.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة "آل عمران":

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} (١٩٤)

يقول الإمام ابن كثير:

قال الطبراني: حدثنا الحسن بن إسحاق التستري، حدثنا يحيى الحِمَاني، حدثنا يعقوب القُمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بم جاءكم موسى؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا. فدعا ربه، فنزلت هذه الآية: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} فليتفكروا فيها. وهذا مُشكل، فإن هذه الآية مدنية، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة. والله أعلم.

ومعنى الآية أنه يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتساعها وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: {لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على حليتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله تعالى فيهم: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]. ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ}، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعد، فإن لم تستطع فعلى جنبك"، أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: يفهمون ما فيهما من الحكمة الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، أو لي فيه عبرة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب

"التفكر والاعتبار". وعن الحسن البصري أنه قال: تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرَ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ. وقال الفُضَيْل: قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، عز وجل، حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها. وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه. وعن أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه، فسئل عن ذلك فقال: "فَكَرَّتْ فِي الدُّنْيَا وَلِدَاتُهَا وَشَهَوَاتُهَا، فَاعْتَبَرْتُ مِنْهَا بِمَا، مَا تَكَادُ شَهَوَاتُهَا تَنْفُضِي حَتَّى تُكَدِّرَهَا مَرَارَتُهَا، وَلَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ إِنْ فِيهَا مَوَاعِظٌ لِمَنْ أَدَّكَرَ". وقد ذمَّ الله تعالى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرَعِهِ وَقَدْرِهِ وَأَيَاتِهِ، فقال: {وَكَايُنُ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٥، ١٠٦] ومدح عباده المؤمنين: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قائلين {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} أي: ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحق لتجزى الذين أسأؤوا بما عملوا، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى؛ ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: {سُبْحَانَكَ} أي: عن أن تخلق شيئاً باطلاً {فَقِنَّا عَذَابَ النَّارِ} أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنزه عن النقائص والعيب والعبث، فنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقِضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخاري، رحمه الله: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن كُريب عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ} ثم قام فتوضأ واستن فصرى إحدى عشرة ركعة. ثم أذن بلالاً فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

ويقول الإمام القرطبي:

فيه خمس وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} تقدم معنى هذه الآية في "البقرة" في غير موضع. فختتم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته؛ إذ لا تصدر إلا عن حي قويم قدير وقدوس سلام غني عن العالمين، حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد. {لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ} الذين يستعملون عقولهم في تأمل

الدلائل. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما نزلت هذه الآية على النبي قام يصلي، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فرآه يبكي فقال: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: "يا بلال، أفلا أكون عبدا شكورا ولقد أنزل الله على الليلة آية {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}، ثم قال: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها".

الثانية: قال العلماء يُستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما، ثم يصلي ما كُتِبَ له، فيجمع بين التفكير والعمل، وهو أفضل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا.

.....

الثامنة: قوله تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، قد بينا معنى {وَيَتَفَكَّرُونَ} وهو إما ذكر باللسان وإما الصلاة فرضها ونفلها، فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداها بعبادة أخرى، وهي التفكير في قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعبر الذي بث، ليكون ذلك أزيد بصائرهم، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والفكرة: تردد القلب في الشيء؛ يقال: تفكر، ورجل فكير كثير الفكر، ومر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال: "تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرُونَ قدره"؛ وإنما التفكير والاعتبار وانبساط الذهن في المخلوقات كما قال: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لك رباً وخالقاً اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له" وقال صلى الله عليه وسلم: "لا عبادة كتفكر". وروي عنه عليه السلام قال: "تفكر ساعة خير من عبادة سنة". وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكير؛ قيل له: أفترى التفكير عمل من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين. وقيل لابن المسيب في الصلاة بين الظهر والعصر، قال: ليست هذه عبادة، إنما العبادة الورع عما حرم الله والتفكر في أمر الله. وقال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال الحسن: الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته. ومما يُتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها. قال ابن العربي: اختلف الناس أي العملين أفضل: التفكير أم الصلاة؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكير أفضل، فإنه يُثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية. وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل، لما ورد في الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها. وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة، وفيه: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران، وقام إلى شن معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً ثم صلى ثلاث عشرة ركعة؛ الحديث. فانظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكير في المخلوقات ثم إقباله

على صلاته بعده، وهذه السنة هي التي يُعتمد عليها. فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلة وشهراً مفكراً لا يفتر، فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن.

التاسعة: قوله تعالى: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} أي يقولون: ما خلقته عبثاً وهزلاً، بل خلقته دليلاً على قدرتك وحكمتك. والباطل: الزائل الذاهب. ومنه قول لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**، أي زائل. و"باطلاً" نصب لأنه نعت مصدر محذوف؛ أي خلقاً باطلاً وقيل: انتصب على نزع الخافض، أي ما خلقتها للباطل. وقيل: على المفعول الثاني، ويكون خلق بمعنى جعل. {سُبْحَانَكَ}، أسند النحاس عن موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى "سبحان الله" فقال: "تنزيه الله عن السوء". {وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ} أجزنا من عذابها .

.....

الثامنة عشرة: في هذه الآية وأمثالها كقوله: {أَمَّا تُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ} [آل عمران: ١٧٨] الآية. {وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣]، {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ} [المؤمنون: ٥٥]، {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٢] دليل على أن الكفار غير مُنعم عليهم في الدنيا، لأن حقيقة النعمة الخلوص من شوائب الضرر العاجلة والآجلة، ونعم الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدم بين يديه غيره حلالة من غسل فيها السم، فهو وإن استلذ آكله لا يقال: أنعم عليه، لأن فيه هلاك روحه. فبه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنيوية فحسدوها، وقال: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} [النحل: ٨٣] وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [فاطر: ٣]. وهذا عام في الكفار وغيرهم. وإذا ثبت هذا **فالنعم ضربان: نعم نفع ونعم دفع؛ فنعمة النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونعم الدفع ما صُرف عنهم من أنواع الآفات.** فعلى هذا قد أنعم على الكفار نعم الدفع قولاً واحداً؛ وهو ما زوي عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم في أنه لم ينعم عليهم نعمة دينه. والحمد لله.

.....

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ما الآيات التي في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار؟ ما الآيات التي تتراءى لأولي الأبواب عند ما يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؟ وما علاقة التفكير في هذه الآيات بذكرهم الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؟ وكيف ينتهون من التفكير فيها إلى هذا الدعاء الخاشع الواجف: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ! فِقْنَا عَذَابَ النَّارِ} إلى نهاية ذلك الدعاء؟ إن التعبير

يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم. وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأبصار والأفكار في صميم الكون، بالليل والنهار. والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهها مكررا مؤكدا إلى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتتبدى في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساسا بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي «تصميم» هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان!!! وأولو الألباب، أولو الإدراك الصحيح، يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وعودا وعلى جنوهم، تفتتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته، بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود. ومشهد السماوات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا؛ لو تلقيناه كمشهد جديد تفتتح عليه العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف، وخمود التكرار، لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسنا أن وراء ما فيه من تناسق لا بد من يد تنسق ووراء ما فيه من نظام لا بد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لا بد من ناموس لا يتخلف، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا، ولا يمكن أن يكون جزافا، ولا يمكن أن يكون باطلا. ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكوني الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولا أن تناسق السماوات والأرض مرتكز إلى «الجاذبية» أو غير الجاذبية؛ هذه فروض تصح أو لا تصح، وهي في كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر في استقبال هذه العجيبة الكونية، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها. وهذه النواميس- أيا كان اسمها عند الباحثين من بني الإنسان- هي آية القدرة، وآية الحق، في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار. والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشئها استقبال مشهد السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولي الألباب تصويرا دقيقا، وهو في الوقت ذاته تصوير إيجائي يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته، والانطباع بإشاراته وإيجاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب «معرفة» للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبذعه يد الله. وإنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته: {قياماً وعوداً وعلى جنوهم} وبين التفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكير مسلك العبادة، ويجعله جانبا من مشهد الذكر، فيوحي بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن التفكير في خلق الله، والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله المبدعة، وهي تحرك هذا الكون، وتقلب صفحات هذا الكتاب، هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر. ولو اتصلت العلوم الكونية، التي تبحث في تصميم الكون وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسرار وطاقاته، لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره، والشعور بجلاله وفضله، لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا

الكون وصلادة، ولاستقامت الحياة- بهذه العلوم - واتجهت إلى الله. ولكن الاتجاه المادي الكافر يقطع ما بين الكون وخالفه، ويقطع ما بين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية، ومن هنا يتحول العلم- أجمل هبة من الله للإنسان- لعنة تطارد الإنسان وتحيل حياته إلى جحيم منكرة، وإلى حياة قلقة مهددة، وإلى خواء روحي يطارد الإنسان كالمارد الجبار!

والحقيقة الثانية: أن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة. وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم- وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار- هم الذين تفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهي الموصل إلى النجاة والخير والصلاح. فأما الذين يكتفون بظاهر من الحياة الدنيا، ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية- بدون هذا الاتصال- فهم يدمرون الحياة ويدمرون أنفسهم بما يصلون إليه من هذه الأسرار، ويحولون حياتهم إلى جحيم نكد، وإلى قلق خانق. ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه في نهاية المطاف! فهما أمران متلازمان، تعرضهما هذه الصورة التي يرسمها القرآن لأولي الأبواب في لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال. إنها لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي. كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع، إنها لحظة العبادة. وهي بهذا الوصف لحظة اتصال، ولحظة استقبال. فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ملهما للحقيقة الكامنة فيها، وإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا، ومن ثم تكون الحصيلة المباشرة للحظة الواصلة، {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ}، ما خلقت هذا الكون ليكون باطلا، ولكن ليكون حقا. الحق قوامه، والحق قانونه، والحق أصيل فيه.

إن لهذا الكون حقيقة، فهو ليس «عدما» كما تقول بعض الفلاسفة! وهو يسير وفق ناموس، فليس متروكا للفوضى. وهو يمضي لغاية، فليس متروكا للمصادفة. وهو محكوم في وجوده وفي حركته وفي غايته بالحق لا يتلبس به الباطل. هذه هي اللمسة الأولى، التي تمس قلوب {لأولي الأبواب} من التفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار بشعور العبادة والذكر والاتصال. وهي اللمسة التي تطبع حسهم بالحق الأصيل في تصميم هذا الكون، فتطلق ألسنتهم بتسبيح الله وتنزيهه عن أن يخلق هذا الكون باطلا: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا. سُبْحَانَكَ}. ثم تتوالى الحركات النفسية، تجاه لمسات الكون وإبجاءاته. {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}. فما العلاقة الوجدانية بين إدراك ما في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار من حق، وبين هذه الارتعاشة المنطلقة بالدعاء الخائف الواجف من النار؟ إن إدراك الحق الذي في تصميم هذا الكون وفي ظواهره، معناه عند أولي الأبواب أن هناك تقديرا وتدبيراً، وأن هناك حكمة وغاية، وأن هناك حقا وعدلا وراء حياة الناس في هذا الكوكب. ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدم الناس من أعمال.

ولا بد إذن من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل في الجزاء. فهي سلسلة من منطلق الفطرة والبداهة، تتداعى حلقاتها في حسهم على هذا النحو السريع. لذلك تقفز إلى خيالهم صورة النار، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها هو الخاطر الأول المصاحب لإدراك الحق الكامن في هذا الوجود. وهي لفنة عجيبة إلى تداعي المشاعر عند ذوي البصائر. ثم تنطلق ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجف الراجف المنيب، ذي النغم العذب، والإيقاع المنساب، والحرارة البادية في المقاطع والأنغام! ولا بد من وقفة أمام الرجفة الأولى وهم يتجهون إلى رهم ليقبهم عذاب النار، لا بد من وقفة أمام قولهم: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ}، {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}. إنها تشي بأن خوفهم من النار إنما هو خوف- قبل كل شيء - من الخزي الذي يصيب أهل النار. وهذه الرجفة التي تصيبهم هي أولا رجفة الحياء من الخزي الذي ينال أهل النار. فهي ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله، فهم أشد حساسية به من لذع النار! كما أنها تشي بشعور القوي بأنه لا ناصر من الله، وأن الظالمين ما لهم من أنصار. ثم نمضي مع الدعاء الخاشع الطويل: {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ}. فَأَمَّا. رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}. فهي قلوب مفتوحة ما أن تتلقى حتى تستجيب، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، والوفاة مع الأبرار.

ويتسق ظل هذه الفقرة في الدعاء مع ظلال السورة كلها، في الاتجاه إلى الاستغفار والتطهر من الذنب والمعصية، في المعركة الشاملة مع شهوات النفس ومع الذنب والخطيئة. المعركة التي يتوقف على الانتصار فيها ابتداء كل انتصار في معارك الميدان، مع أعداء الله وأعداء الإيمان. والسورة كلها وحدة متكاملة متناسقة الإيقاعات والظلال.

وختام هذا الدعاء توجه ورجاء. واعتماد واستمداد من الثقة بوفاء الله بالميعاد: {رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ، وَلَا نُحْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، فهو استنجاز لوعده الله، الذي بلغته الرسل، وثقة بوعده الله الذي لا يخلف الميعاد، ورجاء في الإعفاء من الخزي يوم القيامة، يتصل بالرجفة الأولى في هذا الدعاء، ويدل على شدة الخوف من هذا الخزي، وشدة تذكره واستحضاره في مطلع الدعاء وفي ختامه. مما يشي بحساسية هذه القلوب ورجتها وشفافيتها وتقواها وحيائها من الله. والدعاء في مجموعه يمثل الاستجابة الصادقة العميقة لإيحاء هذا الكون وإيقاع الحق الكامن فيه في القلوب السليمة المفتوحة. ولا بد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء، من جانب الجمال الفني والتناسق في الأداء. إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة لآياتها- والقوافي في القرآن غيرها في الشعر، فهي ليست حرفا متحدا، ولكنها إيقاع متشابه- مثل: «بَصِيرٌ. حَكِيمٌ. مُبِينٌ. مُرِيدٌ»، «الْأَلْبَابِ، الْأَبْصَارِ. النَّارِ. قَرَارٍ»، «خَفِيًّا. شَقِيًّا. شَرَفِيًّا. شَيْئًا»، إلخ. وتغلب القافية الأولى في مواضع التقرير، والثانية في مواضع الدعاء، والثالثة في مواضع الحكاية. وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى، ولم تبعد عنها إلا في موضعين: أولهما في

أوائل السورة وفيه دعاء. والثاني هنا عند هذا الدعاء الجديد، وذلك من بدائع التناسق الفني في التعبير القرآني .. فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية، وعضوبة صوتية تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهاال.

وهناك ظاهرة فنية أخرى، إن عرض هذا المشهد: مشهد التفكير والتدبر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، يناسبه دعاء خاشع مرتل طويل النغم، عميق النبرات، فيطول بذلك عرض المشهد وإيجاءاته ومؤثراته على الأعصاب والأسماع والخيال، فيؤثر في الوجدان، بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجه وارتجاف. وهنا طال المشهد بعبارته وطلال بنغماته مما يؤدي غرضاً أصيلاً من أغراض التعبير القرآني، ويحقق سمة فنية أصيلة من سماته. ثم طال بالرد عليه والاستجابة له كذلك: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، بِعَمَلِكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأُودُوا فِي سَبِيلِي، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا، لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ. لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}، وهي استجابة مفصلة، وتعبير مطول، يتناسق مع السمة الفنية للتعبير القرآني وفق مقتضى الحال، ومتطلبات الموقف، من الجانب النفسي والشعوري. ثم نخلص لمحتويات هذه الاستجابة الإلهية، ودلالاتها على طبيعة هذا المنهج الإلهي ومقوماته، ثم على طبيعة منهج التربية الإسلامية وخصائصه. إن أولى الأبواب هؤلاء تفكروا في خلق السماوات والأرض، وتدبروا اختلاف الليل والنهار، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح، واستجابت فطرتهم لإيجاء الحق المستكن فيه، فأتجهوا إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع الواجف الطويل العميق، ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم، على دعائهم المخلص الودود، فماذا كانت الاستجابة؟ لقد كانت قبولاً للدعاء، وتوجيهها إلى مقومات هذا المنهج الإلهي وتكاليفه في آن: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بِعَمَلِكُمْ مِنْ بَعْضٍ}. إنه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر، وليس مجرد الخشوع والارتجاف، وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار، إنما هو «العمل»، العمل الإيجابي، الذي ينشأ عن هذا التلقي، وعن هذه الاستجابة، وعن هذه الحساسية الممثلة في هذه الارتجافة. العمل الذي يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكير والتدبر، والذكر والاستغفار، والخوف من الله، والتوجه إليه بالرجاء. بل العمل الذي يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة، والذي يقبل من الجميع، ذكرانا وإنانا بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس. فكلهم سواء في الإنسانية "بعضهم من بعض"، وكلهم سواء في الميزان. ثم تفصيل للعمل، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة في النفس والمال كما تتبين منه طبيعة المنهج، وطبيعة الأرض التي يقوم عليها، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك، وضرورة مغالبة العوائق، وتكسير الأشواك، وتمهيد التربة للتربة الطيبة، والتمكين لها في الأرض، أي كانت التضحيات، وأي كانت العقبات.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الجاثية:

{حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابته آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأخيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٦) ونيل لكل أفاك أثيم (٧) يسمع آيات الله ثلثي عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨) وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك هم عذاب مهين (٩) من وراءهم جهنم ولا يعني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء وهم عذاب عظيم (١٠) هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم (١١) الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢) وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

وهي مكية.

{حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأخيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥)}

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات الأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً، لأن به يحصل الرزق، {فأخيا به الأرض بعد موتها} أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: {وتصريف الرياح} أي: جنوباً وشاماً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً {لآيات للمؤمنين}، ثم {يوقنون} ثم {يعقلون} وهو ترقق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية "البقرة" وهي قوله: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل

اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {البقرة: ١٦٤} .

.....

{اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)}

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر {لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ}، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} أي: في المتاجر والمكاسب، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: على حصول المنافع الجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: من الكواكب والجبال والبحار والأنهار وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: {جَمِيعًا مِنْهُ} أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} {النحل: ٥٣} .

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١ {حم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}

قوله تعالى: {حم} مبتدأ و {تنزيل} خبره. وقال بعضهم: {حم} اسم السورة. و {تنزيل الكتاب} مبتدأ، وخبره {من الله}. و {الكتاب} القرآن. {العزیز} المنيع. {الحكيم} في فعله.

الآية: ٣ - ٥ {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأخيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

قوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي في خلقهما {آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}. وفي خلقكم وما يبث من دابة آياتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأخيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} تقدم جميعه.

الآية: ١٢ - ١٣ {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ فِيهِ فَمَنْ يَشَاءُ مِنْكُمْ تَشْكُرُونَ} ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم. {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} يعني أن ذلك فعله وخلقته وإحسان منه وإنعام. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة المكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية، وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها، واتباعهم للهوى اتباعا كاملا في غير ما تخرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان. كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجاحمة الشاردة مع الهوى، المغلقة دون الهدى وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة، ويذكرهم عذابه، ويصور لهم ثوابه، ويقرر لهم سننه، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود.

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة، نرى فريقا من الناس مصرا على الضلالة، مكابرا في الحق، شديد العناد، سيء الأدب في حق الله وحق كلامه، ترسمه هذه الآيات، وتواجهه بما يستحقه من التذليل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوًا، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. مِنْ وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمُ، وَلَا يُعْطِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. ونرى جماعة من الناس، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئي التصور والتقدير لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات. والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقا أصيلا في ميزان الله بين الفريقين، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمر وقيام الأمر في ميزان الله على العدل الأصيل في صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين. {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ! وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}. ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هواه، فهو إلهه الذي يتعبده، ويطيع كل ما يراه. نرى هذا الفريق من الناس مصورا تصويرا فذا في هذه الآية وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه: {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً؟ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}. ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة، ويشك كل الشك في قضية البعث والحساب، ويتعنت في الإنكار وفي طلب البرهان بما لا سبيل إليه في هذه الأرض. والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية، وهم عنها معرضون: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا

حَيَاتِنَا الدُّنْيَا مَمُوتٌ وَنَحْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ. وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِّمَّن يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. ويجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس يصدر منه هذا وذلك، ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك. كما يجوز أن يكونوا فرقا متعددة ممن واجهوا الدعوة في مكة، بما في ذلك بعض أهل الكتاب، وقليل منهم كان في مكة. ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضي هذا وجوده في مكة بالذات في ذلك الحين. وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم، وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث. كذلك واجههم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، وحذرهم حساب يوم القيامة، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن اخرفوا عن دين الله القوم. واجههم بآيات الله في هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيْفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}. وواجههم بها مرة أخرى في صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي أَلْفُكٌ فِيهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ وَلِتَسْتَبْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

والسورة كلها وحدة في علاج موضوعها ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها. وهي تبدأ بالأحرف المقطعة: {ح. ميم}. والإشارة إلى القرآن الكريم: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. وتحتم بحمد الله وربوبيته المطلقة، وتمجيده وتعظيمه، إزاء أولئك الذين يغفلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. ويسير سياق السورة في عرض موضوعها في يسر وهوادة وإيضاح هادىء، وبيان دقيق عميق، على غير ما يسير سياق سورة الدخان قبلها في إيقاع عنيف كأنه مطارق تفرغ القلوب. والله خالق القلوب، ومنزل هذا القرآن، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق، وتارة باللمس الناعم الرفيق، وتارة بالبيان الهادئ الرقيق. حسب تنوعها هي واختلافها. وحسب تنوع حالاتها ومواقفها في ذاتها. وهو اللطيف الخبير، وهو العزيز الحكيم.

والآن نأخذ في التفصيل. {ح. ميم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيْفِ الرِّيَّاحِ، آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

يذكر الحرفين: {ح. ميم} ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، وفيهما دلالة على مصدر الكتاب، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور، من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه

الأحرف، وهم لا يقدرّون على شيء منه، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله {العزير} «القادر الذي لا يعجزه شيء» {الحكيم} الذي يخلق كل شيء بقدر، ويمضي كل أمر بحكمة. وهو تعقيب يناسب جو السورة وما تعرض له من ألوان النفوس. وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب يشير إلى آيات الله الماثورة في الكون من حولهم، وقد كانت وحدها كفيّلة بتوجيههم إلى الإيمان، ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها، وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب، وخالق هذا الكون العظيم: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ}. والآيات الماثورة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء، ولا حال دون حال. فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب. وأي شيء ليس آية؟ هذه السماوات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهي - على ضخامتها - مبعثرة كالنثار الصغير في الفضاء، الفضاء الهائل الرهيب، الجميل! ودورة هذه الأجرام في أفلاكها في دقة واطراد وتناسق، تناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه، ولا يشبع القلب من تمليه! وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر، وهي ذرة، أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة، ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذي تتوه فيه، تتوه لولا القدرة التي تمسك بها وتتنظمها في العقد الكوني الذي لا يتوه شيء فيه، وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض في موقعها الكوني الخاص من صلاحية لنشوء الحياة فوقها، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة، لو اختلت خصيصة واحدة منها أو خلفت ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم! وكل شيء في هذه الأرض وكل حي، آية، وكل جزء من كل شيء ومن كل حي في هذه الأرض، آية، والصغير الدقيق كالضخم الكبير، آية، هذه الورقة الصغيرة في هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة، آية، آية في شكلها وحجمها، آية في لونها وملمسها، آية في وظيفتها وتركيبها. وهذه الشعرة في جسم الحيوان أو الإنسان، آية، آية في خصائصها ولونها وحجمها. وهذه الريشة في جناح الطائر، آية، آية في مادتها وتنسيقها ووظيفتها. وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تراحمت الآيات وتراكبت، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعته وبصره. ولكن، من الذي يرى هذه الآيات ويستشعرها؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها؟ لمن {للمؤمنين}. فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء والأضواء والأنداء والإحساس بما فيها من آيات الله الماثورة في الأرض والسماء. والإيمان هو الذي تحالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف وتلتقط ما يذخر به الكون من إحياءات خفية وظاهرة، تشير كلها إلى اليد الصانعة، وطابعها المميز في كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء. وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله. ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم وهي أقرب إليهم، وهم بما أكثر حساسية: {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب، وبهذه الخصائص الفريدة، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة، خارقة، خارقة نسيانها لطول تكرارها، ولقربها منا! ولكن التركيب العضوي لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدبر الرأس عجا ودهشة واستهوالا لهذا التركيب

العجيب! إن الحياة في أبسط صورها معجزة، في الإميبا ذات الخلية الواحدة، وفيما هو أصغر من الإميبا! فكيف بها في هذا الإنسان الشديد التركيب والتعقيد؟ وهو في تركيبه النفسي أشد تركبا وتعقدا من تركيبه العضوي! وحوله تلك الخلائق التي تدب على الأرض أنواعا وأجناسا، وأشكالا وأحجاما، لا يحصيها إلا الله. وأصغرها كأكبرها معجز في خلقه، معجز في تصريفه، معجز في تناسب حيواته على هذه الأرض، بحيث لا يزيد جنس عن حدود معينة، تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفناء. واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير وتركب في كل منها من الخصائص والقوى والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعا. النسور جارحة ضارية وعمرها مديد، ولكنها في مقابل هذا نرزة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصفير والزرزير. ولنا أن نتصور كيف كان الأمر لو كان للنسور نسل العصفير؟ وكيف كانت تقضي على جميع الطيور! والأسود كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضارية، فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء؟ إنما ما كانت تبقي على لحم في الغابة ولا غداء. ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب! وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء وما إليها لسبب معلوم. والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة مئات الألوف، وفي مقابل هذا لا تعيش إلا حوالي أسبوعين اثنين. فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة شهرا أو سنين؟ لكان الذباب يغطي الأجسام ويأكل العيون؟ **ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير دقيق محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف.**

وهكذا وهكذا، في الخلق ذاته، وفي خصائصه، وفي تدبيره وتقديره. في عالم الناس، وعالم الدواب، في هذا كله آيات. آيات ناطقة. ولكن لمن؟ من الذي يراها ويتدبرها ويدركها؟ **{لَقَوْمٌ يُوفُّونَ}**. واليقين هو الحالة المهیئة للقلوب كي تحس، وكي تتأثر، وكي تنيب. اليقين الذي يدع القلوب تقر وتثبت وتطمئن وتتلقى حقائق الكون في هدوء ويسر وثقة، وفي راحة من القلق والحيرة والزعزعة، فتصوغ من أقل ما تحصل، أكبر النتائج وأعظم الآثار في هذا الوجود. ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم، إلى الظواهر الكونية، وما ينشأ عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعا: **{وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيْفِ الرِّيحِ، آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}**. واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يخلق جدتهما في نفوس البشر التكرار! ولكن أية عجيبة تطالع الحس البشري وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار؟ إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائما، ويتنفض لها دائما ويرى يد الله التي تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار. وتنمو معارف البشر، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة في كل أربع وعشرين ساعة. ولكن العجيبة لا تنقص شيئا بهذه المعرفة. **فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى. دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة، وهو عائم في الهواء، سابح في الفضاء، غير مستند إلى شيء إلا إلى القدرة التي تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذي لا يتخلف، وبهذا القدر الذي يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب السابح السارح الدائر في**

الفضاء! ويتوسع البشر في علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء، ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسي لوجود الحياة وبقاء الأحياء، وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شيء على هذه الأرض، وبخاصة تلك الحياة الإنسانية التي تخص المخاطبين من الأحياء! ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية في الحس البشري ولا تنقصان! {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء، كما فهم منه القدماء. ولكن رزق السماء أوسع. فهذه الأشعة التي تنزل من السماء ليست أقل أثرا في إحياء الأرض من الماء. بل إنها لهي التي ينشأ عنها الماء بإذن الله. فحرارة الشمس هي التي تبخر الماء من البحار فتتكاثف وتنزل أمطارا، وتجري عيوننا وأنهارا وتحيا بها الأرض بعد موتها. تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء! {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ} وهي تضي شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، منحرفة ومستقيمة، دافئة وباردة، وفى النظام الدقيق المنسوق المقصود في تصميم هذا الكون العجيب وحساب كل شيء فيه حسابا دقيقا لا يترك شيئا للمصادفة العمياء. ولتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض، وبظاهرتي الليل والنهار، وبالرزق الذي ينزل من السماء، وكلها تتعاون في تحقيق مشيئة الله في خلق هذا الكون، وتصريفه كما أراد. وفيها «آيات» معروضة في الكون. ولكن لمن؟ {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، فللعقل هنا عمل، وله في هذا الميدان مجال.

هذه بعض آيات الله الكونية، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين الذين يوقنون والذين يعقلون. يشير إليها آيات الله القرآنية، فتلمس القلوب، وتوقظ العقول، وتخطب الفطر بلغتها المباشرة، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة، لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن. فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواها، ومن لم توقظ هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}. إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن. وإن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون. وإن آية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين. {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}. وهنا لا يليق بمن لا يؤمن إلا التهديد والتنكيل: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا. فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. والويل: الهلاك. والأفالك الكذاب المارد على الكذب. والأثيم الكثير المقارفة للإثم. والتهديد شامل لكل من هذه صفته. وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار، القادر على الهلاك والدمار، الصادق الوعد والوعيد والإنذار. فهو تهديد رعيب مفرع مرهوب. هذا الأفالك الأثيم، آية إفكه وعلامة إثمه، أنه يصير على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله: {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا}. وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين في مكة، إلا أنها تتكرر في كل جاهلية، وتتكرر اليوم وغدا. فكم في الأرض، وبين

من يقال إنهم مسلمون، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبرا كأن لم يسمعها لأنها لا توافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله، ولا تقره على شره، ولا تتمشى له مع اتجاهه! {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} والبشارة للخير، فهي هنا للسخرية. فإذا كان لا يسمع النذير، فليأته الويل المنظور، في صوت البشير! زيادة في السخرية والتحقير! {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا}، بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها. وهذه أشد وأنكى. وهي صورة كذلك مكرورة في الجاهليات الأولى والأخيرة. وكم من الناس، وبين من يقال إنهم مسلمون، من يستهزئ بآيات الله التي يعلمها، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها ومن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها. {أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُهِينٌ} فالمهانة هي الجزء المناسب لمن يستهزئ بآيات الله وهو يعلمها. وهو عذاب حاضر قريب وإن كان مواعده آتيا بعد حين، ولكنه في حقيقته قائم موجود: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، ولفظ «مِنْ وَرَائِهِمْ» مقصودة ظلالة فوق معناه. وظلاله أنهم لا يرونه لأنه من ورائهم ولا يتقونه لأنهم في غفلة عنه ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه! {وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ}، فليس شيء مما عملوا أو ملكوا ينافعهم شيئا، فعملهم، ولو صلح، هباء لا يقدر على شيء منه، وهو قائم على غير أساس من إيمان. وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شيء فيه غناء. وأولياؤهم من دون الله، آلهة أو أعوانا وجندا أو خلانا، لا يملكون لهم نصرا ولا شفاعة. {وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فوق أنه مهين. فجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضي المهانة، جسيم يقتضي حسامة التعذيب.

وينتهي هذا المقطع، الذي ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله، والصد عنها والاستكبار، بكلمة عن حقيقة هذه الآيات وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة في إجمال: {هَذَا هُدًى. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ}، إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى، هدى خالص مصفى. هدى محض لا يشوبه ضلال. فالذي يكفر بعد ذلك بالآيات، وهذه حقيقتها، يستحق ألم العذاب، الذي يمثله تأكيد معنى الشدة والإيلام. فالرجز هو العذاب الشديد. والعذاب الذي يهددون به هو عذاب من رجز أليم، تكرار بعد تكرار، وتوكيد بعد توكيد. وبعد التهديد المخيف، والوعيد الرعب، يعود فيلمس قلوبهم لمسا رفيقا، بالتذكير بأنعم الله التي سخرها لهم في هذا الكون العريض: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. إن هذا المخلوق الصغير، الإنسان، يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة بل ما استطاع أن يعيش معها وهو هذا القرم الصغير، وهي هذه المردة الجبارة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام. والبحر أحد هذه الجبارة الضخام التي سخرها الله للإنسان، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على ثبح أمواجه الجبارة ولا تخشاها! {لَتَجْرِي أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ}، فهو-

سبحانه- الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجري الفلك في البحر. وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى: **{وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}** كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والنزهة وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار. سخر الله للإنسان البحر والفلك، ليبتغي من فضل الله وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام، وعلى التسخير والاهتداء: **{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**. وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق، وإلى الارتباط بذلك الأفق، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة في المصدر ووحدة في الاتجاه، إلى الله. ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول. فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، من قوى وطاقات ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ}**، **فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه وهو مُنشئه ومدبره وهو مسخره أو مسلطه**. وهذا المخلوق الصغير، الإنسان، مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية. يسخر به قوى في هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس! وكل ذلك من فضل الله عليه. وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ}**. والفكر لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكشف سرها، إلى مصدر هذه القوى والطاقات وإلى النواميس التي تحكمها وإلى الصلة بين هذه النواميس وفترة الإنسان. هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها، ولولاها ما اتصل ولا أدرك، ولا عرف ولا تمكن، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات. وحين يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوي الذي يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود، ويشعره بمصدر القوة الحقيقي وهو الاهتداء إلى أسرار هذا الوجود، **عند هذا يدعو المؤمن إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر في مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثري الغني**. كما يدعوهم إلى شيء من العطف على هؤلاء المساكين المحبوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله، التي يظهر فيها عظمتهم وأسراره ونواميسه: **{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بَعْفُورًا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}. فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله. تسامح المغفرة والعفو، وتسامح القوة والاستعلاء، وتسامح الكبر والارتفاع. والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحياناً بحرمانهم من ذلك النبع الفيض، الذي يزخر بالنداوة والرحمة والقوة والثراء، نبع الإيمان بالله، والطمأنينة إليه، والاحتماء بركنه، واللجوء إليه في ساعات الكربة والضيق. وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وما وراءها من القوى والثروات. والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره، ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات. هذا من جانب، **ومن الجانب الآخر، ليرك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه**،

والمسيء على إساءته. ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات. ذلك فيما لا يظهر الفساد في الأرض، ويعتدي على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة ابراهيم:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَثِيرٌ (٣٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظا والأرض فراشا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} أي: يسيران لا يقران ليلا ولا نهارا، {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠]، {يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [الزمر: ٥].

وقوله: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقوله: { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسؤوا توابين.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٣٢ {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ}

الآية: ٣٣ {وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}

الآية: ٣٤ {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} أي أبداعها واختراعها على غير مثال سبق. {وأنزل من السماء} أي من السحاب {مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} أي من الشجر ثمرات {رِزْقًا لَكُمْ}. {وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} تقدم معناه في "البقرة". {وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ} يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتررعوا، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات. {وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارئة. وقيل: دائبين في السير امتثالا لأمر الله، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران؛ روي معناه عن ابن عباس. {وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} أي أعطاكم من كل مسؤل سألتموه شيئا. وقيل: المعنى وأتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه فحذف، فلم نسأل شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: {سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل: ٨١]. {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} أي نعم الله. {لَا تُحْصُوهَا} ولا تطبيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ نعم لا تحصى وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟! {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

يبدأ هذا الشوط الثاني من نهاية الشوط الأول، قائماً عليه، متناسقاً معه، مستمداً منه. لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. ورسالة موسى عليه السلام لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله. فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم، وأعلن لهم ما تأذن الله به: لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين. بدأها ثم توارى عن السياق وتابعت القصة أدوارها ومشاهدها حتى انتهت بالكافرين إلى ذلك الموقف، الذي يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة! حيث لا تنفع العظات! فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل؛ أولئك الذين أنعم الله عليهم، فيما أنعم، برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويدعوهم ليغفر الله لهم، فإذا هم يكفرون النعمة، ويردونها، ويستبدلون بها الكفر، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان. ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفراً، ويقودون قومهم إلى دار البوار، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار. في قصة الرسل والكفار.

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنتطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى. وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر: السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار. الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض، البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق. هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون: إن الإنسان لظلوم كفار يبدل نعمة الله كفراً، ويجعل لله أندادا، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}

إنها حملة. إنها سيات تلذع الوجدان. حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار، وسيات ذات إيقاع، وذات رنين، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار! إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد. ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيجاء. وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله، تدع فيه يد القدرة، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر، وفي كل صورة فيه وظل. إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية في جدل ذهني ولا في لاهوت تجريدي ولا في فلسفة «ميتافيزيقية»، ذلك العرض الميت الجاف الذي لا يمس القلب البشري ولا يؤثر فيه ولا يوحي إليه. إنما هو يعرض هذه القضية في مجال المؤثرات والموحيات الواقعية من مشاهد الكون، ومجالي الخلق، وملسات الفطرة، وبديهيات الإدراك. في جمال وروعة واتساق. والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيدي الله وآلائه، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى

الإنسان: خط السماوات والأرض. يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض بهذا الماء. فخط البحر تجري فيه الفلك والأهوار تجري بالأرزاق. ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد. خط الشمس والقمر. فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر: خط الليل والنهار. ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويظللها: **{وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا}**؛ **إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل في مشهد الكون ومعرض الآلاء.**

أفكل هذا مسخر للإنسان؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السماوات ينزل منها الماء، والأرض تتلقاه، والثمار تخرج من بينهما. والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة. والأهوار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان. والشمس والقمر مسخران دائبان لا يفتران. والليل والنهار يتعاقبان. أفكل أولئك للإنسان؟ ثم لا يشكر ولا يذكر؟ **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلِيلٌ كَفَّارٌ}** **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}**؛ وبعد ذلك يجعلون لله أندادا، فكيف يكون الظلم في التقدير، والظلم في عبادة خلق من خلقه في السماوات أو في الأرض؟ **{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}** والزرع مورد الرزق الأول، ومصدر النعمة الظاهر. والمطر والنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله عليها هذا الكون، ويتبع الناموس الذي يسمح بنزول المطر ونبات الزرع وخروج الثمر، وموافقة هذا كله للإنسان. ونبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء. والناس يسمعون كلمة «الرزق» فلا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال. ولكن مدلول «الرزق» أوسع من ذلك كثيرا، وأعمق من ذلك كثيرا. **إن أقل «رزق» يُرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد. وبكفي ما ذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله.**

{وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} بما أودع في العناصر من خصائص تجري الفلك على سطح الماء وبما أودع في الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان.

{وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَهْوَارَ} تجري فتجري الحياة، وتغيب فيفيض الخبز، وتحمل ما تحمل في جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات. كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان. **{وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ}**، لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأهوار، ولكنه ينتفع بآثارهما ويستمد منهما مواد الحياة وطاقتها. فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه بل في تركيب خلاياه وتجديدها. **{وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}**. **سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان**

وتركيبه، وما يناسب نشاطه وراحته. ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان فضلا على فساد ما حوله كله، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه.

وليست هذه سوى الخطوط العريضة في صفحة الآلاء المديدة. ففي كل خط من النقط ما لا يحصى. ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للوحة المعروضة وللجو الشامل: {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع. {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}؛ فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشر. وكلهم محدودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية. وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان. ونعم الله مطلقة- فوق كثرتها- فلا يحيط بها إدراك إنسان. وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادا، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلوها كفرا. {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلِيلٌ كَفَّارٌ}!!! وحين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إما مباشرة، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوادثهم، ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله، معين بقدرته الله، ذلول له بتسخير الله، حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر، لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر، ويتطلع دائما إلى ربه المنعم: حين يكون في الشدة ليبدله منها يسرا، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان:

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)}

ويقول الإمام ابن كثير:

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ}، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس، وَعَكْرِمَةٌ، ومجاهد: لها عمد لا ترونها. {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} يعني: الجبال أرسست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء؛ ولهذا قال: {أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} أي: لئلا تميد بكم.

وقوله: {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي: وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها. ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}

أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس - أيضاً - من نبات الأرض، فَمَنْ دخل الجنة فهو كريم، وَمَنْ دخل النار فهو لئيم.

وقوله: { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ } أي: هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال: { فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد، { بَلِ الظَّالِمُونَ } يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره { فِي ضَلَالٍ } أي: جهل وعمى، { مُبِينٍ } أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١٠] { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }

الآية: [١١] { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }

قوله تعالى: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا } وقد مضى في { الرعد } الكلام في هذه الآية.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الرعد:

{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعَمَدٍ تَرْوُنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) }

يقول الإمام القرطبي مفسراً:

قوله تعالى: { الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها }، الآية لما بين تعالى أن القرآن حق بين أن من أنزله قادر على الكمال فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته. وفي قوله: بغير عمد ترونها قولان: أحدهما أنها مرفوعة بغير عمد ترونها قاله، قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما. الثاني لها عمد ولكننا لا نراه قال بن عباس: لها عمد على جبل قاف (!!!)، ويمكن أن يقال على هذا القول: العمدة قدرته التي يمسك بها السماوات والأرض وهي غير مرئية لنا، ذكره الزجاج؛ وقال بن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر، ذكره الغزنوي. { ثم استوى على العرش } (تقدم الكلام فيه) { وسخر الشمس والقمر } أي ذللهما لمنافع

خلقه ومصالح عباده وكل مخلوق مدلل للخالق. {كل يجري لأجل مسمى} أي إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي عندها تُكور الشمس ويُحسف القمر وتتكدر النجوم وتنتشر الكواكب. {يدبر الأمر} أي يصرفه على ما يريد، {يفصل الآيات} أي يبينها، أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ولهذا قال: {لعلكم بلقاء ربكم توقنون}.

{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ} أي جبالا ثوابت. {أَنْ تَمِيدَ} في موضع نصب؛ أي كراهية أن تميد؛ والكوفيون يقدرونه بمعنى لثلا تميد. {وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} عن ابن عباس: من كل لون حسن، وتأوله الشعبي على الناس، لأنهم مخلوقون من الأرض؛ قال: من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب، وظاهر القرآن يدل على ذلك.

قوله تعالى: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ} مبتدأ وخبر. والخلق بمعنى المخلوق؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعينون {خَلْقُ اللَّهِ} أي مخلوق الله، أي خلقها من غير شريك. {فَأَرُونِي} معاشر المشركين {مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} يعني الأصنام. {بَلِ الظَّالِمُونَ} أي المشركون {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أي خسران ظاهر. و{خلق} واقع على هاء محذوفة؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه تعود على الذين؛ أي فأروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها. نزل الذي خلق هذه الفطرة، والذي يعلم ما يصلح لها وما يُصلحها، ويعلم كيف يخاطبها، ويعرف مداخلها ومسارحها. جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل والتي تعرفها قبل أن تُخاطب بهذا القرآن، لأنها قائمة عليها أصلا في تكوينها الأول. تلك هي حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده، والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتوجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح. إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم وتنحرف بما عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة. هنا يجيء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذي تعرفه، ويعرض عليها الحقيقة التي غفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه، ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله، مستقيما مع العقيدة، مستقيما مع الفطرة، مستقيما على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير. وهذه السورة المكينة نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري. وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك

الحقيقة. إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى، ومن زوايا متنوعة، تتناول القلب البشري من جميع أقطاره وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها. هذه القضية الواحدة- قضية العقيدة- تلخص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه، وفي اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، وفي اتباع ما أنزل الله والتخلي عما عداه من مألوفات ومعتقدات.

والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعي التدبر لإدراك الأسلوب القرآني العجيب في مخاطبة الفطر والقلوب. وكل داع إلى الله في حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب. إنها تعرض هذه القضية في مجال العرض القرآني، وهو هذا الكون الكبير، سماؤه وأرضه، شمس وقمره، نهاره وليله، أجواؤه وبحاره، أمواجه وأمطاره، نباته وأشجاره. وهذا المجال الكوني يتكرر في القرآن الكريم فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة، وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل، تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها، وتأخذ عليها المسالك والدروب.

....

وهنا يعرض صفحة الكون الكبير مجالا للبرهان الذي يطالع الفطرة من كل جانب، ويخاطبها بكل لسان، ويواجهها بالحق الهائل الذي يمر عليه الناس غافلين: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوَاهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } . وأمام هذه الأدلة الكونية التي تحول الحس وتبدد الشعور يأخذ بتلايب القلوب الشاردة، التي تجعل لله شركاء وهي ترى خلقه الهائل العظيم: { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ. فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } وعند هذا الإيقاع الكوني الضخم العميق تنتهي الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة في ساحة الكون الكبير.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فصلت:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) }

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر، { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل

والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبده، تحت قهره وتسخيره، فقال: { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا } أي: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، { فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ } يعني: الملائكة، { يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ }، كقوله { فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَاذِبِينَ } [الأنعام: ٨٩]. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعني ابن وكيع - حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها تُرسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم".

وقوله: { وَمِنْ آيَاتِهِ } أي: على قدرته على إعادة الموتى { أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً } أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة { فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ } أي: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، { إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٣٧] { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }

الآية: [٣٨] { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ }

الآية: [٣٩] { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ } علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته { اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } وقد مضى في غير موضع. { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ } نهي عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما. { وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } وصورهن وسخرهن؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصة؛ لأن الاثنين جمع. وقيل: الضمير عائد على معنى الآيات { إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } وإنما أنت على جمع التكثير ولم يجر على طريق التعليل للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل. { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا } يعني الكفار عن السجود لله { فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ } من الملائكة { يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } أي لا يملون عبادته.

مسألة: هذه الآية آية سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}؛ لأنه متصل بالأمر. وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: {تَعْبُدُونَ}. وقال ابن وهب والشافعي: موضعه {وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: {يَسْأَمُونَ}. وقال ابن عمر: اسجدوا بالآخرة منهما.

مسألة: ذكر ابن خويز مندداً أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العرب كانت تقول: إن الشمس والقمر لا يُكسفان إلا لموت عظيم، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف. قلت: صلاة الكسوف ثابتة في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما.

قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} الخطاب لكل عاقل أي {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على أنه يجي الموتى {أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} أي يابسة جدبة؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ والأرض الخاشعة الغبراء التي تنبت، وبلدة خاشعة: أي مغبرة لا منزل بها. {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ} أي بالنبات. يقال: اهتز الإنسان أي تحرك. {وَوَرَّتْ} أي انتفخت وعلت قبل أن تنبت، أي تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: ربت واهتزت. والاهتزاز والربو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها. ويقال للموضع المرتفع: روبة ورايبة؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالأكبر طولاً وعرضاً. وقيل: {اهْتَزَّتْ} أي استبشرت بالمطر، {وَوَرَّتْ} أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقت بالنبات وُصفت بالضحك، فيحوز وصفها بالاستبشار أيضاً. {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تقدم في غير موضع.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَّتْ. إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

ونقف لحظة أمام دقة التعبير القرآني في كل موضع. فخشوع الأرض هنا هو سكوتها قبل نزول الماء عليها. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت. وكأنما هي حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة. ذلك أن السياق الذي وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح، فجيء بالأرض في هذا المشهد شخصاً من شخوص المشهد، تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة. ونستعير هنا صفحة من كتاب «التصوير الفني في القرآن» عن التناسق الفني في مثل هذا التعبير: «عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر، وقبل تفتحها بالنبات، مرة بأنها «هامدة»، ومرة بأنها «خاشعة». وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير. فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان: لقد وردتا في

سياقين مختلفين على هذا النحو: وردت «هامدة» في هذا السياق: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ، فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ. لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ، وَأُنبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ. } .

ووردت «خاشعة» في هذا السياق: { وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ، إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ. وَمِن آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ } . وعند التأمل السريع في هذين السياقين، يتبين وجه التناسق في «هامدة» و«خاشعة». إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فما يتسق معه تصوير الأرض «هامدة» ثم تهتز وتربو وتبت من كل زوج بهيج. وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود، يتسق معه تصوير الأرض «خاشعة» فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت. ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا، الإنبات والإخراج، كما زاد هناك، لأنه لا محل لها في جو العبادة والسجود. ولم تجيء «اهتزت وربت» هنا للغرض الذي جاءت من أجله هناك. إنهما تحيلان حركة للأرض بعد خشوعها. وهذه الحركة هي المقصودة هنا، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنا، وكل الأجزاء تتحرك من حوله. وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير».

ونعود إلى النص القرآني فنجد أن التعقيب في نهاية الآية يشير إلى إحياء الموتى، ويتخذ من إحياء الأرض نموذجا ودليلا: { إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذ نموذجا للإحياء في الآخرة، ودليلا كذلك على القدرة. ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، والحياة حين تنبض من بين الموات، توحى بالقدرة المنشئة إحياء خفيا ينبض في أعماق الشعور. والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق.

ومن يتق الله

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الطلاق:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرَجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُ فَاْمَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَمَسُّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأُتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَدْنَاهَا عَدَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ حَتَّى تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) }

يقول الإمام ابن كثير:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرَجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) }

خُوطِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ تَبَعًا فَقَالَ: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ }، وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي

قوله: {فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَتَيْنَّ}، قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وميمون بن مهران، ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: {فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَتَيْنَّ}، قال: لا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة: {فَطَلَّقُوهُنَّ إِعْدَتَيْنَّ}، العدة: الطهر، والقرء: الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبينا حملها ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا. ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة. فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها. والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}، أي: شرائعه ومحارمه، {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ} أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بما {فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} أي بفعل ذلك.

وقوله: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. قال الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن فاطمة بنت قيس في قوله: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، قال: هي الرجعة. ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائبًا عنها باليمن فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير - يعني نفقة - فَتَسَخَّطَتْهُ، فقال: والله ليس لك علينا نفقة. فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "ليس لك عليه نفقة"، ولمسلم: "ولا سكنى"، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: "تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك"، الحديث، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر، فقال: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد، حدثنا عامر قال: قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية. قالت: فقال لي أخوه: اخرجي من الدار. فقلت: إن لي نفقة وسكنى حتى يحل الأجل. قال: لا. قالت: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن فلانا طلقني وأن أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة، فأرسل إليه فقال: "ما لك ولاينة آل قيس"، قال: يا رسول الله إن أخي طلقها ثلاثًا جميعًا. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى. اخرجي فانزلي على فلانة". ثم قال: "إنه يُنْحَدِّثُ إليها، انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك" وذكر تمام الحديث.

يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده، {بِعْرُوفٍ} أي: محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها {بِعْرُوفٍ} أي: من غير مفاجأة ولا مشاقمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن. وقوله: {وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ} أي: على الرجعة إذا عَزَمْتُمْ عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجه، عن عمران بن حُصَيْن: أنه سُئِلَ عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طَلَّقْتَ لغير سنة، ورجعت لغير سنة، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تُعَدُّ. وقال ابن جريج: كان عطاء يقول: {وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ}، قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجوع إلا شاهدا عدل، كما قال الله عز وجل، إلا أن يكون من عذر.

وقوله: {ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتى به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ومن يخف عقاب الله في الدار الآخرة. ومن هنا ذهب الشافعي، في أحد أقواله، إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح. وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها.

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}، أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا گهمس بن الحسن، حدثنا أبو السليل، عن أبي ذر قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو علي هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} حتى فرغ من الآية، ثم قال: "يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم". وقال: فجعل يتلوها ويُرَدِّدها علي حتى نَعَسْتُ، ثم قال: "يا أبا ذر، كيف تصنع إن أُخْرِجْتَ من المدينة؟" قلت: إلى السعة والدَّعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: "كيف تصنع إن أُخْرِجْتَ من مكة؟" قال: قلت: إلى السعة والدَّعة، وإلى الشام والأرض المقدسة. قال: "وكيف تصنع إن أُخْرِجْتَ من الشام؟" قلت: إذا، والذي بعثك بالحق، أضع سيفي على عاتقي. قال: "أو خير من ذلك؟". قلت: أو خير من ذلك؟ قال: "تسمع وتطيع، وإن كان عبدًا حبشيًّا". وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا زكريا، عن عامر، عن شَتِير بن شَكل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجًا: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}. وفي المسند: حدثني مهدي بن جعفر، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الحكم بن مصعب، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق

مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب". وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}. وقال الربيع بن خثيم: {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} أي: من كل شيء ضاق على الناس. وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا. وقال ابن مسعود، ومسروق: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، يعلم أن الله إن شاء منع، وإن شاء أعطى، {مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي من حيث لا يدري. وقال قتادة: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت، {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل. وقال الإمام أحمد، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يُصيئه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر". ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان - وهو الثوري - به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن هشام بن حسان عن عمران بن حُصَيْن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها".

وقوله: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، حدثنا قيس بن الحجاج، عن حنّس الصنعاني، عن عبد الله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف". وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تُسهل حاجته، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل، أو يموت أجل".

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريد ويشأؤه، {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، كقوله: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨] يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة - وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها: أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية "البقرة"، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ ولهذا قال: {وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ}. وقوله: {إِنْ ارْتَبْتُمْ} فيه قولان: أحدهما، وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد: أي إن رأين دما وشككتن في كونه حيضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه فهو ثلاث أشهر. وهذا مروى، عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير، وهو أظهر في المعنى.

وقوله: {وَأَوْلَاتِ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، يقول تعالى: ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوق ناقةً، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية. وقد رُوي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملا بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة "البقرة". وقد قال البخاري: حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن يحيى، قال: أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وأبو هريرة جالس، فقال: أفنتي في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال: ابن عباس آخر الأجلين. قلت أنا: {وَأَوْلَاتِ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِلَ زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو السنابل فيمن خطبها، هكذا أورد البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً. وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولا من وجوه آخر. وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرنا هشام، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة؛ أن سُبَيْعَةَ الأسلمية تُوفِي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها خُطِبَتْ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النكاح، فأذن لها أن تُنكح فَنُكِحَتْ. ورواه البخاري في صحيحه، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عنها كما قال مسلم ابن الحجاج: حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، حدثني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سُبَيْعَةَ بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعمما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استفتته. فكتب عُمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدراً، فتوفى عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تَنسُبْ أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمُرَ عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سُبَيْعَةَ: فلما قال لي ذلك جَمَعْتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ فأَتَيْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعتُ حملي، وأمري بالتزويج إن بدا لي، هذا لفظ مسلم.

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}، أي: يسهل له أمره، ويسره عليه، ويجعل له فرجا قريباً ومخرجاً عاجلاً. ثم قال: {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ}، أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}، أي: يُذهب عنه المخذور ويُجزل له الثواب على العمل اليسير. ويقول تعالى أمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يُسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: {أَسْكِنُوهُنَّ

⁴ الفواق: ما يعود فيجتمع من اللبن في الضرع بعد ذهابه برضاع أو حلاب (المعجم الوجيز)

من حيث سكنتم، أي: عندكم، {من وجدكم}، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني سعتكم. حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه.

وقوله: {ولا تضاروهن لتضيئوا عليهن}، قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرهما لتفتدي منه بما لها أو تخرج من مسكنه. وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى: {ولا تضاروهن لتضيئوا عليهن}، قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها.

وقوله: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن}، قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف، وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملا أو حائلا. وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية لأن الحمل تطول مدته غالبا، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

وقوله: {فإن أرضعن لكم}، أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق، فقد برن بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ- وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالبا إلا به- فإن أرضعت استحققت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره؛ ولهذا قال تعالى: {فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن}. وقوله: {وأتوا بينكم بمعروف}، أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة "البقرة": {لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده} [البقرة: ٢٣٣]. وقوله: {وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى}، أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيرا ولم يجبهها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها.

وقوله: {لئنفق ذو سعة من سعته}، أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته، {ومن قدر على رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها} كقوله: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: {سيجعل الله بعد عسر يسرا} وعد منه تعالى، ووعدده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: {فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا} [الشرح: ٥، ٦]. يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال: {وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسلها} أي: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، {فحاسبناها حسابا شديدا وعدبناها عذابا نكرا} أي: منكرها فظيما. {فدأقت وبال أمرها} أي: غبت مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، {وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا} أي: في الدار الآخرة، مع ما عجل لهم في الدنيا. ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء: فأتقوا

اللَّهُ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ {أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الأبصار،} {الَّذِينَ آمَنُوا}، أي: صدقوا بالله ورسله، {قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا}، يعني: القرآن. كقوله {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} {الحجر: ٩}.

وقوله: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ}؛ قال بعضهم: {رَسُولًا} منصوب على أنه بدل اشتمال وملازمة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني تفسيرًا له، ولهذا قال تعالى: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ}، أي في حال كونها بينة واضحة جلية {لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، كقوله تعالى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {إبراهيم: ١} وقال تعالى {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} {البقرة: ٢٥٧} أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورا لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحا لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {الشورى: ٥٢} وقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}.

يقول تعالى مخبرا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم {الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} {نوح: ١٥}، وقال تعالى {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} {الإسراء: ٤٤}. وقوله تعالى {وَمَنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، أي سبعا أيضا، كما ثبت في الصحيحين "من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين"، وفي صحيح البخاري "خُصِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ".

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى: قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ }، الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، خوطب بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً. قال السدي: نزلت في عبد الله بن عمر، طلق امرأته حائضاً تطليقة واحدة فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها. فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء. وقد قيل أن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعمرو بن سعد بن العاص، وعتبة بن غزوان، فنزلت الآية فيهم. قال ابن العربي: وهذا كله وإن لم يكن صحيحاً فالقول الأول أمثل. والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ. وقد قيل إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته. وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة، كما قال: { حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ لِيَمِّ يَرِيحَ طَبِيئَةً }، تقديره: يا أيها النبي قل لهم إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتن. وهذا هو قولهم إن الخطاب له وحده والمعنى له وللمؤمنين. وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقول: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ }، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ }، قلت: ويدل على صحة هذا القول نزول العدة في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية. ففي كتاب أبي داود عنها أنها طلقت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن للمطلقة عدة، فأمر الله تعالى حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق، فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق. وقيل: المراد به نداء النبي صلى الله عليه وسلم تعظيماً، ثم ابتداءً فقال: { إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ }، كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ }، الآية. فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم؛ ثم افتتح فقال: { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ } الآية.

الثانية: روى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق". وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش". وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تطلقوا النساء إلا من ربية فإن الله عز وجل لا يجب الذواقين ولا الذواقات". وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق". أسند جميعه الثعلبي رحمه الله في كتابه.

الثالثة: روى الدارقطني من حديث عبدالرزاق أخبرني عمي وهب بن نافع قال سمعت عكرمة يحدث عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان ووجهان حرامان؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً عن غير جماع وأن يطلقها حاملاً مستبيناً حملها. وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض أو يطلقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرحم على ولد أم لا.

....

الخامسة: قوله تعالى: {لِعِدَّتَيْنِ} يقتضي أنهن اللاتي دخل بهن من الأزواج، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا}.

السادسة: من طلق في طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السنة. وإن طلقها حائضا نفذ طلاقه وأخطأ السنة. وقال سعيد بن المسيب في أخرى: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة. وإليه ذهب الشيعة. وفي الصحيحين- واللفظ للدارقطني- عن عبد الله بن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا من حيضتها قبل أن يمسهما فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله". وكان عبد الله بن عمر طلقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم. في رواية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هي واحدة".

السابعة: عن عبد الله بن مسعود قال: طلاق السنة أن يطلقها في كل طهر تطليقة؛ فإذا كان آخر ذلك فتلك العدة التي أمر الله تعالى بها. رواه الدارقطني عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله. قال علماؤنا: طلاق السنة ما جمع شروطا سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهرا، لم يمسهما في ذلك الطهر، ولا تقدمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طهر يتلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدم. وقال الشافعي: طلاق السنة أن يطلقها في كل طهر خاصة، ولو طلقها ثلاثا في طهر لم يكن بدعة. وقال أبو حنيفة: طلاق السنة أن يطلقها في كل طهر طلقة. فعلمناؤها قالوا: يطلقها واحدة في طهر لم يمسهما فيه، ولا تبعه طلاق في عدة، ولا يكون الظهر تاليا لحيض وقع فيه الطلاق؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق. فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء". وتعلق الإمام الشافعي بظاهر قوله تعالى: {فَطَلَّوهُنَّ لِعِدَّتَيْنِ} وهذا عام في كل طلاق كان واحدة أو اثنتين أو أكثر، وإنما راعى الله سبحانه الزمان في هذه الآية ولم يعتبر العدد. وكذلك حديث ابن عمر لأن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الوقت لا العدد. وفي الحديث أنه قال: رأيت لو طلقها ثلاثا؟ قال حرمت عليك وبانت منك بمعصية. وقال أبو حنيفة: ظاهر الآية يدل على أن الطلاق الثلاث والواحدة سواء، وهو مذهب الشافعي لولا قوله بعد ذلك: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية، وكذلك قال أكثر العلماء، وهو بدعي لهم. وأما مالك فلم يخف عليه إطلاق الآية كما قالوا، ولكن الحديث فسرها كما قلنا. قلت: وقد احتج الشافعي في طلاق الثلاث بكلمة واحدة بما رواه الدارقطني عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تماضر بنت الأصبع الكلبية وهي أم أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة

واحدة فلم يبلغنا أن أحدا من أصحابه عاب ذلك. قال: وحدثنا سلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المغيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث تطليقات في كلمة، فأبأها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عاب ذلك عليه. واحتج أيضا بحديث عويمر العجلاني لما لعن قال: يا رسول الله، هي طالق ثلاث. فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وقد انفصل علماؤنا عن هذا أحسن انفصال. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلاث لم يقع؛ فشبهوه بمن وكل بطلاق السنة فخالف.

الثامنة: قال الجرجاني: اللام في قوله تعالى: {لِعِدَّتَيْنِ} بمعنى في، كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} أي في أول الحشر. فقوله: {لِعِدَّتَيْنِ} أي في عدتكن، أي في الزمان الذي يصلح لعدتكن. وحصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع وفي الطهر مأذون فيه. ففيه دليل على أن القرء هو الطهر. فإن قيل: معنى {فطلقوهن لعدتكن} أي في قبل عدتكن، أو لقبل عدتكن، وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال ابن عمر في صحيح مسلم وغيره، فقبل العدة آخر الطهر حتى يكون القرء الحيض، قيل له: هذا هو الدليل الواضح لمالك ومن قال بقوله، على أن الأقرء هي الأطهار. ولو كان كما قال الحنفي ومن تبعه لوجب أن يقال: إن من طلق في أول الطهر لا يكون مطلقا لقبل الحيض، لأن الحيض لم يقبل بعد. وأيضا إقبال الحيض يكون بدخول الحيض، وبانقضاء الطهر لا يتحقق إقبال الحيض. ولو كان إقبال الشيء إدبار ضده لكان الصائم مفطرا قبل مغيب الشمس، إذ الليل يكون مقبلا في إدبار النهار قبل انقضاء النهار. ثم إذا طلق في آخر الطهر فبقية الطهر قرء، ولأن بعض القرء يسمى قرءا لقوله تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ}، يعني شوالا وذا القعدة وبعض ذي الحجة، لقوله تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} وهو ينفر في بعض اليوم الثاني.

التاسعة: قوله تعالى: {وَأَخْضُوا الْعِدَّةَ} يعني في المدخول بها، لأن غير المدخول بها لا عدة عليها، وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، ويكون بعدها كأحد الخطاب. ولا تحل له في الثلاث إلا بعد زوج. العاشر: قوله تعالى: {وَأَخْضُوا الْعِدَّةَ} معناه احفظوها، أي احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق، حتى إذا انفصل المشروط منه، وهو الثلاثة قروء في قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} حلت للأزواج. وهذا يدل على أن العدة هي الأطهار وليست بالحيض، ويؤكد ويفسر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم "القبل عدتكن" وقبل الشيء بعضه لغة وحقيقة، بخلاف استقباله فإنه يكون غيره.

الحادية عشرة: من المخاطب بأمر الإحصاء؟ وفيه ثلاث أقوال: أحدها: أنهم الأزواج؛ الثاني: أنهم الزوجات؛ الثالث: أنهم المسلمون. ابن العربي: "والصحيح أن المخاطب بهذا اللفظ الأزواج، لأن الضمائر كلها من "طلقتهم" و"أحصوا" و"لا تخرجوا" على نظام واحد يرجع إلى الأزواج، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج، لأن الزوج يخصي ليراجع وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج ويلحق نسبه أو يقطع، وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة،

وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك. وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدة للفتوى عليها، وفصل الخصومة عند المنازعة فيها. وهذه فوائد الإحصاء المأمور به".

الثانية عشرة: قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ}** أي لا تعصوه. **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ}** أي ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أئمت ولا تنقطع العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، وهذا لصيانة ماء الرجل؛ وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: **{وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}**، وقوله تعالى: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك. وقوله: **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ}** يقتضي أن يكون حقا في الأزواج. ويقتضي قوله: **{وَلَا يُخْرِجَنَّ}** أنه حق على الزوجات. وفي صحيح الحديث عن جابر بن عبد الله قال: طلقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها فزجرها رجل أن تخرج؛ فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **"بلى فجدي نخلك فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلني معروفا"**، خرجه مسلم. ففي هذا الحديث دليل لمالك والشافعي وابن حنبل والليث على قولهم **أن المعتدة تخرج بالنهار في حوائجها، وإنما تلزم منزلها بالليل**، وسواء عند مالك كانت رجعية أو بائة. وقال الشافعي في الرجعية: **لا تخرج ليلا ولا نهارا، وإنما تخرج نهارا المبتوتة؛** وقال أبو حنيفة: **ذلك في المتوفى عنها زوجها، وأما المطلقة فلا تخرج لا ليلا ولا نهارا.**

والحديث يرد عليه. وفي الصحيحين أن أبا حفص بن عمرو خرج مع علي بن أبي طالب إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطلقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة بنفقة، فقلا لها: والله مالك من نفقة إلا أن تكوني حاملا. فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له قولهما. فقال: **"لا نفقة لك"**، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها، فقالت: أين يا رسول الله؟ فقال: **"إلى ابن أم مكتوم"**، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها. فلما مضت عدتها أنكحها النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد. فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته. فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها؛ فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل: **{لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ}**، الآية، قالت: هذا لمن كانت له رجعة؛ فأمر يحدث بعد الثلاث؛ فكيف تقولون لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا، فعلام تحبسونها؟ لفظ مسلم. فبين أن الآية في تحريم الإخراج والخروج إنما هو في الرجعية. وكذلك استدلت فاطمة بأن الآية التي تليها إنما تضمنت النهي عن خروج المطلقة الرجعية، لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأي في ارتجاعها ما دامت في عدتها؛ فكأنها تحت تصرف الزوج في كل وقت. وأما البائن فليس له شيء من ذلك؛ فيجوز لها أن تخرج إذا دعته إلى ذلك حاجة، أو خافت عورة منزلها؛ كما أباح لها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: **{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ}**، قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشعبي ومجاهد: هو الزنى؛ فتخرج ويقام عليها الحد. وعن ابن عباس أيضا والشافعي: أنه البذاء على أحمائها؛ فيحل لهم إخراجها. وروي

عن سعيد بن المسيب أنه قال في فاطمة: تلك امرأة استطلت على أحماؤها بلسانها فأمرها عليه السلام أن تنتقل. وعن ابن عباس أيضا: الفاحشة كل معصية كالزنى والسرقه والبذاء على الأهل، وهو اختيار الطبري. وتقدير الآية: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق، أي لو خرجت كانت عاصية. قال ابن العربي: أما من قال إنه الخروج للزنى، فلا وجه له؛ لأن ذلك الخروج هو خروج القتل والإعدام، وليس ذلك بمستنق في حلال ولا حرام. وأما من قال إنه البذاء؛ فهو مفسر في حديث فاطمة بنت قيس. وأما من قال: إنه كل معصية، فوهم لأن الغيبة ونحوها من المعاصي لا تبيح الإخراج ولا الخروج. وأما من قال: إنه الخروج بغير حق فهو صحيح. وتقدير الكلام: لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن شرعا إلا أن يخرجن تعديا.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} أي هذه الأحكام التي بينها أحكام الله على العباد وقد منع التجاوز عنها فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مورد الهلاك. {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} الأمر الذي يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها. وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث؛ فإنه إذا طلق أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلا. وقال مقاتل: {بَعْدَ ذَلِكَ} أي بعد طلاقة أو طلقتين {أَمْرًا} أي المراجعة من غير خلاف.

قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ}، فيه ست مسائل :

الأولى: قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا} أمر بالإشهاد على الطلاق. وقيل: على الرجعة. والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق. فإن راجع من غير إشهاد ففي صحة الرجعة قولان للفقهاء. وقيل: المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعا. وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة؛ كقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، وعند الشافعي واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة. وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث.

الثانية: الإشهاد عند أكثر العلماء على الرجعة ندب. وإذا جامع أو قبل أو باشر يريد بذلك الرجعة، وتكلم بالرجعة يريد به الرجعة فهو مراجع عند مالك، وإن لم يرد بذلك الرجعة فليس بمراجع. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا قبل أو باشر أو لامس بشهوة فهو رجعة. وقالوا: والنظر إلى الفرج رجعة. وقال الشافعي وأبو ثور: إذا تكلم بالرجعة فهو رجعة. وقد قيل: وطؤه مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها، وروي ذلك عن طائفة من أصحاب مالك، وإليه ذهب الليث. وكان مالك يقول: إذا وطئ ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد، ولا يعود لوطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد، وله الرجعة في بقية العدة الأولى، وليس له رجعة في هذا الاستبراء.

الثالثة: أوجب الإشهاد في الرجعة أحمد بن حنبل في أحد قوليهِ، والشافعي كذلك لظاهر الأمر. وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي في القول الآخر: إن الرجعة لا تفتقر إلى القبول، فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وخصوصاً حل الظهار بالكفارة. قال ابن العربي: وركب أصحاب الشافعي على وجوب الإشهاد في الرجعة أنه لا يصح أن يقول: كنت راجعت أمس وأنا أشهد اليوم على الإقرار بالرجعة، ومن شرط الرجعة الإشهاد فلا تصح دونه. وهذا فاسد مبني على أن الإشهاد في الرجعة تعبد. ونحن لا نسلم فيها ولا في النكاح بأن نقول: إنه موضع للتوثق، وذلك موجود في الإقرار كما هو موجود في الإنشاء.

الرابعة: من ادعى بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته في العدة، فإن صدقته جاز وإن أنكرت حلفت، فإن أقام بينة أنه ارتجعها في العدة ولم تعلم بذلك لم يضره جهلها بذلك، وكانت زوجته، وإن كانت قد تزوجت ولم يُدخل بها ثم أقام الأول البينة على رجعتها فعن مالك في ذلك روايتان إحداهما أن الأول أحق بها، والأخرى أن الثاني أحق بها، فإن كان الثاني قد دخل بها فلا سبيل للأول إليها.

الخامسة: قوله تعالى: {ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ}، قال الحسن: من المسلمين، وعن قتادة: من أحراركم. وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث، لأن "ذوي" مذكر. ولذلك قال علماؤنا: لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال.

السادسة: قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}، أي تقربا إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير. قوله تعالى: {ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ} أي يرضى به {مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فأما غير المؤمن فلا ينتفع بهذه المواعظ.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا هل له من مخرج؟ فتلاها. وقال ابن عباس والشعبي والضحاك: هذا في الطلاق خاصة؛ أي من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة. وعن ابن عباس أيضا {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. وقال الحسن: مخرجا مما نهي الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجا من كل شدة. الربيع بن خيثم: {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} من كل شيء ضاق على الناس. {مَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} أي يبارك له فيما آتاه. وقال عمر بن عثمان الصديقي: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ} فيقف عند حدوده ويحْتَسِبُ معاصيه يخرجُه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة، وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} من حيث لا يرجو. وقال أبو سعيد الخدري: ومن يبرأ من حوله وقوته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجا مما كلفه بالمعونة له. وقال أبو ذر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم، ثم تلا {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}"، فما زال يكررها ويعيدها. وقال ابن عباس: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَخْرَجًا. وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ قال: "مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة". وروي الحسن بن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها". وقال الزجاج: أي إذا اتقى وآثر الحلال والتصبر على أهله، فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب. وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} أي من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه. وقيل: أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية، ولم يرد الدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل. {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} قال مسروق: أي قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه؛ إلا أن من توكل عليه فيكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً. وقرأ داود بن أبي هند "بالغ أمره" بالتثنية ورفع الراء. قال الفراء: أي أمره بالغ. وقيل: "أمره" مرتفع "ببالغ" والمفعول محذوف، والتقدير: بالغ أمره ما أراد. {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} أي لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقال الربيع بن خيثم: إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به نجاه، ومن دعاه أجاب له، وتصديق ذلك في كتاب الله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} {وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}.

الآية: [٤] {وَاللَّائِي يَكْسَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}

الآية: [٥] {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَاللَّائِي يَكْسَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ} لما بين أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقرء، عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم وقال أبو عثمان عمر بن سالم: لما نزلت عدة النساء في سورة "البقرة" في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن ناساً يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء: الصغار وذوات الحمل، فنزلت: {وَاللَّائِي يَكْسَنُ}، الآية. وقال مقاتل: لما ذكر قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} قال خلاد بن النعمان: يا رسول الله، فما عدة التي لم تحض،

وعدة التي انقطع حيضها، وعدة الحبلى؟ فنزلت: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ}، يعني تعدن عن الحيض. وقال مجاهد: الآية واردة في المستحاضة لا تدري دم حيض هو أو دم علة.

الثانية: قوله تعالى: {إِنْ ارْتَبْتُمْ} أي شككتكم، وقيل تيقنتم، وهو من الأضداد، يكون شكا ويقينا كالظن. واختيار الطبري أن يكون المعنى: إن شككتكم فلم تدروا ما الحكم فيهن. وقال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها. القشيري: وفي هذا نظر؛ لأننا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر، والمعتبر في سن اليأس في قول أقصى عادة امرأة في العالم، وفي قوله: غالب نساء عشيرة المرأة. وقيل: المعنى إن ارتبتم أن الدم الذي يظهر منها من أجل كبر أو من الحيض المعهود أو من الاستحاضة فالعدة ثلاثة أشهر. وقال عكرمة وقتادة: من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض، تحيض في أول الشهر مرارا وفي الأشهر مرة. وقيل: إنه متصل بأول السورة، والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدة. وهو أصح ما قيل فيه.

الثالثة: المرتابة في عدتها لا تُنكح حتى تستبرئ نفسها من ربيتها ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة. وقد قيل في المرتابة التي ترفعها حيضتها وهي لا تدري ما ترفعها: إنها تنتظر سنة من يوم طلقها زوجها، منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدة. فإن طلقها فحاضت حيضة أو حيضتين ثم ارتفع عنها بغير يأس منها انتظرت تسعة أشهر، ثم ثلاثة من يوم طهرت من حيضتها ثم حلت للأزواج. فعلى قياس هذا القول تقيم الحرة المتوفى عنها زوجها المستبرأة بعد التسعة أشهر أربعة أشهر وعشرا. وروي عن الشافعي أيضا أن أقرائها على ما كانت حتى تبلغ سن اليأس. فإن كانت المرأة شابة وهي :

الرابعة: استؤني بها هل هي حامل أم لا، فإن استبان حملها فإن أجلها وضعه. وإن لم يستبين فقال مالك: عدة التي ارتفع حيضها وهي شابة سنة، وبه قال أحمد وإسحاق ورووه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره. وأهل العراق يرون أن عدتها ثلاث حيض بعد ما كانت حاضت مرة واحدة في عمرها، وإن مكثت عشرين سنة، إلا أن تبلغ من الكبر مبلغا تياس فيه من الحيض فتكون عدتها بعد الإياس ثلاثة أشهر. قال الكيا: وهو الحق؛ لأن الله تعالى جعل عدة الأيسة ثلاثة أشهر؛ والمرتبة ليست آيسة.

الخامسة: وأما من تأخر حيضها لمرض؛ فقال مالك وابن القاسم وعبدالله بن أصبغ: تعدد تسعة أشهر ثم ثلاثة. وقال أشهب: هي كالمريض بعد الفطام بالحيض أو بالسنة.

السادسة: ولو تأخر الحيض لغير مرض ولا رضاع فإنها تنتظر سنة لا حيض فيها، تسعة أشهر ثم ثلاثة؛ على ما ذكرناه، فتحل ما لم ترتب بحمل؛ فإن أرتابت بحمل أقامت أربعة أعوام، أو خمسة، أو سبعة، على اختلاف الروايات عن علمائنا. ومشهورها خمسة أعوام، فإن تجاوزتها حلت (!!!). وقال أشهب: لا تحل أبدا حتى

تنقطع عنها الريبة. قال ابن العربي: **وهو الصحيح، لأنه إذا جاز أن يبقى الولد في بطنها خمسة أعوام جاز أن يبقى عشرة وأكثر من ذلك.** وقد روي عن مالك مثله.

السابعة: وأما التي جُهل حيضها بالاستحاضة ففيها ثلاثة أقوال: قال ابن المسيب: تعدد سنة. وهو قول الليث. قال الليث: عدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت مستحاضة سنه، وهو مشهور قول علمائنا؛ سواء علمت دم حيضها من دم استحاضتها، وميزت ذلك أو لم تميزه، عدتها في ذلك كله عند مالك في تحصيل مذهبه سنة، منها تسعة أشهر استبراء وثلاثة عدة. وقال الشافعي في أحد أقواله: عدتها ثلاثة أشهر. وهو قول جماعة من التابعين والمتأخرين من القرويين. ابن العربي: وهو الصحيح عندي. وقال أبو عمر: المستحاضة إذا كان دمها ينفصل فعلمت إقبال حيضتها أو إدبارها أعتدت ثلاثة قروء. وهذا أصح في النظر، وأثبت في القياس والأثر. قوله تعالى: **{وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}** يعني الصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، فأضمر الخبر. وإنما كانت عدتها بالأشهر لعدم الأقرء فيها عادة، والأحكام إنما أجزاها الله تعالى على العادات، فهي تعدد بالأشهر. فإذا رأت الدم في زمن احتماله عند النساء انتقلت إلى الدم لوجود الأصل، وإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم؛ كما أن المسنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر. وهذا إجماع.

قوله تعالى: **{وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** فيه مسألتان :

الأولى: قوله تعالى: **{وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ}** وضع الحمل، وإن كان ظاهرا في المطلقة لأنه عليها عطف وإليها رجع عقب الكلام؛ فإنه في المتوفى عنها زوجها كذلك لعموم الآية.

الثانية: إذا وضعت المرأة ما وضعت من علقه أو مضغة حلت. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا تحل إلا بما يكون ولدا.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}** قال الضحاك: أي من يتقه في طلاق السنة يجعل له من أمره يسرا في الرجعة. مقاتل: **ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة.** **{ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ}** أي الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم وبينه لكم. **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ}** أي يعمل بطاعته. **{يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ}** من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة. **{وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا}** أي في الآخرة.

الآية: [٦] **{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ الْآخَرَى}**

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ}، قال أشهب عن مالك: يخرج عنها إذا طلقها ويتركها في المنزل؛ لقوله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ}، فلو كان معها ما قال أسكنوهن. وقال ابن نافع: قال مالك في قول الله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ} يعني المطلقات اللاتي بين من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهن وليست حاملا ، فلها السكنى ولا نفقة لها ولا كسوة، لأنها بائن منه لا يتوارثان ولا رجعة له عليها، وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضي عدتها. أما من لم تب منهن فإنهن نساؤهم يتوارثون ولا يخرجن إلا أن يأذن لهن أزواجهن ماكن في عدتهن، ولم يؤمروا بالسكنى لهن لأن ذلك لازم لأزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن، حوامل كن أو غير حوامل. وإنما أمر الله بالسكنى للاتي بن من أزواجهن مع نفقتهن، قال الله تعالى: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} فجعل عز وجل للحوامل اللاتي قد بن من أزواجهن السكنى والنفقة. قال ابن العربي: وبسط ذلك وتحقيقه أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها. قلت : اختلف العلماء في المطلقة ثلاثا على ثلاثة أقوال، فمذهب مالك والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها. ومذهب أبي حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة. ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور أن لا نفقة لها ولا سكنى، على حديث فاطمة بنت قيس، قالت: دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى أخو زوجي فقلت: إن زوجي طلقني وإن هذا يزعم أن ليس لي سكنى ولا نفقة؟ قال: "بل لك السكنى ولك النفقة". قال: إن زوجها طلقها ثلاثا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة"، خرجه الدارقطني. ولفظ مسلم عنها أنه طلقها زوجها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أنفق عليها نفقة دون، فلما رأت ذلك قالت: والله لأعلمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحني وإن لم تكن لي نفقة لم آخذ شيئا. قالت: فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لا نفقة لك ولا سكنى". وذكر الدارقطني عن الأسود قال: قال عمر لما بلغه قول فاطمة بنت قيس: لا نجيز في المسلمین قول امرأة، وكان يجعل للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة. وعن الشعبي قال : لقيني الأسود بن يزيد فقال: يا شعبي، اتق الله وأرجع عن حديث فاطمة بنت قيس، فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة. قلت: لا أرجع عن شيء حدثني به فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: ما أحسن هذا. وقد قال قتادة وابن أبي ليلي: لا سكنى إلا للرجعية، لقوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، وقوله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ} راجع إلى ما قبله، وهي المطلقة الرجعية. والله أعلم. ولأن السكنى تابعة للنفقة وجارية مجراها، فلما لم تجب للمبتوتة نفقة لم يجب لها سكنى. وحجة أبي حنيفة أن للمبتوتة النفقة قوله تعالى: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}، وترك النفقة من أكبر الأضرار. وفي إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبين هذا، ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية، ولأنها محبوسة عليه لحقه فاستحقت النفقة كالزوجة. ودليل مالك قوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ}، الآية، على ما تقدم بيانه. وقد قيل: إن الله تعالى ذكر المطلقة الرجعية

وأحكامها أول الآية إلى قوله: {ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ} ثم ذكر بعد ذلك حكما يعم المطلقات كلهن من تعديد الأشهر وغير ذلك، وهو عام في كل مطلقة، فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كل مطلقة.

الثانية: قوله تعالى: {وَجِدْكُمْ} أي من سعتكم؛ يقال وجدت في المال أجد وجدا ووجدت ووجدت ووجدت ووجدت. والوجد: الغنى والمقدرة.

الثالثة: قوله تعالى: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} قال مجاهد: في المسكن. مقاتل: في النفقة؛ وهو قول أبي حنيفة. وعن أبي الضحى: هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدتها راجعها ثم يطلقها.

الرابعة: قوله تعالى: {إِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ثلاثا أو أقل منهن حتى تضع حملها. فأما الحامل المتوفى عنها زوجها فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان والضحاك: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: لا ينفق عليها إلا من نصيبها.

قوله تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ}، فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ}، يعني المطلقات، أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهم أجرة إرضاعهن. وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبين، ويجوز عند الشافعي.

الثانية: قوله تعالى: {وَأْتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} هو خطاب للأزواج والزوجات؛ أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع. وقيل: اتتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار. وقيل: هو الكسوة والدثار. وقيل: معناه لا تضار والده بولدها ولا مولود له بولده.

الثالثة: قوله تعالى: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمُ} أي في أجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها، وليستأجر مرضعة غير أمه. وقيل: معناه وإن تضايقتم وتشاكرتم فليسترضع لولده غيرها، وهو خبر في معنى الأمر. وقال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر. وقد اختلف العلماء فيمن يجب عليه رضاع الولد على ثلاثة أقوال: قال علماؤنا: رضاع الولد على

الزوجة ما دامت الزوجية؛ إلا لشرفها وموضعها فعلى الأب رضاعه يومئذ في ماله. الثاني: قال أبو حنيفة لا يجب على الأم بحال. الثالث: يجب عليها في كل حال.

الرابعة: فإن طلقها فلا يلزمها رضاعه إلا أن يكون غير قابل ثدي غيرها فيلزمها حينئذ الإرضاع؛ فإن اختلفا في الأجر فإن دعت إلى أجر مثلها وامتنع الأب إلا تبرعا فالأم أولى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعا. وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططا فالأب أولى به. فإن أعسر الأب بأجرتها أخذت جبرا برضاع ولدها.

الآية: [٧] {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}

فيه أربع مسائل :

قوله تعالى: {لِيُنْفِقْ} أي لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان موسعا عليه؛ ومن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة؛ فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفق عليه ثم ينظر إلى حالة المنفق، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه، فإن اقتضرت حالته على حاجة المنفق عليه ردها إلى قدر احتمالها. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه وأصحابه: النفقة مقدرة محددة، ولا اجتهاد لحاكم ولا لمفت فيها. وتقديرها هو بحال الزوج وحده من يسره وعسره، ولا يعتبر بحالها وكفايتها. قالوا: فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس. واستدلوا بقوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}، الآية. فجعل الاعتبار بالزوج في اليسر والعسر دونها، ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره فيؤدي إلى الخصومة؛ لأن الزوج يدعي أنها تلتبس فوق كفايتها، وهي تزعم أن الذي تطلب قدر كفايتها، فجعلناها مقدرة قطعا للخصومة. والأصل في هذا عندهم قوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ} كما ذكرنا. وقوله: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ}، والجواب أن هذه الآية لا تعطي أكثر من فرق بين نفقة الغني والفقير، وإنما تختلف بعسر الزوج ويسره، وهذا مُسَلَّم. فأما إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه فليس فيه، وقد قال الله تعالى: {عَلَى الْمُؤَلِّدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}، وذلك يقتضي تعلق المعروف في حقهما، لأنه لم يخص في ذلك واحدا منهما. وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنية مثل نفقة الفقيرة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهند: "خذي ما يكفيك وولديك بالمعروف". فأحالتها على الكفاية حين علم السعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتك وأن الواجب لك شيء مقدر، بل ردها إلى ما يعلمه من قدر كفايتها ولم يعلقه بمقدار معلوم.

....

الرابعة- قوله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } أي لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني. { سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } أي بعد الضيق غنى ، وبعد الشدة سعة.

الآية [١٢] {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} دل على كمال قدرته وأنه يقدر على البعث والمحاسبة. ولا خلاف في السموات أنها سبع بعضها فوق بعض، دل على ذلك حديث الإسراء وغيره. ثم قال: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} يعني سبعا. واختلف فيهن على قولين، أحدهما: وهو قول الجمهور، أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أي سبعا من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما (!!!). ثم قال: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} قال مجاهد: يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع. وقال الحسن: بين كل سماءين أرض وأمر، والأمر هنا الوحي، في قول مقاتل وغيره. وعليه فيكون قوله: {بَيْنَهُنَّ} إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: الأمر القضاء والقدر، وهو قول الأكثرين. فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: {بَيْنَهُنَّ} إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} بحياة بعض وموت بعض وغنى قوم وفقير قوم. وقيل هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره؛ فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا على مجال اللغة واتساعها؛ كما يقال للموت: أمر الله؛ وللريح والسحاب ونحوها. {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} يعني أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن، وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومكنته. {وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته. ونصب "عِلْمًا" على المصدر المؤكد، لأن "أحاط" بمعنى علم. وقيل: بمعنى وأن الله أحاط إحاطة علما. ختمت السورة بحمد الله وعونه.

وقال الأستاذ سيد قطب:

سورة الطلاق، يبين الله فيها أحكامه، ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى (سورة البقرة) التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة. وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته؛ وحق المطلقة وواجبها في

البقاء في بيتها- وهو بيت مطلقها- فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مبينة؛ وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء، ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة، لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف. وهذا مع الإسهاد على الإمساك أو الفراق. وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض، وبين عدة الحامل؛ ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع، ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه، وأجر الأم على الرضاعة في حالة الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما، وفي حالة إرضاعه من أخرى، ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلاً، فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته. وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات، وما يتخلف عنها، بأحكام مفصلة دقيقة، ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه، وبينت حكمه، في رفق وفي دقة وفي وضوح. ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها. وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب، والتعقيب على كل حكم، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه، وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي، وإيثار الجميل، والإطعام في الخير، والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق، وفي اليسر والعسر.

ويقرأ القارئ في هذه السورة {وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبُّكُمْ}، {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}، {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، {وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}، {ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ}، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}، {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}. كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل: {وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ، وَعَدَّ بِنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا. فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}. يعقبه التحذير من مثل هذا المصير، والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور، والتلويح بالأجر الكبير: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا، رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}. ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، لَتَعْلَمُو أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق. ويجد سورة كاملة في القرآن، من هذا الطراز، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك! وربطها هكذا بأضحخ حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي. وهي حالة تخدم لا حالة بناء، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء لأسرة، لا لدولة. وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة! علام يدل هذا؟ إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد. حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة! إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي، فالإسلام نظام أسرة. البيت في اعتباره مثابة وسكن، في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتحمل والحصانة والطهر وفي كنفه تنبت الطفولة، وتدرج الحداثة ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل. ومن ثم يصور العلاقة البيئية تصويراً رافقاً شفيفاً، يشع منه التعاطف، وترف فيه الظلال، ويشيع فيه الندى، ويفوح منه العبير: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}، {هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ هُنَّ}، فهي صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، وهي صلة المودة والرحمة، وهي صلة الستر والتحمل. وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنوا ورفقاً، ويستروح من خلالها نداوة وظلا. وإنما لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق. ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها، بما فيها امتداد الحياة بالنسل، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة، ويعترف بطهارتها وجديتها، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها. ذلك حين يقول: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ}. فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار. ويحيط الإسلام هذه الخلية، أو هذا المحضن، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته. وحسب طبيعة الإسلام الكلية، فإنه لا يكتفي بالإشعاعات الروحية، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية. والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها، وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات، وفي الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع، كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها، يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي، وقيمة هذا الأمر عند الله، وهو يجمع بين تقواه- سبحانه- وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}. كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وبين الشكر لله والشكر للوالدين في سورة لقمان: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}. وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى. وكان الله سبحانه قادراً على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة. ولكن قدره جرى بهذا الحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق، حيث تلي حياة الأسرة فطرته واستعداداته، وحيث تنمي شخصيته وفضائله،

وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته. ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقه الإنسان ابتداء. كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف.

والدلالة الثانية لسياق السورة، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله، هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية. إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها، إنما ينظمها ويطهرها، ويرفعها عن المستوي الحيواني، ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية. وقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التي تجعل من التقاء جسدين، التقاء نفسين وقلبين وروحين؛ وبتعبير شامل التقاء إنسانين، تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة، ومستقبل مشترك، يلتقي في الذرية المرتقبة، ويتقابل في الجيل الجديد، الذي ينشأ في العش المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان. ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها: **{ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْهِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }**، ويسمي الزواج إحصانا أي وقاية وصيانة.

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوي الكريم، عن طريق استعداداتها وملاسات حياتها. ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير. ولا يكتفي بالتوجيه. ويستخدم هذا وذاك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة. إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار. والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها. وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق! ويفرض حد الزنا وحد القذف ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها. وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة، وقيم نظام البيت على أساس قوامه أحد الشريكين وهو الأقدر على القوام، منعا للفوضى والاضطراب والنزاع. إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز فوق التوجيهات العاطفية، وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته.

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تنهدم وتتخطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات. وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية، اعترافا بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس! والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول

وهلة، ولأول بادرة من خلاف. إنه يشد على هذا الرباط بقوة، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس. إنه يهتف بالرجال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}، فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} فما يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرا، وأن الله يدخر لهم هذا الخير، فلا يجوز أن يفلتوه، إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارتته، وترويض الكره وإطفاء شرته. فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى الشوز والنفور، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام. بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون، وتوفيق يحاوله الخيرون: {وَإِنْ حِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}، {وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا. فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}. فإذا لم تجد هذه الوساطة، فالأمر إذن جد، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة، ولا يستقر لها قرار. وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة، يزيد بها الضغط فشلا، ومن الحكمة التسليم بالواقع، وإنما هذه الحياة على كره من الإسلام، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق. إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء. وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال. وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس، وتقر القلوب، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق! ثم بعد ذلك فترة العدة. ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد، وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة، وفترة الحمل للحوامل. وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة، ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية. ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصالا يقع، وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية، فتُشرع لها، وتُنظم أوضاعها، وتُعالج آثارها. وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة، مع دفعها دائما إلى الأمام، ورفعها دائما إلى السماء. والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد، هو أنها كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية، وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف، مما اقتضى هذا التشديد، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية، ومن التفصيلات الدقيقة، التي لا تدع مجالاً للتلاعب والاتواء مع ما كان مستقرا في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين، ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية.

....

{وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}، ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يجرسها ويرعاها، وظلم نفسه بظلم زوجته، وهي وهو من نفس واحدة، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار، ثم {لا

تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، وهي لمسة موحية مؤثرة. فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة، وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن. إنه يلوح هناك أمل، ويصوص هناك رجاء، وقد يكون الخير كله، وقد تتغير الأحوال وتبديل إلى هناة ورضى. فقدر الله دائم الحركة، دائم التغيير، ودائم الأحداث. والتسليم لأمر الله أولى، والرعاية له أوفى، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك! والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، وما فيها من أوضاع وملابسات، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة، وتشعر أنها سرمد، وأنها باقية، وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها. وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان. وليست هذه هي الحقيقة، فقدر الله دائما يعمل، ودائما يغير، ودائما يبذل، ودائما ينشئ ما لا يجول في حسابان البشر من الأحوال والأوضاع. فرج بعد ضيق، وعسر بعد يسر، وبسط بعد قبض. والله كل يوم هو في شأن، يديه للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب. ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر، ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجددا ودائما، ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة. ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل، ندية بالرجاء، لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر. واللحظة التالية قد تحمل ما ليس في الحسابان.. { لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}..

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}. مخرجا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقا من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقرير عام وحقيقة دائمة، ولكن إصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عند ما يتقي المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة. وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحسن ولا أدق من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير. { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} والتوكل على الله، وهو كاف لمن يتوكل عليه. فالله بالغ أمره؛ فما قدر وقع، وما شاء كان؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر وقوة القاهر، الفعال لما يريد، البالغ ما يشاء. والنص عام والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب، بالنسبة لإرادة الله وقدره. ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيجازه في هذا المجال وأثره.

{ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} ، فكل شيء مقدر بمقداره، ويزمانه، وبمكانه، وبملاساته، وبتأثيره وأسبابه. وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافا، في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني. ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بما ما قدره الله عن الطلاق وفتوته، والعدة ووقتها، والشهادة وإقامتها، ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة، والناموس الكلي العام، ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله. { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} ، واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبده من عباده، فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة. يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله.

ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها. ويعيش من هذا في يسر رخي ندي، حتى يلقي الله. ألا إنه لإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة! {ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ}، وهذه لمسة أخرى في جانب آخر، لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر، فقد أنزله الله، أنزله للمؤمنين به، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله. ثم عودة إلى التقوى التي يدق عليها دقا متواصلًا في هذا المجال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}. فالأولى تيسير للأمر، والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير. فهو الفيض المغربي والعرض الكثير، وهو حكم عام ووعد شامل، ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله، ويغمر القلب بالشعور بالله وفضله العميم. فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير؟ {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}، وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت، والإنفاق في فترة العدة، على اختلاف مدتها. فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى، لا أقل مما هم عليه في سكناهم، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم، غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه. ومن ضيق عليه في الرزق، فليس عليه من حرج، فالله لا يطالب أحداً أن ينفق إلا في حدود ما آتاه. فهو المعطي، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله، فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}. ثم لمسة الإرضاء، وإفساح الرجاء، للآتين على السواء: {سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}.. فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر. فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله، وأن يتجها إليه بالأمر كله، وأن يراقباه ويتقبياه والأمر كله إليه. وهو المانع المقابض الباسط. ويده الضيق والفرج، والعسر واليسر، والشدة والرخاء. فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى، والضيق بعد الفرج، والرزق من حيث لا يحتسب، وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير.

إن هذا الدين منهج نظام جماعي جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص، وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها، ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه، مسؤولة عن أحكامه، ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذي حق على القرى التي عنت عن أمر ربها ورسله. وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا. الذين هدتهم ألباهم إلى الإيمان، يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر: {قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا}. ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فيجعل شخصه الكريم هو الذكر، أو بدلا منه في العبارة: {رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ}. وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل متنوعة، إن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته.

والوجه الثاني لإيجاء النص هو أن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحالت ذكرا، فهي صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو. وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن. وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا وصفته عائشة رضي الله عنها وهي تقول: «كان خلقه القرآن».. وهكذا كان القرآن في خاطره في مواجهة الحياة. وكان هو القرآن يواجه الحياة! وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا. وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق، فلا يقاس إليه رزق الأرض: {قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}، وهو الرزق في الدنيا والآخرة، ولكن رزقا خيرا من رزق، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم. وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى، ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض، إلى جانب رزق الجنة. بعد ما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضا ..

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع الكوني الهائل، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدرته الله، وعلم الله، في المجال الكوني العريض: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}. والسماوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها، وكذلك الأراضي السبع، فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله. وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها. وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا، لأن علمنا لا يحيط بالكون، حتى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن. ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا.. وهيئات! فننتفع بإيجاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة في مجالها النفسي، وفي إنشاء التصور الإيماني الكوني الصحيح. والإشارة إلى هذا الكون الهائل: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}. يهول الحس ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق، وسعة ملكه، تصغر أمامه هذه الأرض كلها، فضلا على بعض ما فيها، فضلا على حادث من أحداثها، فضلا على دربهات ينفقها الزوج أو تنازل عنها الزوجة! وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع ينتزل أمر الله- ومنه هذا الأمر الذي هم بصددته في هذا السياق. فهو أمر هائل إذن، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطبقون التصور. والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين، ويتسامع به الملائم الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين. فهي مخالفة بلقاء شنعاء، لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات، ويبين له هذا الأمر، ليخرجه من الظلمات إلى النور.. وهذا الأمر ينتزل بين السماوات والأرض، لينشئ في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير فلا يعجزه شيء مما يريد، وأنه أحاط بكل شيء علما فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب.

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين:

الأول: أن الله الذي أحاط بكل شيء علما هو الذي يأمر بهذه الأحكام. فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملاساتهم ومصالحهم واستعداداتهم. فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علما.

والثاني: أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر، في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور.

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع. فسبحان خالق القلوب، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب!

وإذا المؤودة سئلت

المرأة في الجاهلية

حبيب الزيات

كل من عانى البحث في أحوال العرب في الجاهلية، وتصفح ما دُوّن عنهم في أسفار التاريخ الإسلامية، يعلم ما يكتنف تلك الأعصار من الظلمات الطامسة على آثارها المودية بكثير من صحيح أخبارها، بحيث كان هذا اليسير المنقول منها لا يسدُّ حاجةً ولا يشفي غلةً، فضلاً عما يتنازعه من الأقوال المتناقضة، والروايات المتضاربة التي لا يصح معها رأي ولا يتَّجه بها حكم، وفضلاً عن كون أكثر هذه الروايات وارداً مورد الأفاصيص والخرافات، مما لا يتضح به بحث ولا يُبنى على مثله علم؛ ولذلك لم يكن بدُّ للناظر في هذا الصدر من تاريخ العرب، المستزيد بيئاً لأحوالهم وتفصيلاً لوجوه معيشتهم، المتشوّف إلى الوقوف على كنه أخلاقهم، واستطلاع طلع عوائدهم؛ من إعادة النظر فيما جاء عنهم لذلك العهد، والتنقيب عن تتمته في تضاعيف الأخبار، وغضون الأحاديث التي لا يكاد يخلو منها مصنّف في اللغة، أو مؤلّف في الأدب، والاستعانة على تحقيق موضع الشاهد فيها من استقراء دواوين الشعراء في الجاهلية وبدء الإسلام . وهي على عزّتها وتعدُّر منالها، تكاد تكون فيما عدا اللغة والأمثال أوحد الآثار التي تمثل تلك الأعصار. ولا يخفى ما يقتضي مثل هذا المطلب الشاق من الجلد الرابط، وما يستغرقه من الوقت الطويل، مما لا يضطلع به الواحد، ولا يتسنى بلوغه لكل طالب.

وإنما جاء هذا النقص لاشتغال العرب في القرون الأولى من الإسلام بجهاد المشركين وفتح الفتوحات، وانصراف الرواة منهم عن رواية الأخبار الجاهلية إلى استقصاء الأحاديث الإسلامية، حتى إذا استقر فيهم المملك، ودانت لهم الأمصار، وأخلدوا إلى الحضارة؛ كان أول ما دفعتهم إليه الحاجة تدوين بعض ما يستعينون به على تفهم السنة والحديث، وأحكام تلاوة القرآن، كما يشهد بذلك ما نُقل عن أصل وضع فنيّ الصرف والنحو؛ ولذلك كانت أكثر تأليفهم في سائر العلوم لا تتجاوز في بدء أمرها حد الكفاية، ولا تتعدى الغرض الذي دعاهم إلى وضعها؛ لأنفتهم من انتحال غير العلوم الدينية، وأطراحهم كل ما عداها مما لا يرجع إليها أو لا يعين عليها؛ نظراً لقرب عهدهم بالبدواة، واشتغالهم بتولي الرئاسة وتقلد الأعمال السلطانية، حتى كان أكثر حَمَلَة العلم بينهم من العجم، كما تَبَّه على ذلك ابن خلدون في مقدمته.

ولهذه الأسباب لم أطمع، حين أقبلت على البحث عن حالة الأنتى في الجاهلية، أن أفي هذا الموضوع حقه، ولا أن أحيط بالمسألة من جميع أطرافها؛ لغياب ما يمثل تلك الحالة بتمامها، لا سيما وأن الكلام فيها نسج على غير منوال وطبع على غير مثال؛ إذ لا أعلم فيما بلغني أن قد سبق لأحد من أهل اللسان العربي كلام في هذا الصدد أو استقصاء في البحث عنه؛ ولذلك اضطررت أن أرجع في كثير مما ذكرته إلى أبيات من الشعر، أصبتها بعد طویل الجهد متفرقة في أقوال شتى لشعراء مختلفين، أوردتها شواهد بما وصفته جرياً على المشترط في أصول البحث من الاحتجاج لكل قول بما يثبت صحته وينفي عنه شبهة الوضع، ولم أقتصر منها على ما كان جاهلياً بحتاً، بل نقلت أحياناً من شعر المخضرمين وأهل الطبقة الأولى من المحدثين ما أصبت الشاهد فيه؛ إذ كانت الأخلاق والعوائد لذلك العهد لم تحل بعد بتمامها عما كانت عليه في الجاهلية، إلا ما نسخه الشرع أو حظره الدين.

ولست أدعي بذلك أن ما حكيتُه هو تمثيل الواقع وإصابة السداد؛ فزب رأيي تخيل لي أنه هو الراجح، والأرجح غيره. وإنما حكمت بحسب ما ثبت لي من الظاهر ودلتي عليه القرائن، وعلى قدر ما اجتمع عندي من الشواهد التي حصلتها مما تهيأ لي مطالعته من المصنفات التي تكاد تنحصر في شرح الحماسة للتبريزي، وجزء من العقد الفريد لابن عبد ربه، وبعض صفحات من كتاب الأغاني للأصبهاني. ولا ريب أنه إذا تسنى لأحد من ذوي الخبرة والاطلاع استكمال مثل هذه المطالعات واستقراء أشباه هذه الشواهد في مظانها؛ يظفر منها بما يكون حكاية الصحيح وفصل الخطاب، وينجلي البحث بعدها بما لا يذكر معه ما اشتملت عليه هذه العجالة القاصرة.

معلوم أن العرب في جاهليتهم كانوا أكثرهم أهل بادية؛ معاشهم من القيام على الإبل يغتدون بألبانها، ويقتاتون بلحومها، ويكتسون بأوبارها، ويتخذونها ركائب يقطعون عليها مجاهل القفار، فكانت لذلك مخصّصة عندهم بمزيد العناية، يتخيرون لها أطيب الأرض بقعةً، وأكثرها عشباً، ويتبعون لأجلها مواقع الغيث على حسب اختلاف الفصول، فلا يزالون دهرهم في حلّ وترحال يطوفون الآفاق طلباً للمرعى وارتباً للماء. غير أنهم كثيراً ما كانوا يصابون بالقطح ويحتبس عنهم المطر، فيهلكون هم ومواشيهم جوعاً، أو تدفعهم الحاجة أو الطمع إلى الإغارة على من جاورهم فيقطعون السابلة، ويغزو بعضهم بعضاً فينهبون ويسبّون، وربما أصاب أحدهم الفتاة العذراء أو المتزوجة أمّ البنين فيحسبها غنيمةً باردة كسبها برمح، ويختصها لنفسه دون تحرج ولا تورع، وربما سبيت منه فيغتصبها غيره، فلا تزال تنتقل من مالك إلى آخر إلى أن يتيسر لأهلها استرجاعها، فتعود إلى منزلها الأول وقد لزمها من العار ما يبقى سبةً لدويها مدى الدهر. وقد كانت السبيّة لمعرفتها بمقدار الذل الذي يلحقها من امتلاكها بالسبي، وأنفتها من تعيير أهل مولاها ودعائهم إياها بالأمة؛ تتحين الفرص لمفارقتها وتعمل على الفرار من يديه، لا يشبطها عن ذلك طول صحبتها إياه مع إحسانه إليها، ولا يثني من عزمها ما يصلها به من علاقة الولد، كما ذكر أبو عمرو الشيباني عن سلمى امرأة عروة بن الورد، وقد كان أصابها بكرًا من بني كنانة، وأعتقها وتزوجها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولادًا، وهو لا يشك أنها أرغب الناس فيه، وهي تقول له: لو حججت بي فأمر على أهلي وأراهم. فحجّ بها، ثم أتى المدينة، فلما همّ أن يعود بما قالت سلمى لقومها: تعالوا إليه وأخبروه أنكم

تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحته سبيةً وافتدوني منه فإنه لا يرى أبي أفارقه. فأتوه وسقوه الشراب فلما ثمل قالوا له: فإدنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة، وإن علينا سبة أن تكون سبيةً، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاحطبها إلينا. فامتنع ثم اشترط عليهم أن يخيروها، فاختارت أهلها ثم أقبلت عليه فقالت: يا عروة، أما إني أقول فيك، وإن فارقتك، الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعلٍ خير منك، وأغضَّ طرفاً وأقل فحشاً وأجود يدًا وأحمى لحقيقة، وما مر عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك؛ لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا إلا سمعته، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً، فارجع إلى ولدك راشداً، وأحسن إليهم .

ولهذين السبيين، أي خوف العار وخوف الفقر، كان بعض العرب يبدون بناهم، لا يفعل ذلك منهم عابد الوثن فقط، بل المنتصر أحياناً، كما نُقل عن عدي بن ربيعة المعروف بالمهلل زير النساء أنه لما وُلدت له ابنته ليلي أمر بدفنها، ثم بدا له فاستحياها. وذكر عن قيس بن عاصم أنه وأد بيده بضع عشرة ابنة له قال: وما رحمت منهنّ إلا واحدة، ولدتها أمها وأنا في سفر، ودفعتها إلى أخوالها، فلما قدمت وسألت عن الحمل، أخبرت أنها وُلدت ميتاً، ومضت سنون حتى ترعرعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها قد ضفرت لها شعرها وزينتها وألبستها الحلبي، فقلت: من هذه الصبية فقد أعجبنى حسنها؟ فبكت وقالت: هذه ابنتك. فأمسكت عنها حتى اشتغلت أمها فأخرجتها وحفرت حفرة وجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبتِ أتغطيني بالتراب؟! حتى وارتبها وانقطع صوتها.

واستمر الواد جاريًا عند العرب إلى أن قام زيد بن عمرو النضري، فجعل ينهي عنه، وتبعه صعصعة بن ناجية جد الفرزدق، فأخذ يطوف في القبائل يشتري الموءودة بناقتين وجمل، يشتري حياتها لا رقها، وظل كذلك إلى أن جاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة. ونظرًا لتأصل هذه العادة القبيحة في نفوسهم وتعارفهم بها، كان الوالد إذا أدركته الشفقة على ابنته وأحب استحياها، يجهد بإخفائها من الناس لئلا يفظن لها أحد، مثلما فعل عصيم بن مروان بابنته نضيرة أم حصن بن حذيفة، فيما حكاه أبو محمد الأعرابي ولم يكن له ولد غيرها، فلما وُلدت له ورآها انتشرت نفسه عليها ورق لها، وقال لأمها: استرضعها وأخفيها من الناس.

ومع ذلك، فلم يكن العرب بأسرهم على هذا المنوال يبدون بناهم، فإن عددًا منهم ليس بالقليل كانوا يستحيون، غير أنهم كلهم قاطبةً كانوا يكرهون ويرون ولادتهن مصيبةً عليهم؛ أنفةً من العار الذي قد يلزم عنهن، وهرتًا من مئونة تربيتهن. وقد سئل أحدهم عن ولده فقيل له: كم ولدك؟ فقال: قليل حبيث. فقيل له: كيف؟ قال: لا أقلّ من واحد، ولا أحبث من أنثى.

وقد توارث هذه الكراهة الخلف عن السلف، حتى إنه لما أراد بعض الإسلاميين أن يهني بعض الوزراء قديمًا بانية وُلدت له احتاج أن يذكر، تسلياً له، ما في السماء والأرض وما بينهما من الإناث، وهذا نص كتابه أوردته تفكهةً ليعلم منه كم كانت الأنثى مُبغضةً إلى والديها. قال: "أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار،

والأولاد الأطهار، المبشرة بإخوة يتسابقون، ونجباء يتلاحقون. والله يعرّفك البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها، فأدرع اغتباطاً، واستأنف نشاطاً؛ فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة: وقد زُينت بالكواكب، وحليت بالنجوم الثواقب. والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا تحرك الأنام. والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها تنعم المرسلون". إلى آخر ما هنالك مما هو بالتعزية أشبه منه بالتهنئة. وأما التهنئة الصحيحة فإنما كانت تكون عندهم إذا توفيت الأنثى، وأقل ما كانوا يكتبونه في التهنئة بوفاتها قولهم: ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات، وتقديم الحُرَم من النعم، وغير ذلك مما لا أستقصي في ذكره.

على أن بعض العرب كانوا في عكس من سبق، يحبون بناهتً ويبدلون في إكرامهتً غاية جهدهم، دون أن يمنعمهم ما كانوا يتقونه منهم من الفضيحة وثقل المثونة عن توفيتهم حقهم من العناية والتربية، بحيث كانوا يجزعون لأقل أذى يجل بهن. قال حطّان بن المعلّى:

لولا بنيات كزغب القطا *** رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع *** في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا *** أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم *** لامتنعت عيني عن الغمض

وقد بقيت آثار ذلك كله إلى اليوم كما هو مشهور في هذه الأقطار.

وقد نعبت كثيراً فيما بين يديّ لأجد ما أصف به حالة الأنثى في بيتها إذا ترعرعت وما كان يستغرق وقتها من أشغال المنزل ومهمات تديره؛ فلم أظفر من ذلك بالبلاغ؛ فإن البيت كله كان في الغالب قائماً في طراف أو خباء، يتولين فيه الرदन، أي الغزل، ومنه اشتقاق رُدِينَة من أسمائهنّ، أو ينسجن الصوف والوبر والشعر ونحوه، وقد يدبغن الأديم ويرملن الحصير. ومهمات المنزل بأسره منحصرة في تهيئة الطعام، فيما لا يكاد يخرج عن اللبن الحليب والأقط والتمر والدقيق والعسل والزبد والسمن والزيت والشحم، شأن سائر سكان القفار الباقين على نشأتهم الطبيعية؛ ولذلك إذا راجعنا مآكل العرب وحلوياتهم لم نرها تتعدى هذه الأشياء، تُفرد أو تُخلط بعضها ببعض، وأما اللحم فغاية إحضاره أن يشوى على الجمر أو على الحصى، أو يدفن في الرماد، أو يكون جيد النضج بالغه أو قليلة؛ مما يرجع إلى حالة واحدة ولا يتطلب كبير عناء؛ ولذلك كان بعض النساء يخرجن راعيات يقضين يومهنّ في القيام على الإبل أو الشياه، وبعضهنّ بائعات كما نُقل عن ذات النحيين في المثل المشهور، وأكثر ما كرت يعبن العسل والسمن والتمر والعطر، يظفن به الأحياء يستبدلنه أحياناً بالشحم، أو يلزمن به مكاهنّ فيأتيهنّ الرجال يتطيبون به لدهنّ، وربما تعرضن للركبان بالأدم والبُرْم؛ أي الجلود والقذور. ولا يبعد أن يكون هنالك صنائع أخرى كرت يتعاطينها مما لا يكاد يتعدى حاجة ساكن القفر، مثلما جاء عن رُدِينَة أنها كانت في خط هجر هي وزوجها سمهر يقومان الرماح؛ ولذلك نسبت الرماح إليهما، فليل رمح رديني ورمح سمهري. ويلحق بهذا ما كان يتعاطاه

بعضهنَّ من فنون الكهانة، كالضرب بالحصى، مما يشاهد مثله في بدويات اليوم، وكزجر الطير أو العيافة، وهي أن ترمي الطائر بحصاة أو أن تصيح به، فإن طار عن اليمين استسعدت به، وإن طار عن اليسار تشاءمت به، تسمى العرب الأول سائحًا، والثاني بارحًا، وكانوا يعتقدون بصحة هذه الخرافات، وكنَّ فيما عدا التنجيم يتكلفن الرقي والنفث في العقد من فنون السحر، وهو أن يعقدن عُقدًا في حيوط أو في وتر وينفثنَ عليها؛ أي ينفخنَ مع ريق، وقد استعاذ منهنَّ القرآن فقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. على أن كثيرًا من هذا الذي تقدم كان تقوم به الولاثة والإماء من الرقيق، وهن وقتنَّ يُعَدَدْنَ بالألوف، فكنَّ يُسْتَحْدَمْنَ في عامة حاجات المعيشة: من رعي الإبل خاصةً، وخدمة المنزل، وتعاطي المهن، وسائر ما تتطلبه لوازم الحياة في القفر مما كانت تترفع عنه حرائر النساء أو يأنفن من مزاولته لما يترتب عليه عندهنَّ من العار والغضاضة في الشرف. وإنما ذكر النساء؛ لأنهم يأنفون من الصناعات ويعلمونها العبيد والإماء وحرائر النساء، إذا لم يكنَّ في غاية بعيدة من الشرف؛ ومن أظهر الدلائل على هذه الأنفة من الامتهان والتبذل قولهم في المثل: تجوع الحرّة ولا تأكل بنديها.

ومما يلحق بذلك الغناء، فإنه في الجاهلية كان من خصائص الإماء، وتسمى عندهم الأمة المغنية بالقينة والكرينة، وأول من غنَّى من الإماء، فيما زعموا، جاريتان كانتا لمعاوية بن بكر من قبيلة عاد الهالكة، وهما المدعوتان في الأخبار بالجرادتين. ولا يبعد أيضًا أن تكون الأمة هي التي كانت تتولى خياطة الثياب وإصلاحها بنفسها، أو تسعفها في ذلك مولاتها، إذا كان المحيط لها أو لأسرتها أو لم تكن عريقة في الشرف، وكانت النساء لذلك العهد أو بعضهنَّ يحتفلنَّ بملابسهنَّ، ولا يقتصرنَّ على لبس القطن والصوف والوبر، بل يتشحنَّ أحيانًا بالديباج والحرير حسب يسارهنَّ. وأقل من ذلك لبسهنَّ الثياب الموشاة بالذهب، قال سلمى بن ربيعة:

والبيض يرفلن كالدمى*** في الريط والمذهب المصون

يعني بالبيض النساء، يتبخترن في الريط وهي الملاعة الواسعة، والمذهب المصون يراد به الثياب الفاخرة المطرزة بالذهب، على أنهنَّ كنَّ في أوقات الخلوّة يقتصرنَّ على لبس الصدار^٥ والمجول^٦ والإتب^٧ تحت دروعهنَّ^٧، وهي كما ذكره الثعالبي قُصَصٌ متقاربة الكيفية في القصر واللطافة وعدم الأكمام، ولا بد أن ذلك كان عامًّا لهنَّ، حتى قيل في المثل: كل ذات صدار خالة. وأما الزيُّ الذي كنَّ يتخذنه في ملابسهنَّ فالظاهر أنه كان لا يخلو من بعض التأنق، ومن أغرب الشواهد الدالة على مبلغه عندهنَّ هذه الوسادة التي تضعها نساء الفريجة ونساؤنا تحت أثوابهنَّ في أسفل الخصور لتعظيم ما خلف الظهور، فإنها ليست من إيجاد مختزعات الزي في أوروبا، بل هي من معلومات نساء العرب في سالف الدهر، وتسمى عندهنَّ بالعُظَّامة والحشِيَّة والرِّفاعة، وإذا قرأنا في تفسيرها قول أرباب اللغة علمنا أنها هي

⁵ ثوب يُغَطَّى به الصدر (المعجم العربي الأساسي)

⁶ الإتب: الثوب القصير إلى نصف الساق (المعجم الوجيز)

⁷ قميص المرأة: (المعجم العربي الأساسي)

هي ما نراه اليوم في زيِّ المرأة المتمدنة؛ "العُظَّامة ثوب كالوسادة تعظَّم به المرأة عجيزتها"، ومن ذلك أيضًا عادة إطالة الذبول وجرها تبخترًا وخيلاء، وأشعار العرب طافحة بذكرها، فلا حاجة إلى النص عليها في بيت بعينه. وأشد من اهتمامهنَّ بالملبس حرصهنَّ على التحلي، وبلغ من شغفهنَّ به أنهنَّ لم يقتصرنَّ على الحلبي الواحد في الموضع الخاص به، بل ربما عدَّدنه في كل قسم منه، كاليد مثلاً؛ فإنهنَّ فيما عدا الخواتم في الأصابع اتخذنَّ فيها للمعصم سوارًا، وللساعد جبيرَةً، وللعضد دملجًا. وكالرجال فقد ذكر الثعالبي فضلًا عن الخلخال والخدمة لها الفَتَّخ لأصابعها، وقال تلبسها نساء العرب؛ وكذلك الأذن، فقد جاء الشنف لما يعلق في أعلاها والقرط لأسفلها، ويظهر أن السوار لم تكن تلبسه إلا الحرائر من النساء دون الإماء، بدليل قول حاتم الطائي لما لطمته العنزبة حين فصد لها البعير: لو ذات سوار لطمتني! ومن لوازم التحلي ولواحقه التزيُّن والتبرج فيما يتناوله من التطيب والاختضاب والوشم وترجيل الشعر وتزجيج الحواجب والتكحل وما أشبهه، وأكثر ما كان الوشم في ظاهر الكف والمعصم وربما وشمتم الحمقاء غير ذلك ليكون أحسن لها، كما ذكروا في تفسير المثل: هو أعظم في نفسه من المتَّشمة. وأما الشعر فيستفاد من وصف امرئ القيس للفرع في معلقته المشهورة أنهنَّ كنَّ إذا أردنَّ ترجيله تفتنَّ في ضفروه وتهبئته، وخالفنَّ فيه بين تشنئة وإرسال ونظرًا لما يترتب على الفرع الطويل من الحسن كنَّ إذا قصر شعر إحداهنَّ تصله بغيره ليكون أتم لها، وتسمى من كانت كذلك بالواصلة والطالبة له بالمستوصلة، وقد لعنهما كليهما الرسول كما لعن الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنصمة، ومعنى النامصة الناتفعة لشعرها كما تفعل بعض النساء اليوم، ومنه قول الراجز:

ياليتها قد لبست وصوصا*** وتمصت حاجبها تنماصا

أراد بتنماص الحاجب نتف ما نبت فيه وراء القوس من الشعر، وكانت العرب تحب الحواجب المزججة أي المدققة المطولة، وأما صبغها المعروف بالخطوط فلم تكن تعرفه البدويات، وإنما هو من تبرج الحضريات. ولا حاجة إلى التنبية على أن هذا الذي تقدم من حرص المرأة على التزيُّن والتحلي كان يُشاهد في غير المرأة الثاكل أو الفاقد؛ فإن حداد هذه كان يشغلها عن كل زهو وتبرج؛ ولذلك عرَّفوا الحداد بكونه خاصة ترك الزينة والخصاب، وإن كان في الواقع يتناول غير ذلك كلبس السُّلب السود، وهي ثياب المأتم، والمسوح وقد تعصب الحداد رأسها أيضًا بالسلاب، بل ربما تناول الحداد ما هو أشد من ترك الزينة؛ كحلق الشعر وتعليق النعلين أحيانًا، كما ذكر عن الخنساء أنها رؤيت بعد مقتل أخيها صخر تطوف بالبيت مخلوقة الرأس وهي تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها، قال المبرِّد: وتأويل النعلين أن المرأة كانت إذا أصيبت بحميم لها جعلت في يديها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها، وقصره الإصابة على الحميم فقط يدل على أنه إذا لم يكن المصاب به كذلك ندبته المرأة بغير نعلين، واستعاضت عنهما بحرقه تمسكها بيدها وهي تنوح كما تصنع النوادب اليوم، وتسمى هذه الحرقه بالمثلاة. وما اشتهر عنهنَّ البروز عند سماع النعيِّ حاسرات بغير نقاب، وخمش الوجه وقد تقدم شاهده، وشق الجيب كما قال طرفه:

وإن مت فانعيني بما أنا أهله*** وشقي على الجيب با بنة معبد

وأقل منه تخريق الخمار. وأما مدة الحداد فلا يبعد أنها كانت تختلف باختلاف منزلة الفقيد أو نسبه، وقد

جعلها لبيد حولًا كاملاً. ومما يتصل بالملبس التفتُّع والتنقب، وقد كان النقاب يستر الوجه إلى قصبة الأنف أو إلى الحجر فقط، بحيث كانت تُرى منه العين، ولعله لم يكن في بدء الأمر إلا فضلة القناع تردُّها المرأة على شفتها كما يردُّ الرجل فضل عمامته على فمه، بدليل إطلاق لفظ اللثام على كلا الرَدَّين، ثم ما لبث اللثام أن ارتفع إلى ما فوق الفم فكان لفامًا، ثم انتهى إلى الأنف فغشيه أو بعضه فكان نقابًا، وربما ضاق أيضًا حتى لا تبدو منه إلا العين فقط وهو البرقع والوصواص. وذكر أبو زيد في كتاب النوادر أنه قيل لأعرابي: ما تقول في نساء بني فلان؟ فقال: برِّق وانظر.. يريد حسن أعينهنَّ. ومن هذا الترتيب يُستدل على أن النقاب كان في أول اتخاذه كاللثام للرجال، ثم لما جعل أرباب الهوى لا يرون حسناء إلا تعشقوها ونظموا فيها الأبيات السائرة تحرز منهم النساء بالنقاب؛ سترًا لمحاسنهنَّ أن يبتدلهما الوصف، فأصبح لذلك التنقب عادةً أوجبها التعفف والتصون. يشهد بذلك ما ذكر عن المتجرِّدة امرأة النعمان ملك الحيرة حين سقط يومًا نصيفها، أي خمارها، فأبصرها النابغة الشاعر فبادرت واستترت بيدها وذراعها، فكادت ذراعها تستر وجهها لامتلئها وغلظها، فما لبث النابغة بعد هذه اللمحة اليسيرة أن نظم قصيدته الدالية، وصف فيها المتجرِّدة وصعًا نَبَّه فيه على أكثر محاسنها حتى تجاوز إلى رُضابها، فقال فيه ما أوجب غضب النعمان عليه؛ ونُقل مثل ذلك عن طرفة لما كان بين يدي عمرو بن هند يشرب وأشرفت أختٌ للملك فراها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر نغمهما عليه عمرو بن هند، وكان من بعض ما بعثه على الأمر بقتله كما ذكر في قصته. ومما يدل على أن التنقب لذلك العهد كان تصونًا استئثار الحرائر به دون الإماء، حتى كانت الحرة إذا خشيت السبي يومًا وأرادت أن تأمن على نفسها تلقي عنها النقاب وتبرز حاسرةً كالأمة ليظن أنها هي فلا يُتعرض لها. قال التبريزي في شرح قول معدي كرب:

وبدت لميس كأنها *** قمر السماء إذا تبدى

أي برزت هذه المرأة كاشفةً عن وجهها، وإنما فعلت كذلك إما للتشبه بالإماء حتى تأمن السباء، أو لما تداخلها من الرعب. على أن التنقب لم يكن عامًّا لكل الحرائر على السواء ملازمًا لهنَّ في جميع أحوالهنَّ؛ فإن بعضهنَّ كنَّ لا ينتقبن من الرجل إذا كان غير شجاع تظاهرًا بالاحتقار له أن يكون عاجزًا عن حماية الأعراس ومدافعة الأعداء، وقد نقل عن بني الحرث بن كعب خاصةً أنه إذا كان الرجل منهم جبانًا لم تحتمر منه امرأة أبدًا، وكنَّ كلهنَّ جُمع إذا فاجأهنَّ ما يذهلنَّ له من مصيبة أو حزن يبرزنَّ حاسرات سافرات عن وجوههنَّ يلطمنها باكيات. ومثل ذلك كانت تفعل بعض النساء الحسان، فكنَّ في أكثر الأوقات يبرزنَّ للنظار سافراتٍ عجبًا بجمالهنَّ أن يسترَّه قبح القناع. وقد عُرف ذلك منهنَّ حتى كانت المرأة إذا رؤيت حريصةً على التنقب والتستر حُكم عليها لأول وهلة أنها قبيحة المنظر، واعتُقد فيها أنها إنما تقنعت لتغرَّ الناظر إليها وتوهمه جاهلًا؛ ولذلك قيل في المثل: ترك القناع من ترك الخداع. وقد ذكر عمر بن أبي ربيعة عادة النساء الحسان في ترك التقنع، فقال من شعرٍ له:

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت *** وجوه زهاها الحسن أن تقنعا

أي استخفها الحسن أن تستر وجهها بالقناع. قال التبريزي في شرح هذا البيت: وهكذا كانت نساء العرب تفعل إذا كانت جميلة. وقد ذكر مثل ذلك الشماخ وأبو النجم من الرِّجَاز، فقال الأول: أطارت من الحسن الرداء المحبِّراً. وقال الثاني: من كل غرء سقوت البرقع. وعلى كلِّ فأياً كان السبب لم تكن النساء يبرزن حاسرات إلا وهنَّ حريصات على التعفف حرصهنَّ عليه وهنَّ منتقبات مستترات، كما قال في مثلهنَّ بعض واصفيهنَّ:

برزن عفافا واحتجن تسترا*** وشيب بقول الحق منهن باطلا

فدو الحلم مراتب وذو الجهل طامع*** وهن عن الفحشاء حيد نواكل

كواس عوار صامتات نواطق*** بعف الكلام باخالات بواذل

ومن هنا يُعلم أن النساء لم يكنَّ جميعاً يستترن بالنقاب استتاراً لا يكشفن فيه عن وجوههنَّ البتة، بل كان كثيرات منهنَّ يبرزن للرجال، ولا سيما الفتيات يراهنَّ الراغب في الزواج فيخطبهنَّ عن معرفة ومرأى لا عن شهادة ورواية، وقد بقي بعض هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، فكان بعض النساء يبرزن للرجال يحدثهنَّ ويحدثونهنَّ،

كما ذكر عن سَكينة بنت الحسن، وتسمى من كانت كذلك بَرَزَة، وبعضهنَّ يجلسن لخطأهنَّ، كما صرح بذلك ابن عبد ربه في العقد الفريد فيما نقله عن معبد بن خالد الجدلي أنه قال: خطبت امرأة من بني أسد في زمن زياد، وكان النساء يجلسن لخطأهنَّ، فحئت لأنظر إليها وكان بيني وبينها رواق، فدعت بجفنة من الثريد مكللة باللحم فأتت على آخرها وألقت العظام نقيه، ثم دعت بقرية صغيرة مملوءة لبناً فشربته حتى أكفأت القرية على وجهها، وقالت: يا جارية، ارفعي الستر. فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا شابئة جميلة، فقالت لي: يا عبد الله، أنا أسدة من بني أسد وعلى جلد أسد، وهذا طعامي وشرابي، فإن أحببت أن تتقدم فتقدم، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر. فقلت أستخير الله في أمري وأنظر. وخرجت ولم أعد. وأورد ابن عبد ربه حكايات أخر في مثل هذا المعنى، بعضها أصرح في الدلالة، لا أنقلها لطولها فليطالعها من يشاء.

وعلى ذكر الخطبة والزواج فقد يظهر أن بعض فتيات الأعراب كنَّ يتزوجن في سنِّ حدثٍ جدًّا، ومما لا يكاد يصدق ما وجدته في رجز لبعض النساء قالته في ابنتها ردًّا على جارية لها ولدت غلامًا. فقالت:

وما علي أن تكون جارية*** تغسل رأسي وتكون فالية

حتى إذا بلغت ثمانية*** زوجتها مروان أو معاوية

فإن تزوج الفتاة في الثامنة من سنّها مما ينكره الطبع وتكاد تنكره الطبيعة، ولعلّه إنما كان يقع في الظاهر فقط ليملك أمرها، ثم لا يُبني عليها إلا متى أدركت كما نُقل عن الرسول فيما ذكره ابن عبد ربه من أنه تزوج عائشة في السادسة من سنّها، وابتنى عليها في التاسعة. ولا يبعد أن تكون هذه العادة باقيةً إلى اليوم في بعض المدن الإسلامية، كما يؤخذ مما ذكره نبيُّهْر^٨ في كتابه في وصف بلاد العرب، وهو أحد من زارها سنة ١٧٦٣، قال في معرض كلامه عن الجمع بين الزوجات "سمعت في فارس أن امرأة وضعت في الثالثة عشرة من سنّها" وقال: "وفي

M. Niebuhr Description de l'Arabie ⁸

هذه البلاد تُزوّج البنات من التاسعة من أعمارهنّ"، وذكر أيضًا في الجزء الثاني من كتابه هذا من بعض ما تختلف فيه أهل الجبال وأهل المدن: إن بنات اليمن يتزوجن في التاسعة أو العاشرة من سنيهنّ، وأما بنات الجبال فيندر أن يتزوجن قبل الخامسة عشرة. ومهما يكن من مقدار العمر فلم تكن الفتاة تُزوّج في الغالب إلا من كان غريبًا عنها لا تجمعها به صلة معرفة أو صلة نسب؛ أما صلة المعرفة فلأنهم كانوا شديدي الغيرة على أعراض النساء أن يلحق بهنّ ما يُعرضن من أجله للظنة، حتى لقد كانوا يمنعون زواج الفتاة لمجرد سلام يسلمه عليها الرجل، فضلًا عما إذا كان مشتهرًا بها. وأما صلة النسب فلأن العرب كانت تعتقد أن الرجل إذا تزوّج قريبةً له جاء ولده ضاويًا نحيفًا. ولذلك جاء في الحديث: اغتربوا لا تُضوّوا، أي تزوّجوا في الأجنبيات ولا تتزوّجوا في العمومة. ولكنهم في ضد ذلك كانوا يتزوجون أحيانًا بنساء آبائهم، كما ذكر الأصهباني في آمنة بنت أبان أنه لما مات عنها أمية بن عبد شمس تزوجها من بعده ابنه أبو عمر. وقال: وكان هذا نكاحًا تنكحه الجاهلية فأنزل الله تعالى تحريمه قال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فسمي نكاح المقت.

وقد يتوهم كثير من الناس أن النساء في ذلك العهد كنّ يتزوجن من يختارهنّ لهنّ ذوهنّ ويكرهنّ على الاقتران بمن لا يعرفنه أو لا يرغبنّ فيه. وهذا، وإن كان يجري بعضه أحيانًا، لا يصح في الإطلاق، بل كانت الأنتى مخيرةً في الغالب تختار من تشاء، وتتزوج من تعرف إذا لم يكن ثمّ ما يمنع زواجها كما سبق مما يخشى منه على طيب الذكر، أو يبعث تحدّث الناس. وقد جاء على ذلك شواهد كثيرة، أجتزئ منها بما نقلوه عن الخنساء الشاعرة من أنها كانت تهنأ بعيرًا لها، ودريد بن الصمة يراها وهي لا تشعر به، فأعجبته فانصرف فلما أصبح غدا على أبيها، فخطبها إليه، فقال له أبوها: مرحبًا بك أنك الكريم لا يُطعن في حسبه، والسيد لا يُردّ في حاجته، ولكن هذه الفتاة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا أذكرك لها. ثم دخل إليها وقال لها: يا خنساء، أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم يخطبك وهو من تعلمين. فقالت: يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ومتزوجة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد. فلم يجبه أبوها بشيء مع رغبته في تزويجها لدريد، وخرج إليه، وقال: يا أبا قرّة قد امتنعت، ولعلها أن تجيب فيما بعد. وفي هذا الشاهد الذي نقلته عن الخنساء شاهد آخر بما تقدم ذكره من أن بعض النساء كنّ إذا أردنّ يخرجنّ حاسرات بلا نقاب، ولذلك قال دُرَيْد: متبدلاً تبدو محاسنه. ومما يزيد في فضل هذه المشيئة التي تركها العرب لفتياتهم في اختيار الزوج أن النساء في الجاهلية أو بعضهنّ كنّ يطلّقن رجالهنّ، وكان طلاقهنّ أهنّ إن كنّ في بيت من شعر حوّلن الحياء إن كان بابه قبيل المشرق حولنه قبيل المغرب، وإن كان بابه قبيل اليمن حولنه قبيل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقتّه، فلم يأتمها، كما حدث لحاتم الطائي مع امرأته ماوية مثلما هو مذكور في قصته. وقد قيل في حاتم هذا إنه كان نصرانيًا، فإن صح هذا القول كان في تطليق امرأته له دليل على أن الطلاق كان مشتركًا بين النصارى وعابدي الوثن، وهذا الموضوع مهم للمشتغل بتاريخ النصرانية في الجاهلية والإسلام، فليتبّه إليه. ونظيره ما ذكر من تطليق امرئ القيس لامرأته أم جندب حين حكمت لعقمة الفحل عليه عندما تحاكما إليها فيما قالاه من الشعر، وفي هذه القدرة التي كانت للمرأة على تطليق الرجل دليلًا ناطق بمقدار

منزلتها في الجاهلية، بحيث كان لها من الحقوق قريبٌ مما كان للرجل؛ تطلقه إن أنكرت منه سوء معاملته لها، أو تحامل عليها، أو رأته مهملاً لمكانها مقبلاً على ما تكره منه، وفي هذا من العدل والإنصاف ما لا يخفى على أحد.

ولم يكن الجمال في المرأة الجاهلية هو وحده المعين لها على الزواج، فإن كثيرين من الرجال كانوا يؤثرون فيها جمال النفس وكمال الخلق وشرف النسب وكرم العنصر ودهاء الرأي وذكاء الفهم سواءً كانت مع ذلك حسناء أو قبيحة، وأكثر ما كانوا يلتمسون فيها شهرة الأسم، وتطابير الصيت، فرب فتاة كانت خاملة الذكر مجهولة المكان متناهية الفقر لا يأتيها راغب ولا يخطبها خاطب، ثم اتفق ما نوه باسمها وثبه على منزلتها من شعر قيل فيها أو في مدح أسرتها، فما لبثت حتى أقبل عليها الطلاب من كل قبيلة يبدلون لها من المهر ما أغنى ذويها، وأدر عليهم أحلاف الرزق، كما روي عن المخلق الكلابي أنه كان له ثلاث أخوات قد كسدن عليه، وكان مع ذلك فقيراً سيء الحال، فاتفق أن مر ذات يوم به الأعشى الشاعر، فبادر وبعث إليه بالضيافة وأكرمه، فما كان بعد قليل حتى قال الأعشى شعراً سار وشاع في العرب، فما أتت على المخلق سنة حتى زوج أخواته الثلاث؛ كل واحدة على مائة ناقة وأيسر وشرف. وحكى صاحب الأغاني أيضاً أن امرأة جاءت إلى الأعشى نفسه، وقالت له: إن لي بناتٍ قد كسدن عليّ فشيب بواحدة منهن لعلها أن تنفق. فشيب بواحدة منهن، فما شعر الأعشى إلا بناقة بُعثت إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: زوّجت فلانة. فشيب بالأخرى، فأتاه مثل ذلك، فسأل عنها فقيل: زوّجت. فما زال يشيب بواحدة فواحدة منهن حتى زوّجن جميعاً. وأما الذكاء والفطنة فما من أحد يجهل قصة شئٍ وما ألزم به نفسه من أن لا يتزوج إلا بامرأة تضاهيه في الدهاء، فكان يجوب البلاد في ارتياد طلبته إلى أن صادف في بعض أسفاره أبا طبقة، فسأله أسئلة لم يفطن لمغزاها، حتى فسرتها له ابنته طبقة تفسيراً حمل شئاً على خطبتها وتزوجها، ونظير ذلك ما يحكى عن امرئ القيس من أنه كان قد أقسم ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يحطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر، فبينما هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة فأعجبته، فقال لها: يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فتدنيا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها واتفق له معها قبل الزواج ما يدل على شدة ذكائها ووفرة عقلها مما لا أنقله لطوله. وفي هذه الحكاية دليل أيضاً على ما سبق التنبيه عليه من أن بعض الفتيات كنّ يتزوجن في سن حدث، وهو قول صاحب الرواية عن الرجل الذي لقيه امرؤ القيس أنه كان يحمل ابنةً له صغيرة، ولم يمنعها صغرها مع ذلك من تزويجها.

⁹ الطي: حلمة الضرع للحيوان أو الضرع نفسه، والجمع أطباء، (المعجم الوجيز)

¹⁰ ضرع الناقة، (المعجم الوجيز)

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التكوير:

{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ (١٤) فَلَا أُقْسِمُ بِالْحُسْنَى (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيِّن تَذَكُّرُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) }

يقول الإمام ابن كثير:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عبد الله بن بجير القاص أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعاني أخبره أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"، و"وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ"، و"إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت". وهكذا رواه الترمذي، عن العباس بن عبد العظيم العنبري، عن عبد الرزاق. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهب، وقال مجاهد: اضمحلّت وذهبت، وكذا قال الضحاك. وقال قتادة: ذهب ضوءها. وقال سعيد بن جبير: {كُوِّرَتْ} عُوِّرَتْ. وقال الربيع بن خثيم: {كُوِّرَتْ} يعني: رُمي بها. وقال أبو صالح: {كُوِّرَتْ} ألقيت، وعنه أيضا: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وهو لفها على الرأس، وتكوير الكاره، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: {كُوِّرَتْ} جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفّت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن شيخ من بجيلة، عن ابن عباس: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر، ويبعث الله ريحا دبورًا فتضرمها نارا، وكذا قال عامر الشعبي، ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن ابن يزيد بن أبي مرثم، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قول الله: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} قال: "كورت في جهنم". ثم قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الدانج، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الشمس والقمر يكوران يوم القيامة". انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في

كتاب "بدء الخلق"، وكان جديرًا أن يذكره هاهنا أو يكرره، كما هي عادته في أمثاله! وقد رواه البزار فَجَوَّدَ إِيْراده فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد، مسجد الكوفة، وجاء الحسن فجلس إليه فَحَدَّثَ قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشمس والقمر نوران في النار يوم القيامة". فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: أحسبه قال: وما ذنبهما. ثم قال: لا يُروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث. وقوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي: انتثرت، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَثَرَتْ} [الانفطار: ٢]، وأصل الانكدار: الانصباب. قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: اختلطت، {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال: أهملها أهلها، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تآجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم. رواه ابن جرير، وهذا لفظه، وابن أبي حاتم، ببعضه، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم، والحسن البصري، وأبو صالح، وحامد بن أبي سليمان، والضحاك في قوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي: تناثرت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي: تغيرت. وقوله: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} أي: زالت عن أماكنها ونُسِفت، فتركت الأرض قاعا صافصفا. وقوله: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} قال عكرمة، ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد: {عُطِّلَتْ} تركت وسُيِّت، وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها؛ وقال الربيع بن خثيم لم تحلب ولم تُصَرَّ، تحلى منها أربابها، وقال الضحاك: تركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب. والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدها عُشْرَاء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم المفزع الهائل، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها. وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها. وقد قيل في العشار إنها السحاب يُعْطَلُّ عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا. وقد قيل إنها الأرض التي تُعَشَّر. وقيل إنها الديار التي كانت تُسكن تُعْطَلُّ لذهاب أهلها. حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه "التذكرة"، ورجح أنها الإبل، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت: بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} أي: جمعت. كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتُكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]. قال ابن عباس: يُحْشَر كل شيء حتى

الذباب. رواه ابن أبي حاتم، وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي، وغير واحد. وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق [موافية] فيقضي الله فيها ما يشاء. وقال عكرمة: حشرها: موتها. وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا عباد بن العوام، أخبرنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: حَشَرُ البهائم: موتها، وحشر كل شيء الموت غيره الجن والإنس، فإنهما يوقفان يوم القيامة. حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكَيْع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي يعلى، عن الربيع بن خثيم: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} قال: أتى عليها أمر الله. قال سفيان: قال أبي: فذكرته لعكرمة، فقال: قال ابن عباس: حشرها: موتها. وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} اختلطت. قال ابن جرير: والأولى قَوْلُ من قال: {حُشِرَتْ} جُمِعَتْ، قال الله تعالى: {وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ} [ص: ١٩]، أي: مجموعة. وقوله: {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُليّة، عن داود، عن سعيد بن المسيب قال: قال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. فقال: ما أراه إلا صادقاً. {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} [الطور: ٦]، {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} [مخففة]. وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الدبور فتسرعها، وتصير نارًا تأجج (الدبور: رياح تهب في الجزيرة العربية من المغرب وتقابل القبول التي هي ريح الصبا (المعجم الوجيز))، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو طاهر، حدثني عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط - شيخ صالح يُشبهه مالك بن أنس - عن معاوية بن سعيد قال: إن هذا البحر بركة، يعني بحر الرُّوم، وسط الأرض، والأثمار كلها تصب فيه، والبحر الكبير يصب فيه، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس، فإذا كان يوم القيامة أسجر. وهذا أثر غريب عجيب. وفي سنن أبي داود: لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحث البحر نارا، وتحث النار بحرا الحديث. وقال مجاهد، والحسن بن مسلم: {سُجِّرَتْ} أوقدت. وقال الحسن: بيست. وقال الضحاك، وقاتدة: غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضا: {سُجِّرَتْ} فجرت. وقال السدي: فتحت وسيرت. وقال الربيع بن خثيم {سُجِّرَتْ} فاضت. وقوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أي: جُمِع كل شكل إلى نظيره، كقوله: {احشروا الذين ظلموا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصفات: ٢٢]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن النعمان بن بشير أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} قال: "الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله"، وذلك بأن الله عز وجل يقول: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٧ - ١٠]، قال: هم الضرباء. ثم رواه ابن أبي حاتم من طرق آخر، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير أن عمر خطب الناس فقراً: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} فقال: تزوجها: أن تُولف كل شيعة إلى شيعتهم، وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار. وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر عن قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} فقال: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويُقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}؟

فسكتوا. قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ: **{أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}**، وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال ابن أبي بَجِيح، عن مجاهد: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** قال: الأمثال من الناس جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خُثَيْم والحسن، وقتادة. واختاره ابن جرير، وهو الصحيح. قول آخر في قوله: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن سوار، عن جعفر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً، فينبت منه كل خلق بلي، من الإنسان أو طير أو دابة، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض، قد نبتوا، ثم تُرسل الأرواح فتزوج الأجساد (!!!)، فذلك قول الله تعالى: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}**، وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، والحسن البصري أيضاً في قوله: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** أي: زوجت بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنون بالحوار العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاها القرطبي في "التذكرة".

وقوله: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** هكذا قراءة الجمهور: **{سُئِلَتْ}**، والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تُسأل الموءودة على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا؟! وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ}** أي: سألت. وكذا قال أبو الضحى: "سألت" أي: طالبت بدمها، وعن السدي، وقتادة، مثله. وقال أحمد: حدثنا إسحاق الأزرق، أخبرنا عوف، حدثني حسناء ابنة معاوية الصُرَيْمِيَّة، عن عمها قال: قلت يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: "الني في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والموءودة في الجنة". وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: "الموءودة في الجنة". هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن، ومنهم من قبله. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الظهري، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله عز وجل **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** قال ابن عباس: هي المدفونة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب في قوله: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}**، قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، إني وأدت بنات لي في الجاهلية، فقال: "أعتق عن كل واحدة منهن رقبة". قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل؟ قال: "فانحر عن كل واحدة منهن بدنة". وقد رواه ابن أبي حاتم فقال: أخبرنا أبو عبد الله الظهري - فيما كتب إلي - قال: حدثنا عبد الرزاق فذكره بإسناده مثله، إلا أنه قال: "وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية". وقال في آخره: "فأهد إن شئت عن كل واحدة بدنة"؛ ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا قيس بن الربيع، عن الأغر بن الصباح، عن خليفة بن حُصَيْن قال: قدم قيس بن عاصم على رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني وأدث اثنتي عشرة ابنة لي في الجاهلية أو: ثلاث عشرة، قال: "أعتق عددن نسيما". قال فأعتق عددن نسما، فلما كان في العام المقبل جاء بمائة ناقة، فقال يا رسول الله، هذه صدقة قومي على أثر ما صنعت بالمسلمين؛ قال علي بن أبي طالب: فكنا نريجها، ونسميها القيسية.

وقوله: { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ } قال الضحاك: أُعطي كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله. وقال قتادة: صحيفتك يا ابن آدم تُملى فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

وقوله: { وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ } قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كشفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب. وقوله: { وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ } قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم. وقوله: { وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ } قال الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خُثيم أي: قربت إلى أهلها.

وقوله: { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ } هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: { يَوْمَ بَجْدُ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا } [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: { يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة: ١٣]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة، حدثنا ابن المبارك، أخبرنا محمد بن مُطَرِّف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: لما نزلت: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } قال عمر: لما بلغ { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ } قال: لهذا أُجري الحديث. روى مسلم في صحيحه، والنسائي في تفسيره عند هذه الآية، من حديث مسعر بن كدام، عن الوليد بن سريع، عن عمرو بن حُرَيْث قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم الصبح، فسمعتة يقرأ: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ }. قال ابن أبي حاتم وابن جرير، من طريق الثوري، عن أبي إسحاق، عن رجل من مراد، عن علي: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ }، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت خالد بن عرعة، سمعت عليا وسئل عن: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ } فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار وتكنس بالليل. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هُوذة بن خليفة، حدثنا عوف، عن بكر بن عبد الله في قوله: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ } قال: هي النجوم الدراري، التي تجرى تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة إنما قيل للنجوم: "الخنس"، أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلکها، وفي حال غيوبتها يقال لها: "كُنَّس" من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه: إذا تغيب فيه^{١١}. وقال الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ } قال: بقر الوحش^{١٢}، وكذا قال الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عبد الله: { فَلَا أُقْسِمُ بِالْجُورِيِّ الْكُنَّسِ } ما هي يا عمرو؟ قلت: البقر. قال: وأنا أرى ذلك. وقال أبو داود الطيالسي، عن عمرو، عن

^{١١} الكناس: مدخل في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر (المعجم الوجيز)

^{١٢} خنس: انخفضت قصبه أنفه مع ارتفاع قليل في طرف الأنف (المعجم الوجيز)

أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: {الجَوَارِي الكُنْسُ} قال: البقر الوحش تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبير. وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الظباء. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا مغيرة عن إبراهيم ومجاهد: أنهما تذاكرا هذه الآية: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنَسِ الجَوَارِي الكُنْسِ} فقال إبراهيم ومجاهد: قل فيها بما سمعت قال فقال مجاهد: كنا نسمع فيها شيئا، وناس يقولون: إنها النجوم. قال: فقال إبراهيم: قل فيها بما سمعت. قال فقال مجاهد: كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس في حُجْرَتِهَا. قال: فقال إبراهيم إنهم يكذبون على عليّ، هذا كما رووا عن علي أنه ضمن الأسفل الأعلى، والأعلى الأسفل. وتوقف ابن جرير في قوله: {الْحَنَسِ الجَوَارِي الكُنْسِ} هل هو النجوم أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مرادا. وقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه. قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا عَشَى الناس، وكذا قال عطية العوفي. وقال علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس: {إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: {إِذَا عَسْعَسَ} أي: إذا ذهب فتولى. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، سمع أبا عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي رضي الله عنه حين تَوَّبَ المَثُوبَ بصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}؟ هذا حين أدبر حسن. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: {إِذَا عَسْعَسَ} إذا أدبر. قال لقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} أي: أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضا:

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهُ تَنَفَّسًا... وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ... وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ... وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ...
 أي: أدبر. وعندني أن المراد بقوله: {عَسْعَسَ} إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإقبال، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضياءه إذا أشرق، كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١، ٢]، وقال: {وَالصُّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١، ٢]، وقال: {فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: ٩٦]، وغير ذلك من الآيات. وقال كثير من علماء الأصول إن لفظة "عسعس" تُستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يُراد كل منهما، والله أعلم. قال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن "عسعس": دنا من أوله وأظلم. وقال الفراء: كان أبو البلاد النحوي يُنشد بيتا: عَسْعَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ إِذْنَا... كَانَتْ لَهُ مِنْ ضَوْئِهِ مَقْبَسٌ... يريد: لو يشاء إذ دنا، أدغم الذال في الدال. وقال الفراء: وكانوا يَرَوْنَ أن هذا البيت مصنوع. وقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وهو المروي عن علي رضي الله عنه. وقال ابن جرير: يعني: وَضَوْءُ النَّهَارِ إِذَا أَقْبَلَ وَتَبَيَّنَ. وقوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} يعني: أن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي: ملك شريف حَسَنَ الخلق بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام. قاله ابن عباس، والشعبي، وميمون بن مهران، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم. {ذِي قُوَّةٍ} كقوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ

الْقَوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} [النجم: ٥ ، ٦]، أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل، {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} أي: له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة. قال أبو صالح في قوله: {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} قال: جبريل يدخل في سبعين حجبا من نور بغير إذن، {مُطَاعٍ ثَمَّ} أي: له وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة: {مُطَاعٍ ثَمَّ} أي: في السموات، يعني: ليس هو من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، مُعْتَنَى بِهِ، انْتُخِبَ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ. وقوله: {أَمِينٍ} صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْضُونَ} قال الشعبي، وميمون بن مهران، وأبو صالح، ومن تقدم ذكرهم: المراد بقوله: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْضُونَ} يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ} يعني: ولقد رأى محمداً جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح {بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ} أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ثَمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ٥ - ١٠]. والدليل أن المراد بذلك جبريل عليه السلام. والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَعْشَى السِّدْرَةَ مَا يَعْشَى} [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة "النجم"، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. وقوله: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عُيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل. وقال قتادة: كان القرآن غيبا، فأنزله الله على محمد فما ضنَّ به على الناس، بل بلَّغَه ونشره وبذله لكل من أَرَادَه. وقوله: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده، ولا ينبغي له. كما قال: {وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ} [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

وقوله: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}؟ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله عز وجل، كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذي هو في غاية الهديان والركاكة، فقال: ويحكم، أين يُذْهَبُ بعقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله، أي: من إله. وقال قتادة: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} أي: عن كتاب الله وعن طاعته. وقوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا دِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون، {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين. قال سفيان الثوري، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان بن موسى: لما نزلت هذه الآية: {لِمَنْ

شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلبنا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. فأنزل الله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

ويقول الإمام القرطبي:

سورة التكوير مكية في قول الجميع. وهي تسع وعشرون آية؛ وفي الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت". قال: هذا حديث حسن غريب.

قوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}، قال ابن عباس: تكويرها: إدخالها في العرش، والحسن: ذهاب ضوئها، سعيد بن جبير: عورت، أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تُلّف فتمحى. وقال الربيع بن خيثم: كورت: رُمي بها؛ ومنه: كورته فتكور؛ أي سقط. قلت: وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي لاثها وجمعها فهي تُكور وتُحى ضوءها ثم يُرمى بها في البحر، والله أعلم. وعن أبي صالح: كورت: نُكست. {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} أي تهافت وتناثرت، وقال أبو عبيدة: أنصبت كما تنصب العقاب إذا انكسرت. قال العجاج يصف صقرا:

أبصر خريان فضاء فانكدر ... تقضيّ البازي إذا البازي كسر

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض، حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا"، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تساقطت، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي الملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة، لأنه مات من كان يمسكها (!!!). ويُحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضا: انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها، والمعنى متقارب. قوله تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء، وهو مثل قوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}. وقيل: سيرها تحولها عن منزلة الحجاره، فتكون كثيبا مهيبا أي رملا سائلا وتكون كالعهن، وتكون هباء منثورا، وتكون سرايا، مثل السراب الذي ليس بشيء، وعادت الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا. {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} أي النوق الخوامل التي في بطونها أولادها، الواحدة عشاء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدها تضع أيضا. ومن عادة

العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد فرح: هاتوا مهري وقربوا مهري، ويسميه بمتقدم اسمه؛ قال عنتره:

لا تذكرني مهري وما أطمعته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجر
وإنما خص العشار بالذكر لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس عطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه
المثل لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء
لعطلها واشتغل بنفسه. وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهد بعضهم بعضا ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها
عشارهم التي كانت أنفوس أمواتهم، لم يعبؤوا بها ولم يهتمهم أمرها. وخوطبت العرب بأمر العشار لأن مالها وعيشها
أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ابن عباس: عطلت: عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم. يقال: ناقة عشراء،
وناقتان عشراوان، نوق عشراوات، يدلون من همزة التأنيث واوا. وقد عُشرت الناقة تعشبوها: أي صارت
عشراء. وقيل: العشار: السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل:
الديار تُعطل فلا تُسكن. وقيل: الأرض التي يُعشر زرعها تُعطل فلا تُزرع؛ والأول أشهر وعليه من الناس الأكثر.
{وإذا الوحوش حُشِرَتْ} أي جُمعت، والحشر: الجمع، عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ابن عباس: حشرها: موتها.
رواه عنه عكرمة. قال ابن عباس: تُحشر الوحوش غدا، أي تُجمع حتى يُقتص لبعضها من بعض، فيقتص للجماء
من القرناء، ثم يقال لها كوني ترابا فتموت. أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف بني آدم، وقيل: عُني بهذا
أنها مع نقرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحاري، تنضم غدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم. {وإذا البحار
سُجِرَتْ} أي ملئت من الماء، والعرب تقول: سحرت الحوض أسجره سحرا إذا ملأته وهو مسجور؛ والمسجور
والساجر في اللغة: المألن. وروى الربيع بن خيثم: سُجرت: فاضت وملئت. وقال ابن أبي زمنين: سحرت: حقيقته
ملئت، فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا. وقيل: أرسل عذبا على مالها ومالحها على عذبا حتى
امتألت. عن الضحاك ومجاهد: أي فُجرت فصارت بحرا واحدا. القشيري: وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره
في قوله تعالى: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ}، فإذا رُفِع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت الأرض كلها وصارت
البحار بحرا واحدا. وقيل: صارت بحرا واحدا من الحميم لأهل النار. وعن الحسن أيضا وقتادة وابن حيان: تيبس فلا
يبقى من مائها قطرة. القشيري: وهو من سحرت التنور أسجره سحرا: إذا أحميته وإذا سلط عليه الإيقاد نشف ما
فيه من الرطوبة، وتسير الجبال حينئذ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا، بأن يملأ مكان البحار بتراب
الجبال. وقال النحاس: وقد تكون الأقوال متفقة، يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا.
قلت: ثم سُير الجبال حينئذ، كما ذكر القشيري، والله أعلم. وقال ابن زيد وشمر وعطية وسفيان ووهب وأبي علي
بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه: أوقدت فصارت نارا. قال ابن عباس: يكور الله الشمس والقمر
والنجوم في البحر، ثم يبعث الله عليها ريحا دبوراً، فتنفخه حتى يصير نارا. قال القشيري: قيل في تفسير قول ابن
عباس "سجرت" أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قعور من البحار، فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا، فإذا

أنقضت الدنيا سُجرت، فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها؛ ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا (!!!). وفي الخبر: البحر نار في نار. وقال معاوية بن سعيد: بحر الروم وسط الأرض، أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيكون البحر نارا بحر الشمس (!!!). ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراتها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة. قلت: روي عن عبد الله بن عمرو: لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم. وقال أبي بن كعب: ست آيات من قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، فصارت هباء منثورا، ففرغت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس، واختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} ثم قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخير، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلي، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءهم ريح فأماتتهم (!!!). وقيل: معنى "سجرت" هو حمرة مائها، حتى تصير كالدم، مأخوذ من قولهم: عين سجراء: أي حمراء. قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ}، قال النعمان بن بشير: قال النبي صلى الله عليه وسلم "وإذا النفوس زوجت" قال: "يُقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون بعمله". وقال عمر بن الخطاب: يقرن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج -يعني صنفًا- وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج؛ وعنه أيضا قال: زوجت نفوس المؤمنين بالحوار العين، وقرن الكافر بالشياطين، وكذلك المنافقون؛ وعنه أيضا: قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله؛ فالتزويج أن يُقرن الشيء بمثله؛ والمعنى: وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان، كما قال تعالى: {أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}. أي أشكالهم.

قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} {المؤودة المقتولة، وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يُطرح عليها من التراب، فيوءدها أي يثقلها حتى تموت؛ ومنه قوله تعالى: {وَلَا يَأْوُدُهُ حِفْظُهُمَا} أي لا يثقله. وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لحصلتين: إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به؛ الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفا من السبي والاسترقاق. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال:

ومنا الذي منع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم يواد
يعني جده صعصعة كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين مؤودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة

في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمحضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت ... والقبر صهر ضامن زميت
الزميت الوقور، والزميت مثال الفسيق أقر من الزميت، وفلان أزمى الناس أي أوقرهم، وما أشد تزمته، عن الفراء.
وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: {وَإِذَا
الْمُؤُودَةُ سُئِلَتْ}. قال عمر في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال يا رسول الله إني وأدت ثمان بنات كن لي في الجاهلية، قال: "فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة"،
قال يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: "فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت". وقوله تعالى: {سُئِلَتْ} سؤال
المؤودة سؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يوبخ
قاتلها لأنها قُتلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأي ذنب ضربت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله
تعالى: {سُئِلَتْ} قال: طلبت؛ كأنه يريد كما يطلب بدم القاتل. قال وهو كقوله: {وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا} أي
مطلوبا؛ فكأنها طلبت منهم، فقيل أين أولادكم؟ وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبي صالح {وإذا
المؤودة سألت} فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلني؟! فلا يكون له عذر. قال ابن عباس وكان يقرأ
"وإذا المؤودة سألت" وكذلك هو في مصحف أبي. وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: "إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقا ولدها بتديها، ملطخا بدمائه، فيقول يا رب، هذه أُمِّي،
وهذه قتلتي". والقول الأول عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ} على جهة التوبيخ
والتبكيك لهم، فكذلك سؤال المؤودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا
بذنب، فبأي ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها، ان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها، والله أعلم.
قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} أي نُتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة
فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تُطوي بالموت، وتُنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما
فيها، فيقول: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}. وروى مرثد بن وداعة قال: إذا كان يوم
القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} إلى قوله: {الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}
وتقع صحيفة الكافر في يده {فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ} إلى قوله {وَلَا كَرِيمٍ}. وروى عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة" فقلت: يا رسول الله فكيف بالنساء؟ قال: "شغل
الناس يا أم سلمة". قلت: وما شغلهم؟ قال: "نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل". وقال مقاتل: إذا
مات المرء طُويت صحيفته عمله، فإذا كان يوم القيامة نُشرت. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك
يساق الأمر يا ابن آدم. وقرأ نافع وابن عام وعاصم وأبو عمرو "نشرت" مخففة، على نشرت مرة واحدة، لقيام
الحجة، الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع. وقيل: لتكرار ذلك من

الإنسان والملائكة الشهداء عليه. قوله تعالى: **{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ}** الكشط: قلع عن شدة التزاق، فالسمااء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره، والقشط: لغة فيه. وفي قراءة عبد الله "وإذا السماء قشطت". وكشطت البعير كشطاً: نزعت جلده ولا يقال سلخته، لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلده، وانكشط: أي ذهب. فالسمااء تُنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء. وقيل: تطوى كما قال تعالى: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}**، فكأن المعنى: قلعت فطويت، والله أعلم. قوله تعالى: **{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}**، أي أوقدت فأضمرت للكفار وزيد في إحماؤها. يقال: سعرت النار وأسعرتها. وقراءة العامة بالتخفيف من السعير. وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد لأنها أوقدت مدة بعد مرة. قال قتادة: سورها غضب الله وخطايا بني آدم. قوله تعالى: **{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ}** أي دنت وقربت من المتقين. قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تنزل عن موضعها. وكان عبدالرحمن بن زيد يقول: زُينت: أنزلت؟ والزلفى في كلام العرب: القرية، قال الله تعالى: **{وَأُنزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، وتزلف فلان تقرب. قوله تعالى: **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ}** يعني ما عملت من خير وشر. وهذا جواب **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}** وما بعدها. قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث. وروي عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرأها فلما بلغا **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ}** قالوا لهذا أُجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أخضرت من عملها. وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل" وقال الحسن: **{إذا الشمس كورت}** وقع على قوله: **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ}**، كما يقال: إذا نفر زيد نفر عمرو. والقول الأول أصح. قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ}** أي أقسم، و"لا" زائدة، كما تقدم. **{بِالْحَنَسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}** هي الكواكب الخمسة الدراري: زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة، فيما ذكر أهل التفسير، والله أعلم. وهو مروي عن علي كرم الله وجهه. وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان أحدهما: لأنها تستقبل الشمس؛ قاله بكر بن عبدالله المزني؛ الثاني: لأنها تقطع المجرة؛ قال ابن عباس. وقال الحسن وقاتدة: هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت، وقاله علي رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها، أي تتأخر عن البصر لحفاؤها فلا تُرى. وفي الصحاح: "الحنس": الكواكب كلها لأنها تخنس في آن قيب، أو لأنها تخنس نهاراً. ويقال: هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنَسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}**: إنها النجوم الخمسة، زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد؛ لأنها تخنس في مجراها وتكنس، أي تستتر كما تكنس الطباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت حنسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: حنس عنه يخنس بالضم حنوساً: تأخر، وأحنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه. والحنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أحنس، والمرأة حنساء، والبقر كلها حنس. وقد روي عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنَسِ}** هي بقر الوحش. روى هشيم عن زكريا

عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبدالله بن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش؛ قال وأنا أرى ذلك. وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عكرمة قال: "الخنس": البقر و"الكنس": هي الطباء، فهي خنس إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن. القشيري: وقيل على هذا "الخنس" من الخنس في الأنف، وهو تأخرن الأرنبة وقصر القصبية، وأَنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك. قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يُعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبدالله وهما صحابييان والنخعي أنها بقر الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد النجوم. وقد قيل: إنها الملائكة، حكاه الماوردي. والكنس الغيب، مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي يختفي فيه. وقيل: الكنوس أن تأوي إلى مكانسها، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش والظباء. والكنس: جمع كانس وكانسة، وكذا الخنس جمع خانس وخانسة. والجوارى: جمع جارية من جرى يجري. {والليل إذا عسعس} قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر؛ حكاه الجوهري. وقال بعض أصحابنا: إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. المهدي: {والليل إذا عسعس} أدبر بظلامه، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وروي عنهما أيضا وعن الحسن وغيره: أقبل بظلامه. زيد بن أسلم: "عسعس" ذهب. الفراء: العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير. الخليل وغيره: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المراد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. وهذه حجة الفراء. الماوردي: وأصل العس الامتلاء، ومنه قيل للقدح الكبير عس لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وأطلق على إدباره لانتهاؤه امتلائه على ظلامه، لاستكمال امتلائه به. ويقال للذئب العسعس والعسعاس والعساس، لأنه يعس بالليل ويطلب. ويقال للقناذ العساعس لكثرة تردددها بالليل. والتعسعس أيضا: طلب الصيد بالليل.

قوله تعالى: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} أي امتد حتى يصير نهارا واضحا؛ يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: "إذا تنفس" أي انشق وانفلق؛ ومنه تنفست القوس أي تصدعت. {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} هذا جواب القسم. والرسول الكريم جبريل؛ قال الحسن وقتادة والضحاك. والمعنى "إنه لقول رسول" عن الله "كريم" على الله. وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقول {تَنْزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله عز وجل. وقيل: هو محمد عليه الصلاة والسلام. {ذِي قُوَّةٍ} من جعله جبريل فقوته ظاهرة. {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ} أي عند الله جل ثناؤه {مَكِينٍ} أي ذي منزلة ومكانة. {مُطَاعٍ تَمَّ} أي في السموات. {أَمِينٍ} أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به. ومن قال إن المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى "ذي قوة" على تبليغ الرسالة "مطاع" أي يطيعه من أطاع الله جل وعز. {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْنُونٍ} يعني محمدا صلى الله عليه وسلم بمحنون حتى يُتهم في قول، وهو من جواب القسم. قوله تعالى: {وَلَقَدْ}

رَأَهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ} أي رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. {بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ} أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مبين، أي من جهته تُرى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها. الماوردي: فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل أحدها: أنه رآه في أفق السماء الشرقي؛ قاله سفيان. الثاني: في أفق السماء الغربي، حكاه ابن شجرة. الثالث: أنه رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة؛ قاله مجاهد. وفي "المبين" قولان: أحدهما أنه صفة الأفق؛ قال الربيع. الثاني أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد. {وما هو على الغيب بظنين}": بالظاء، قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، أي بمتهم، والظنة التهمة؛ واختاره أبو عبيد؛ لأنهم لم يخلوه ولكن كذبوه؛ ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنما يقولون: ما أنت على هذا بمتهم. وقرأ الباقون "بظنين" بالضاد: أي ببخيل من ضننت بالشيء أضن ضنا فهو ظنين. فروى ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: لا يضمن عليكم بما يعلم، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. والغيب: القرآن وخبر السماء. ثم هذا صفة محمد عليه السلام. والظنون: الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا؟ ومنه حديث علي عليه السلام في الرجل يكون له الدين الظنون، قال: "يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا". والظنون: الرجل السيء الخلق، فهو لفظ مشترك. {وَمَا هُوَ} يعني القرآن {يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} أي مرجوم ملعون، كما قالت قريش. {فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ} قال قتادة: فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته، كذا روى معمر عن قتادة، أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي. وقال الزجاج: فأى طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم. وقال الجنيد: معنى الآية مقرون بآية أخرى؛ وهي قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} المعنى: أي طريق تسلكون أبين من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قول الزجاج. "إِنْ هُوَ" يعني القرآن {إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} أي موعظة وزجر. و"إِنْ" بمعنى "ما". وقيل: ما محمد إلا ذكر. {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} أي يتبع الحق ويقيم عليه. وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، وهذا هو القدر، فنزلت: {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين}، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله، ولا شرا إلا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}. وقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}، والآي في هذا كثير وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة: الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام والوحوش، كما يشمل بني الإنسان. والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع المشيئة الكبرى التي فطرهم ونزلت لهم الوحي. والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة تنطلق من عقلاها فتقلب كل شيء، وتشر كل شيء، وتهيج الساكن وتروع الأمن، وتذهب بكل مألوف، وتبدل كل معهود، وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه، وتتشبث به، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار، ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار، الذي له وحده البقاء والدوام، وعنده وحده القرار والاطمئنان. ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن، لتلوذ بكنف الله، وتأوي إلى حماه، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار.

وفي السورة- مع هذا- ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع. وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات. وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإجاء. ولولا أن في التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان، لآثرت ترك السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ما لا يؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر، وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتبهزها من الأعماق. ولكن لا بد مما ليس منه بد، وقد بعدنا في زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن! **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ: بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؟ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ}**. هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود، والثورة الشاملة لكل موجود. الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة، ونفوس البشر، وأوضاع الأمور، حيث ينكشف كل مستور، ويُعلم كل مجهول، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب، وكل شيء من حولها عاصف وكل شيء من حولها مقلوب! وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده، الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة، المضبوط النسبة، المتين الصنعة، المبني بأيد وإحكام، أن هذا الكون سينفطر عقد نظامه، وتتناثر أجزاؤه، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها وينتهي إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نحائيا في هذا الكون المعهود. وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه

المظاهر الزائلة - مهما بدت لها ثابتة- وتتصل بالحقيقة الباقية. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول. ولكي تنطلق من إفسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو اطار محدود! وهذا هو الشعور العام الذي ينسرب إلى النفس وهي تطالع مشاهد هذا الانقلاب المرهوب. فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات، فعلمها عند الله وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسننا وتفكيرنا. وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر، أو يتفجر من باطنها بركان جائح، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير، أو صاعقة. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان. كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال. وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة تسليبات أطفال!!! فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري للكائنات، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة! إن تكوير الشمس قد يعني برودتها وانطفاء شعلتها وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء، كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف، واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة، استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض، وتكور لا ألسنة له ولا امتداد! قد يكون هذا، وقد يكون غيره. أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله.

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتشارها من هذا النظام الذي يربطها، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوءها. والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث، وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا. مجموعتنا الشمسية مثلاً، أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم، أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله، فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عدداً ولا نهاية. فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله. وتسير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء، كما جاء في سورة أخرى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}. {وَيُسِّتِ الْجِبَالَ نَسْفًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا}. {وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا}. فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها، وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض، والذي يقول عنه القرآن: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}. وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل. أما قوله سبحانه: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} فالعشار هي النوق الجبالي في شهرها العاشر، وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي، وهي في حالتها هذه تكون أعلى ما تكون عنده، لأنها مرجوة الولد والدين، قريبة النفع. ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأهوال تُحمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة، ولا يهتم بشأنها أحد. والعربي المخاطب ابتداءً بهذه الآية لا يهتم هذه العشار ولا ينفذ يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به! {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}. فهذه الوحوش النافرة

قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ونسيت مخاوفها بعضها من بعض، كما نسيت فرائسها، ومضت هائمة على وجوهها، لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتھا، ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنھا؛ فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب؟! وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه، وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتى يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها، وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض، وإما أن يكون معناه التهاجا وانفجارها كما قال في موضع آخر: **{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}** فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها، أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة، وهو أشد هولاً، أو على أي نحو آخر. **وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار. فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا، فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة.** وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها، ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة، كما قال في موضع آخر: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** أي صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة! **{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ: بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** وقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر. وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية، التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدهما، ويرفع البشرية كلها. فقال في موضع: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ. أُتْمِسُّ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}**. وقال في موضع: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا (أي البنات) ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. أَوْ مَنْ يُنَشِّئُوا فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}**. وقال في موضع ثالث: **{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ نَزْفًا لَهُمْ وَإِنَّاكُمْ}**. وكان الواد يتم في صورة قاسية، إذ كانت البنت تُدفن حية! وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق. فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها، ثم يقول لأمها: طيبها وزينها حتى أذهب بما إلى أمهاتها! وقد حفر لها بئرا في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة مخفورة، فإذا كان المولود بنتا رمت بما فيها وردمتها، وإن كان ابنا قامت به معها! وبعضهم كان إذا نوى ألا يلد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعي، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله! فأما الذين لا يبدون البنات ولا يرسلونها للرعي، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الحسف والبخس. كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه. ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها، لا عبرة برغبتها هي ولا إرادتها! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيبئرها، أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو

تلك .. وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها.
وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها. وكان الرجل تكون اليتيمة في
حجرة يلي أمرها، فيحسبها عن الزواج، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها! أو يزوجه من ابنه الصغير طمعا في مالها أو
جمالها. فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال. حتى جاء الإسلام يشنع بهذه العادات ويقبحها، وينهى
عن الوأد ويغلظ فعلته، ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة. يذكره في سياق هذا الهول الهائج
المائج، كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام، ويقول: إن الموءودة ستسأل عن وأدها .. فكيف
بوائدها؟! وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا لولا أن تنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة
البشرية كلها، وفي تكريم الإنسان، الذكر والأنثى، وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفحة من روح الله العلي
الأعلى. فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام ، لا من أي عامل من عوامل البيئة. وحين تحقق
ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض، تحققت للمرأة الكرامة، فلم يعد
لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها. لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها
في ميزانها. إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله. وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى. وحين تعد الدلائل على
أن هذا الدين من عند الله، وأن الذي جاء به رسول أوحى إليه. تعد هذه النقلة في مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل
التي لا تخطئ. حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهي بالمرأة إلى هذه الكرامة ولا دافع واحد من
دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض
كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة. فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء، يتعلق بقيمة سماوية محضة ويميزان
سماوي محض كذلك! **{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ}** صحف الأعمال ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها، فلا تعود خافية ولا
غامضة. وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى. فكم من سواة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكرها، ويرجف
ويذوب من كشفها! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة! إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول
في ذلك اليوم كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء، ويظهر المستور، ويفتضح المكنون في
الصدور. وهذا الكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله: **{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ}**. وأول ما يتبادر
إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس وكشطها إزالتها. فأما كيف يقع هذا وكيف يكون
فلا سبيل إلى الجزم بشيء. ولكننا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه
الأوضاع الكونية، التي توجد بها هذه الظاهرة. وهذا يكفي.

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب: **{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ}**.
حيث تتوقد الجحيم وتتسع، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها. أما أين هي؟ وكيف تتسع وتتوقد؟ وبأي شيء تتوقد؟
فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى: **{وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}**، وذلك بعد إلقاء أهلها فيها.
أما قبل ذلك فالله أعلم بما يوقودها! وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها، وتبدو لهم سهولة مدخلها،

ويسر ولوجها، فهي مزلفة مقربة مهيأة، واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام يسر إليها!! عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها في كيان الكون، وفي أحوال الأحياء والأشياء، عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت، وما تزودت به لهذا اليوم، وما حملت معها للعرض، وما أحضرت للحساب: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ} كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها، تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها، معهود في حياتها أو تصورها، وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها. وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء، ولم يبق إلا وجه الله الكريم، الذي لا يتحول ولا يتبدل. فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم، فتجده سبحانه عندما يتحول الكون كله ويتبدل! وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب.

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة، تُختار لها تعبيرات أنيقة. القسم على طبيعة الوحي، وصفة الرسول الذي يحمله، والرسول الذي يتلقاه، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَدْهُبُونَ؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}. والخنس الجوار الكنس هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي. والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الأطباء، وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى. فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيقة الأنيق عن هذه الكواكب، وهناك إبحاء شعوري بالجمال في حركتها، في اختفائها وفي ظهورها، في تواربها وفي سفورها، في جريها وفي عودتها، يقابله إبحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه. {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، أي إذا أظلم. ولكن اللفظ فيه تلك الإبحاءات كذلك. فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين: عس، عس. وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى! وهو إبحاء عجيب واختيار للتعبير رائع. ومثله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} بل هو أظهر حيوية، وأشد إبحاء، والصبح حي يتنفس، أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي. وأكد أجزم أن اللغة العربية بكل مآثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح. ورؤية الفجر تكاد تُشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح. وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} ثروة شعرية وتعبيرية فوق ما يشير إليه من حقائق كونية، ثروة جميلة بديعة رشيقة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر. يلوح بهذه المشاهد الكونية التي يخلع عليها الحياة ويصل روح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحي الجميل عنها لتسكب في روح الإنسان أسرارها، وتشي لها بالقدرة التي وراءها، وتحديثها بصدق الحقيقة الإيمانية التي تدعى إليها.

ثم يذكر هذه الحقيقة في أنسب الحالات لذكرها واستقبالها: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} إن هذا القرآن، وهذا الوصف لليوم الآخر، لقول رسول كريم، وهو جبريل الذي حمل هذا القول وأبلغه، فصار قوله باعتبار تبليغه. ويذكر صفة هذا الرسول، الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه: {كَرِيمٍ} عند ربه، فربه هو الذي يقول، {ذِي قُوَّةٍ} مما يوحي بأن هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة، {عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} في مقامه ومكانته. وعند من؟ عند ذي العرش العلي الأعلى. {مُطَاعٍ ثَمَّ} هناك في الملأ الأعلى. {أَمِينٍ} على ما يحمل وما يبلغ. وهذه الصفات في مجموعها توحى بكرامة هذا القول وضحامته وسموه كذلك وارتفاعه. كما توحى بعناية الله سبحانه بالإنسان، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه. وهي عناية تُجَلُّ هذا الكائن، الذي لا يساوي في مُلك الله شيئاً، لولا أن الله - سبحانه - يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة! فهذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه، فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو {صَاحِبُكُمْ} عرفتموه حق المعرفة عمراً طويلاً، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون وتذهبون في أمره المذاهب، وهو «صَاحِبُكُمْ» الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدتكم عنه عن يقين: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْضُونَ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ؟ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون راحة عقله، وصدقه وأمانته وتبته، قالوا عنه: إنه مجنون، وإن شيطانا ينزل عليه بما يقول. قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار. وقاله بعضهم عجباً ودهشة من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون، وتمشياً مع ظنهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد، وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد، وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب! وتركوا التعليل الوحيد الصادق، وهو أنه وحي وتنزيل من رب العالمين. فجاء القرآن يحدتهم في هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع، وحيوية مشاهدته الجميلة، ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة، التي أنشأت ذلك الجمال، على غير مثال. وليحدتهم بصفة الرسول الذي حمله، والرسول الذي بلغه، وهو صاحبهم الذي عرفوه، غير مجنون، والذي رأى الرسول الكريم، جبريل، حق الرؤية بالأفق المبين الواضح الذي تتم فيه الرؤية عن يقين؛ وأنه صلى الله عليه وسلم لمؤمن على الغيب، لا تُظن به الظنون في خبره الذي يرويه عنه، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين. {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} فالشياطين لا توحى بهذا النهج القويم. ويسألهم مستنكراً: {فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ؟} أين تذهبون في حكمكم وقولكم؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهم أينما ذهبتم! {إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}، ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة نشأتهم، وحقيقة الكون من حولهم، «لِلْعَالَمِينَ»، فهو دعوة عالمية من أول مرحلة، والدعوة في مكة محاصرة مطاردة، كما تشهد مثل هذه النصوص المكية. وأمام هذا البيان الموحى الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد. وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم، وقد منحهم الله هذا التيسير: {لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} أن يستقيم على هدى الله، في الطريق إليه، بعد هذا البيان، الذي يكشف كل شبهة، وينفي كل ريبة، ويُسقط كل عذر، ويوحي إلى

القلب السليم بالطريق المستقيم. فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه، فقد كان أمامه أن يستقيم. والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد، وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحى الموقظ. وما ينحرف عن طريق الله - بعد ذلك- إلا من يريد أن ينحرف في غير عذر ولا مبرر! فإذا سجل عليهم إمكان الهدى، ويسر الاستقامة، عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم، حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه .. {وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى التي يُرجع إليها كل أمر. فإعطاؤهم حرية الاختيار، ويسر الاهتداء، إنما يرجع إلى تلك المشيئة المحيطة بكل شيء كان أو يكون! وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق، يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله. وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير، شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون. فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان. ولا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين، ليدركوا ما هو الحق لذاته، وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق!

الخنس الجوار الكنس

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التكويد:

{فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنْسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)}

يقول الدكتور زغلول النجار:

عندما قرأت الآية الكريمة: {فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس}، قرأت تفسيرها في أغلب التفاسير ووقفت أمامها كثيراً فأغلب المفسرين قالوا الخنس يعني المختفي، وخنس بمعنى اختفى أو يختفي. وقالوا الشيطان يسمى الوسواس الخناس لأنه يخنس فلا يراه الإنسان، وقالوا إنه الذي يخنس بالنهار ويظهر بالليل ليتخفى. وبعضهم قالوا الكواكب تترأى لنا بالليل و تختفي بالنهار. أنا وقفت عند هذه الآية سنتين، ولم أستطع الإقدام على نشر شيء مما أرى أنه قد يكون تفسيراً صحيحاً، تخوفاً من الحساسية المفرطة عند بعض مشايخنا وفقهم الله.

(خُنْس) صيغة مبالغة، لا يظهر ويختفي لا بد أن يكون مختلفاً اختفاءً كاملاً كما يبدو لي، القرآن الكريم عندما يكرر المعنى، يكرره بغرض التوكيد، فوقفت عند الآية: {فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس}. فقلت: (كُنْس) قالوا كناس الطي المغارة التي يختبئ فيها من الصياد، وقالوا خُنَسَ مثل كُنَسَ، يعني كنس اختفى، وخنس اختفى، ومن معاني كُنَسَ سَفَرَ الشيء يعني وجد شيئاً آخر على آخر فأزاله، كما تقول القواميس، أي بمعنى ما يعرفه الناس من الكُنْسِ العادي، فقلت: لماذا لا يكون المقصود هو الكنس بمعناه المعروف؟ لماذا التكرار لنفس المعنى الأول؟

وفي آخر الثمانينات من القرن العشرين بدأ العلماء يلاحظون أن النجوم في صفحة السماء لها دورة حياة كأى كائن حي، لها ميلاد وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة واحتضار ووفاة. ووجدوا أن بعض النجوم أكبر من بعض، هناك نجوم يسمونها (العماقة) كالشمس عشرات المرات. وأطول فترات حياة النجم هي فترة الشباب ويسمونها (النجم في مراحلها الأساسية) كشمسنا هذه يعتبرونها نجماً عادياً، النجوم العماقة هذه عندما تحتضر وتموت تنتهي إلى دخان في السماء، هي تبدأ من دخان السماء يخلقها ربنا تبارك وتعالى من دخان السماء ويعيدها إلى دخان

السماء، ينفجر النجم ويتحول إلى دخان السماء. لكن النجوم العملاقة إذا جاء وقت احتضارها تتكسد على ذاتها تكديساً شديداً للغاية، نظراً للكثافة الهائلة لها، وقدر المادة التي فيها، عندما تتكسد على ذاتها تمر بمراحل لا أريد أن أتوقف عندها كثيراً، لكن ينتهي بها المطاف إلى نقطة متناهية الضآلة في الحجم متناهية الضخامة في كم المادة والطاقة، عندما تصل إلى هذه الصورة يصبح لها كثافة فائقة فلا ينبثق عنها الضوء فلا تُرى، وتختفي اختفاءً كاملاً، ويسمونها العلماء (الثقوب السوداء)! فكيف أدرك العلماء هذه الثقوب؟ وجدوا في كل مجرة نقطة سوداء، لا تُرى لكنها بجاذبيتها العالية تسحب تيار من الإلكترونات من النجوم التي لا تستطيع ابتلاعها، فهي تبتلع أي صورة من صور المادة والطاقة التي تمر بها لكن النجوم البعيدة عنها- والمسافات في السماء رهيبية جداً تقدر ببلايين الكيلومترات- يعني النجم الذي لا يستطيع أن تبتلعه تسحب منه تيار إلكتروني، والتيارات الإلكترونية لها أشعة سينية يمكن إدراكها بأي طريقة من طرق كشفها المعروفة (مثل أجهزة أشعة X التي في المستشفيات). لاحظ العلماء في مركز كل مجرة تيار من الأشعة السينية يتحرك من النجوم إلى هذا المركز بحسابات رياضية أدركوا أن هذا النجم، نجم مختفي اختفاءً كاملاً لا يُرى؛ لأنه من شدة جاذبيته لا يستطيع الضوء أن يفلت من عقاله وإذا سقط عليه الضوء يبتلعه وإذا مر به يشفطه؛ لذا سموه بالثقب الأسود. هو ليس ثقباً لكنه حالة كثيفة جداً للمادة، لكن لقدرته على ابتلاع مختلف صور المادة والطاقة سموه ثقباً. بعض العلماء يتخيلون العالم الآخر ويمر فيه روح العالم الثاني؟! خيال علمي فقط، لكن وجوده حقيقة. إذا فالثقوب السوداء حقيقة علمية، وهي مرحلة من مراحل احتضار النجوم العملاقة.

فقلت في نفسي: وصف (الخنس) أبلغ ما ينطبق عليه هذه الثقوب السوداء؛ لأنها أجرام مختفية بالكامل، والقرآن الكريم عندما يصف بصيغ مبالغة، لا بد أن يكون شيئاً لا يرى على الإطلاق. (الجوار الكنس)! قلت: هو نجم، وكأي نجم يدور حول ذاته، وكأي نجم له فلك يدور فيه، وهو يدور يشفط الأشعة السينية من النجوم التي على بعد بلايين الكيلومترات منه، فلما يمر بها يشفطها، وهو حقيقة يكنس صفحة السماء، فبقيت متردداً متردداً سنتين، كتبت المقال وترددت في أن أنشره، وذات يوم وجدت عالماً أمريكياً معاصراً يقول عن هذه النجوم: **هذه مكانس شافطة عملاقة!** بهذا اللفظ.

فإذا كان ربنا يقسم بالخنس قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة بقوله: {فلا أقسم بالجواري الكنس}، والعلماء لم يدركوه إلا في أواخر الثمانينات، لكن حينما أقول هذا الكلام لعلماء متخصصين، يندهشون ويعجبون!

الآيات المتعلقة بالدين في القرآن الكريم بركائز الدين الأربع الأساسية (العقيدة- العبادة- الأخلاق- المعاملات) جاءت مصاغة صياغة محكمة لا تحتمل أكثر من معنى واحد، مثل (أقم الصلاة)، (كتب عليكم الصيام)، (الله على الناس حج البيت) ونحوها؛ **بينما الآيات الكونية جاءت بصياغة معجزة يفهم منها أهل العلم معنى من المعاني**

وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية حتى يبقى القرآن الكريم مهيمناً على هذه المعرفة مهما اتسعت دوائره، ليس معنى أن السابقين قالوا أن الظباء تختفي، قد يكون المعنى صحيحاً أنا لا أنكره لكنني أعتبر الرأي الذي وصلت إليه قولاً يمكن أن يكون تفسيراً أبلغ وأدل من التفاسير السابقة في نظري، ويمكن اعتباره قولاً ثالثاً في تفسير الآية، ولا أرد تفاسير السلف، بل هي المقدمة، ولكنني أذهب إلى أنه ليس هناك ما يمنع من الاجتهاد في البحث عن معاني آيات لم يتضح للمفسرين من السلف معناها بشكل واضح، وهي من الآيات الكونية على وجه الخصوص، وأقوال المفسرين السابقين في تفسير الآيات الكونية غير دقيقة إلى حد بعيد حسب اطلاعي على كلامهم رحمهم الله، ولا لوم عليهم، فقد ففز العلم في جانب الأمور الكونية ففزات كبيرة في عصرنا هذا، فأدركنا حقائق لم يكن من المتيسر حتى عهد قريب معرفتها. أنا أريد أن نفهم التفسير العلمي للقرآن الكريم، كل آية كونية في كتاب الله جاءت بصياغة محكمة كما قلت، بمعنى أن أهل كل جيل يفهم منها معنى من المعاني، وتظل هذه المعاني تتكامل مع تكامل المعرفة البشرية مع الزمن، وهذا جانب من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله. كل سلف فهموا هذا المعنى أو فهموا غيره لا يقلل من قيمة الآية ونحن في نظري لسنا ملزمين بفهم أحد من المفسرين غير النبي صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، فهناك كثير من المفسرين قد فهموا بعض الآيات فهماً غير صحيح، وكتب التفسير مليئة كما تعلمون بكثير من الأقوال الواهية والضعيفة. ولا يلزم من ظهور معنى جديد للآية إلغاء أقوال السابقين التي لا تتعارض مع الفهم المستنبط كما في الآية التي معنا، فالآية محتملة للمعاني كلها والحمد لله. والتفسير هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية، إن أصاب فيها المفسر بعد اكتمال شروطه فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والخطأ في التفسير لا يُحسب على جلال القرآن الكريم أبداً، إنما يحسب على المفسرين، والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالإعراب أصابوا وأخطأوا؟ وأنا الآن أرى عمقاً وبعداً في الآية لا بد أن أعرضه على الناس وأحدثهم به لأن هذه هي اللغة التي يفهمها كثير من الناس اليوم. وليس في عرضنا لهذه الحقائق إلغاء لفهم السابقين رحمهم الله، إلا ما ظهر خطأه، وبأن خلله مما لا دليل قاطعاً عليه، والسبب في تركيزي على الحقائق العلمية في براجمي ومقالاتي، هو أن هذا هو الجانب الذي لم يحظ بالعناية من قبل المفسرين، فأستغل الوقت في بيانه وإيضاحه، وبقية الجوانب التفسيرية قد أشبعها المفسرون بحثاً.

ما هي الخنس؟ الجوار الكنس؟ معجزات القرآن العلمية في سورة التكوير - ١٦

ما هي الخنس التي أقسم بها تعالى؟ {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ} التكوير - ١٦، لا بد أن يكون لهذا القسم شأن يتناسب مع عظمة القسم والمقسوم به، قال أهل التأويل: هي النجوم الدراري الخمسة: بهرام، وزحل،

وعطارد، والزهرة، والمشتري - تفسير الطبري، وهي الكواكب المعروفة في ذلك الوقت. ذكر من قال أن رجلاً قام إلى علي رضي الله عنه، فقال: ما {الجوار الكُنس} قال: هي الكواكب. أي أن الله تعالى أقسم بالكواكب واصفاً إياها بأنها ١- تخنس ٢- تجري ٣- تكنس!

لتوضيح الموضوع، يتوجب علينا تبسيط المفاهيم لغوياً، فالخنس في لسان العرب هو إنقباض الشيء على نفسه والاستخفاء، فالكواكب تدخل في منازل مثل القمر كل حسب موقعها من ناظرها من الأرض فيزداد ضوءها ويقل، وورد الخنوس في سورة الناس {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} قال: ينبسط، فإذا ذكر الله خَنَسَ وانقبض، أما الجوار: تجري في السماء، الخليلُ تجري والرياح تجرى والشمسُ تجري، أما الكنس: تكنس ما حولها، كَنَسَ الموضوع يَكْنُسُهُ، بالضم، كَنَسًا: كَسَحَ القمامة عنه. أي أن الله تعالى وصف الكواكب بأنها تنقبض على نفسها وتجري في السماء وتكنس ما حولها من أنقاض أو قمامة، قسم قد يبدو في الوهلة الأولى غريب وعجيب! وهذا ما سنوضحه.

عُرفت الكواكب منذ حضارة بابل على أنها أجرام تسير في السماء على عكس النجوم الثابتة. كان بلوتو آخر الكواكب المكتشفة في القرن العشرين وهو الكوكب الذي أحدث أكبر جدل في الأوساط العلمية وأدى إلى صياغة نص لتعريف الكواكب من قبل الاتحاد الفلكي الدولي عام ٢٠٠٦. السبب في ذلك أنه وفي البداية، ظن العلماء بأن حجم بلوتو أكبر من حجم كوكب الأرض فقرروا تصنيفه على أنه "كوكب" ولكن سرعان ما اكتشفوا أن حجم بلوتو أصغر بكثير (١٨%) من حجم الأرض ولكنهم أبقوا على تصنيفه ككوكب بينما صنفت أجرام أخرى بنفس الحجم على أنها كواكب قزمة.

علمياً، تعتمد قوة جاذبية أي جسم على كتلته، فكلما زادت كتلة الجسم، زادت معها قوة الجذب، فعلى سبيل المثال، تبلغ قوة جاذبية القمر ١/٦ جاذبية الأرض، فإذا كان وزن شخص ما على الأرض ٦٠ كيلوجراماً، فإن وزنه على سطح القمر يكون ١٠ كيلوجرامات. وعليه، فإن قدرة الأرض على جذب أي جسم أقوى بـ ٦ مرات من قدرة القمر، بينما يعتبر العلماء كوكب المشتري "مكنسة شفط كونية" للدور الكبير الذي يلعبه في جذب المذنبات والكويكبات. عند بداية تشكل نظامنا الشمسي، كانت المناطق المحيطة بمركز تكثف الدخان (السحابة السديمية) مليئة بالكواكب الجينية (الكيسف) أو الكويكبات بينما احتوت المناطق الأبعد على الماء والهيدروجين والهيليوم، وقد تكونت الكواكب الصلبة نتيجة تجمع الكويكبات في أجسام صلبة مثل عطارد والزهرة والأرض والمريخ (داخل الحزام الأبيض) كما هو مبين في الشكل أدناه والتي قامت بدورها بكنس أو تنظيف مداراتها من الكويكبات خلال جرياتها، بينما بقيت منطقة حزام الكويكبات على وضعها لعدم وجود كواكب في تلك المنطقة مع العلم أن هناك كوكبين قزمين هما سيريس و فيستا داخل الحزام إلا أنهما لم يكونا قادرين على كنس مداراتهما

لصغر حجمهما، ولاحظ أيضاً قدرة كوكب المريخ الضعيفة على الكسب مقارنة بكوكب المشتري القوية خارج حزام الكويكبات.

بعد جدل طويل وواسع، توصل الاتحاد الفلكي الدولي عام ٢٠٠٦ إلى تعريف "الكوكب" ضمن نظامنا الشمسي على أنه جرم سماوي ١- يجري في مدار حول الشمس (جوار؟) ٢- كبير بما يكفي ليصبح شكله مستديراً بفعل قوة جاذبيته (مُحَسَّن؟) ٣- يستطيع أن يُخلّي مداره من الكواكب الجنيينية أو الكويكبات (كُنَس؟). وبناءً على التعريف السابق، لم يعد كوكب بلوتو يلي الشروط المذكورة وتم إعادة تصنيفه ليصبح كوكباً قزماً.

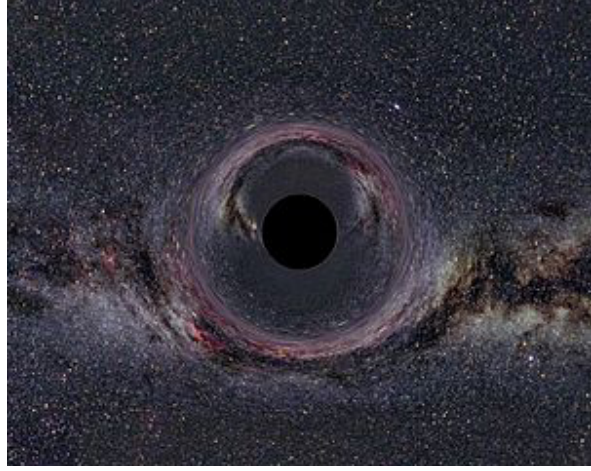
هل لاحظت التطابق بين القسم والتعريف؟ هل هذه مصادفة؟ أم أن القسم الذي كان غريباً وعجيباً في بداية المقالة لم يعد كذلك، فالله تعالى وفي ثلاث كلمات {... الخُنَس الجَوَار الكُنَس}، صَنَّف الكواكب قبل أن يقوم العلماء بذلك بـ ١٤٣٠ سنة! في وقت كان الفارق الوحيد بين الأجرام السماوية هو أن النجوم ثابتة والكواكب سياراً ولم يعرف الناس حقيقة تكوينها.

لم يستطع العلماء التوصل إلى تصنيف الكواكب إلا بعد أن أصبح لديهم في القرن الحادي والعشرين ما يكفي من العلم والتكنولوجيا لمعرفة حقيقة نظامنا الشمسي، مما يطرح السؤال التالي: كيف لآدمي أن يدلي بهذا الوصف دون أن تتوفر له الوسائل العلمية الحديثة؟ جاء هذا القسم ليخبرنا جلّ جلاله ب {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} * {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} التكوير - ١٩: يقول تعالى ذكره: هذا القرآن لتنزيل رسول كريم، يعني جبريل، نزله على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

بقلم: حسين أحمد كتاب

ثقب أسود

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة



رسم خيالي لثقب أسود تتشوه حوله صور النجوم التي وراءه.



الثقب الأسود هو منطقة في **الفضاء** تحوي **كتلة** كبيرة في حجم صغير يسمى بالحجم الحرج لهذه الكتلة، والذي عند الوصول إليه تبدأ المادة بالانضغاط تحت تأثير جاذبيتها الخاصة، ويحدث فيها انهيار من نوع خاص بفعل **الجاذبية** ينتج عن القوة العكسية للانفجار، حيث إنّ هذه القوة تضغط **النجم** وتجعله صغيراً جداً وذا جاذبية قوية خارقة. وتزداد **الكثافة** للجسم (نتيجة تداخل جسيمات ذراته وانعدام الفراغ البيني بين الجزيئات)، تصبح قوّة جاذبيته قوّة إلى درجة تجذب أي **جسم** يمر بالقرب منه، مهما بلغت سرعته. وبالتالي يزداد كمّ المادة الموجودة في الثقب الأسود، وبحسب **النظرية النسبية العامة لأينشتاين**، فإن الجاذبية تقوّس **الفضاء** الذي يسير **الضوء** فيه بشكل مستقيم بالنسبة للفراغ، وهذا يعني أن **الضوء** ينحرف تحت تأثير الجاذبية. في **النسبية** يعرف الثقب الأسود بصورة أدق على أنه منطقة من **الزمكان** تمنع فيها جاذبيته كل شيء من الإفلات بما في ذلك الضوء. يمتص الثقب الأسود **الضوء** المار

بجانبه بفعل الجاذبية، وهو يبدو لمن يراقبه من الخارج كأنه منطقة من العدم، إذ لا يمكن لأي إشارة أو موجة أو جسيم الإفلات من منطقة تأثيره فيبدو بذلك أسود. أمكن التعرف على الثقوب السوداء عن طريق مراقبة بعض الإشعاعات السينية التي تنطلق من المواد عند تحطم جزيئاتها نتيجة اقترابها من مجال جاذبية الثقب الأسود وسقوطها في هاويته. لتتحول الكرة الأرضية إلى ثقب أسود، يستدعي ذلك تحولها إلى كرة نصف قطرها ٠.٩ سم وكتلتها نفس كتلة الأرض الحالية، بمعنى انضغاط مادتها لجعلها بلا فراغات بينية في ذراتها وبين جسيمات نوى ذراتها، مما يجعلها صغيرة ككرة الطاولة في الحجم ووزنها الهائل يبقى على ما هو عليه، حيث إن الفراغات الهائلة بين الجسيمات الذرية نسبة لحجمها الصغير يحكمها قوانين فيزيائية لا يمكن تجاوزها أو تحطيمها في الظروف العادية.

تاريخ مفهوم الثقوب السوداء



صورة خيالية لثقب أسود.

كان طرح فرضية إمكانية وجود مثل هذه الظاهرة هو إكتشاف رومر أن للضوء سرعة محددة، وهذا الإكتشاف طرح تساؤلاً وهو لماذا لا تزيد سرعة الضوء إلى سرعة أكبر؟، فُسر ذلك على أنه قد تكون للجاذبية تأثير على الضوء، ومن هذا الإكتشاف كتب "جون مينشل" عام ١٧٨٣ م، مقالاً أشار فيه إلى أنه قد يكون للنجم الكثيف المتراص جاذبية شديدة جداً، حتى الضوء لا يمكنه الإفلات منها، فأى ضوء ينبعث من سطح النجم تعيده هذه الجاذبية. هناك فرضية تقول أيضاً أنه هناك نجوم عديدة من هذه النجوم، مع أننا لا يمكننا أن نرى ضوءها، لأنها لا تبعثه إلا أننا نستطيع أن نتحسس جاذبيتها، هذه النجوم هي ما نسميها بـ "الثقوب السوداء"، أي الفجوات في الفضاء، أهملت هذه الأفكار، لأن النظرية الموجية للضوء كانت سائدة في ذلك الوقت، وفي ١٧٩٦ م، أعاد العالم الفرنسي بيير سيمون لابلاس هذه الفكرة إلى الواجهة في كتابه "مقدمة عن النظام الكوني"، لكن معاصريه شككوا في صحة الفكرة لهشاشتها النظرية، إلى أن جاءت نظرية النسبية العامة لـ ألبرت اينشتاين، التي برهنت على إمكانية وجود الثقوب السوداء. بدأ علماء الفلك في البحث عن آثارها، حيث تم اكتشاف أول ثقب أسود سنة ١٩٧١ م.

وتحولت الآراء حول الثقب الأسود إلى حقائق مشاهدة عبر المقراب الفلكي الراديوي الذي يتيح للراصدین مشاهدة الكون بشكل أوضح، وجعل نظرية النسبية حقيقة علمية مقبولة عند معظم دارسي علوم الفيزياء.

حياة النجم

يتكون النجم من سحابة من غاز الهيدروجين (والقليل من الهيليوم) تبدأ بالتجمع والتكدس على بعضها ثم بالدوران حول نفسها، ومع هذا التكتف يزداد الضغط على نواتها بشكل كبير، فيسخن الغاز في النواة حتى يصبح حاراً جداً إلى درجة أن تندمج ذرات الهيدروجين لتكوّن الهليوم، وبهذه العملية يستطيع النجم توليد ضغط باتجاه الخارج في نواته يمنعها من الانهيار على نفسها. لكن عندما ينفذ وقود النجم من الهيدروجين يُصبح مهدداً بالانهيار على نفسه نتيجة لضغط كتلته، فيبدأ بحرق الهيليوم ثم الكربون وصولاً إلى الحديد، فحينها لا يعود النجم قادراً على دمجها إلى عناصر أثقل لأن الطاقة التي يُولدها الاندماج النووي لا تعود كافية لمنعه من الانهيار، فينهار على نفسه في انفجار المستعر الأعظم مطلقاً طاقة هائلة.

لكن ما يُحدد مصير النجم بعد انفجاره هو ما يُسمى "حد تشاندراسيخار"، هذا الحد هو مقدار الكتلة (١.٤ كتلة شمسية) الذي إن لم يتجاوز النجم فسيتحول إلى قزم أبيض، وإن تجاوزه فيتحول إما إلى نجم نيوتروني أو ثقب أسود (ما يُحدد أيهما هو حد أوبنهايمر-فولكوف). إذا ما كانت كتلة النجم عالية، فسيعني هذا أنه سيكون أكثر كثافة، ولذلك فإن النجوم الكثيفة تصبح نجومًا نيوترونية أو ثقباً سوداء. النجوم النيوترونية هي أجسام عالية الكثافة جداً، ولذا فعندما تتكون تندمج الإلكترونات والبروتونات لتصبح نيوترونات تستطيع تحمل الضغط الهائل في النواة (فقطر هذه النجوم لا يتجاوز الـ ٢٠ كم)، أما عندما تكون الكثافة أعلى من ذلك، فإن حتى النيوترونات لا تعود قادرة على تحمل الضغط الهائل، فينهار النجم متحولاً إلى ثقب أسود هائل الكثافة.

الثقوب السوداء والنظرية النسبية

أفق الحدث هو (حدود منطقة من الزمان والمكان التي لا يمكن للضوء الإفلات منها) وبما أنه لا شيء يمكنه السير بأسرع من الضوء، فإن أي شيء يقع في هذه المنطقة سوف يبلغ بسرعة منطقة ذات كثافة عالية ونهاية الزمان. وتتنبأ النسبية العامة بأن الأجسام الثقيلة المتحركة سوف تتسبب بث موجات جاذبية وهي تموجات نتيجة إنحناء الفضاء (هذه التموجات على حسب فهمي هي ليست مثل موجات الراديو بل هي إنحناء وتقوس في بنية الزمكان تخيل أنك تمشي في بركة ماء سوف تتكون موجات من الماء بسبب حركة في البركة وهذه الموجات الناشئة هي مكانية ذات ثلاث أبعاد وموجة مثلها معها زمانية لتكون موجات من بعد رابع هي التي يقصد بها إنحناءات الفضاء) تنتقل بسرعة الضوء وتشبه موجات الضوء التي هي تموجات المجال الكهرومغناطيسي إلا أنها يصعب إكتشافها وهي كالضوء

تأخذ الطاقة من الأجسام التي تبثها وبالتالي يتوقع أن ينهار نظام من الأجسام الضخمة ويعود في النهاية إلى وضع مستقر لأن الطاقة في أي حركة سوف تحمل بعيداً.

على سبيل المثال دوران الأرض حول الشمس يولد موجات جاذبية ويكون تأثير مسارات الطاقة في تغير مدار الأرض حول الشمس الذي يؤدي في آخر المطاف إلى أن الأرض تقترب من الشمس حتى تستقر داخلها ومعدل ضياع الطاقة ضئيل جداً. وشوهد هذا التأثير في نظام النجم النابض وهو نوع خاص من النجوم النيوترونية تبث نبضات منتظمة من موجات الراديو، ويضم هذا النظام نجمين نيوترونيين يدوران حول بعضهما البعض فيما يعرف بالنجوم المزدوجة.

شكل النجوم التي تكون منها الثقوب الأسود

أحدث "ورنر إزرائيل" Werner Israel - وهو باحث كندي ولد في برلين - ثورة في دراسة الثقوب السوداء عام ١٩٦٧ م عندما بيّن أن الثقوب السوداء ليست دواراً، فوفقاً للنظرية النسبية العامة إن كانت دواراً فلا بد أن تكون كروية تماماً. ولا يتوقف حجمها إلا على كتلتها، وأي ثقبين سوداوين، بكتلة متساوية هما متساويان بالحجم. وقد أمكن وضعهما عن طريق حل خاص لمعادلات أينشتاين قبل النسبية العامة بقليل. وكان من المعتقد أن الثقوب الأسود لا يتكون إلا عند انسحاق جسم كروي تماماً. وأن النجوم ليست كروية تماماً، ولا يمكن بالتالي أن يسحق إلا بشكل تفرد ثقالي عارياً، لكن هناك تفسيرات مختلفة لنتيجة "إزرائيل" تبناها روجر بنروز و"جون ويلر" فقد أبدأ أن الحركات السريعة في انسحاق النجم يعني أن موجات الجاذبية المنبعثة منه تجعله أكثر كروية إلى أن يستقر في وضع ثابت ويصبح كروياً بشكل دقيق. ووفق هذه النظرية فأن أي نجم دوار يصبح كروياً مهما كان شكله وبنيته الداخلية معقدتين، وسوف ينتهي بعد انسحاقه بالجاذبية إلى ثقب أسود كروي تماماً يتوقف حجمه على كتلته فقط. واكتشف أول نباض عام ١٩٦٧ مؤيداً للنظرية النسبية. وتبين ان تلك النبضات ما هي إلا نجوم نيوترونية. حتى ذلك الحين كانت النجوم النيوترونية والثقوب السوداء ترى على أنها أجسام نظرية ولا وجود لها في الطبيعة. وخلال تلك الفترة كثرت حسابات النظرية النسبية التي تؤدي إلى امكانية نشأة ثقب أسود. من خلال عمل ورنر إزرائيل وبراندون كارتر نشأت " نظرية لا شعر" والتي تشير إلى أن حل الثقوب الأسود الثابت يمكن وصفه بثلاثة إحداثيات طبقاً لمقياسية كتلة، العزم الزاوي والشحنة الكهربائية.

وكانت ظواهر الثقوب الأسود المحسوبة بواسطة النظرية النسبية لا تزال تعتبر نظرية بحتة وناشئة عن شروط تناظر مفترضة في حل المعادلات. كان من العلماء الذين اعتنقوا تلك الفكرة فلاديمير بلينسكي وأيزاك خالاتنيكوف وافيغني ليفشيتز الذي حاول إثبات ظهور تلك الحلول في الحال العام أيضاً. ولكن في الستينيات من القرن الماضي قام روجر بنروز وستيفن هوكينج باستخدام طريقة شاملة لإثبات أن حالة التفرد الثقالي تظهر أيضاً في الحلول العامة

لمعادلات النظرية النسبية العامة. وفي عام ١٩٦٣ م، وجد "[دوي كير](#)" مجموعة من الحلول لمعادلات النسبية العامة تصف الثقوب السوداء الدوارة التي أغفلها "إزرائيل". فإذا كانت الدورات صفر يكون الثقب الأسود كروي تماما ويصبح الحل ممثلاً لحل "شفارزشيلد". أما إذا كان الدوران ليس صفراً ينتفخ الثقب الأسود نحو الخارج قرب مستوى خط استوائه تماماً مثل [الأرض](#) منبعجة من تأثير دوراتها. لقد افترض إزرائيل أن أي جسم ينسحق ليكون ثقباً أسود سوف ينتهي إلى وضع مستقر كما يصف حل كير.

حجم الثقوب السوداء وأدلة وجودها

في عام ١٩٧٠ م بين "[براندون كارتر](#)" أن حجم وشكل أي ثقب أسود ثابت الدوران يتوقف فقط على كتلة ومعدل دورانه بشرط يكون له محور تناظر، وبعد فترة أثبت [ستيفن هوكينغ](#) أن أي ثقب أسود ذي دوران ثابت سوف يكون له محور تناظر. واستخدم "[رو بنسون](#)" هذه النتائج ليثبت أنه بعد انسحاق الجاذبية بان الثقب الأسود من الاستقرار على وضع يكون دواراً ولكن ليس نابضاً، وأيضاً حجمه وشكله يتوقفان على كتلته ومعدل دورانه دون الجسم الذي انسحق ليكونه.

ما الأدلة على وجود هذه الثقوب؟

الثقوب السوداء لا دليل عليها سوى حسابات مبنية على [النسبية](#) لذلك كان هناك من لم يصدق بها. وفي عام ١٩٦٣ م، رصد "مارتن سميدت" وهو عالم فلكي [أمريكي](#) الانزياح نحو الأحمر في طيف جسم باهت يشبه [النجم](#) في اتجاه مصدر موجات [الراديو](#) فوجد أنه أكبر من كونه ناتج عن حقل جاذبية فلو كان انزياحه بالجاذبية نحو الأحمر لكان الجسم كبير الكتلة وقريباً منا بحيث تنزاح مدارات الكواكب في [النظام الشمسي](#). وهذا الانزياح نحو الأحمر ناتج عن توسع [الكون](#) وهذا يعني بدوره أن الجسم بعيداً جداً عنا ولكي يرى على هذه المسافة الكبيرة لابد وأنه يبت مقدار هائلاً من الطاقة والتفسير الوحيد لهذا ناتج انسحاق بالجاذبية ليس لنجم واحد بل لمنطقة مركزية من إحدى المجرات بكاملها وتسمى [أشباه النجوم](#).

الكوازارات

في عام ١٩٦٧ م اكتشفت "[جوسلين بل](#)" أجسام في [الفضاء](#) تبث نبضات منتظمة من موجات [الراديو](#) وكانت يعتقد بأنها أتصلت مع [الحضارات](#) غريبة في [المجرة](#) ولكنها توصلت إلى أن هذه النبضات ناتجة عن نجم [نابض](#) هو في الواقع [نجوم نيوترونية](#) دوارة تبث هذه النبضات هي بسبب تداخل معقد بين حقولها الجاذبية وبين المادة المحيطة بها وهذه النبضات هي الدليل الأول على وجود الثقوب السوداء ولكن كيف يمكن لنا اكتشاف أو استشعار الثقوب الأسود

مع أنه لا يبعث الضوء؟ ذلك عن طريق دراسة القوة التي يمارسها الثقب الأسود على الأجسام المجاورة فقد شاهدوا نجما يدور حول آخر غير مرئي ولكن ليس هذا شرطاً أن يكون النجم غير المرئي ثقباً أسود فقد يكون نجماً باهتاً.

ومع هذه الجاذبية العالية والطاقة الهائلة التي ييشها الثقب الأسود فإنه قد تتولد جسيمات ذات طاقة عالية جداً قرب الثقب الأسود ويكون الحقل المغناطيسي شديداً بحيث تتجمع الجسيمات في نفائثية متضادتين تنطلقا خارجاً على طول محور الدوران، ونشاهد مثل هذه الجسيمات في عدد من الكوازار.

إشعاع الثقب الأسود

من فكرة تعريف الثقب الأسود كمجموعة من الأحداث التي لا يمكن الإفلات منها بعيداً، ويعني أن الثقب الأسود أي أفق الحدث مكون من مسارات أشعة الضوء في الزمكان وبالتالي لا يستطيع الضوء الابتعاد عن الثقب الأسود بل يحوم عند أطرافه إلى الأبد. أن هذه المسارات لا يمكن أن تقترب من بعضها البعض فإذا اقتربت فلا بد أن تندمج لتصبح واحدة وفي هذه الحالة تقع في ثقب أسود، ولكن إذا أبتلع الثقب الأسود هذه الأشعة فهذا يعني أنها لم تكن على حدوده، وهذا يعني أنه يجب أن تكون الأشعة متوازية أو متباعدة، وإذا كانت الأشعة التي يتألف منها أفق الحدث لا يمكنها أن تتقارب فإن مساحة أفق الحدث تبقى كما هي أو تتسع مع الزمان، وفي الواقع تتسع المساحة كلما وقع في الثقب الأسود مادة أو إشعاع وإذا تصادم ثقبان أسودان واندجما معا في ثقب واحد فإن مساحة أفق حدث للثقب الجديد تساوي مجموع مساحتي الثقبين الأولين أو أكبر وبناءً على هذا التعريف وهذه الفكرة فسوف تكون حدود الثقب الأسود هي للثقب الأسود وأيضا مساحتهما بشرط أن يكون الثقب الأسود صار إلى وضع مستقر لا يتغير مع الزمن، كان هذا السلوك لمساحة الثقب الأسود مستوحى إلى حد بعيد من سلوك مقدار مادي يدعى "أنتروبيا" - وهو مقياس درجة الخلل أو اضطراب نظام ما - ويعرف تقدير أو وصف هذه الفكرة الدقيقة بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية فهو ينص على أن "الأنتروبيا" لنظام معزول تتزايد باطراد وعندما يندمج نظامين معا، تكون "أنتروبيا" النظام الموحد، أكبر من مجموع الأثنين في كل منهما، وأقترح طالب أبحاث اسمه "جاكوب بكنشتاين" إن مساحة أفق الحدث هي مقياس أنتروبيا لثقب الأسود؛ فكلما سقطت فيه مادة تحمل أنتروبيا كلما وأتسعت مساحة أفق الحدث بحيث أن مجموع أنتروبيا المادة خارج الثقوب السوداء ومساحة الآفاق لا تنقص أبداً، فإذا كان للثقب الأسود أنتروبيا فلا بد أن تكون له حرارة كذلك كل جسم ذي حرارة معينة لابد أن يبعث إشعاعاً بمعدل ما وهذا الإشعاع ضروري لتفادي حرق القانون الثاني للديناميكا. أي أنه يجب أن تبث الثقوب السوداء إشعاعاً ولكن الثقوب السوداء بحكم تعريفها بالذات أجسام يفترض أن لا تبث شيئاً.

وفي الحقيقة الثقوب السوداء الدوارة تبث جسيمات ذرية، ولكن عندما أجرى [ستيفن هوكينغ](#) حساباته ظهرت له نتيجة مزعجة وهي أنه حتى الثقوب السوداء غير الدوارة تبث جسيمات ذرية وهذه النتيجة كان يعتقد ستيفن أنها ناتجة عن اعتماده تقديرا خاطئا وأخيرا أكد له طيف هذه الجسيمات هو بالضبط ما قد يصدر عن جسم حار.

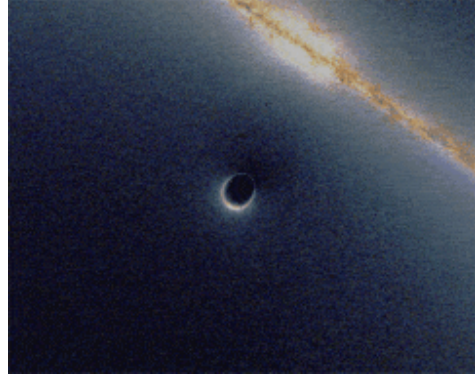
كيف يبدو أن الثقب الأسود يمكنه بث جسيمات مادما نعرف أن لا شيء يمكنه الإفلات من أفق الحدث؟ الجواب كما تفيد نظرية الكم هو إن الجسيمات لا تصدر من داخل الثقب الأسود بل من (الفرغ) الفضاء الفارغ خارج أفق الحدث للثقب الأسود مباشرة؛ وكي تتضح الصورة لا بد من إعادة فكرة إن ما نخاله فضاء فارغا، لا يمكن أن يكون فراغا تماما لأن ذلك يعني إن جميع الحقول من الجاذبية [وكهرومغناطيسية](#) ستكون صفرا بالضبط إلا أن قيمة الحقل ومعدل تغيره مع الزمن يشبهان موقع وسرعة الجسم: [فمبدأ عدم التأكد](#) يحتم أنه كلما قمنا بقياس واحدة من هاتين الكميتين بدقة عالية كلما تناقصت دقة قياس الكمية الأخرى. ففي فضاء فارغ لا يمكن تحديد الحقل صفرا بدقة لأنه تكون له قيمة صفر ومعدل تغير صفر، وهذا مخالف لمبدأ عدم التأكد. إذأ لا بد أن تكون هناك [جسيمات أولية](#) في الفضاء تظهر تارة وتختفي تارة، وهي حينما تفعل ذلك فهي تظهر على هيئة زوجا من الجسيمات أحدهما الجسم والآخر نقيضه. ولا يلبثان طويلا بل يفني كل منهما الآخر ثانيا (من هنا ظهرت فكرة طاقة الصفر حاول البحث عن أعمال وحياة العالم نيكول تسلي). ولا يمكن رؤية هذه الجسيمات أو اكتشافها بالكشافات لان تأثيراتها غير مباشرة ويتنبأ مبدأ الارتباب بوجود أزواج افتراضية متشابهة من جسيمات المادة بحيث يكون أحد الزوجين من المادة والأخر من المادة المضادة. وتحيل هذه الجسيمات على حدود الثقب الأسود أي على حدود أفق الحدث من الممكن جدا أن يسقط الجسم الافتراضي الذي يحمل [الطاقة](#) السالبة وينجو الجسم ذو [الطاقة](#) الموجبة.

بالنسبة لرصد من بعيد يبدو وكان الجسم صادر عن الثقب الأسود ومع دفع [الطاقة](#) السالبة إلى داخل الثقب الأسود سوف تنخفض كتلة الثقب الأسود ولتفقد الثقب الأسود لبعض كتلته تتضاءل مساحة أفق حدثه فكلما صغرت كتلة الثقب الأسود أرتفعت درجة الحرارة ومع ارتفاع درجة الحرارة يزداد معدل بثه الإشعاع فيتسارع نقصان كتلة أكثر فأكثر ولكن لا أحد يعلم ماذا يحدث للثقب الأسود إذا تقلصت أو انكمشت كتلته إلى درجة كبيرة ولكن الاعتقاد الأقرب أنه سوف ينتهي إلى انفجار نهائي هائل من الإشعاع يعادل انفجار ملايين من القنابل الهيدروجينية. فالثقب الأسود الأولى ذو الكتلة البدائية من ألف مليون طن يكون عمره مقاربا لعمر الكون. أما الثقوب السوداء البدائية ذات الكتلة دون هذه [الأرقام](#) فتكون قد تبخرت كليا. وتلك التي لها كتلة أكبر بقليل تستمر في بث إشعاعات على شكل أشعة سينية أشعة غاما وهذه الإشعاعات من سينييه وغاما تشبه الموجات الضوئية ولكن بطول موجي أقصر وتكاد هذه الثقوب لا تستحق صفة سوداء فهي حارة في الواقع إلى درجة (الاحمرار- أبيض) وتبث [طاقة](#) بمعدل يقارب عشرة آلاف ميغا [الواط](#).

إشعاع هوكينج

طبق عالم الفيزياء النظرية ستيفن هوكينج نظريات الترموديناميكا والنظرية النسبية العامة وميكانيكا الكم وتوصل إلى أن الثقب الأسود يمكن أن يصدر أشعة. وافترض حدوث إنتاج زوجي عند أفق الحدث للثقب الأسود ينتج عنه إشعاع سُمي "إشعاع هوكينج". كما أستطاع استنتاج أن كتلة الثقب الأسود تتبخر مع الوقت، وقدر عمر تبخر الثقب الأسود بنحو 10^{67} سنة.

رصد الثقب الأسود



ثقب أسود يمر بين المشاهد و**مجرة** تقع خلفه، ويرى تشوه ضوء المجرة القادم إلينا (محاكاة تشبيهية)

قد نفتش عن أشعة غاما التي تبثها الثقوب السوداء الأولية طوال حياتها مع إن إشعاعات معظمها سوف تكون ضعيفة بسبب بعدها عنا بعدا كبيرا، ولكن اكتشافها من الممكن. ومن خلال النظر إلى خلفية أشعة غاما لا نجد أي دليل على ثقوب سوداء أولية ولكنها تفيد بأنه لا يمكن تواجد أكثر من ٣٠٠ منها في كل سنه ضوئية مكعبة من الكون. فلو كان تواجدها مثلا أكثر بمليون مرة من هذا العدد فإن أقرب ثقب أسود إلينا يبعد ألف مليون كيلومتر، وكي نشاهد ثقبا أسودا أوليا علينا أن نكشف عدة كمات من أشعة غاما صادرة في اتجاه واحد خلال مدى معقول من الزمن كأسيوع مثلا، ولكن نحتاج إلى جهاز استشعار كبير لأشعة غاما وأيضا يجب أن يكون في الفضاء الخارجي لأن الغلاف الجوي للأرض يمتص قدرا كبيرا من أشعة غاما الآتية من خارج الأرض.. إن أكبر مكشاف أشعة غاما يمكنه التقاطها وتحديد نقطة الثقوب السوداء موجود لدينا هو الطبقة الهوائية للأرض بكاملها. فعندما يصطدم كم عالي من الطاقة من أشعة غاما بذرات جو الأرض يُولد أزواجا من الإلكترونات والبوزيترونات (نقيض الإلكترون) ونحصل على وابل من الإلكترونات السريعة التي تُشع ضوءاً يدعى إشعاع شيرنكوف. إن فكرة إشعاع الثقوب السوداء هي من أمثلة التنبؤ الفيزيائي المبني على النظريتين الكبيرتين المكتشفتان في هذا القرن :

النظرية النسبية العامة وميكانيكا الكم. وهذه أول إشارة إلى أن ميكانيكا الكم قادرة على حل بعض التفردات الثقالية التي تنبأت بها النسبية العامة.

• وعلى الرغم من عدم تمكننا من رؤية أو تصوير الثقوب السوداء، فهناك سبل لمعرفة مكانها. وقد استطاع العلماء الالمان في السنوات القليلة الماضية اكتشاف حقيقة تواجد أحد تلك الثقوب السوداء في مركز المجرة. بالطبع لم يروه رؤية مباشرة، ولكنهم دُثبوا على مراقبة حركة نجم كبير قريب من مركز المجرة لمدة سنوات عديدة، ويدور هذا النجم في مدار حول مركز خفي.

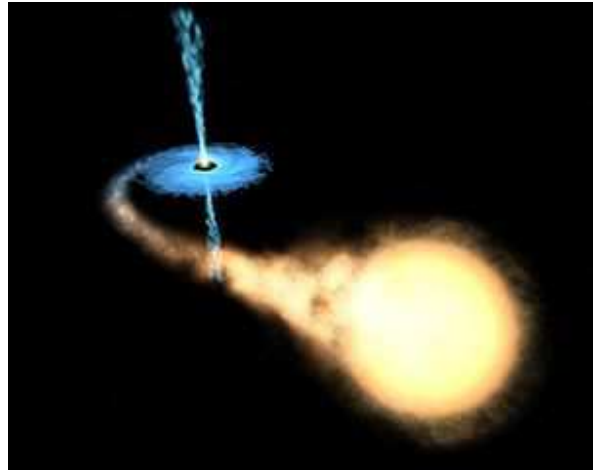
وعلى أساس معرفة كتلة النجم ونصف قطر فلكه، استطاع العلماء استنتاج وجود الثقب الأسود في مجرتنا وحساب كتلته التي تبلغ نحو ٢ مليون ضعف لكتلة الشمس.

الثقوب السوداء والنظريات الفيزيائية

من المعروف أن قوانين الفيزياء مبنية على النظريات وعلى هذا الأساس بما أنه توجد أجسام تسمى ثقوب سوداء، يمكن للأشياء السقوط فيها بلا عودة فإنه يجب أن تكون هناك أجسام تخرج منها الأشياء تسمى الثقوب البيضاء ومن هنا يمكن للمرء افتراض إمكانية القفز في ثقب أسود في مكان ما ليخرج من ثقب أبيض في مكان آخر. فهذا النوع من السفر الفضائي ممكن نظريا، فهناك حلول لنظرية النسبية العامة يمكن فيها السقوط في ثقب أسود ومن ثم الخروج من ثقب أبيض أيضا لكن الأعمال التالية بينت أن هذه الحلول جميعها غير مستقرة : فالاضطراب الضئيل قد يدمر أخطود الدودة أو المعبر الذي يصل بين الثقب الأسود والثقب الأبيض (أو بين كوننا وكون موازي له)، إن كل هذا الكلام الذي ذكر يستند إلى حسابات باستخدام النظرية النسبية العامة لأينشتاين وتعتبر هذه الحسابات تقريبية وغير صحيحة تماما لأنها لا تأخذ مبدأ عدم التأكد في الحسبان. اعتبر في الماضي أن الثقب الأسود لا يفقد مادة فهو لا يسمح حتى للضوء بمغادرته، ولكن أعاد ستيفن هوكينغ التفكير وبميل إلى أن بعض الجسيمات يمكنها الانطلاق منه. ولو افترضنا أنه كانت هنالك مركبة فضاء قفزت إلى هذا الثقب ماذا يحدث؟ فيقول ستيفن هوكينج بناءً على عمل أخير له إن المركبة سوف تذهب إلى كون (طفل) صغير خاص بما كون صغير مكتف ذاتيا يتفرع عن منطقتنا من الكون (الكون الطفل يمكن توضيحه وذلك بأن تتخيل كمية من الزيت في حوض ماء وهي متجمعة حرك هذه الكمية بقلم سوف تنفصل كرة صغيرة من الزيت عن الكرة الكبيرة هذه الكرة الصغيرة هي الكون الطفل والكرة الكبيرة هي عبارة عن كوننا ولاحظ أن الكرة الصغيرة قد ترجع وتتصل مع الكرة الكبيرة) وقد يعود هذا الكون الطفل إلى الانضمام ثانية إلى منطقتنا من عالم الزمكان فأن فعل سيبدو لنا كثقب أسود آخر قد تشكل ثم تبخر والجسيمات التي سقطت في ثقب أسود تبدو كجسيمات مشعة من ثقب آخر. ويبدو هذا وكأنه المطلوب للسماح بالسفر الفضائي عبر الثقوب السوداء لكن هناك عيوب في هذا المخطط لهذا السفر الكوني أولها أنك لن

تستطيع تحديد مكان توجهمك أي لا تعلم إلى أين سوف تذهب وأيضا الأكوان الطفلة التي تأخذ الجسيمات التي وقعت في الثقب الأسود تحصل فيما يدعى بالزمن التخيلي يصل رجل الفضاء الذي سقط في الثقب الأسود إلى نهاية بغیضة مؤلمة فهو يستطیل مثل "المعكرونة الاسباجتي" ثم يتمزق بسبب الفرق بين القوى المطبقة على رأسه وقدمیه. حتى الجسيمات التي يتكون منها جسمه سوف تنسحق تواريخها في الزمن الحقيقي وستنتهي في متفرد ثقالي. ولكن تواريخها في الزمن التخيلي سوف تستمر حيث تعبر إلى كون طفل ثم تعود للظهور كجسيمات يشعها ثقب أبيض، إن على من يسقط في ثقب أسود أن يتخذ الشعار : (فكر تخيليا). وما نعينه هو إن الذهاب عبر ثقب أسود ليس مرشحا ليكون طريقة مرضية وموثوق بها للسفر الكوني لأنها ما زالت في طور الفلسفة النظرية ولربما نتمكن بعد سنوات من الدراسات من دخول الثقب الأسود فبعض العلماء قالو ان الثقب الأسود بوابة لمجرة بعيدة أو عالم آخر

هل يمكن رؤية الثقب الأسود؟



ثقب أسود يجذب إليه المادة من نجم مجاور.

ينشأ الثقب الأسود عندما ينتهي عمر أحد النجوم البالغة الأكبر (حجما) وينتهي وقوده، فينفجر وينهار على نفسه. ويتحول النجم من سحابة كبيرة عظيمة إلى تجمع صغير محدود جدا للمادة المكثفة. ويعمل ذلك التجمع المادي المركز على جذب كل ما حوله من جسيمات أو أي مادة أخرى. وحتى فوتونات الضوء لا تفلت منه بسبب جاذبيته الخارقة، فالثقب الأسود لا ينبعث منه ضوء. ولكن كل ما يجذب وينهار على الثقب الأسود يكتسب سرعات عالية جدا وترتفع درجة حرارتها. وتستطيع التلسكوبات الكبيرة على الأرض رؤية تلك الدوامات الشديدة

الحرارة. أي أن الثقب الأسود يفصح عن نفسه بواسطة شهيته وجشعه للتقاط كل مادة حوله. ولا يتعين علينا أن نخاف لأن الفلكيين لم يجدوا أي ثقب أسود بالقرب من المجموعة الشمسية.

أنواعها

الثقب الأسود هو المرحلة الأخيرة من عمر نجم عظيم الكتلة. وفي الواقع فهو ليس نجما حيث أنه لا يولّد طاقة عن طريق الاندماج النووي (يتوقف الاندماج النووي في النجم كبير الكتلة بعد استهلاكه لوقوده من الهيدروجين و الهيليوم ويصبح ثقبا أسودا لا يشع ضوءا).

ويمكن تكوّن ثقب أسود بعدة طرق:

- ثقب أسود صغير : طريقة افتراضية، ويمكن من الوجهة النظرية أن تتكون في معجل جسيمات
- ثقب أسود نجمي: وهي أجرام تبلغ كتلتها بين ٤ - ١٥ كتلة شمسية
- ثقب أسود متوسط الكتلة : ويتميز بكتلة بين ١٠٠-١٠٠٠٠ كتلة شمسية.
- ثقب أسود فائق الضخامة : وتبلغ كتلته عدة ملايين أو عدة بلايين كتلة شمسية.

ماذا يمكن أن نرى داخل الثقوب السوداء في الفضاء؟

ماركوس وو صحفي علمي

١٣ مايو/ أيار ٢٠١٥



إذا كنت تستقل سفينة فضاء، وسافرت بها عبر أحد الثقوب السوداء، فكيف يمكن أن يبدو الأمر؟
الصحفي العلمي "ماركوس وو" يحقق في الأمر.

شيء ما عن الثقب الأسود في الفضاء يسترعي انتباهك بالكامل. بالتأكيد، جاذبية الثقب الأسود في غاية القوة لدرجة أنها تمتص الضوء ذاته. لكن هناك شيء آخر، شيء يصعب تحديده.

ربما كان الظلام الدامس للثقب الأسود، تلك الهوة الغامضة التي ليس لها قاع ولا قرار، هو ما يهملك، أو ربما كان ذلك هو ما يجبرك على أن تقترب أكثر لمعرفة المزيد عنه.

الرحلة إلى أحد الثقوب السوداء هي رحلة ذات اتجاه واحد، أي ذهاب بلا عودة. بمجرد أن تجتاز النقطة التي لا يستطيع الضوء المرور من خلالها، فلا مجال أمامك للعودة. على الأرجح، ستموت بطريقة عنيفة. إذا لم يردعك ذلك، دعنا على الأقل نستكشف ما الذي يمكن أن نراه إذا قدر لنا أن نزور أحد هذه الثقوب السوداء.

عندما يستهلك نجم هائل وقوده، ينهار بفعل وزنه، ويهوي إلى أحد الثقوب السوداء. فقط النجوم ذات الوزن الكبير، والتي تكون عادة أكبر من شمسنا بنحو ٢٥ مرة، هي التي يؤدي موتها إلى ظهور ثقب أسود.

وهناك واحد فقط من بين كل ألف نجم في المجرة يكون حجمه كبيراً لدرجة أن يؤدي إلى ظهور ثقب أسود. في مجرة درب التبانة وحدها هناك على الأقل ١٠٠ مليار نجم، وهو ما يعني وجود ١٠٠ مليون ثقب أسود كامن هناك.

لكن لا تنس أن الفضاء واسع جداً. حتى لو كنت مسافراً بسرعة الضوء، فإنك تحتاج إلى عدة آلاف من السنين لكي تصل إلى أقرب ثقب أسود.

لكن دعنا نقول إنك وصلت بطريقة أو بأخرى إلى أحد هذه الثقوب السوداء، فما الذي ستراه؟

في الواقع لا شيء. فقط اللون الأسود. ولو قمت بالدوران حوله، ستجد أنه كروي الشكل، ليس كتلك الثقوب المحمولة المسطحة التي تظهر في أفلام الصور المتحركة التي تحمل اسم "رود رانر".

مغلف بالغبار والغازات



وإذا دار حول نفسه، وهو أمر مرجح، كما تفعل بقية الأشياء في هذا الكون والتي تدور بدرجات معينة، فستجد أن الثقب الأسود متسع في منطقة الوسط، وليس على شكل دائرة تامة.

ولرؤية منظر أكثر إثارة، انتقل إلى مركز درب التبانة، حيث يوجد ثقب أسود هائل أكبر من الشمس بحوالي أربعة ملايين مرة. وقد أدت جاذبية هذا الثقب الأسود إلى تجمع الكثير من جزيئات الغبار والغازات، والتي تراكمت على شكل اسطوانة تتصاعد داخل الثقب، وتحيط بتلك البالوعة، إن صح القول.

ذلك القرص الساخن له منظر أخاذ. أما بالنسبة للثقب الأسود نفسه، فلن يكون بإمكانك رؤيته مباشرة، إذ أنه مغلف بالغبار والغازات. لكن بإمكانك أن ترى كيف تقوم جاذبية الثقب الأسود بتغليف أشعة الضوء حولها، محدثة بذلك صورة بصرية في المواد المحيطة به يطلق عليها اسم "ظل الثقب الأسود".

وتغلف الجاذبية صورة الظل نفسه، مما يجعل ذلك الظل يبدو أكبر خمس مرات من حجم الثقب الأسود. في العادة، نعتقد أن الضوء ينتقل في حزم ضوئية مستقيمة. لكن بالقرب من الثقب الأسود، تعمل الجاذبية على شفط الخلايا الضوئية (الفوتونات) وتجعلها تدور حول الثقب في مدارات محددة.

بعض هذه الخلايا الضوئية تتمكن من الإفلات من الجاذبية، وتصل إلى عينيك، (أو إلى التلسكوب)، وما ستراه حينها هو حلقة ساطعة على حدود ذلك الظل.

في هذه الأثناء، يدور الجزء الداخلي من القرص على شكل دوامة حول الثقب الأسود بسرعة تقترب من سرعة الضوء. وحسب نظرية أينشتاين النسبية، يظهر مصدر الضوء أكثر سطوعاً إذا كان مندفعاً باتجاهك.

ظل لامع

فإذا كنت تنظر إلى الثقب الأسود يكون ذلك الجزء من القرص الذي يقترب منك أكثر لمعاناً، ويظهر على شكل هلال على حافة الثقب الأسود.



وهكذا عندما لا تستطيع رؤية الثقب الأسود مباشرة، يمكنك أن ترى ظله محاطاً بحلقة مضيئة وهلال. ويؤدي بعض الباحثين قلقهم من أن بعض الغازات ووزرات الغبار والجسيمات المشحونة التي تقذف بعيداً عن القرص يمكن أن تحجب عنا رؤية هذ الصورة المثيرة.

ولكي نتصور بالضبط شكل ظل الثقب الأسود، صمم العلماء واحداً من أكثر برامج المحاكاة دقة حتى الآن، والذي يحاكي الطبيعة الفيزيائية للغازات والجاذبية المحيطة بالثقب الأسود.

وقد تبين أن المنظر يمكن أن يبقى واضحاً ومشرقاً، كما تقول فريال أوزيل، عالمة فيزياء الفضاء بجامعة أريزونا، والتي ساهمت في تصميم برنامج المحاكاة.

ويمكن البناء على هذا البرنامج في إنتاج أفلام رائعة، لكن الأهم من ذلك هو أنه يساعد علماء الفلك على توقع ما سيرونه عندما يراقبون في الواقع ظل الثقب الأسود الموجود في درب التبانة.

وبالجمع بين قدرات ١١ جهاز تلسكوب حول العالم، يعمل علماء الفلك على التوصل إلى تلسكوب واحد بحجم الكرة الأرضية ليرى للمرة الأولى ظل الثقب الأسود وكلاً من الهلال والحلقة اللذان يميزانه.

تقول أوزيل: "هذا هو ما أحلم به؛ أن نرى حلقة مضيئة في أحد جانبيها أكثر من الجانب الآخر."

هذا التلسكوب الذي يساوي حجمه حجم الكرة الأرضية يطلق عليه اسم "Event Horizon Telescope"، وسيحتوي على أدوات وأجهزة تمتد من القطب الجنوبي حتى تشيلي، وسوف يستخدم أجهزة كمبيوتر عملاقة (سوبر كمبيوتر) لسحب ذلك الكم الهائل من المعلومات.

"ذلك يعطينا مستوى أعلى من التكبير لم يصل إليه أي تلسكوب من قبل"، كما يقول شيب دويليمان، عالم الفلك بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا الذي يقود مشروع التلسكوب العملاق. ويضيف: "إن معرفة ماهية ظل الثقب الأسود من كوكب الأرض يشبه رؤية حبة الليمون الهندي (أو الغريفروت) على سطح القمر."

اكتشاف غير مسبوق

خلال الشهر الأخير، تمكن العلماء من ربط سبع أجهزة تلسكوب ببعضها، لتصبح جاهزة لإجراء التجارب. وبحلول ٢٠١٧، يأمل العلماء في أن تكون هذه الأجهزة مهيأة ليرى الناس الثقب الأسود مباشرة من خلالها.



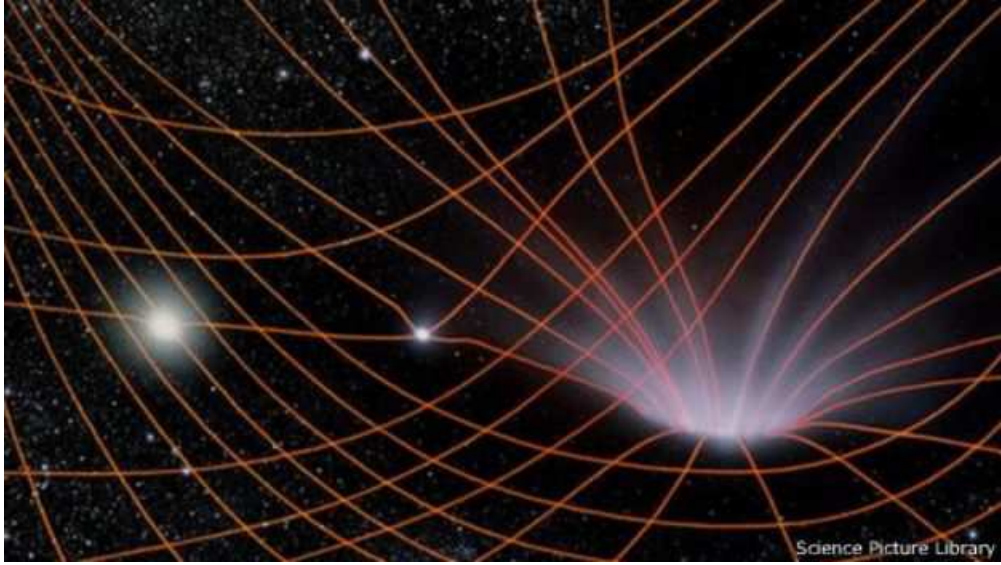
في الحقيقة، ستكون رؤية الثقب الأسود اكتشافاً غير مسبوق، كما يقول دويليمان، وسيكون ذلك بمثابة أقوى دليل حتى الآن على وجود هذه الثقوب السوداء (حيث أن كل الدلائل المتوفرة حالياً غير مباشرة، وتقوم على سبيل المثال على وجود تأثير جاذبية الثقوب السوداء على النجوم القريبة من مركز المجرة).

وسيكون باستطاعة علماء الفيزياء تحليل ما يدور بالتفصيل حول الثقب الأسود، مما سيمكنهم من اختبار التفاصيل المعقدة لنظرية أينشتاين النسبية المتعلقة بالجاذبية.

لكن ربما كانت الرؤية في حد ذاتها أمراً غير كاف، ولا يزال هناك رغبة في معرفة ماذا يوجد داخل الثقب الأسود. ولسوء الحظ، لا يعرف العلماء حتى الآن ما الذي سيحدث.

الفرضيات القائمة تقول إنك إذا اقتربت من الثقب الأسود، فسوف تتمدد وتصبح مثل المعكرونة الرفيعة الطويلة، بمعنى أنه إذا دخلت إلى الثقب الأسود بأقدامك أولاً، فسوف تتعرض أقدامك لجاذبية أكبر بكثير من الجاذبية التي يتعرض لها رأسك.

وكلما اقتربت أكثر من الثقب، سيؤدي الفرق في قوة الجاذبية التي يتعرض لها رأسك وأقدامك إلى أن يتضخم رأسك حتى ينفصل عن جسمك. وعلى الفور تقوم هذه الجاذبية المترددة بتحويل كل خلية في جسمك وكل جزيء وكل ذرة إلى أجزاء أصغر.



وطبقاً للرياضيات، إذا كان الثقب الأسود صغير الحجم نسبياً، أي عدة أعشار من حجم الشمس، فسوف تحدث عملية تمدد وفصل للرأس، وتجزئة للجسد قبل أن يجتاز الإنسان النقطة التي عندها تمتص جاذبية الثقب الأسود الضوء.

أما إذا كان الثقب الأسود ضخماً، أي أكبر ملايين المرات من حجم الشمس، فسيكون الاقتراب من تلك النقطة أمناً، حيث سيحدث التقطيع والذوبان للجسد في مرحلة لاحقة.

في عام ٢٠١٢، توصل جون بولشينسكي، أثناء محاولة فهم ما إن كانت المعلومات تتوقف وتختفي في أحد الثقوب السوداء إلى الأبد، إلى أن وجود مصير آخر لهذه المعلومات أمر محتمل. فحسب ميكانيكا الكم، تصبح النقطة التي يُمتص عندها الضوء داخل الثقب الأسود جداراً هائلاً من النار يمكنه أن يحولك إلى رماد بمجرد عبوره. ولن تمر حتى بمرحلة التمدد والتقطيع تلك.

عدد من علماء الفيزياء لا تعجبهم هذه الفكرة. فحسب أحد قواعد نظرية أينشتاين النسبية، لا يشعر الإنسان الذي يسقط في نقطة الالعودة تلك بأي شيء مختلف، فقط يطفو في الفضاء.

فجدار النار ذلك يتناقض إذن مع ما يعرف بـ "مبدأ التكافؤ" (أو مبدأ التساوي بين كتلة الجاذبية وكتلة القصور)، وهو يمثل قاعدة لا يميل علماء الفيزياء إلى إهمالها بسهولة. لهذا، جرب العلماء فكرة تلو الأخرى في محاولة التوصل إلى ما بات يعرف بـ "مفارقة جدار النار". وفي ذلك الإطار، ليس هناك اتفاق على أي شيء حتى الآن.

ولمعرفة ما يحدث بشكل قاطع داخل الثقب الأسود، عليك ببساطة أن تذهب إلى هناك بنفسك. ولكن تبقى المشكلة في أنك لن تستطيع أن تخبر أحداً بما رأيته، لأنها رحلة ذهاب بلا عودة.

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المنافقون:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (١١)

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى أمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبرًا لهم بأنه من التهي بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال: { وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ } فكل مُفَرِّطٌ يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، يستعجب ويستدرك ما فاتته، وهيهات! كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال الله تعالى: { وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْمًا تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ } [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم مَبَرِّجٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ثم قال تعالى: { وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أي: لا يُنظر أحدًا بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه؛ ولهذا قال: { وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيْل، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة الجهني، عن عمه - يعني أبا مشجعة بن ربيعي - عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزيادة في العمر فقال: "إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية سالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره".

ويقول الإمام القرطبي:

ويقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }، حذر المؤمنين أخلاق المنافقين، أي لا تُشغَلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا، للشح بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله، {عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} أي عن الحج والزكاة. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إقامة الذكر. وقيل: عن الصلوات الخمس؛ قاله الضحاك. وقال الحسن: جمع الفرائض؛ كأنه قال عن طاعة الله. {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ} أي من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه {فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

ويقول تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} ويقول تعالى: {وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً؛ وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها.

الثانية: قوله تعالى: {فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً.

.....

ويقول الأستاذ سيد قطب:

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل عزتهم من عزته، يوجه النداء الأخير في السورة ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }. والأموال والأولاد ملهامة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان. ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر، ويلهه عن ذكر الله ليطم له هذا الاتصال {فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، وأول ما يحسرونه هو هذه السمة، سمة الإنسان، فهي موقوفة على

الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنساناً. ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء، مهما يملك من مال ومن أولاد. ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة. {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم، فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق. {مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} فيترك كل شيء وراءه لغيره وينظر فلا يجد أنه قدم شيئاً لنفسه، وهذا أحق الحمق وأخسر الخسران، ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وأنى له هذا؟ {وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا} وأنى له ما يتقدم به؟ {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة، في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين. ولو إذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين، فما أجددهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان، وألا يغفلوا عن ذكر الله. وهو مصدر الأمان. وهكذا يري الله المسلمين بهذا القرآن الكريم.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التغابن:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]؛ ولهذا قال هاهنا: {فاحذروهم}، قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ} قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه.

وقوله: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. وقوله: {وَاللَّهُ عِنْدَهُ} أي: يوم القيامة {أَجْرٌ عَظِيمٌ} كما قال: {رُزِقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَبْلِ الْمَسْوُومَةِ وَالْأَنْعَامِ}

وَالْحَزْرُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ { والتي بعدها [آل عمران: ١٤ ، ١٥]. وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حُسَيْن بن واقد، حدثني عبد الله بن بُرَيْدَةَ، سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، فجاء الحسن والحسين، رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: "صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما". وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، حدثنا هُشَيْمٌ ، أخبرنا مجالد، عن الشعبي، حدثنا الأشعث بن قيس قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كندة، فقال لي: "هل لك من ولد؟" قلت: غلام وُلد لي في مخرجي إليك من ابنة جمد، وَلَوَدِدْتُ أَنْ يَمَكَانَهُ شَبَعُ الْقَوْمِ. قال: "لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجرًا إذا قبضوا"، ثم قال: "ولئن قلت ذلك: إنهم لمحبنة محزنة" تفرد به أحمد رحمه الله تعالى. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمود بن بكر، حدثنا أبي، عن عيسى [بن أبي وائل]، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الولد ثمرة القلوب، وإنهم لمحبنة مبخلة محزنة" ثم قال: "لا يُعرف إلا بهذا الإسناد".

وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} أي: جهدكم وطاقتكم. كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه". وقد قال بعض المفسرين- كما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم- إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي في "آل عمران" وهي قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثني يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ، حدثني ابن لُهَيْعَةَ، حدثني عطاء- هو ابن دينار- عن سعيد بن جبير في قوله: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقبيهم وتقرحت جباههم، فأَنْزَلَ اللهُ تَخْفِيفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} فنسخت الآية الأولى.

وقوله: {وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا} أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه بمحنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم.

وقوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ} أي: وابدلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًا لكم في الدنيا والآخرة.

وقوله: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ} أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزّل ذلك منزلة القرض له، ولهذا قال: {يُضَاعِفْهُ لَكُمْ}، كما تقدم في سورة

البقرة: {فِيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٥]. {وَيَعْفِرْ لَكُمْ} أي: ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: {وَاللَّهُ شَكُورٌ} أي: يجزي على القليل بالكثير {حليم} أي: يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات.

ويقول الإمام القرطبي:

مقدمة السورة: مدنية في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مكية. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية. وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن "سورة التغابن" نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده، فأنزل الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} إلى آخر السورة.

الآية: [١٤] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي؛ شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده؛ فنزلت. ذكره النحاس. وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة "التغابن" كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ} نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم؛ فنزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ}، الآية، كلها بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة. وروى الترمذي عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوه؛ فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}، الآية. هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا يبين وجه العداوة؛ فان العدو لم يكن عدوا لذاته وإنما كان عدوا بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فأمن، ثم قعد له على طريق المحجرة فقال له أتهاجر وترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر، ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أجاهد فتقتل نفسك فتسبح نساؤك وتقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل، فحق على الله أن يدخله الجنة". وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالسوسنة. والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب؛ قال الله تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [فصلت: ٢٥]. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش". ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همة أحسن من همة ترتفع بثوب جديد.

الثالثة: كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوا، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوا بهذا المعنى بعينه. وعموم قوله: {من أزواجكم} يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: {فَاخْذِرُوهُمْ} معناه على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدين. وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة. فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأذره به.

الخامسة: قوله تعالى: {وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، روى الطبري عن عكرمة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاخْذِرُوهُمْ} قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: فإذا أسلم وفقه قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلا أفعلن ولا أفعلن؛ قال: فأنزل الله عز وجل: {وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

الآية: [١٥] {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}. قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} أي بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرم ومنع حق الله تعالى فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: "يؤتى برجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته". وقال القتيبي: " فِتْنَةٌ " أي إغرام؛ يقال: فتن الرجل بالمرأة أي شغف بها. وقيل: " فِتْنَةٌ " محنة. وقال ابن مسعود: لا يقول أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ ولكن ليقول: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن. وقال الحسن في

قوله تعالى: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} : أدخل "من" للتبعض؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء؛ ولم يذكر "من" في قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} لأحدهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. {وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين.

الآية: [١٦] {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفِ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

الآية: [١٧] {إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ}، فيه خمس مسائل:

الأولى: ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد. ذكر الطبري: وحديثي يونس بن عبد الأعلى، قال أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ}، قال: جاء أمر شديد، قالوا: ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}. وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} إنها لم تُنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد الله حق جهاده، ولا يأخذه في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

الثانية: فإن قيل: فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله في سورة التغابن: {فاتقوا الله ما استطعتم} وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حق تقاته، والأمر باتقائه ما استطعنا؛ والأمر باتقائه حق تقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط، والأمر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولا بشرط. قيل له: قوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} وإنما عنى بقوله: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنهم، وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتركوا الهجرة ما استطعتم؛ بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين.

.....

الرابعة: قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا} قيل: هو الزكاة؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفل. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه. قال ابن العربي: وإنما أوقع قائل هذا قوله: {لِأَنْفُسِكُمْ} وخفي

عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه؛ قال الله تعالى: { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }، وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه. والصحيح أنها عامة. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: **أنفقه على نفسك**، قال: عندي آخر؟ قال: **أنفقه على عيالك**، قال: عندي آخر؟ قال: **أنفقه على ولدك**، قال: عندي آخر؟ قال: **تصدق به**. **فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك، وهو الأصل في الشرع.**

الخامسة: قوله تعالى: { **خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ** } "خيرًا" نصب بفعل مضمر عند سيويه، دل عليه "وأنفقوا" كأنه قال: ابتوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدموا خيرا لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والقراء نعت لمصدر محذوف؛ أي أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة خبر كان مضمرة؛ أي يكن خيرا لكم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيجازاتها، وبخاصة المقاطع الأولى منها. فلا يكاد الجو المدني يُبين إلا في فقراتها الأخيرة. والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** }، تستهدف بناء أسس العقيدة، وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء، وتخطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته. ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث، وتوكيده توكيدا شديدا، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين. فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية، لحثهم على الإنفاق، وتحذيرهم فتنة الأموال والأولاد. وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها. كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين، ورد الأمر فيها إلى قدر الله، وتثبيت هذا التصور. وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات. ولقد وردت روايات أن السورة مكية، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها. وكادت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها. ولكني أبقيت اعتبارها مدنية- مع الرأي الراجح فيها- لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة. كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة، وإيضاح التصور الإسلامي، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي، والله أعلم.

واللمسة الثانية في صميم القلب الإنساني، الذي يقف في خضم الوجود المؤمن المسيح بحمد الله. مؤمنا تارة وكافرا تارة. وهو وحده الذي يقف هذا الموقف الفريد. **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}**. **فمن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد.** وهي أمانة ضخمة وتبعة هائلة. **ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار وأمده بعد ذلك بالميزان الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه.** وهو الدين الذي نزل على رسل منه. فأعانه بهذا كله على حمل هذه **الأمانة، ولم يظلمه شيئا. {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**، فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل، بصير بحقيقة نيته واتجاهه، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير. وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامي الواضح المستقيم لموقف الإنسان في هذا الوجود، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود.

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن في طبيعة الوجود، الذي تقوم به السماوات والأرض، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة في كيان المخلوق الإنساني. وتقرر رجعة الجميع إليه في نهاية المطاف: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}**. وصدر هذا النص: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ}**، يقر في شعور المؤمن أن الحق أصيل في كيان هذا الكون، ليس عارضا وليس نافلة فبناء الكون قام على هذا الأساس. والذي يقرر هذه الحقيقة هو الله الذي خلق السماوات والأرض، والذي يعلم على أي أساس قامت. واستقرار هذه الحقيقة في الحس يمنحه الطمأنينة والثقة في الحق الذي يقوم عليه دينه، ويقوم عليه الوجود من حوله فهو لا بد ظاهر، ولا بد باق، ولا بد مستقر في النهاية بعد زبد الباطل! والحقيقة الثانية: **{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}**. تشعر الإنسان بكرامته على الله، وبفضل الله عليه في تحسين صورته، صورته الخلقية وصورته الشعورية. فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجسماني، كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة. ومن ثم وُكِّلت إليه خلافة الأرض، وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه! ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتكوين الإنسان، أو إلى أي جهاز من أجهزته، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها: **{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}**، وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال. ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل. ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة، وواف بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء. **{وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}**، مصير كل شيء وكل أمر وكل خلق. مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان. فمن إرادته انبتق، وإليه - سبحانه - يعود، ومنه المنشأ وإليه المصير. وهو الأول والآخر، المحيط بكل شيء من طرفيه: مبدئه ونهايته. وهو سبحانه غير محدود!

واللمسة الرابعة في هذا المقطع هي تصوير العلم الإلهي المحيط بكل شيء، المطلع على سر الإنسان وعلايته، وعلى ما هو أخفى من السر، من ذوات الصدور الملازمة للصدور: **{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا**

تُعْلِنُونَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}. واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيد المعرفة بربه، فيعرفه بحقيقته، ويمنحه جانباً من التصور الإيماني الكوني، ويؤثر في مشاعره واتجاهاته فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله. فليس له سر يخفى عليه، وليس له نية غائبة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور. وإن آيات ثلاثاً كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركاً لحقيقة وجوده، ووجود الكون كله، وصلته بخالقه، وأدبه مع ربه، وخشيتته وتقواه، في كل حركة وكل اتجاه.

.....

{ ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع. فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله. وهي حقيقة لا يكون إيمان غيرها. فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرا وشرها. وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن. فيحس يد الله في كل حدث، ويرى يد الله في كل حركة، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء. يصبر للأولى ويشكر للثانية. وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا، فيشكر في السراء وفي الضراء إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات، أو بالخير على كل حال.

{ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ }، وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة. وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة، ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة. ويصله بأصل الأشياء والأحداث، فيرى هناك منشأها وغايتها. ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح. ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية الخفوفة بالخطأ والقصور.

وفي النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال، ويدعوهم إلى تقوى الله، والسمع والطاعة والإنفاق، كما يحذرهم شح الأنفس، ويعددهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح. ويذكرهم في الختام بعلم الله للحاضر والغائب، وقدرته وغلبته، مع خبرته وحكمته: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَنَّفَحُوا وَتَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. } إن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ. عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم}. ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا. فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ }، والتنبيه إلى أن من الأزواج

والأولاد من يكون عدوا. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، وبمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء. فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله. كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير، كما يتعرض هو وأهله للعنت. وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده. فينخل ويجن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدوا له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا. كما أنهم قد يقفون له في الطريق بمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات. وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن. ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات. ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنه الأموال والأولاد. وكلمة فتنه تحمل معنيين: الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتجردوا لله. كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب! والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنه لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنه لا تحرفكم وتبعدكم عن الله. وكلا المعنيين قريب من قريب.

وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس، وأودعها هذه المشاعر، لتكفكف نفسها عن التماذي والإفراط، وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو، وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكاييد الأعداء! ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنه الأموال والأولاد، والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج. فهذه فتنه {وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}. ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة، وبالسمع والطاعة: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا}. وفي هذا القيد: {مَا اسْتَطَعْتُمْ} يتجلى لطف الله بعباده، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». **فالتطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يُقبل فيها ما يُستطاع.**

أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان. ويهيب بهم إلى الإنفاق: {وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ} فهم ينفقون لأنفسهم. وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم. فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم، ويعدها الخير لهم حين يفعلون. ويريهم شح النفس بلاء ملازما. السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه والوقاية منه فضل من الله: {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. ثم يمضي في إغرائهم بالبدل وتحبيهم في الإنفاق، فيسمي إنفاقهم قرضا لله. ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به، ويشكر المقرض، ويحلم عليه حين يقصر في شكره. وهو الله! {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ. وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} وتبارك الله، ما أكرمه! وما أعظمه! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه. ثم يسأله فضل ما أعطاه

قرضا يضاعفه، ثم يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه! يا لله!!! إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه سبحانه ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة. وقد نفخ الله في الإنسان من روحه فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة، حتى يلقي الله بما يجبه له ويرضاه.

ويختتم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب، بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فكل شيء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه، مدبر بحكمته. كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم، وسلطانه عليهم، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه. ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب ، لتتقي الله وتخلص له وتستجيب.

فصبر جميل

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف:

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) } {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) } {قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) } {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) } {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) } {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) } {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الدَّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَنَحْسُرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) }

يقول الإمام ابن كثير:

قوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، {الْمُبِينِ}، أي: الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها. ولهذا قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} بسبب إيجائنا إليك هذا القرآن. يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب، عليه السلام. وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا سواه والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه.

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قَصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له، ولهذا قال له: **{لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}** أي: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَكَ فيها.

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، **أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك**، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يُستخبر عنه، **{إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا}** أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه **{أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}** أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؛ **{إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا. **{اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ}** يقولون: هذا الذي يراحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي، تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين. **فأضمرُوا التوبة قبل الذنب.**

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، **{وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ}** هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهِرونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه. **{وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)}** قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب: أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبيكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتردين عما وقع فيما زعموا: **{إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ}** أي: نترامى، **{وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا}** أي: ثيابنا وأمتعتنا، **{فَأَكَلَهُ الذُّبُّ}** وهو الذي كان قد جزع منه، وحذر عليه. وقولهم: **{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}**، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع. **{وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ}** أي: مكذوب مفتري. فلماذا لم يُرَجَّح هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تاملهم عليه: **{بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}** أي: **فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ}** أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال. وقال مجاهد: **الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه.** وروى هُشَيْمٌ، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حَبَّان بن أبي جبلة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: **{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}** فقال: **"صبر لا شكوى فيه"** وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: **ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك.**

وقوله: { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين. وفي هذا تعريض لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإعلامه له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

.....

{ قَالَ بَن سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْقَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذُكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) }

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: { بَن سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ }. قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما يجري أتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف { قَالَ بَن سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ }. وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سُحب حكم الأول عليه، وضح قوله: { بَن سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ }، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبييل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: { عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ } أي: العليم بحالي، { الْحَكِيمُ } في أفعاله وقضائه وقدره. { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْقَى عَلَى يُوسُفَ } أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يوسف القدم الأول: { يَا أَسْقَى عَلَى يُوسُفَ } جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْابْنَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينِ. قال عبد الرزاق، أخبرنا الثوري، عن سفيان العُصْفُرِيِّ، عن سعيد بن جبیر أنه قال: لم يُعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: { يَا أَسْقَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } أي: ساکت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: { فَهُوَ كَظِيمٌ } كَمِيد حزين. { قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذُكُرُ يُوسُفَ } أي: لا تفارق تَذُكُرُ يوسف، { حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً } أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة، { أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ } يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

{ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } أي: أجابهم عما قالوا بقوله: { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي } أي: همي وما أنا فيه { إِلَى اللَّهِ } وحده { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } أي: أرجو منه كل خير.

ويقول الإمام القرطبي:

سورة يوسف، وهي مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها. وروي أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة. وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: {**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ**} [يوسف: ٣] فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو حدثنا؛ فأنزل: {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**} [الزمر: ٢٣]. قال العلماء: **وذكر الله أفاضل الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباعدة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل.**

١٨- {**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**} . قوله تعالى: {**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**} فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قوله تعالى: {**بِدَمٍ كَذِبٍ**} قال مجاهد: كان دم سخلة أو جدي ذبحوه. وقال قتادة: كان دم ظبية؛ أي جاؤوا على قميصه بدم مكذوب فيه.

الثانية: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التنيب؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لا بس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم، فقالوا عند ذلك: {**وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**}، عن الحسن وغيره؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لا تهمتنا.

.....

{**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْمَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهِيَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)**}

{**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**}: {**بَلْ سَوَّلَتْ**} أي زينت لكم {**أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا**} غير ما تصفون وتذكرون.

قوله تعالى: {**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**}، قال الزجاج: أي فشأني والذي اعتقده صبر جميل. وقال قطرب: أي فصبري صبر جميل. وقيل: أي فصبر جميل أولى بي. ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال: "**هو الذي لا شكوى معه**". **والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى.** {**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ**} ابتداء وخبر. {**عَلَى مَا تَصِفُونَ**} أي على احتمال ما تصفون من الكذب.

{فصبر جميل} أي فشأنى صبر جميل أو صبر جميل أولى بي على ما تقدم أول السورة. الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم لمجره عليه وهو العليم الحكيم ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين صلوات الله عليهم أجمعين. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو. وقال بن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: فصبر جميل أي لا أشكو ذلك إلى أحد. وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من بث لم يصبر. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تدمع العين ويجزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب"، وقد بين الله جل وعز ذلك بقوله: {فهو كظيم} أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبته، ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه، فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه.

قوله تعالى: {قال إنما أشكو بثي}، حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها، وهو من بثته أي فرقه فسميت المصيبة بثا مجازا. {وحزني إلى الله}، معطوف عليه أعاده بغير لفظه، {وأعلم من الله ما لا تعلمون}، قتادة: إني أعلم من إحسان الله تعالى إلي ما يوجب حسن ظني به.

وقال الأستاذ سيد قطب:

{وَجَاؤُ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ. وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ. وَجَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ. قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبَّرْ جَمِيلًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذنب المكشوفة دليلا على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتروا يوسف للذنب الذي حذرهم أبوهم منه أمس! ويمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان. فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب فعلوا هذا، ويحسون أنها مكشوفة، ويكاد المرعب أن يقول خدوني، فيقولون: {وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين}، أي وما أنت بمطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول. وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أن يوسف لم يأكله الذنب، وأنهم دبوا له مكيدة ما، وأنهم يلفقون له قصة لم تقع، ويصفون له حالا لم تكن، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرا منكرًا وذلته ويسرت لهم

ارتكابه وأنه سيصبر متحملاً متجملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً. فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.

{فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) اِرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْعَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَسئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)}

إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم، كما يذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ويقرن هذه إلى تلك، ثم يرتب عليهما قراره الجازم: ألا يبرح مصر، وألا يواجه أباه، إلا أن يأذن له أبوه، أو يقضي الله له بحكم، فيخضع له وينصاع. أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق، فأخذ بما سرق. ذلك ما علموه شهدوا به. أما إن كان بريئاً، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب. كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث، فذلك كان غيباً بالنسبة إليهم، وما هم بحافظين للغيب. وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها- وهي عاصمة مصر- والقرية اسم للمدينة الكبيرة- وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالتوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة في السنين العجاف. ويطوي السياق الطريق بهم، حتى يفهم في مشهد أمام أبيهم المفجوع، وقد أفضوا إليه بالنبا الفظيع. فلا نسمع إلا رده قصيراً سريعاً، شحياً وجيعاً. ولكن وراءه أملاً لم ينقطع في الله أن يرد عليه ولديه، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذي أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له. وإنه لأمل عجيب في ذلك القلب الوجيع: {قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم}. {بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل} كلمته ذاتها يوم فقد يوسف، ولكنه في هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك، {إنه هو العليم الحكيم} الذي يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب، عند ما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج.

{وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم}، وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع. يحس أنه منفرد بهم، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعة في ولده الحبيب يوسف، الذي لم ينسه، ولم تهون من مصيبته السنون، والذي تذكره به نكته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل: {يا أسفا على يوسف}، ويكظم الرجل حزنه ويتجلد. ... ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه، فهو لا يشكو لأحد من خلقه، وهو على صلة بربه غير صلتهم، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون: {قال إنما

أشكو بثي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون}، وفي هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر.

وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين. فيها عبرة لمن يعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب. فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى. فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة. وتحيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك، فتحقق الهدف الديني كاملا، وتحقق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع. وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء. فهي رؤيا تتحقق رويدا رويدا، ويوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها- كما لا يتم التنسيق الفني فيها- إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس، أو حلقة قصة مولد مريم، أو حلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نوح والطوفان، إلخ. فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها. أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متواليه حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ. وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ}.

يقول الإمام القرطبي:

الآية: ٤٢ {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ} "ظن" هنا بمعنى أيقن، في قول أكثر المفسرين، وفسره قتادة على الظن الذي هو خلاف اليقين؛ قال: إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنا وربك يخلق ما يشاء؛ والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء وأن ما قاله للفتيين في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع.

الثانية: **{ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}** أي سيدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب؛ أي اذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أني مظلوم محبوس بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لا يقل أحدكم اسق ربك أطعم ربك وضئ ربك ولا يقل أحدكم ربي وليقل سيدي مولاي ولا يقل أحدكم عبدي أمي وليقل فتاي فتاتي غلامي"**. وفي القرآن: **{ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}** **{إِلَى رَبِّكَ}** **{إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}** [يوسف: ٢٣] أي صاحبي؛ يعني العزيز. قال العلماء قول عليه السلام: **"لا يقل أحدكم"** **"وليقل"** من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألا نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن. وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمّي يجمع معنيين: أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمّي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز. والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة.

الثالثة: قوله تعالى: **{فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}** الضمير في **"فأنساه"** فيه قولان: أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك- حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك- **{ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ}**، **نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللبث**. وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: {ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} ما لبث في السجن بضعة سنين"**. قال: ثم يبكي الحسن ويقول: **نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس**. وقيل: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه، أي لسيدة؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطان ذكره لربه؛ وقد رجح بعض العلماء هذا القول، فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِي بَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}** [يوسف: ٤٥] فدل على أن الناسي هو الساقى لا يوسف؛ مع قوله تعالى: **{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}** [الحجر: ٤٢] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟! قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم. قال صلى الله عليه وسلم: **"نسي آدم فنسيت ذريته"**. وقال: **"إنما أنا بشر أنسى كما تنسون"**.

الرابعة: قوله تعالى: **{فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}** البضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بضع وبضع بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسعين. وقال الهروي:

العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من العدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "**وكم البضع**" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع. فقال: "**أذهب فزائد في الخطر**". وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقال الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يذكر العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسحونا ثلاثة أفاويل: أحدها: سبع سنين، قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني: اثنتا عشرة سنة، قال ابن عباس. الثالث: أربع عشرة سنة، قاله الضحاك.

الخامسة: في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب، وإن كان اليقين حاصلًا فإن الأمور بيد مسببها، ولكنه جعلها سلسلة، وركب بعضها على بعض، فتحريكها سنة، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بين فتأملوه.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ }

اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربك. فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع، وفي هذا تأكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي. ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلا لم ينفذ الوصية، ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف، ونسي ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها، فنسي يوسف وأمره كله. { فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ }، والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف. وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفاؤه وإكرامه. إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا له سبحانه، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له سبحانه تنقيلاً خطاهم. وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحبا وشوقا، فيتم عليهم فضله بهذا كله.

أومن غريب ما جاء في تفسير سورة "يوسف":

ما قاله الإمام ابن كثير:

* روي أن يعقوب لما قالوا له: {فَأَكَلَهُ الذُّبُّ} قال لهم: ألم يترك الذئب له عضوا فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوبا أشم فيه رائحته؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه؛ فذلك قوله تعالى: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه: أروني قميصه، فأروه فشمه وقبله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالיום ذئبا أحكم منه؛ أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال: يا معشر ولدي! دلوني على ولدي، فإن كان حيا رددته إلي، وإن كان ميتا كفنته ودفنته، فقيل قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أيننا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه؛ فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنيعكم. قالوا: فإذا منعنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا، قال: فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاؤوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا، إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لا نشك فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: اطلقوه؛ فأطلقوه، وتبصص له الذئب، فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول له: ادن ادن؛ حتى ألصق خده بخده فقال له يعقوب: أيها الذئب! لم فجعتني بولدي وأورثتني حزنا طويلا؟! ثم قال اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى، فقال: والذي اصطفاك نبيا ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده، ولا تنفت شعرة من شعراته، والله ما لي بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادني أولادك وأوثقوني، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله لا أقمتم في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش. فأطلقه يعقوب وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أحاكم، وقد علمت أن الذئب بريء مما جئتم به.

* قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)}

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ^{١٣}} أي: أرض مصر، {يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ}، قال السُّدِّي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار. {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد، {وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: ٣٩ ، ٤٠]. والغرض أن يوسف عليه السلام، ولاة **ملك مصر الريان بن الوليد** الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام، قاله مجاهد. وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك: {اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ} قال الملك: قد فعلت. فولاه فيما ذكروا عمل **إطفير**، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله عز وجل: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن **الملك الريان بن الوليد** زوج يوسف امرأة إطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدان؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة، ناعمة في مُلك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيتك على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لأفرائيم نون، والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام. وقال **الفضيل بن عياض**: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق، حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته.

* يقول الله تعالى: {مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}، ثم قال: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} أي: إذا أراد أمرا قيض له أسبابا ويسره وقدره، {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} بمصالح عباده {الْحَكِيمُ} في أفعاله وأقواله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النهدي، عن سليمان كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا، رواه ابن جرير. وقال أيضا: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام، عن الحسن قال: **كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة**، لم يفارق في الحزن قلبه،

¹³ يقول الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة في كتابه الرائد "من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن": "الأرض في هذه الآية وفي غيرها من مثلها في سورة يوسف، هي ترجمة من القرآن المعجز لمعنى مصر عند أهلها المصريين بلغتهم هم "تاوى". تهادى المصريون العجب والفخر فظنوا أن لا أرض غيرها من بعدها. ولم يعرف هذا أحد إلا بعد قرابة ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن، ليس قبل أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، يوم افتكت طلاس اللغة المصرية القديمة فباحث بأسرارها" (ص: ٣١٢ ، الجزء الأول من الكتاب).

ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب. وقال هُشَيْمٌ، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة. وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة. وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذُكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين عشرة سنة؛ قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السَّبَّيحي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً. وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون من بين رجل وامرأة، والله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً، صغيروهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيّف.

* حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه، خلا ولده نجياً، فقال بعضهم لبعض: أَلستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغتركم عفوها عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا إنا أتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله، حتى حَزَّكوه، والأَنْبياء عليهم السلام أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بني؟ قالوا: أَلست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أختينا يوسف؟ قال: بلى. قالوا: أو لستما قد عَفَوْتما؟ قالوا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نُريدُ أن تدعوا الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرَّرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا فِرة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أدلة خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف، فلم يُجِبْ فيهم عشرين سنة. قال صالح المري يخيفهم. قال: حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب فقال: إن الله بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد موثيقهم من بعدك على النبوة. هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جدا.

وقول الإمام القرطبي:

* وفي الخبر أنها (أي امرأة العزيز) قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرحم صورتي ربي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول شيء يبلى مني في قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربي. قالت: يا يوسف! ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت يا يوسف!

أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربي. قالت: يا يوسف! القيطون فرشته لك فادخل معي، قال: القيطون لا يسترني من ربي. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقتض حاجتي، قال: إذا يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن هم بها. وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبه النبوة؛ فشغلت هيبتة كل من رآه عن حسنه.

* وقيل: إن هم يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القشيري أبو نصر، وابن الأنباري والنحاس والماوردي وغيرهم. قال ابن عباس: حل الهيمان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على ففاها وقعد بين رجلها ينزع ثيابه. وقال سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله. وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: {وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي} [يوسف: ٥٣]. قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دال على الإخلاص، وأعظم للثواب.

* قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكفل حسب، ما يأتي بيانه في "ص" إن شاء الله تعالى. وجواب "لولا" على هذا محذوف؛ أي لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به؛ ومثله {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥] وجوابه لم تتنافسوا؛ قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له؛ حكاها الطبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشد تعظيماً للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم.

* قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} وهذا البرهان غير مذكور في القرآن؛ فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن زليخاء قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة؛ فقال يوسف: أنا أولى أن أستحي من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه، لأن فيه إقامة الدليل. وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت {وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبِّيَّ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢]. وقال ابن عباس: بدت كف مكتوب عليها {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} [الانفطار: ١٠] وقال قوم: تذكر عهد الله وميثاقه. وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أتملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله؛ قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير. وروى الأعمش عن مجاهد قال: حل سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له: يا

يوسف! فولى هاربا. وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال: مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله، قال مجاهد: فولد لكل واحد من أولاد يعقوب اثنا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان، ونقص بتلك الشهوة ولده؛ وقيل غير هذا. وبالجملة: فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه، وامتنع عن المعصية.

* قوله تعالى: {يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا} القائل هذا هو الشاهد. {أَعْرَضَ عَنْ هَذَا} أي لا تذكره لأحد واكتمه. {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ} أقبل عليها فقال: وأنت استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. {إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ مثل: {إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ} [النمل: ٤٣] {وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحریم: ١٢]. وقيل: إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك؛ وفيه قولان:

أحدهما: أنه لم يكن غيورا؛ فلذلك كان ساكنا. وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود.

الثاني: أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كفي بادرته وعفا عنها.

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب بن منبه. سعيد بن جبير: لم يخرج عليهن حتى زينته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أنهن يقطعن الأترج؛ واختلف في معنى "أكبرنه" فروى جويرير عن الضحاك عن ابن عباس: أعظمته وهبته؛ وعنه أيضا أمنين وأمدين من الدهش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قارة ... صهلن وأكبرن المني المدفقا
وقال ابن سمعان عن عدة من أصحابه: إنهم قالوا أمدين عشقا؛ وهب بن منبه: عشقته حتى مات منهن عشر في ذلك المجلس دهشا وحيرة ووجدا بيوسف. وقيل: معناه حزن من الدهش؛ قاله قتادة ومقاتل والسدي؛ قال الشاعر:

نأتي النساء على أطهارهن ... ولا نأتي النساء إذا أكبرن إكبارا
وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكن حزن من شدة إعظامهن له، وقد تفرغ المرأة فتسقط ولدها أو تحيض. قال الزجاج يقال أكبرنه، ولا يقال حزنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهري فقال: يجوز أكبرت بمعنى حاضت؛ لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حيز الصغر إلى الكبر؛ قال: والهاء في "أكبرنه" يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية، وهذا مزيف، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأمثلة منه قول ابن الأنباري: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل، أي أكبرن إكبارا، بمعنى حزن حيضا. وقال ابن عباس: جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه؛ فقال يوسف: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} أي لم أحن سيدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف! ولا حين حلت الإزار، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟! فقال يوسف: {وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي} الآية.

* وقد قيل في هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره؛ ثم سلم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال هذا لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ **وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما تكلم الملك بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان**، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة.

* قال **ابن عباس**: لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مكللاً بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق؛ **وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مرفقه**، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوجهاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قظفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن زيد: كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قظفير تلك الليالي، فزوج الملك يوسف **راعيلاً** امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟! فقالت: أيها الصديق لا تلمني؛ فإني كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفرايم بن يوسف، ومنشا بن يوسف. وقال وهب بن منبه: إنما كان تزويجه **زليخاء** امرأة العزيز بين دخلي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفف الناس، فممنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء **مائة ألف** من **عظماء قومه**، فقيل لها: لو تعرضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جمتك بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعض ركني، وطال ذلي، وعمي بصري، وبعدهما كنت مغبوبة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين؛ فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بخذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعتته على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولا: إن كنت أيما تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك! لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي أفيريني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقاتلتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له، فقال لها: ألم يبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من

الدنيا وما فيها؛ فأمر بما فأصلح من شأنها وهئيت، ثم زفت إليه، فقام يوسف يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته إكراما ليوسف عليه السلام لما عفا عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبي الله إن زوجي كان عينا لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف. قال: فعاشا في خفض عيش، في كل يوم يجدد الله لهما خيرا، وولدت له ولدين؛ إفرائيم ومنشا. وفيما روي أن الله تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنت في أول مرة؟ فقالت له: لما ذقت محبة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء.

* قوله تعالى: {قال كبيرهم}، قال قتادة: هو روبيل كان أكبرهم في السن، مجاهد: هو شمعون كان أكبرهم في الرأي، وقال الكلبي: يهوذا وكان أعقلهم، وقال محمد بن كعب وابن إسحاق: هو لاوى وهو أبو الأنبياء {ألم تعلموا أن أبابكم قد أخذ عليكم موثقا من الله} أي عهدا من الله في حفظ ابنه ورده إليه، {ومن قبل ما فرطتم في يوسف}، والمعنى: ألم تعلموا أن أبابكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم في يوسف، ذكره النحاس وغيره. {فلن أبح الأرض}، أي ألزمها ولا أبح مقيما فيها، {حتى يأذن لي أبي}، بالرجوع فإني أستحي منه، {أو يحكم الله لي} بالممر مع أخي فأمضي معه إلى أبي، وقيل: المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب وأخذ أخي أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال: لتأتني به إلا أن يحاط بكم، ومن حارب وعجز فقد أحبط به. وقال بن عباس: وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه مائة ألف، يقوم شعره في صدره مثل المسال فتتفد من ثيابه. وجاء في الخبر أن يهوذا قال لإخوته وكان أشدهم غضبا: إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر، وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه. قالوا: بل اكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر. فبعث واحدا من إخوته فعدوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق فأخذ كل واحد منهم سوقا، ثم أن يهوذا دخل على يوسف وقال: أيها الملك لئن لم تخل معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقي في مدينتك حاملا إلا أسقطت ما في بطنها، وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب، فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة فغضب يهوذا واشتد غضبه وانتفجت شعراته، وكذا كان كل واحد من بني يعقوب كان إذا غضب اقشعر جلده وانتفخ جسده وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم، وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها تماما أو غير تمام، فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما أو تمسكه يد من نسل يعقوب. فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكمل كلم ولدا له صغيرا بالقبطية وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه ففعل، فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم يره، فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضري منكم أحد؟ قالوا: لا، قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل، فخرج فلقبه وقد احتمل

صخرة عظيمة. قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه. قال: فارجع فردها أو ألقها في البحر ولا تحدثن حدثا، فوالذي اتخذ إبراهيم خليلا لقد مسني كف من نسل يعقوب، ثم دخلوا على يوسف وكان يوسف أشدهم بطشا فقال: يا معشر العبرانيين أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة؟ ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركله برجله فدحا به من خلف الجدار. (الركل الضرب بالرجل الواحدة وقد ركله يركله قاله الجوهري). ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه لجنبه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره وجلس على فراشه وأمر بصواعه فوضع بين يديه ثم نقره نقرة فخرج طنينه فالتفت إليهم، وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم؛ ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أحبا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه. فقالوا: أيها العزيز استر علينا ستر الله عليك، وامن علينا من الله عليك. فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجب ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله. ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ولم تتوبوا إليه. ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أحاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا. ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتهم ولا عقتهم والدكم لأجعلنكم نكالا للعالمين إيتوني بالحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة، وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حي لنكونن طوع يده وترابا يطأ علينا برجله. فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم: اخرجوا عني قد خليت سبيلكم إكراما لأبيكم ولولا هو لجعلتكم نكالا.

* {وابيضت عيناه من الحزن}، قيل: لم يبصر بهما ست سنين وأنه عمي، قاله مقاتل؛ وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء من الرؤية والله أعلم بحال يعقوب، وإنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن؛ فلماذا قال: من الحزن. وقيل: إن يعقوب كان يصلي ويوسف نائما معترضا بين يديه فغط في نومه فالتفت يعقوب إليه، ثم غط ثانية فالتفت إليه، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سرورا به وبغطيته، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته: انظروا إلى صفيي وابن خليلي قائما في مناجاتي يلتفت إلى غيري، وعزتي وجلالي لأنزعن الحدقتين اللتين التفتت بهما، ولأفرقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة، ليعلم العاملون أن من قام بين يدي يجب عليه مراقبة نظري.

* وقال: هذا تأويل رؤيائي من قبل، وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة؛ وقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد: أربعون سنة؛ قال عبد الله بن شداد: وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا. وقال قتادة: خمس وثلاثون سنة، وقال السدي وسعيد بن جبير وعكرمة: ست وثلاثون سنة، وقال الحسن وجسر بن فرقد وفضيل بن عياض: ثمانون سنة، وقال وهب بن منبه: ألقى يوسف في الجب وهو بن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين سنة، ومات وهو بن مائة وعشرين سنة، وفي التوراة مائة وست وعشرون

سنة، وولد ليوسف من امرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة امرأة أيوب، وبين يوسف وموسى أربعمئة سنة. وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف عشرين سنة ثم توفي، وقيل: أقام عنده ثمانين سنة، وقال بعض المحدثين: بضعا وأربعين سنة. وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله وقال بن إسحاق: ثمانين سنة والله أعلم.

* قال قتادة: (عن سجود اخوة يوسف له) هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة. قلت: هذا الانحاء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض عادة مستمرة ووراثية مستقرة، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نكبوا عن السنن وأعرضوا عن السنن. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: لا. قلنا: أفبعتق بعضنا بعضا؟ قال: لا. قلنا: أفبصافح بعضنا بعضا؟ قال: نعم؛ خرج أبو عمر في التمهيد. فإن قيل: فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قوموا إلى سيدكم وخيركم"، يعني سعد بن معاذ، قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة، وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار. وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجز عونه على ذلك.

* ودخل مصر (أي يعقوب عليه السلام) في اثنين وثمانين من أهل بيته فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيّف ألف وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام، رواه عكرمة عن بن عباس. وحكى بن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا. وقال الربيع بن خيثم دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفا وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف. وقال وهب بن منبه: دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين، سوى الذرية والهرمي والزمني، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة. وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعين سنة في أغبط حال ونعمة ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق بالشام ففعل ثم انصرف إلى مصر. قال سعيد بن جبير: نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من ساج إلى بيت المقدس ووافق ذلك يوم مات عيصو فدفنا في قبر واحد، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس من فعل ذلك منهم؛ وولد يعقوب وعيصو في بطن واحد ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة.

* قال عبدالعزيز بن عمير الكندي: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرّفه يوسف، فقال: يا أبا المنذر! مالي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر ابن الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحييت إذ استغثت بالآدميين؟! وعزتي! لألبثتك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو

عني راض؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة. وروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلصك من القتل من أيدي أخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الحب؟ قال: الله تعالى. قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟! قال: يا رب كلمة زلت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحاق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضعة سنين.

فيما يقول الأستاذ سيد قطب مفندا بعض تلك التفسيرات:

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة. فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفاعا شبقا، والله يدافعه ببراكين كثيرة فلا يندفع! صُورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضا على أصبعه بفمه! وصورته له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن! - تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يبرعوي! حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عهدي، فجاء فضربه في صدره .. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع! وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل، وهم بما هم النفس، ثم تجلّى له برهان ربه فترك. وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي. وقال: إنها إنما همت بضربه نتيجة إباطه وإهانتها لها وهي السيدة الآمرة، وهم هو برد الاعتداء ولكنه أثر الحرب فلحقت به وقادت قميصه من دبر. وتفسير المهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص.

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما، الذي خطر لي أن قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبي يوسف في أول الأمر واستعصم، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغلبة لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا. هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف، وهو أقرب

إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر. نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبي.

ويقول الإمام ابن تيمية عن تلك الوقائع المختلفة:

ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلاً. وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها، مثل ما يذكرون أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الخاتن ونحو هذا، وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عُرِفَ كلام اليهود في الأنبياء وعَصَبِهِم منهم، كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوي والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب، لكان إما مُصِراً وإما تائباً، والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائباً. والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفاراً، كما ذُكِرَ عن غيره من الأنبياء، فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة، والمسامحة المشكورة، كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٩٠]. وإذا كان الأمر في يوسف كذلك، كان ما ذكر من قوله: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}، إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فريضة على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتيال لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نزهه الله منه، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البُهْتِ [البُهْتُ: الكذب والافتراء]، الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه، فكيف بغيره من الأنبياء؟ وقد تلقي نقلهم من أحسن به الظن، وجعل تفسير القرآن تابعاً لهذا الاعتقاد.

واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طريقي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوي امتناع الذنوب، حتى حَرَّفُوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعبوباً نزههم الله عنها. وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف، كان من الأمة الوسط، مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولا ريب أنه صار عند كثير من الناس من علم أهل الكتاب ومن فارس والروم، ما أدخلوه في علم المسلمين ودينهم وهم لا يشعرون، كما دخل كثير من أقوال المشركين من أهل الهند واليونان وغيرهم، والمجوس والفرس والصابئين من اليونان وغيرهم في كثير من المتأخرين؛ لا سيما في جنس المتفلسفة والمتكلمة.

ولما فتح المسلمون البلاد كانت الشام ومصر ونحوها مملوءة من أهل الكتاب، النصراني واليهود، فكانوا يحدثونهم عن أهل الكتاب بما بعضه حق وبعضه باطل؛ فكان من أكثرهم حديثا عن أهل الكتاب كعب الأحبار. وقد قال معاوية رضي الله عنه: ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثونا عن أهل الكتاب أصدق من كعب، وإن كنا لنبلو عليه الكذب أحيانا. ومعلوم أن عامة ما عند كعب أن ينقل ما وجدته في كتبهم، ولو نقلنا ما وجدته في الكتب عن نبينا صلى الله عليه وسلم لكان فيه كذب كثير، فكيف بما في كتب أهل الكتاب مع طول المدّة، وتبديل الدين، وتفرق أهله، وكثرة أهل الباطل فيه. وهذا باب ينبغي للمسلم أن يعتني به، وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين هم أعلم الناس بما جاء به، وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين. فإن هذا أصل عظيم. ولهذا قال الأئمة، كأحمد بن حنبل وغيره: أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمن أصول الإسلام أن تميز ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة، ولا تخلطه بغيره، ولا تلبس الحق بالباطل، كفعل أهل الكتاب. فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تركتم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك"، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: "هذا سبيل الله، وهذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه"، ثم قرأ قوله تعالى: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } [الأنعام: ١٥٣].

إنني معكما أسمع وأرى

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة طه:

{فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَلَعْتَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخاطبًا لموسى، عليه السلام إنه لبث مقيمًا في أهل "مدین" فارًا من فرعون وملته، يرمى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقًا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقهم فيما يشاء؛ ولهذا قال: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ} قال مجاهد: أي على موعد. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: على قدر الرسالة والنبوة.

وقوله: {وَاصْطَلَعْتَ لِنَفْسِي} أي: اصطفتيك واجتبيتك رسولًا لنفسي، أي: كما أريد وأشاء.

{اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي} أي: بجحجي وبراهيني ومعجزاتي، {وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تُبْطِئَا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفَا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوة لهما وسلطانًا كاسرًا له. {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} أي: تمرد وعتا وجرهم على الله وعصاه، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا} : يا من يتحبب إلي من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ وقال وهب بن منبه: قولاً له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهم له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأجمع، كما قال تعالى: {اذْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥].

قوله: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، {أَوْ يَخْشَى} أي: يُوجد طاعة من خشية ربه ، كما قال تعالى: {لمن أراد أن يذكر أو يخشى} فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

{قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى} (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَمَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨){

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالوا مستجيرين بالله تعالى شاكيتين إليه: {إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى} يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد: {أَنْ يُفْرَطَ} يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضحاك، عن ابن عباس: {أَوْ أَنْ يَطْعَى}: يعتدي.

{قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

ويقول الإمام القرطبي:

سورة طه مكية في قول الجميع نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه روى الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلدا بسيف فقيل له إن ختنك وأختك قد صبوا فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب وكانوا يقرؤون {طه} فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه، وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الكتب، فقالت له أخته إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ، فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ {طه}، وذكره ابن إسحاق مطولا فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله فلقيه نعيم بن عبد الله فقال أين تريد يا عمر؟ فقال أريد محمدا هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فاقتله، فقال له نعيم والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما. قال فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها {طه} يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها

تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال ما هذه الهنيمة التي سمعت؟ قالوا له ما سمعت شيئا. قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدا إلى دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا وأمنا بالله ورسول فاصنع ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان كاتبها فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها، قال لها لا تخافي وحلف لها بألمته ليردنها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له يا أخي إنك نجس على شركك وأنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام عمر وأغتسل فأعطته الصحيفة وفيها {طه} فلما قرأ منها صدرا قال: **ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!** فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فيني سمعته أمس وهو يقول: **"اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو الخطاب"** فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك فدلي يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم وذكر الحديث.

الآية: ٤١ {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}

قوله تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي} قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه. وقال الطبري: المعنى ألقى عليك رحمتي. وقال ابن زيد: **جعلت من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك آسية بنت مزاحم فتبتك.** {وَلِئَصْنَعِ عَلَى عَيْنِي} أي تُرى وتُغذى على مرأى مني؛ قاله قتادة. قال النحاس: وذلك معروف في اللغة؛ يقال: صنعت الفرس وأصنعت إذا أحسنت القيام عليه.

قوله تعالى: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ} يريد عشر سنين أتم الأجلين. وقوله: {ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان: يريد موافقا للنبوة والرسالة، لأن الأنبياء لا يُبعثون إلا أبناء أربعين سنة. وقال مجاهد ومقاتل: {عَلَى قَدَرٍ} على وعد. وقال محمد بن كعب: **ثم جئت على القدر الذي قدرت لك أنك تجيء فيه، والمعنى واحد. أي جئت الوقت الذي أردنا إرسالك فيه.**

قوله تعالى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} قال ابن عباس: أي اصطفتك لوشي ورسالتي، وقيل قويتك وعلمتك لتبلغ عبادي أمري ونهي.

الآيات: ٤٢ - ٤٤ {أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِي، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ^{١٤} إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}

قوله تعالى: {أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي} قال ابن عباس يريد التسع الآيات التي أنزلت عليه. {وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِي} قال ابن عباس: تضعفا أي في أمر الرسالة؛ وقاله قتادة. وقيل: تفترا.

الآية: [٤٣] {أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}

الآية: [٤٤] {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}

فيه أربع مسائل :

الأولى: قوله تعالى: {أَذْهَبَا} قال في أول الآية: {أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي} وقال هناك {أَذْهَبَا} فقيل أمر الله تعالى موسى وهارون في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفا له؛ ثم كرر للتأكيد. وقيل بين بهذا أنه لا يكفي ذهاب أحدهما. وقيل: الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس، والثاني بالذهاب إلى فرعون.

الثانية: قوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة ، ألا تراه قال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} وقال: {لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] فكيف بنا فنحن أولى بذلك. وحينئذ يحصل الأمر والناهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه؛ وهذا واضح.

الثالثة: واختلف الناس في معنى قوله {لَيِّنًا} فقالت فرقة منهم الكلبي وعكرمة: معناه كنياه؛ وقاله ابن عباس ومجاهد والسدي. ثم قيل: وكنيته أبو العباس. وقيل: أبو الوليد. وقيل: أبو مرة (كل هذا لفرعون!!!) ؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُبع بإسلامه. وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه، لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ولم يقل وإن طمعتم في إسلامه، ومن الإكرام دعاؤه بالكنية. وقال ابن مسعود: القول اللين قوله تعالى {فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَاكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٨ - ١٩]. وقد قيل أن القول اللين قول موسى: يا فرعون إنا رسولا ربك رب

¹⁴ يقول الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة في كتابه "من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن": "يقول علماء المصريات إن اسم "فرعون" لم يصبح دالا بذاته على شخص الملك إلا على عصر الأسرة التاسعة عشرة، بحيث تستطيع أن تقول "جاء فرعون" و "ذهب فرعون" تعني شخص الملك. والقرآن على خلاف سفر التكوين يخص بما فرعون موسى وحده، فأى إعجاز وأي علم (ص: ٣١٠ من الجزء الأول من الكتاب)

العالمين. فسماه بهذا الاسم لأنه أحب إليه مما سواه مما قيل له، كما يسمى عندنا الملك ونحوه. قلت: القول اللين هو القول الذي لا خشونة فيه. فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولاً لنا، فمن دونه أخرى بأن يقتدى بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه.

قوله تعالى: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} معناه: على رجائكما وطمعكما؛ فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر. قال الزجاج: "لعل" لفظه طمع وترج فخطابهم بما يعقلون. وقيل "لعل" ها هنا بمعنى الاستفهام، والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: إن لعل وعسى في جميع القرآن لما قد وقع. وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشي فقال: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠] ولكن لم ينفعه ذلك.

الآية: ٤٥ {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى}

قوله تعالى: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى} قال الضحاك: {يُفْرِطُ} يعجل. قال: و {يَطْعَى} يعتدي. النحاس: التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر، قال الفراء: فرط منه أمر أي بدر؛ قال: وأفرط أسرف. ومعناه يعجل ويبادر بعقوبتنا.

الآية: ٤٦ {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه. وهذه الآية ترد على من قال: إنه لا يخاف؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم. ولقد أحسن البصري رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: فقد خاطرت بنفسك، فقال لأن تختلف الأسنة في جوفي أحب إلي من أن يعلم الله أي أخاف شيئاً سواه؛ "قد خاف من كان خيراً من عامر؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له: {إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُمُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ بَحِّثْ لِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٢٠ - ٢١] وقال: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ} [القصص: ١٨] وقال حين ألقى السحرة جباهم وعصبيهم: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} [طه: ٦٧ - ٦٨]. قلت ومنه حفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحداً؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجمله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة؛ تخوفاً على أنفسهم من مشركي مكة؛ وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعديهم. وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة فنحن أحق

برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم كذبت يا عمر، كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطعم جائعكم ويعط جاهلكم، وكنا في دار- أو أرض- البعداء البغضاء في الحبشة؛ وذلك في الله ورسوله؛ وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن كنا نؤذي ونخاف. الحديث بطوله خرجه مسلم. قال العلماء: فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم عليه كاذب؛ وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها.

الثانية: قوله تعالى: {إِنِّي مَعَكُمْ} يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون. وقول: {أَسْمِعْ وَأَرَى} عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

تبدأ هذه السورة وتختتم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم ببيان وظيفته وحدود تكاليفه، إنها ليست شقوة كتبت عليه، وليست عناء يعذب به. إنما هي الدعوة والتذكرة، وهي التبشير والإنذار، وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها.

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، مفصلة مطولة وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى وفرعون. وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه، وقال له ولأخيه: {لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمِعْ وَأَرَى}.

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله، ظل علوي جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه. إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى، في تلك المناجاة الطويلة والليل ساكن وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل. والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذهاب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا.

لقد أطل موسى سؤله، وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير. وربه يسمع له، وهو ضعيف في حضرته، ناداه وناجاه. فها هو ذا الكرم المنان لا يُججل ضيفه، ولا يرد سائله، ولا يبطيء عليه بالإجابة الكاملة: {قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَا مُوسَى} هكذا مرة واحدة، في كلمة واحدة. فيها إجمال بغني عن

التفصيل. وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل. كل ما سأله أُعطيته. أعطيته فعلا. لا تعطاه ولا استعطاه؟ وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه: {يا موسى}، وأي تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد؟ إنها مقابلة عجيبة في تصوير المشهد. مقابلة بين القوى الجبارة الطاغية التي تتربص بالطفل الصغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابس وظروف، والرحمة اللينة اللطيفة تحرسه من المخاوف، وتقيه من الشدائد وتلفه من الخشونة، ممثلة في الحبة لا في صيال أو نزال: {وَلِئْصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي}. وما من شرح يمكن أن يضيف شيئا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب: {وَلِئْصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي}، وكيف يصف لسان بشري خلقا يُصنع على عين الله؟ وفي الوقت المقدر، عند ما نضج واستعد، وابتلي فثبت وصبر وامتنح فجاز الامتحان، وتهيأت الظروف كذلك والأحوال في مصر، وبلغ العذاب ببني إسرائيل مداه؛ في ذلك الوقت المقدر في علم الله جيء بموسى من أرض مدين، وهو يظن أنه هو جاء: {فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}. جئت في الوقت الذي قدرته لجيئك. {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} خالصا مستخلصا محضا لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا. إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها واصطنعتك لتؤديها. فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء، فامض لما اصطنعتك له:

{أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتي وقد شهد منها آية العصا وآية اليد، ولا تنيا في ذكري فهو عدتكما وسلاحكما وسندكما الذي تأويان منه إلى ركن شديد، اذها إلى فرعون وقد حفظتك من شره من قبل. اذها إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا}، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان. وإلى هنا كان الخطاب لموسى عليه السلام، وكان المشهد هو مشهد المناجاة في الغلاة. وهنا يطوي السياق المسافات والأبعاد والأزمان، فإذا هارون مع موسى، وإذا هما معا يكشفا لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون، ومن التسرع في أذاه، ومن طغيانه إذا دعواه: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}. وهارون لم يكن مع موسى قطعا في موقف المناجاة الطويل - الذي تفضل المنعم فيه على عبده، فأطال له فيه النجاء، وبسط له في القول، وأوسع له في السؤال والجواب - فردها معا بقولهما: {إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} لم يكن في موقف المناجاة. إنما هو السياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية الموحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس. ولقد اجتمع موسى وهارون عليهما السلام إذن بعد انصراف موسى من موقف المناجاة بجانب الطور. وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه في دعوة فرعون ثم هاهما ذان يتوجهان إلى ربهما بمخاوفهما: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُبَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}. والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما.

هنا يجيئهما الرد الحاسم الذي لا خوف بعده ، ولا خشية معه: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}. {إِنِّي مَعَكُمَا}، إنه القوي الجبار الكبير المتعال، إنه الله القاهر فوق عباده، إنه موجد الأكوان والحيوات والأفراد والأشياء بقوله: كن ولا زيادة، إنه معهما، وكان هذا الإجمال يكفي. ولكنه يزيدهما طمأنينة، ولمسا بالحس للمعونة: {أَسْمَعُ وَأَرَى}. فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يُفِرط أو يطغى؟ والله معهما يسمع ويرى؟

وضاقت عليهم أنفسهم

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة:

{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قَلَمًا يريد غزوة يغزوها إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل عدوا كثيرا فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله، عز وجل، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعر. فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه، وطفقت أعدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا، فأقول لنفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجدد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه

فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهمت أن أرتحل فأدركهم - وليت أيّ فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم يزنني ألا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: **"ما فعل كعب بن مالك؟"** قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بؤذاه والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرتي بثي فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادمًا، زاح عني الباطل وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه **تبسم تبسم المغضب**، ثم قال لي: "تعال"، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: **"ما خلّفك، ألم تك قد اشتريت ظهرك؟"** قال: فقلت يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكنه والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله يسخطك علي، ولن حدثتك بصدق بجد عليّ فيه، إني لأرجو أقرب عقي ذلك عفواً من الله عز وجل. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك"**. فقامت وبادرتي رجال من بني سلمة واتبوعي، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك. قال: فوالله ما زالوا يؤثّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة. قال فمضيت حين ذكروها لي. قال: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، **حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف**، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيوتهم بيكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرّك شفّتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت

على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مَشَيْت حتى تسورت حائط أبي قتادة- وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي- فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أبي أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط الشام ممن قَدَم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتباً فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضِيعة، فالحق بنا نُؤاسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمنت به التنور فسَجرتَه حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقر بها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي الحقي بأهلك، فكوي عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: "لا ولكن لا يقربنك"، قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أدري ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلَع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قَبِل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، فنزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يلقيان الناس فوجاً فوجاً يهتوني بالتوبة، يقولون: لِيَهْنِك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهتأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك". قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: "لا بل من عند الله". قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يُعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله،

إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: "أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك". قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نحاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله تعالى: {سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآءُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٥ ، ٩٦]. قال: وكنا خُلفنا- أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا} وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبها الصحيح: البخاري ومسلم من حديث الزهري ، بنحوه. فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا} قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار. ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره، من هجر المسلمين إياهم نحو من خمسين ليلة بأيامها، وضاعت عليهم أنفسهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} أي: اصدقوا والزمو الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق؛ عن عبد الله، هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى

الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً". وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرءوا إن شئتم: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ }** ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة.

وعن عبد الله بن عمر: **{ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }** مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١١٨ **{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }**

قوله تعالى: **{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا }** قيل: عن التوبة عن مجاهد وأبي مالك. وقال قتادة: عن غزوة تبوك. وحكي عن محمد بن زيد معنى **{ خُلِّفُوا }** تركوا؛ لأن معنى خلفت فلانا تركته وفارقتة قاعدا عما نهضت فيه. وقرأ عكرمة بن خالد **{ خُلِّفُوا }** أي أقاموا بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: **{ خُلِّفُوا }** أي أرجئوا وأخروا عن المنافقين فلم يقض فيهم بشيء. وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن. وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما. واللفظ لمسلم قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فبذلك قال الله عز وجل: **{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا }** وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه. وهذا الحديث فيه طول، هذا آخره. والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي وكلهم من الأنصار. وقد خرج البخاري ومسلم حديثهم (سبق ذكر الحديث بالتفصيل في تفسير الإمام ابن كثير).

قوله تعالى: **{ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ }** أي بما اتسعت، يقال: منزل رجب ورحيب ورحاب. و**{ مَا }** مصدرية؛ أي ضاقت عليهم الأرض برحبها، لأنهم كانوا مهجورين لا يعاملون ولا يكلمون. وفي هذا دليل

على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا. { **وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ** } أي ضاقت صدورهم بالهم والوحشة، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة. { **وَوَظَّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ** } أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه. قال أبو بكر الوراق: التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب وصاحبيه.

قوله تعالى: { **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } فبدأ بالتوبة منه. قال أبو زيد: غلظت في أربعة أشياء في الابتداء مع الله تعالى، ظننت أي أحبه فإذا هو أحبني؛ قال الله تعالى: { **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** } [المائدة: ٥٤]؛ وظننت أي أرضى عنه فإذا هو قد رضي عني؛ قال الله تعالى: { **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** } [المائدة: ١١٩]؛ وظننت أي أذكره فإذا هو يذكرني؛ قال الله تعالى: { **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** }. وظننت أي أتوب فإذا هو قد تاب علي؛ قال الله تعالى: { **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** }. وقيل: المعنى ثم تاب عليهم ليشبوا على التوبة؛ كما قال تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } [النساء: ١٣٦]؛ وقيل: أي فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم؛ قال جل وعز: { **فَإِظْلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَزَمًا عَلَىٰ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ** } [النساء: ١٦٠].

الآية: ١١٩ { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** }

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: { **وَكَونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين. قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتِعَ بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف. واحتُلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال؛ فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله { **وَكَونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين؛ أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم الأنبياء؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم. قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم.

الثانية: حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار. فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة، وقد رد صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبة كذبها. قال معمر: لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس. وسئل شريك بن عبد الله فقيل له: يا أبا عبد الله، رجل سمعته يكذب متعمداً أصلي خلفه؟ قال لا.

وقال مالك: لا يُقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال غيره: يقبل حديثه. والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كملت خصاله ولا خصلة هي أشرف من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

إن الله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويجذروه ولا يأتيه. وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال مجرد الفعل، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلا. ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شيء. ومنه البيان والتعليم. ولقد جعل الله هذا الدين يسرا لا عسرا، فبين ما نهي عنه بيانا واضحا، كما بين ما أمر به بيانا واضحا. وسكت عن أشياء لم يبين فيها بيانا- لا عن نسيان ولكن عن حكمة وتيسير- ونهى عن السؤال عما سكت عنه، لئلا ينتهي السؤال إلى التشديد. ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئا من المسكوت عنه، ولا أن ينهى عما لم يبينه الله، تحقيقا لرحمة الله بالعباد.

.....

ولما كانت تلك طبيعة البيعة، كان التخلف عن الجهاد للقادرين- أيا كانت الأسباب- أمرا مستنكرا عظيما وكان ما بدا في الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لا بد من تتبعها والتركيز عليها. وفي الآيات التالية يبين مدى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين، ويتوب عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت. كذلك يبين عن مصير الثلاثة الذين خَلَّفُوا بغير حكم في أمرهم- وهم المرجون لأمر الله الذين سبق ذكرهم- حتى نزل هذا الحكم بعد فترة من الزمان: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

وتوبة الله على النبي صلى الله عليه وسلم تفهم بالرجوع إلى ما كان في أحداث الغزوة بجمليتها والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ. لِمَ إِذْنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}. ذلك حين استأذنه جماعة من أولي الطول بأعدار منتحلة فأذن لهم، وقد عفا الله عنه في اجتهاده صلى الله عليه وسلم،

مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقين في أعدائهم من الكاذبين المتمحلين! وتوبته على المهاجرين والأنصار يشير النص الذي بين أيدينا إلى ملابساتها في قوله تعالى: {الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ}. وقد كان بعضهم تتألف في الخروج ثم لحق بالركب، وهم من خلص المؤمنين، وبعضهم استمع للمنافقين المرجفين بمول لقاء الروم! ثم ثبت الله قلبه ومضى بعد تردد. ويحسن أن نستعرض بعض ظروف الغزوة وملابساتها لنعيش في جوها الذي يقرر الله سبحانه أنه كان {ساعة العسرة} ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التي صاحبته. لما نزل قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاء، وحين طابت الثمار، والناس يجوبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخصوص على الحال والزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له (أي يقصد إليه) إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعده الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة. فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم. واستأذن بعض المنافقين رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحلف مخافة الفتنة بينات الروم! فأذن! وفي هذا نزل عتاب الله لنبيه في الإذن مصدرًا بالعمو عنه في اجتهاده. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر - زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: {وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون}. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والإسراع. وحض أهل الغنى على النفقة وحمل المجاهدين الذين لا يجدون ما يركبون فحمل رجال من أهل الغنى محتسبين عند الله. وكان في مقدمة المنفقين المحتسبين، عثمان بن عفان رضي الله عنه فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. قال ابن هشام: فحدثني من أتق به أن عثمان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض". فأما العسرة التي لقيها المسلمون في الغزوة فقد وردت بعض الروايات بشواهد منها. قال ابن كثير في التفسير: قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ} في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، في سنة مجدبة، وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام على تبوك في لحيان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، فأصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان نفر يتداولون التمرة بينهما يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم. وروى ابن جرير - بإسناده إلى عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك،

فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كبده. وقال ابن جرير في قوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} أي من النفقة والظهر والزداد والماء، {مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ}، أي عن الحق، ويشك في دين الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم؛ {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ} يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه {إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ}.

ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت «العسرة»، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية من اليقين الجاد عند طائفة، إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة، إلى القعود والتخلف - بغير ريبة - عند طائفة، إلى النفاق الناعم عند طائفة، إلى النفاق الفاجر عند طائفة، إلى النفاق المتآمر عند طائفة؛ مما يشي أولا بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانياً بمشقة الغزوة، في مواجهة الروم ومع العسرة، هذه المشقة المحصنة الممتحنة الكاشفة والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز. هذه هي العسرة التي تخلف فيها المتخلفون وكثرتهم من المنافقين الذين سلف بيان أمرهم. ومن المؤمنين الذين لم يقعدوا شكاً ولا نفاقاً، إنما قعدوا كسلاً واسترواحاً للظلال في المدينة. وهؤلاء جماعتان جماعة قضى في أمرهم من قبل، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، وجماعة أخرى {مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}، وهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا، أي تُرِكُوا بلا حكم، وأرجئوا حتى يحكم الله فيهم. وهنا تفصيل أمرهم بعد الإرجاء في الحكم والإرجاء في السياق. فهذا كعب بن مالك وزميلاه يتخلفون عن ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة، يدركهم الضعف البشري الذي يجلب إليهم الظل والراحة، فيؤثرونها على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب. ولكن كعباً ما يلبث بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحس ما فعل، يشعر به كل ما حوله. فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزوة البعيدة الشقة. لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق، وإلا العاجزون الذين عذرهم الله. أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحاً من العسرة ، وأصلب عوداً من الشدة، هذه واحدة.

والثانية هي التقوى. التقوى التي تلجئ المخطئ إلى الصدق والإقرار. والأمر بعد ذلك لله: «فقلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر. لقد أعطيت جدلاً. ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك علي. ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقي من الله. والله ما كان لي عذر. والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». فالله حاضر في ضمير المؤمن المخطئ. ومع حرصه البالغ على رضی رسول الله صلى الله عليه

وسلم. وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقا بالأنظار أو مهملا لا ينظر إليه إنسان - مع هذا فإن مراقبة الله أقوى وتقوى الله أعمق والرجاء في الله أوثق.

والقصة كما رواها أحد أصحابها ، تُقرب إلى نفوسنا معنى الآية: {حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ}

{ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ}، فما الأرض؟ إن هي إلا بأهلها. إن هي إلا بالقيم السائدة فيها. إن هي إلا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها. فالتعبير صادق في مدلوله الواقعي فوق صدقه في جماله الفني، الذي يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين، وتتقاصر أطرافها، وتنكمش رقعتها، فهم منها في حرج وضيق.

{وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} فكأنما هي وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم، وتضعطهم فيتكرب أنفاسهم. {وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} وليس هناك ملجأ من الله لأحد، وهو آخذ بأقطار الأرض والسموات. ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا في هذا الجو المكروب يخلع على المشهد ظلا من الكربة واليأس والضيق، لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب. ثم يجيء الفرج {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}. تاب عليهم من هذا الذنب الخاص، ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي.

وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)}

يقول الإمام ابن كثير:

هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟} وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: {هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}، وقال السُّدِّي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه الله إلى سماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن الكلام لفظ المضى. والثاني: قوله: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ} و {إِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ}. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذُكِرَ بلفظ المضى، ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ}، الآية: التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

وقوله: {سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}، هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل.

وقوله: {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}، أي: إن كان صدَرَ مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: {تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}

* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ { بِإِبْلَاغِهِ { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ }، أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ }، أي: هذا هو الذي قلت لهم، { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ }، أي: كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، { فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }.

وقوله: { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله، عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله ندًا وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بها ليلة حتى الصباح يرددوها. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضَّيل، حدثني فُلَيْتُ العامري، عن جَسْرَةَ العامرية، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت ترقع بها وتسجد بها؟ قال: "إني سألت ربي، عز وجل، الشفاعة لأمتي، فأعطانيتها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً".

{ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) }

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم فيما أمناه إليه من التبري من النصارى الملحدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه، عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: { هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }، قال الضحاک، عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. { لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } أي: ماكتبن فيها لا يَحُولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وقوله: { ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }، أي: هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: { لِيَمِثِلَ هَذَا فَبَلِّغْ لِلْعَامِلُونَ } [الصفات: ٦١]، وكما قال: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين: ٢٦].

وقوله: { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، أي: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه.

ويقول الإمام القرطبي:

١١٦- {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} اختلف في وقت هذه المقالة فقال قتادة وابن جريح وأكثر المفسرين: إنما يقال له هذا يوم القيامة، وقال السدي وقطرب قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت، واحتجوا بقوله: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ} فإن {إِذْ} في كلام العرب لما مضى. والأول أصح يدل عليه ما قبله من قوله: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ}، الآية، وما بعده {هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}. وعلى هذا تكون {إِذْ} بمعنى {إِذَا}، كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ إِذَا فِرْعَوْنُ}. واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين: أحدهما: أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ. والتقرير الثاني: قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده، وادعوا عليه ما لم يقل. فإن قيل فالنصارى لم يتخذوا مريم إلها فكيف قال ذلك فيهم؟ فقيل: لما كان من قولهم أنها لم تلد بشرا وإنما ولدت إلها، لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له.

قوله تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}. وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين: أحدهما: تنزيها له عما أضيف إليه، الثاني خضوعا لعزته وخوفا من سطوته. ثم قال: {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ}، أي أن ادعى لنفسى ما ليس من حقها، يعني أنني مريوب ولست برب، وعباد ولست بمعبود، ثم قال: {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ} فرد ذلك إلى علمه، وقد كان الله عالما به أنه لم يقله، ولكنه سأله عنه تقريرا لمن اتخذ عيسى إلها. ثم قال: {تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم، وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه، وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد، وقيل: تعلم سري ولا أعلم سرك لأن السر موضعه النفس، وقيل: تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة. قلت: والمعنى في هذه الأقوال متقارب أي تعلم سري وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك. {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن.

١١٧- {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

قوله تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ } يعني في الدنيا بالتوحيد. { أَنْ اِعْبُدُوا اللَّهَ }، { أَنْ } لا موضع لها من الإعراب وهي مفسرة، مثل { وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا }. ويجوز أن تكون في موضع نصب أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله، ويجوز أن تكون في موضع خفض أي بأن اعبدوا الله.

قوله تعالى: { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } أي حفيظا بما أمرتهم. { مَا دُئِمْتُ فِيهِمْ }، { مَا } في موضع نصب أي وقت دوامي فيهم. { فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ } قيل: هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه وليس بشيء، لأن الأخبار تظاهرت برفعه وأنه في السماء حي وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء. قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: { يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا } يعني وقت انقضاء أجلها. ووفاة النوم، قال الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ }، يعني الذي ينيمكم؛ ووفاة الرفع، قال الله تعالى: { يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كُنْتُ أَنْتَ }، وقوله: { كُنْتُ أَنْتَ }، "أنت" هنا تأكيد، { الرَّقِيبَ } خبر { كُنْتُ } ومعناه الحافظ عليهم والعالم بهم والشاهد على أفعالهم؛ وأصله المراقبة أي المراجعة، ومنه المراقبة لأنها في موضع الرقيب من علو المكان. { وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } أي من مقالي ومقاتلهم، وقيل على من عصى وأطاع.

١١٨ - { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

قوله تعالى: { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ } شرط وجوابه { وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } مثله. واختلف في تأويله فقيل: قاله على وجه الاستعطاف لهم والرافة بهم كما يستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل: فأختم عصوك. وقيل: قاله على وجه التسليم لأمره والاستجارة من عذابه وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر. وقيل الهاء والميم في { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ } لمن مات منهم على الكفر، والهاء والميم في { وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ } لمن تاب منهم قبل الموت، وهذا حسن. وقال: { فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }، ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه. ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه، وذلك مستحيل. فالتقدير إن تبقيهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فأختم عبادك، وإن تهدمهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله تفضل من تشاء وتهدي من تشاء. وقال أبو بكر الأنباري: وقد طعن على القرآن من قال إن قوله: { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ليس بمشاكل لقوله: { وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ } لأن الذي يشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم؛ والجواب أنه لا يُحْتَمَلُ إِلَّا مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَمَتَى نُقِلَ إِلَى الَّذِي نَقَلَهُ إِلَيْهِ ضَعْفَ مَعْنَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَرِدُ بِالْغُفُورِ الرَّحِيمِ بِالْشَّرْطِ الثَّانِي فَلَا يَكُونُ لَهُ بِالْشَّرْطِ الْأَوَّلِ تَعْلُقٌ، وَهُوَ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاجْتَمَعَ عَلَى قِرَاءَتِهِ الْمُسْلِمُونَ مَقْرُونًا بِالْشَّرْطَيْنِ كِلَيْهِمَا أَوْلَهُمَا وَآخِرُهُمَا، إِذْ تَلْخِصُهُ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فِي الْأَمْرَيْنِ كِلَيْهِمَا مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْغُفْرَانِ، فَكَانَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَلْيَقَ بِهَذَا الْمَكَانِ لِعُمُومِهِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ الشَّرْطَيْنِ، وَلَمْ يَصْلِحِ الْغُفُورُ الرَّحِيمُ إِذْ لَمْ يَحْتَمِلْ مِنَ الْعُمُومِ مَا احْتَمَلَهُ

العزیز الحکیم، وما شهد بتعظیم الله تعالى وعدله والثناء علیه فی الآیة کلها، والشرطین المذكورین أولى وأثبت معنی فی الآیة مما یصلح لبعض الکلام دون بعض. وقال بعضهم: فی الآیة تقدم وتأخیر، ومعناه إن تعذبهم فإنک أنت العزیز الحکیم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادک ووجه الکلام علی نفسه أولى لما بیناه وباللہ التوفیق.

۱۱۹- {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ}

قوله تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} أي صدقهم في الدنيا، فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق، وصدقهم في الدنيا يحتل أن يكون صدقهم في العمل لله، ويحتل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله لله، وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعا في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه. وقيل: المراد صدقهم في الآخرة وذلك في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم والله أعلم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده، ليمضي إلى القضية الأساسية، قضية الألوهية والربوبية، وهي القضية الواضحة في الدرس كله. فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضا على أنظار العالمين. لنعد إليه فنسمع استجوابا مباشرا في هذه المرة في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه. استجوابا يوجه إلى عيسى عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه، ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفرح من هذه الكبيرة التي افتروا عليه وهو منها بريء: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ سُبْحَانَكَ، مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. وإن الله سبحانه ليعلم ماذا قال عيسى للناس. ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب، الاستجواب الذي يُقصد به إلى غير المسئول ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلمين لهذا العبد الصالح الكريم. إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يُقذف بها، أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد، فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى بن مريم وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجوابا عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟ من أجل ذلك كان الجواب الواجب الراجح الخاشع المنيب، يبدأ بالتسبيح والتنزيه: {قَالَ سُبْحَانَكَ}. ويسرع إلى

التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً: { مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } . ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: { إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ. إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } . وعندئذ فقط، وبعد هذه التسيبحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } . ثم يخلي يده منهم بعد وفاته؛ وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه قد توفي عيسى بن مريم ثم رفعه إليه. وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله. وليس هنالك - فيما أرى - أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام. وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاي: { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً } . وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم مع تقرير عبوديتهم لله وحده. وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب: { إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب! وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواحف، ويتهلل من أجلها إلى ربه هذا الابتهاال المنيب؟ أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟ إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة. فلعلهم يتذاوبون حزناً وندماً. فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب: { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } . هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم في أعظم القضايا كافة، قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه. هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين. وهي الكلمة الأخيرة في المشهد. وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين: { لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } . درجات بعد درجات، الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من رهم من التكريم: { ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } . ولقد شهدنا المشهد، من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة، وسمعنا الكلمة الأخيرة. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعدا يوعد، ولا مستقبلاً ينتظر ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرأها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعا اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون. على أنه إن كان بالقياس إلينا - نحن البشر المحجوبين - مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر. فالزمن وحجابه إنما من تصوراتنا نحن البشر الفانين.

وفي نهاية هذا الدرس وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فرية ألوهيته الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض، في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم، يجيء الإيقاع الأخير في السورة، يعلن تفرد الله سبحانه بملك السماوات والأرض وما فيهن، وقدرته سبحانه على كل شيء بلا حدود: **{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**. ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل ويفوضون إليه الأمر كله ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير. وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن «الدين» وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه. إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم: **{وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}**. إنها قضية واحدة، قضية الألوهية، قضية التوحيد، وقضية الحكم بما أنزل الله، لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد.

يغفر لمن يشاء

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُوْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)}

ويقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٩]، وقال: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى} [طه: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جدا، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضي الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن - يعني العلاء - عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُوْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيعها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير". فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: {أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأُنزل: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} إلى آخره. ورواه مسلم منفردًا به، من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله ولفظه: "فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأُنزل: {لَا يُكَلِّفُ

اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قال: نعم، {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} قال: نعم، {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال: نعم، {وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} قال: نعم. حديث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "قولوا سمعنا وأطعنا وسألنا". فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} إلى قوله: {فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} وهكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كريب، وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع، به وزاد: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قال: قد فعلت {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} قال: قد فعلت: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال: قد فعلت، {وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا} قال: قد فعلت.

وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل". وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عُيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أحسن أحد إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل". تفرد به مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ وبعضه في صحيح البخاري. وفي حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "وقد وجدتموه؟" قالوا: نعم. قال: "ذاك صريح الإيمان". لفظ مسلم. وروى مسلم أيضا من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة، قال: "تلك صريح الإيمان". وعن الحسن البصري أنه قال: هي تحكمة لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية، قائلا حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن سعيد وهشام، (ح) وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، حدثنا هشام، قال جميعا في حديثهما عن قتادة، عن صفوان بن محرز، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ فقال: سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يدنو المؤمن من ربه،

عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم".

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢٨٤ {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

قوله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} فيه مسألتان: اختلف الناس في معنى قوله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} على أقوال خمسة:

الأول: أنها منسوخة، قاله ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وجماعة من الصحابة والتابعين، وأنه بقي هذا التكليف حولا حتى أنزل الله الفرج بقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]. وهو قول ابن مسعود وعائشة وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وغيرهم؛ وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا"، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قال: "قد فعلت" {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} قال: "قد فعلت" {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَإِزْهِمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٨٦] قال: "قد فعلت": في رواية فلما فعلوا ذلك نسخها الله ثم أنزل تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، وسيأتي.

الثاني: قال ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد: إنها محكمة مخصوصة، وهي في معنى الشهادة التي تُهي عن كتمها، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب.

الثالث: أن الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين، وقاله مجاهد أيضا.

الرابع: أنها محكمة عامة غير منسوخة، والله محاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم وأضمروه ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ذكره الطبري عن قوم، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا. روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: لم تُنسخ، ولكن

إذا جمع الله الخلائق يقول: "إني أخبركم بما أكنتم في أنفسكم" فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب، فذلك قوله: {يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} [البقرة: ٢٨٤]، وهو قوله عز وجل: {وَلَكِن يُّؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فُلُوبُكُمْ} [البقرة: ٢٢٥] من الشك والنفاق. وقال الضحاك: يُعلمه الله يوم القيامة بما كان يُسرّه ليعلم أنه لم يخف عليه. وفي الخبر: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة هذا يوم تبلى فيه السرائر وتخرج الضمائر وأن كتابي لم يكتبوا إلا ما ظهر من أعمالكم وأنا المطلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يخبروه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء" فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين، وهذا أصح ما في الباب، يدل عليه حديث النجوى على ما يأتي بيانه، لا يقال: فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به". فإننا نقول: ذلك محمول على أحكام الدنيا، مثل الطلاق والعناق والبيع التي لا يلزمه حكمها ما لم يتكلم به، والذي ذُكر في الآية فيما يؤخذ العبد به بينه وبين الله تعالى في الآخرة. وقال الحسن: الآية محكمة ليست بمنسوخة. قال الطبري: وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس، إلا أنهم قالوا: إن العذاب الذي يكون جزاء لما خطر في النفوس وصحبه الفكر إنما هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهها. ثم أسند عن عائشة نحو هذا المعنى،

وهو القول الخامس: ورجح الطبري أن الآية محكمة غير منسوخة: قال ابن عطية: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: {وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} معناه مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشفق الصحابة والنبي صلى الله عليه وسلم، فبين الله لهم ما أراد بالآية الأخرى، وخصصها ونص على حكمه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هي أمر غالب وليست مما يُكتسب، فكان في هذا البيان فرجهم وكشف كربهم، وباقي الآية محكمة لا نسخ فيها. ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ، فإن ذهب ذاهب إلى تقدير النسخ فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم: "قولوا سمعنا وأطعنا" يجيء منه الأمر بأن يشبوا على هذا ويلتزموه وينتظروا لطف الله في الغفران. فإذا قرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله تعالى: {إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ} [الأنفال: ٦٥] فهذا لفظه الخبر ولكن معناه التزموا هذا واثبتوا عليه واصبروا بحسبه، ثم نُسخ بعد ذلك. وأجمع الناس فيما علمت على أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصير المائة للمائتين. قال ابن عطية: وهذه الآية في "البقرة" أشبه شيء بها. وقيل: في الكلام إضمار وتقيد، تقديره يحاسبكم به الله إن شاء، وعلى هذا فلا نسخ. وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في الآية وأشبه بالظاهر قول ابن عباس: إنها عامة، ثم أدخل حديث ابن عمر في النجوى، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ لمسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه جل وعز حتى يضع عليه كنفه فيقره بذنوبه

فيقول هل تعرف فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله". وقد قيل: إنها نزلت في الذين يتولون الكافرين من المؤمنين، أي وإن تعلقوا ما في أنفسكم أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تسروها بحاسبكم به الله، قاله الواقدي ومقاتل. واستدلوا بقوله تعالى في "آل عمران" {قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ . من ولاية الكفار . يَغْلَمُهُ اللَّهُ} [آل عمران: ٢٩] يدل عليه ما قبله من قوله: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٢٨]. قلت: وهذا فيه بعد، لأن سياق الآية لا يقتضيه، وإنما ذلك بين في "آل عمران" والله أعلم.

قوله تعالى: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمة والكسائي "فيغفر ويعذب" بالجزم عطف على الجواب، وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع فيهما على القطع، أي فهو يغفر ويعذب. وروي عن ابن عباس والأعرج وأبي العالية وعاصم الجحدري بالنصب فيهما على إضمار "أن". وحقيقته أنه عطف على المعنى، كما في قوله تعالى: {فَيُضَاعَفُهُ لَهُ} وقد تقدم. والعطف على اللفظ أجود للمشكلة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ثم يستمر السياق في توكيد هذه الإشارة، واستحاشة القلب للخوف من مالك السماوات والأرض وما فيهما، العليم بمكونات الضمائر خفيت أم ظهرت، المجازي عليها، المتصرف في مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب، القدير على كل شيء تتعلق به مشيئته بلا تعقيب! {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. وهكذا يعقب على التشريع المدني البحت بهذا التوجيه الوجداني البحت ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة بذلك الرباط الوثيق المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسماوات. فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية، وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم، وهي والتشريع في الإسلام متكاملان. فالإسلام يصنع القلوب التي يُشرع لها ويصنع المجتمع الذي يقنن له، صنعة إلهية متكاملة متناسقة، تربية وتشريع، وتقوى وسلطان، ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

ثم قال تعالى: {لَيُقَطِّعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: {لَيُقَطِّعَ طَرَفًا} أي: ليهلك أمة {مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ} أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لَمَّا ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: {أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا} أي: يرجعوا {خَائِبِينَ} أي: لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} أي: بل الأمر كله إلهي، كما قال: {فَاتِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠] وقال {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢]. وقال {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [القصص: ٥٦]. قال محمد بن إسحاق في قوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم. ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة {أَوْ يُعَذِّبُهُمْ} أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} أي: يستحقون ذلك. وقال البخاري: حدثنا جَبَان بن مُوسَى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، حدثني سالم، عن أبيه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر "اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا" بعد ما يقول: "سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمَدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ" فأنزل الله تعالى {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}. وهكذا رواه النسائي، من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما، عن مَعْمَر به. وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا حُمَيْد، عن أنس، رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كُسِرَتْ رِجَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَحْمَتِهِمْ، عَزَّ وَجَلَّ". فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}، انفرد به مسلم، فرواه عن القعني، عن حماد، عن ثابت، عن أنس، فذكره. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن مطر، عن قتادة قال: أصيب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكُسرت رِجَاعِيَّتُهُ، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبي حذيفة، فأجلسه ومسح عن وجهه، فأفاق وهو يقول: "كَيْفَ يَقُومُ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟" فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}. ثم قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين

يديه {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} أي: هو المتصرف فلا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، والله غفور رحيم.

ويقول الإمام القرطبي:

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت ربايعيته يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسלט الدم عنه ويقول: "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا ربايعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى"، فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}. الضحاک: همَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المشركين فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}. وقيل: استأذن في أن يدعو في استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيسلم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. وقوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} قيل: هو معطوف على {لَيْقُطَعَ طَرْفًا}. والمعنى: ليقتل طائفة منهم، أو يخرجهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم. وقوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك قال صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

الثانية: زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقنوت الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح، واحتج بحديث ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال: "اللهم ربنا ولك الحمد في الآخرة - ثم قال - اللهم العن فلانا وفلاننا" فأنزل الله عز وجل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ} الآية. أخرجه البخاري، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أتم منه. وليس هذا موضع نسخ وإنما نبه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويجعل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء والله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء. فلا نسخ، والله أعلم. وبين بقوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} أن الأمور بقضاء الله وقدره ردا على القدرية وغيرهم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

وعلى أية حال فهي حكمة الله، وليس لبشر منها شيء حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج النص من مجال هذا الأمر، ليجرده لله وحده سبحانه فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك. بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر: من أسبابه ومن نتائجه! وبذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين، ومن البطر والعجب والزهو الذي تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شيء، إنما الأمر كله لله أولاً وأخيراً. وبذلك يرد أمر الناس، طائعهم وعاصيهم، إلى الله. فهذا الشأن شأن الله وحده سبحانه. شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها، طائعهم وعاصيهم سواء، وليس للنبي صلى الله عليه وسلم، وليس للمؤمنين معه، إلا أن يؤدوا دورهم، ثم ينفضوا أيديهم من النتائج، وأجرهم من الله على الوفاء، وعلى الولاء، وعلى الأداء. وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} فسيرد في السياق قول بعضهم: {هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}، وقولهم: {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}، ليقول لهم: إن أحدا ليس له من الأمر من شيء، لا في نصر ولا في هزيمة، إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس. وأما الأمر بعد ذلك فكله لله، ليس لأحد منه شيء، ولا حتى لرسول الله. فهي الحقيقة الأصيلة في التصور الإسلامي. وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث، وأكبر من شتى الاعتبارات.

ويختتم هذا التذكير ببدر، وهذا التقرير للحقائق الأصيلة في التصور، بالحقيقة الشاملة التي ترجع إليها حقيقة أن أمر النصر والهزيمة مرده إلى حكمة الله وقدره. يختتم هذا التقرير بتقرير أصله الكبير: وهو أن الأمر لله في الكون كله، ومن ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفق ما يشاء: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. فهي المشيئة المطلقة، المستندة إلى الملكية المطلقة. وهو التصرف المطلق في شأن العباد، بحكم هذه الملكية لما في السماوات وما في الأرض. وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد في المغفرة أو في العذاب. إنما يقضي الأمر في هذا الشأن بالحكمة والعدل، وبالرحمة والمغفرة. فشأنه سبحانه الرحمة والمغفرة: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته، بالعودة إليه، ورد الأمر كله له، وأداء الواجب المفروض، وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة غافر:

{حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ (٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} أي: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه.

وقوله: {عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: {شَدِيدِ الْعِقَابِ} أي: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى، وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف. وهذه كقوله تعالى: {نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر:

٥٠ ، ٤٩] يقرون هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن لبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: {ذِي الطَّوْلِ} قال ابن عباس: يعني: السعة والغنى. وقال يزيد بن الأصم: {ذِي الطَّوْلِ} يعني: الخير الكثير. وقال عكرمة: {ذِي الطَّوْلِ} ذي المن. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المن والأنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، {وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، {وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد: ٤١]. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه {حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} وقال: اعمل ولا تياس. رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢] {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}

الآية: [٣] {عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}

الآية: [٤] {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}

قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ} ابتداء والخبر {مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، ويجوز أن يكون {تَنْزِيلُ} خبراً لمبتدأ محذوف، أي هذا {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}. والمعنى: أن القرآن أنزله الله وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يكذب به.

قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} وقال أهل الإشارة: {غَافِرِ الذَّنْبِ} فضلا {وَقَابِلِ التَّوْبِ} وعدا {شَدِيدِ الْعِقَابِ} عدلا {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} فردا. و {التَّوْبِ} يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توبا، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دومة ودوم وعزيمة وعزم؛ ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة. {ذِي الطَّوْلِ}، وأصل الطول الإنعام والفضل، يقال منه: اللهم طل علينا أي انعم وفضل. ومنه قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً} أي غنى وسعة. وعن ابن عباس أيضا: {ذِي الطَّوْلِ} ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله. وقال عكرمة: {ذِي الطَّوْلِ} ذي المن. قال الجوهري: وال طول بالفتح المن؛ يقال منه طال عليه وتطول عليه إذا امتن عليه. وقال محمد بن كعب: {ذِي الطَّوْلِ} ذي التفضل؛ قال الماوردي: والفرق بين المن والتفضل أن المن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق. وال طول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مدة إنعامه. {إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} أي المرجع.

قوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} سجل سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدل بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق، وإطفاء نور الله تعالى. وقد دل على ذلك في قوله تعالى: {وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}. فأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها، ورد أهل الزيغ بما وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله. {فَلَا يَعْزُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}، {تَقَلُّبُهُمْ} أي تصرفهم {فِي الْبِلَادِ} فإني إن أمهلتهم لا أمهلهم بل أعاقبهم. وقيل: {لَا يَعْزُرَكَ} ما هم فيه من الخير والسعة في الرزق فإنه متاع قليل في الدنيا.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين. وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم. وجو السورة كله- من ثم- كأنه جو معركة. وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض، وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل. تنسم خلال هذا الجو نسيمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين!

ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}، فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع،

ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي! كذلك نجد كلمة البأس، وبأس الله، وبأسنا، مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة. وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها. وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين. وقد ترق أحيانا فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربحهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية.

يبدأ الشوط الأول منها بفتح السورة بالأحرف المقطعة: {حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، تتلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة: {غَافِرِ الدَّنْبِ. وَقَابِلِ التَّوْبِ. شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}. ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله، وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدل، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما تقبلوا في الخير والمتاع، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم وقد أخذهم الله أخذًا بعقاب يستحق العجب والإعجاب! ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك. ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم، ويتوجهون إليه بالعبادة، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح.

لن يغفر الله لهم

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة:

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة، فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ} يأتي بيانه عند قوله تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: ٨٤]. الآية: ٨٤ {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى: روي أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي سلول وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه. ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما. وتظاهرت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك. وروي عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريل فحجذ ثوبه وتلا عليه {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} الآية ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصل عليه. والروايات الثابتة على خلاف هذا، ففي البخاري عن ابن عباس قال: فصلي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف؛ فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من [براءة] {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} ونحوه عن ابن عمر؛ خرجهم مسلم. قال ابن عمر: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نكأك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما خيرني الله تعالى فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً} [التوبة: ٨٠] وسأزيد على سبعين"، قال: إنه منافق. فضلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} فترك الصلاة عليهم. وقال بعض العلماء: إنما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بن سنان على الظاهر من لفظ إسلامه. ثم لم يكن يفعل ذلك لما نهي عنه.

الثانية: إن قال قائل فكيف قال عمر: أتصلي عليه وقد نكأك الله أن تصلي عليه، ولم يكن تقدم نهي عن الصلاة عليهم. قيل له: يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره، ويكون من قبيل الإلهام والتحدث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان القرآن ينزل على مراده، كما قال: وافقت ربي في ثلاث. وجاء: في أربع. فيكون هذا من ذلك. ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠] الآية، لا أنه كان تقدم نهي على ما دل عليه حديث البخاري ومسلم، والله أعلم. قلت: ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١١٣] لأنها نزلت بمكة. وسيأتي القول فيها.

الثالث: قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ} الآية. بين تعالى أنه وإن استغفر لهم لم ينفعم ذلك وإن أكثر من الاستغفار. قال القشيري: لم يثبت ما يروي أنه قال: "الأزيدن على السبعين". قلت: وهذا خلاف ما يثبت في حديث ابن عمر "وسأزيد على سبعين"؛ وفي حديث ابن عباس "لو أعلم أني زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها". قال فضلي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. خرجه البخاري.

الرابعة: واختلف العلماء في تأويل قوله: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ} هل هو إياس أو تحيير، فقالت طائفة: المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى: {فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠]. وذكر السبعين وفاق جرى، أو هو عادتهم في العبارة عن الكثرة والإغناء فإذا قال قائلهم: لا أكلمه سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله لا أكلمه أبدا. وقالت طائفة: هو تحيير - منهم الحسن وقتاده وعروة - إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر. ولهذا لما أراد أن يصلي على ابن أبي قال عمر: أتصلي على عدو الله، القائل يوم كذا وكذا؟ فقال: "إني خيرت فاخترت". قالوا ثم نسخ هذا لما نزل {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [المنافقون: ٦].

الخامسة: قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١١٣] الآية. وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب. وهذا يُفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا. وهو متقدم على هذه الآية التي فُهم منها التحيير بقوله: "إنما خيرني الله" وهذا مشكل. فقيل: إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرجو

الإجابة حتى تحصل له المغفرة. وفي هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربه في أن يأذن له فيه لأنه فلم يأذن له فيه. وأما الاستغفار للمنافقين الذي خُير فيه فهو استغفار لساني لا ينفع، وغايته تطيب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له. والله أعلم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

هؤلاء المنافقون الذين يلزمون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو، قد تقرر مصيرهم، فما عاد يتبدل: {فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} لن يجديهم استغفار، فإنه وعدم الاستغفار لهم سواء. ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستغفر للمخطفين عسى أن يتوب الله عليهم. فأما هؤلاء فقد أُخبر بأن مصيرهم قد تقرر، فلا رجعة فيه: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترحى لهم أوبة. وفسدت قلوبهم فلم يعد يرحى لها صلاح.

{ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } والسبعون تذكر عادة للكثير، لا على أنها رقم محدد. والمعنى العام أن لا رجاء لهم في مغفرة، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة. والقلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح، والضلال حين ينتهي إلى أمد معين لا يرحى بعده اهتداء. والله أعلم بالقلوب.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة المنافقون:

{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ حُجَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَدَدٌ يَجْسَبُونَ كَلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَاتْلُوهُمْ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْفَكُوا (٤) }

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين: إنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} أي: إذا حَضَرُوا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله، فقال: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، ثم قال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} أي: فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم. وقوله: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي: اتقوا الناس بالأيمن الكاذبة والحلفات الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فرما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خَبَلًا فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ولهذا كان الضحاک بن مزاحم يقرؤها: "اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً" أي: تصديقهم الظاهر جُنَّةً، أي: تقية يتقون به القتل. والجمهور يقرؤها: {أَيْمَانَهُمْ} جمع يمين.

وقوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: إنما قُدِّرَ عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي. {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ} أي: كانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجن؛ ولهذا قال: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف، يعتقدون، لجنهم، أنه نازل بهم، كما قال تعالى: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَانَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [الأحزاب: ١٩] فهم جهامات وصور بلا معاني. ولهذا قال: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ فَإِنَّهُمْ لَكَ اللَّهُ أَلِيٌّ يُؤْفِكُونَ} أي: كيف يُصْرَفُونَ عن الهدى إلى الضلال. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجُمَحِي، عن إسحاق بن بكر بن أبي الفرات، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيتهن لعنة، وطعامهن مُهَبَّة، وغنيمتهن غلول، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرًا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا، مستكبرين لا يَأْلَفُونَ ولا يُؤْلَفُونَ، حُسْبُ بالليل، صُحْبُ بالنهار". وقال يزيد مرةً: سُحْبُ بالنهار.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا

تُنْفِثُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَتَوَلَّوْنَ
لَكِنَّ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين- عليهم لعائن الله- أنهم {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ} أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكبارًا عن ذلك، واحتقارًا لما قيل لهم ولهذا قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ} ثم جازاهم على ذلك فقال: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ كُنْ يُغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} كما قال في سورة "براءة".

وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة- يعني مَرَجَعَهُ مِنْ أَحَدٍ- وكان عبد الله بن أبي بن سلول- كما حدثني ابن شهاب الزهري- له مقام يَؤُمُّهُ كُلُّ جُمُعَةٍ لَا يُنْكَرُ، شَرَفًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، وكان فيهم شريفًا، إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم جلس. حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، يعني مرجعه بثلاث الجيش، ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنا قلت بَجْرًا أَنْ قُتِمْتُ أَشَدَّهُ أَمْرَهُ. فلقى رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك. ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره، فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنا قلت بَجْرًا، أَنْ قُتِمْتُ أَشَدَّهُ أَمْرَهُ. قالوا: ويلك. ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي. وقال قتادة والسدي: أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعَدَمُوهُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فجعل يلوي رأسه، أي: لست فاعلا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبيرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلا لم يرتحل حتى يصلي فيه، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي بن سلول قال: {لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار، وقيل لعبد الله بن أبي: اتت النبي صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك. فأنزل الله: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} إلى قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ}، وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبيرة. وقوله: إن ذلك كان في غزوة تبوك، فيه نظر، بل ليس بجيد؛ فإن عبد الله بن أبي بن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش. وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق.

قال يونس بن بُكَيْرٍ، عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حبان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمر بن قتادة، في قصة بني المصطلق: فبينما رسول الله مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري وكان أجيروا لعمر بن الخطاب، وسانان بن وَبْرٍ، قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار؛ وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين- وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي- فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل: "سَمَنَ كلبك يأكلك". والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل. ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم في بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عُليٌّ- وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه- فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله مر عَبَادَ بن بشرٍ فليضرب عنقه. فقال صلى الله عليه وسلم: "فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا ولكن ناد يا عمر في الرحيل". فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم- وكان عند قومه بمكان- فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل. وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم مُهَجَّرًا في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رُحِتَ في ساعة مُنكَرَةٌ ما كنت تروح فيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعرز منها الأذل". قال: فأنت يا رسول الله العزيزُ وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الحُرَزَ لِنُتَوَّجِهه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا. فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس حتى أمسوا، ليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَسَ الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزَاة فَكَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يالأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة". وقال عبد الله بن أبي بن سلول وقد فعلوها: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"، ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي، عن سفيان بن عيينة، ورواه البخاري عن الحميدي، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن سفيان، به نحوه. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن محمد بن كعب القرظي، عن زيد بن أرقم، قال: كنت مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال: فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك. قال: فلأمني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فتمت كئيبا حزينا، قال: فأرسل إلي نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن الله قد أنزل عذرك وصدقك". قال: فنزلت هذه الآية {هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا}، حتى بلغ: {لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} وقوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ خُشِبٌ مُسَنَّدَةٌ} قال: كانوا رجالا أجهل شيء.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق، فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهو اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا يكتمونهم وهم اليوم يظهرونه. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أحلف وإذا أؤتمن خان". وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر". وروي عن الحسن أنه ذكر له هذا الحديث فقال: إن بني يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وأؤتمنوا فخانوا. إنما هذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال، شققا أن تقضي بهم إلى النفاق. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المؤمن إذا حدث صدق وإذا وعد أنجز وإذا ائتمن وفي". والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدث صدق. والله أعلم.

قوله تعالى: {قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} قيل: معنى "نشهد" نلحف. فعبر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب، ويحتمل أن يكون ذلك محمولا على ظاهره أنهم يشهدون أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترافا بالإيمان ونفيا للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه. {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} كما قالوه بألسنتهم. {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} أي فيما أظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم. وقال الفراء: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} بضمايرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر. وهذا يدل على أن الإيمان

تصديق القلب، وعلى أن الكلام الحقيقي كلام القلب. ومن قال شيئا واعتقد خلافه فهو كاذب. وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم وهو قوله تعالى: {وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِتْمَانًا وَمَا هُمْ مِنْكُمْ}،

الآية. {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} أي سترة، وليس يرجع إلى قوله {نشهد أنك لرسول الله} وإنما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاري والترمذي عن ابن أبي أنه حلف ما قال وقد قال.

الثانية: من قال أقسم بالله أو أشهد بالله أو أعزم بالله أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله أو أشهدت بالله أو أعزمت بالله أو أحلفت بالله، فقال في ذلك كله "بالله" فلا خلاف أنها يمين، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}.

الثالثة: قوله تعالى: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أي عرضوا، وهو من الصدود. أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسيبي وأخذ الأموال، فهو من الصد، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويفتدي بهم غيرهم. وقيل: فصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، بأن يقولوا ها نحن كافرون بهم، ولو كان محمد حقا لعرف هذا منا، ولجعلنا نكالاً. فبين الله أن حالهم لا يخفي عليه، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان. {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي بثست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة وصددهم عن سبيل الله أعمالاً.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} أي هيئاتهم ومناظرهم. {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ} يعني عبد الله بن أبي. {كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْتَدَّةٌ} شبههم بخشب مسندة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام. قوله تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ} أي كل أهل صيحة عليهم هم العدو. ف "هم العدو" في موضع المفعول الثاني على أن الكلام لا ضمير فيه. يصفهم بالجن والخور. قال مقاتل والسدي: أي إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون، لما في قلوبهم من الرعب. وقيل: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ} كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد؛ وتقديره: يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم بنفاقهم، لأن للريبة خوفاً. ثم استأنف الله خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: {هم العدو} وهذا معنى قول الضحاك، وقيل: يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر فيها بقتلهم؛ فهم أبداً وجلون من أن ينزل الله فيهم أمراً يبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم. ثم وصفهم الله بقوله: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ}. وفي قوله تعالى: {فَاحْذَرُهُمْ} وجهان، أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر مما يلبسهم لأعدائك وتحذيلهم لأصحابك.

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ} لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم، فلوا رؤوسهم؛ أي حركوها استهزاء وإباء. وقيل: {يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ} يستبكم من النفاق؛ لأن التوبة استغفار. {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} أي يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان.

قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} يعني كل ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئا؛ لأن الله لا يعفر لهم. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} أي من سبق في علم الله أنه يموت فاسقا. {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، القائل ابن أبي كما تقدم، وقيل إنه لما قال: {لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أياما يسيرة حتى مات؛ فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألبسه قميصه؛ فنزلت هذه الآية: {لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص «المنافقون» الدال على موضوعها، ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين، ووصف أحوالهم ومكائدهم. فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحاً. ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم. وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب. وليس في السورة عدا هذا إلا لفظة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد. وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله، والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم، ويخدعون المسلمين فيهم: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشهدون بين يديه برسائله شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق،

إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين. فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها. ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**. والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه. فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين. ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة، وليس هذا هو المقصود. إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصي الضمير! **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً}**، وهي توشي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عُرف عنهم كيد أو تديير، أو نُقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين. كانوا يحلفون ليقنوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم. **{فَصَادُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}**، صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: **{إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل؟! ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة، وأيمان مكذوبة خادعة، وصد عن سبيل الله وسوء عمل، يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}**، فهم عرفوا الإيمان إذن، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر. وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تدوق، أو حياة. وإلا فمن ذا الذي يدوق ويعرف، ويطلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التدوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيا ظلال الإيمان الندية، ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد! **{فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}**. ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف المسوخ المطموس من الناس، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفرع والحقن والكنود. بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية في معرض الوجود: **{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ. وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ. يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. هُمْ الْعَدُوُّ فَآخَذَرَهُمْ. قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! أَنْتَى يُؤْفَكُونَ}**. فهم أجسام تُعجب، لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة. **{تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ}**، ولكنها ليست خشبا فحسب، إنما هي **{خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ}**، لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار! هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفرع الدائم والاهتزاز الدائم: **{يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف. وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين: **{هُمُ الْعَدُوُّ فَآخَذَرَهُمْ}**، هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف. وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح. **{فَآخَذَرَهُمْ}**، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤمر هنا بقتلهم، فأخذهم

بخطبة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ }، فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا. والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه. وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف. ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم، وتبنيهم للرسول صلى الله عليه وسلم وكذبهم عند المواجهة، وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون: { وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لكن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين. هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا. والله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لمن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل. والله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولكن المنافقين لا يعلمون } . وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول. قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلا فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعي نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل نترقب به ونحسب صحبته ما بقي معنا». وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته». قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري". وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمشون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إنما يسير ساقية (أي: في مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة)، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه. فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجز الآن.

ونظر مرة إلى الأحداث، ومرة إلى الرجال، ومرة إلى النص القرآني، فنجدنا مع السيرة، ومع المنهج التربوي الإلهي، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور. فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ويعيشون فيه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قرابة عشر سنوات. والرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرجهم من الصف، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته، وإن كان يعرفهم في لحن القول، بالالتواء والمداورة؛ ويعرفهم بسيماهم وما

يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات، ذلك كي لا يكِل الله قلوب الناس للناس. فالقلوب له وحده، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر كي لا يأخذوا الناس بالظنة، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة! وحتى حينما عرّف الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه. إنما عرفهم وعرّف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ولم يشع ذلك بين المسلمين، حتى إن عمر رضي الله عنه كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسمه له من المنافقين! وكان حذيفة يقول له: يا عمر لست منهم، ولا يزيد! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات أبدا. فكان أصحابه يعرفون عند ما يرون الرسول لا يصلي على ميت. فلما قبض صلى الله عليه وسلم كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم. وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر، فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئا! وهكذا كانت تجري الأحداث كما يرسمها القدر لحكمتها ولغايتها، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب.

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث: {وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوَا رُؤُوسَهُمْ ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } فهم يفعلون الفعلة، ويطلقون القولة، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم جبنوا وتحاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة. فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم في أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة. وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام. ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة، حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان! ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قضاه الله في شأنهم على كل حال. وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ كُنْ يُغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }.

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) } إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) }

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى أما أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهددا لهم أن يفعلوا، بقوله: { مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا } قال بعضهم: معناه: من قبل أن نطمس وجوها. طمسها هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوها فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار.

قال العوفي عن ابن عباس: { مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا } وطمسها أن تعمي { فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا } يقول: نجعل وجوههم من قبل أفقيتهم، فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه. وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يهرعون ويمشون القهقري على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } [يس ٨ ، ٩] إن هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى. قال مجاهد: { مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا } يقول: عن صراط الحق، فنردها على أدبارهم، أي: في الضلالة. قال السدي: { فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا } فنمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفارا ونردهم قردة.

وقوله: { أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ } يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قردة وحنازير.

وقوله: { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } أي: إذا أمر بأمر، فإنه لا يُجَالَفُ ولا يُمَانَعُ.

ثم أخبر تعالى: أنه {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} أي: من الذنوب {لِمَنْ يَشَاءُ} أي: من عباده.

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

* قال عبد بن حميد في مسنده: أخبرنا عبيد الله بن موسى، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: "من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار". وذكر تمام الحديث. تفرد به من هذا الوجه. طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن عمرو بن خلاد الحراني، حدثنا منصور بن إسماعيل القرشي، حدثنا موسى بن عبيدة الريذي، أخبر عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئاً، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبتها، وإن شاء غفر لها: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}. ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب". قيل: يا نبي الله، وما الحجاب؟ قال: "الإشراك بالله". قال: "ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى، إن يشأ أن يعذبها، وإن يشأ أن يغفر لها غفر لها". ثم قرأ نبي الله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

وقوله: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} كقوله {إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]، وثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندا وهو خلقك..." وذكر تمام الحديث. وقال ابن مردويه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله" ثم قرأ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} وعقوق الوالدين. ثم قرأ: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}.

{أَمْ تَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)}.

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية، وهي قوله: {أَمْ تَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} في اليهود والنصارى، حين قالوا: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}. وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة: ١٨]، وفي قولهم: {وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ} [البقرة: ١١١]. وقيل: نزلت في ذم التمداح والتزكية. وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المداحين التراب. وفي الحديث الآخر المخرج في الصحيحين من طريق خالد الحذاء، عن عبد الرحمن

بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثني على رجل، فقال: "ويحك. قطعت عنق صاحبك". ثم قال: "إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا".

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، أنبأنا شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلما يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح".

وقال ابن جرير: حدثنا يحيى بن إبراهيم المسعودي، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقي الرجل ليس يملك له نفعا ولا ضرا فيقول له: والله إنك كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحل من حاجته بشيء وقد أسخط الله. ثم قرأ {أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} الآية.

ولهذا قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} أي: المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: {وَلَا يُظْلَمُونَ قَبِيلاً} أي: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وغير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة. وعن ابن عباس أيضا: هو ما فتلت بين أصابعك. وكلا القولين متقارب.

ويقول الإمام القرطبي:

٤٨- {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}
٤٩- {أَمْ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ يُزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَبِيلاً}

قوله تعالى: {أَمْ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ} إلى قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ} الآية. نزلت في يهود المدينة وما والاها. قال ابن إسحاق: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك؛ ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزل الله عز وجل {أَمْ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ} إلى قوله {قَبِيلاً}. ومعنى {يَشْتَرُونَ} يستبدلون فهو في موضع نصب على الحال، وفي الكلام حذف تقديره يشترون الضلالة بالهدى؛ كما قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ} قاله القتيبي وغيره. {وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ} عطف عليه، والمعنى تضلوا طريق الحق.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} يريد منكم؛ فلا تستصحبوهم فإنهم أعداؤكم. ويجوز أن يكون "أعلم" بمعنى عليهم؛ كقوله تعالى: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} أي هين. {وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا} الباء زائدة؛ زيدت لأن المعنى اكتفوا بالله فهو يكفيكم أعداءكم.

قوله تعالى: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا} قال الزجاج: إن جعلت "من" متعلقة بما قبل فلا يوقف على قول "نصيرا"، وإن جعلت منقطعة فيجوز الوقف على "نصيرا" والتقدير من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم؛ ثم حذف. وقال الفراء: المحذوف "من" المعنى: من الذين هادوا من يحرفون. وهذا كقوله تعالى: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ} أي من له. {يُحَرِّفُونَ} يتأولونه على غير تأويله. وذمهم الله تعالى بذلك لأنهم يفعلونه متعمدين. وقيل: {عَنْ مَوَاضِعِهِ} يعني صفة النبي صلى الله عليه وسلم. {وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} أي سمعنا قولك وعصينا أمرك. {وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ} قال ابن عباس: كانوا يقولون النبي صلى الله عليه وسلم: اسمع لا سمعت، هذا مرادهم - لعنهم الله - وهم يظهرون أنهم يريدون اسمع غير مسمع مكروها ولا أذى. وقال الحسن ومجاهد: معناه غير مسمع منك، أي مقبول ولا محاب إلى ما تقول. قال النحاس: ولو كان كذلك لكان غير مسموع منك. ومعنى {لَيَأْتِيَنَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ} أي يلبون ألسنتهم عن الحق أي يميلونها إلى ما في قلوبهم. وأصل اللي الفتل، وهو نصب على المصدر، وإن شئت كان مفعولا من أجله. وأصله لويا ثم أدغمت الواو في الياء. "وطعنا" معطوف عليه أي يطعنون في الدين، أي يقولون لأصحابهم لو كان نبيا لدرى أننا نسبه، فأظهر الله تعالى نبيه على ذلك فكان من علامات نبوته، ونهاهم عن هذا القول. ومعنى {وَأَقْوَمُ} أصوب لهم في الرأي. {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي إلا إيمانا قليلا لا يستحقون به اسم الإيمان. وقيل: معناه لا يؤمنون إلا قليلا منهم؛ وهذا بعيد لأنه عز وجل قد أخبر عنهم أنه لعنهم بكفرهم.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا} قال ابن إسحاق: كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود منهم عبدالله بن صوريا الأعور وكعب بن أسد فقال لهم: "يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جنتكم به الحق" قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر؛ فأنزل الله عز وجل فيهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا} إلى آخر الآية.

قوله تعالى: {مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ} نصب على الحال. {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا} الطمس استئصال أثر الشيء؛ ومنه قوله تعالى: {فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ}. ونطمس ونطمس بكسر الميم وضمها في المستقبل لغتان. ويقال في الكلام: طمس يطمس ويطمس بمعنى طمس؛ يقال: طمس الأثر وطمس أي أمحى، كله لغات؛ ومنه قوله تعالى: {رَتَبْنَا اطْمِسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} أي أهلكتها؛ عن ابن عرفة. ويقال: طمسته فطمس لازم ومتعد. وطمس الله بصره، وهو مطموس البصر إذا ذهب أثر العين؛ ومنه قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} يقول أعيناهم. واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية؛ هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين. أو

ذلك عبارة عن الضلال في قلوبهم وسلبهم التوفيق؟ قولان. روي عن أبي بن كعب أنه قال: **{ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ }** من قبل أن نضلكم إضلالاً لا تحتدون بعده؛ يذهب إلى أنه تمثيل وأنهم إن لم يؤمنوا فعل هذا بهم عقوبة. وقال قتادة: معناه من قبل أن نجعل الوجوه أقباء، أي يذهب بالأنف والشفاه والأعين والحواجب؛ هذا معناه عند أهل اللغة. وروي عن ابن عباس وعطية العوفي: أن الطمس أن تزال العينان خاصة وترد في القفا؛ فيكون ذلك ردا على الدبر وبمشي القهقري (!!!). وقال مالك رحمه الله: كان أول إسلام كعب الأحمار أنه مر برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا }** فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقري إلى بيته فأسلم مكانه وقال: والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي. وكذلك فعل عبدالله بن سلام، لما نزلت هذه الآية وسمعتها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي أهله وأسلم وقال: يا رسول الله، ما كنت أدري أن أصل إليك حتى يحول وجهي في قفائي. فإن قيل: كيف جاز أن يهددهم بطمس الوجه إن لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم؛ فقيل: إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقيين. وقال المبرد: الوعيد باق منتظر. وقال: لا بد من طمس في اليهود ومسح قبل يوم القيامة.

قوله تعالى: **{ أَوْ نُلْعَنَهُمْ }** أي أصحاب الوجوه **{ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ }** أي نمسحهم قردة وخنازير؛ عن الحسن وقتادة. وقيل: هو خروج من الخطاب إلى الغيبة **{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }** أي كائنا موجودا. ويراد بالأمر المأمور فهو مصدر وقع موقع المفعول؛ فالمعنى أنه متى أراده أوجده. وقيل: معناه أن كل أمر أخبر بكونه فهو كائن على ما أخبر به.

قوله تعالى: **{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ }** روي أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا: **{ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا }** فقال له رجل: يا رسول الله والشرك! فنزل **{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }**. وهذا من المحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة. **{ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }** من المتشابه الذي قد تكلم العلماء فيه. فقال محمد بن جرير الطبري: **قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله تعالى.** وقال بعضهم: قد بين الله تعالى ذلك بقول: **{ إِنَّ بَجَائِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ }** فاعلم أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ولا يغفرها لمن أتى الكبائر. وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة للتي في آخر "الفرقان". قال زيد بن ثابت: نزلت سورة "النساء" بعد "الفرقان" بستة أشهر، والصحيح أن لا نسخ؛ لأن النسخ في الأخبار يستحيل. وفي الترمذي عن علي بن أبي طالب قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية **{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ }** قال: هذا حديث حسن غريب.

قوله تعالى: **{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ }** فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم؛ فقال قتادة والحسن: ذلك قولهم: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}، وقولهم: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} وقال الضحاك والسدي: قولهم لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارا غفر لنا ليلا وما فعلناه ليلا غفر لنا نهارا، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب. وقال مجاهد وأبو مالك وعكرمة: تقديمهم الصغار للصلاة؛ لأنهم لا ذنوب عليهم. وهذا يبعد من مقصد الآية. وقال ابن عباس: ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويكفوننا. وقال عبدالله بن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض. وهذا أحسن ما قيل؛ فإنه الظاهر من معنى الآية. والتزكية: التطهير والتبرية من الذنوب. هذه الآية وقوله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} يقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له. وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة؛ فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى عن هذا الاسم، وسميت برة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم" فقالوا: يم نسميها؟ فقال: "سموها زينب". فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه، ويجري هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعتهم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية؛ كزكي الدين ومحي الدين وما أشبه ذلك، لكن لما كثر قبائح المسمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها فصارت لا تفيد شيئا .

الثالثة: فأما تزكية الغير ومدحه له؛ ففي البخاري من حديث أبي بكرة أن رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويحك قطعت عنق صاحبك" - يقوله مرارا - إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيه الله ولا يزكي على الله أحدا" فنهى صلى الله عليه وسلم أن يفرط في مدح الرجل بما ليس فيه فيدخله في ذلك الإعجاب والكبر، ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة فيحمله ذلك على تضييع العمل وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "ويحك قطعت عنق صاحبك". وفي الحديث الآخر "قطعت ظهر الرجل" حين وصفوه بما ليس فيه. وعلى هذا تأول العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: "احثوا التراب في وجوه المداحين" إن المراد به المداحون في وجوههم بالباطل وبما ليس فيهم، حتى يجعلوا ذلك بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنونه؛ فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر الحمود ليكون منه ترغيبا له في أمثاله وتحريضا للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحا بما تكلم به من جميل القول فيه. وهذا راجع إلى النيات {والله يعلم المفسد من المصلح}. وقد مدح صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يحث في وجوه المداحين التراب، ولا أمر بذلك. كقول أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وكمدح العباس وحسان له في شعرهما، ومدحه كعب بن زهير، ومدح هو أيضا أصحابه فقال: "إنكم لتقلون عند

الطمع وتكثرون عند الفزع". وأما قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولوا: عبدالله ورسوله" فمعناه لا تصفوني بما ليس في من الصفات تلتمسون بذلك مدحي، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا. وهذا يقتضي أن من رفع أمرا فوق حده وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتد آثم؛ لأن ذلك لو جاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: { وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا } الضمير في "يظلمون" عائد على المذكورين ممن زكى نفسه وممن يزيه الله عز وجل. وغير هذين الصنفين علم أن الله تعالى لا يظلمه من غير هذه الآية. والفتيل الخيط الذي في شق نواة التمرة؛ قال ابن عباس وعطاء ومجاهد. وقيل: القشرة التي حول النواة بينها وبين البصرة. وهذا كله يرجع إلى كناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأن الله لا يظلمه شيئا. ومثل هذا في التحقير قوله تعالى: { وَلَا يُظَلِّمُونَ تَقِيرًا } وهو النكتة التي في ظهر النواة، ومنه تنبت النخلة. ثم عجب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال: { انظُرْ كَيْفَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل: تزكيتهم لأنفسهم؛ عن ابن جريج. وروي أنهم قالوا: ليس لنا ذنوب إلا كذنوب أبنائنا يوم تولد. والافتراء الاختلاق؛ ومنه افترى فلان على فلان أي رماه بما ليس فيه. وفريت الشيء قطعته. { وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا } نصب على البيان. والمعنى تعظيم الذنب وذمه. العرب تستعمل مثل ذلك في المدح والذم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا، مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ، آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا، مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } فهم أوتوا الكتاب، فليس غريبا عليهم هذا الهدى. والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم. فليس غريبا عليهم كذلك. وهو مصدق لما معهم. ولو كان الإيمان بالبينة، أو بالأسباب الظاهرة، لآمنت يهود أول من آمن. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح، وكانت لها أحقاد وعناد، وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة الرقبة، كما تعبر عنهم التوراة بأهم: «شعب الرقبة!». ومن ثم لم تؤمن. ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي: { مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا. أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ. وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا }. وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها وردها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقري. وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم ويكون كذلك

اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قرده وخنازير. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب. والكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضلال، طمس للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد.

وسواء كان هذا هو المقصود أو ذلك، فهو التهديد الرعب العنيف الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة! وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد كعب الأبحار فأسلم. أخرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي معلم كعب، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة. فإذا تال يقرأ القرآن يقول: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَنْزِلُهَا عَلَىٰ أَذْبَانِهَا} فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأمس وجهي مخافة أن أطمس! ثم أسلمت.

والتعقيب على هذا التهديد: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} فيه تأكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود! ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديدا آخر في الآخرة. تهديدا بعدم المغفرة لجرمة الشرك. مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}. وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد. ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركا. وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم: {عزيز ابن الله} كقول النصارى {المسيح ابن الله}. وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم {اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}. وهم لم يكونوا يعبدون الأبحار والرهبان، إنما كانوا -فقط- يقرون لهم بحق التشريع، حق التحليل والتحریم. الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية. ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين. ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان.

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد. والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك -لمن يشاء- ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم. ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركا به لم يرجع في الدنيا عن شركه. إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد. فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون، مقطوعو الصلة بالله رب العالمين. وما تشرك النفس بالله، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا - وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل - ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية. إنما تفعله وقد فسدت فسادا لا رجعة فيه! وتلفت فطرته التي

برأها الله عليها، وارتدت أسفل سافلين، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم! أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر، والظلم العظيم الوقح الجاهر، أما ما وراء ذلك من الذنوب - والكبائر - فإن الله يغفره - لمن يشاء - فهو داخل في حدود المغفرة - بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة- ما دام العبد يشعر بالله ويرجو مغفرته ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه. وهذا منتهى الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفذ ولا تحد والمغفرة التي لا يوصد لها باب ولا يقف عليها بواب! أخرج البخاري ومسلم، كلاهما عن قتيبة، عن جرير بن عبد الحميد، عن عبد العزيز بن رفيع، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر، قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده، وليس معه إنسان. قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر. فالتفت فرآني. فقال: «من هذا؟» فقلت: أبوذر- جعلني الله فداك. قال: «يا أبا ذر تعال!» قال: فمشيت معه ساعة. فقال لي: «إن الكثيرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرا، فجعل يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرا». قال: فمشيت معه ساعة، فقال لي: «اجلس هاهنا». فأجلسني في قاع حوله حجارة. فقال لي: «اجلس هاهنا حتى أرجع إليك». قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه. فلبث عني، حتى إذا طال اللبث.. ثم إني سمعته وهو مقبل يقول: «وإن زني وإن سرق» قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله - جعلني الله فداك- من تكلمه في جانب الحرة؟ فإني سمعت أحدا يرجع إليك. قال: «ذلك جبريل، عرض لي جانب الحرة، فقال: «بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة». قلت أيا جبريل «وإن سرق وإن زني؟». قال: «نعم». قلت: «وإن سرق وإن زني؟» قال: «نعم. وإن شرب الخمر». وأخرج ابن أبي حاتم - بإسناده- عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من نفس تموت، لا تشرك بالله شيئا، إلا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها. إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

وأخرج ابن أبي حاتم - بإسناده - عن ابن عمر قال كنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نشك في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقاذف المحصنات، وشاهد الزور حتى نزلت: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» فأمسك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة! وروى الطبراني - بإسناده - عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «قال الله عز وجل: من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي. ما لم يشرك بي شيئا».

وفي هذا الحديث الأخير لمحة كاشفة. فالمهم هو شعور القلب بالله على حقيقته - سبحانه - ومن وراء هذا الشعور الخيز والرجاء والخوف والحياء. فإذا وقع الذنب، فمن ورائه هذه السمات تؤهل للتقوى وتؤهل للمغفرة. ثم يمضي القرآن - وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة - يعجب من أمر هؤلاء الخلق الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ويتنون على أنفسهم ويؤكدونها بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتطاولون على

الله ورسوله وبينما هم يؤمنون بالجبت والطاغوت كاذبين على الله في تركيتهم لأنفسهم، وفي زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من سوء! {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ؟ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ! وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا}. ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم. وقد اختارهم الله فعلا لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان وأهلك لهم فرعون وملائه، وأورثهم الأرض المقدسة، ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله وعتوا في الأرض عتوا كبيرا، واجتروا السيئات التي تضح منها الأرض، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم، واتبعوهم ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه عمليا- بهذا التحريم والتحليل- وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم. وبذلك اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله. وأكلوا الربا، ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله عليهم. وعلى الرغم من ذلك كله - وغيره كثير- فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه. وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هودا! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله- تعالى عن ذلك علوا كبيرا- فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهج الله. فمن أحل بهذا فقد غضب الله عليه. ويشتد غضبه إذا كان قد أتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه! وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرج لهم اليهود من أرضهم، بينما هم ينسلخون انسلخا كاملا من دين الله الذي هو منهجه للحياة فينبذونه من حياتهم ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لا في أفضيتهم ولا في اقتصادهم، ولا في اجتماعهم، ولا في آدابهم، ولا في تقاليدهم. وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! وقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة! والله يعجب رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم. وأمر «المسلمين» المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجب والتعجب!! إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله. إنما الله هو الذي يزكي من يشاء. فهو أعلم بالقلوب والأعمال. ولن يظلم الناس شيئا، إذا هم تركوا هذا التقدير لله- سبحانه- واتجهوا إلى العمل لا إلى الادعاء. فلئن عملوا - وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله، وبدون تركية ولا ادعاء، فلن يغبنوا عند الله ولن ينسى لهم عمل ولن يبخس لهم حق.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال أبو جعفر بن جرير: معنى {الحمد لله} الشكر لله خالصاً دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغداً هم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا.

وقال ابن جرير: {الحمد لله} ثناء أثني به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: {الحمد لله}. قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر. وقد نقل السلمي هذا المذهب أهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: {الحمد لله} كلمة كل شاكر. وقد استدلل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: {الحمد لله} شكرًا. وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه، لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه، لأنه يكون بالقول والعمل والنية، وهو

أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمّدت الرجل أحده حمداً ومحمّدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح. وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللमित وللحماد أيضاً، كما يُمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم.

ذكر أقوال السلف في الحمد: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال عمر: قد عَلِمْنَا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رضيها الله لنفسه. ورواه غير أبي مَعْمَر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال. وقال علي بن زيد بن جُدَعَانَ، عن يوسف بن مِهْرَانَ، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي. رواه ابن أبي حاتم. وروى - أيضاً - هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك. وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكّوني، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك. وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي، تبارك وتعالى؟ فقال: أما إن ربك يحب الحمد. وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله. وقال الترمذي: حسن غريب. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ. وقال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أن الدنيا بخذا فيرها في يد رجل من أمّتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك. قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: {المال والبُنُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً} [الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم: أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم

سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا يا رب، إن عبدا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله- وهو أعلم بما قال عبده-: ماذا قال عبدي؟ قالوا يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بما".

وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين أفضل من قول لا إله إلا الله؛ لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد. وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: "اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله" الحديث.

{رَبِّ الْعَالَمِينَ} والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم. والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات والأرض، في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضًا. قال بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذي له الخلق كله، السماوات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم. وفي رواية سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد وابن جريح، وروي عن علي نحوه. وقال ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه. واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجدد ويلقب بالحمار - أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السماوات، وأهل الأرض عالم واحد، وسائر ذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى {رب العالمين}، قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب بن سمي، عن تبيع، يعني الحميري، في قوله: {رب العالمين}، قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وحكى مثله عن سعيد بن المسيب. وقد روي نحو هذا مرفوعا. كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثني في مسنده: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد،

حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قلّ الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه، فلم يُخبر بشيء، فاعتم لذلك، فأرسل راكبا يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رأي من الجراد شيء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "خلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه". محمد بن عيسى هذا- وهو الهلالي- ضعيف. وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: الله ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وقال وهب بن منبه: الله ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: العالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوي، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن الله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها^{١٥}. وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: { قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ }.

ويقول الإمام القرطبي:

الباب الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين وفيه ست وثلاثون مسألة:

الأولى- قوله سبحانه وتعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ } روى أبو محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ". وفي "نوادير الأصول" عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بخذا فيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أعطي الدنيا ثم أعطي على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هي من الباقيات الصالحات، قال الله تعالى: { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً } [مریم: ٧٦]. وقيل في بعض الروايات: لكان ما أعطى أكثر مما أخذ. فصيّر الكلمة إعطاء من العبد، والدنيا أخذاً من الله فهذا في التدبير. كذلك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من

¹⁵ هذه نماذج لما تذخر به كتب التفسير من غريب القول، ذكرناه للعلم بالشيء

العبد والدنيا من الله، وكلاهما من الله في الأصل، الدنيا منه والكلمة منه، أعطاه الدنيا فأغناه وأعطاه الكلمة

فشرفه بها في الآخرة. وروي عن مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطهور

شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث.

.....

الثالثة: أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان، فدل على أن الإيمان فعله وخلقه والدليل على ذلك قوله: **{رب العالمين}**. والعالمون جملة المخلوقات ومن جملتها الإيمان.

الرابعة: الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه، إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء. فالحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد. والحمد أعم من الشكر، والحمد الذي كثرت خصال الحمودة. وبذلك سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحمدة خلاف المذمة. وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد. وأحمدته: وجدته محمودا، تقول: أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه. وحمدة النار - بالتحريك - : صوت التهاجما.

الخامسة: ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء وليس بمرضي. وحكاة أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه لأن قولك شكرا إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم. وقال بعض العلماء: إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالحوارج والقلب، والحمد إنما يكون باللسان خاصة. وقيل: الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاعر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله (!) وقال الله لنوح عليه السلام: **{فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّأْنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [المؤمنون: ٢٨]، وقال إبراهيم عليه السلام: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}** [إبراهيم: ٣]، وقال في قصة داود وسليمان: **{وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}** [النمل: ١٥]، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: **{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}** [الإسراء: ١١١]، وقال أهل الجنة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ}** [فاطر: ٣٤]، **{وَأَجْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [يونس: ١٠]. فهي كلمة كل شاعر.

قلت: الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أُولى من الإحسان. وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفاً، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر. ويذكر الحمد بمعنى الرضا، يقال: بلوته فحمدته، أي رضيته؛ ومنه قوله تعالى: {مَقَامًا حَمْدًا} [الإسراء: ٧٩].

السادسة: أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]. فمعنى {الحمد لله رب العالمين} أي سبق الحمد مني لنفسي أن يحمد نفسه أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعله، وحمدي الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فُيَسْتَقْبَحُ من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستحلب لها المنافع ويدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل، فاستفراغ طوق عباده هو محمل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصي ثناء عليك". وقيل: حمد نفسه في الأزل لما علم من كثره نعمه على عباده وعجزهم على القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهناً لديهم، حيث أسقط به ثقل المنة.

السابعة: وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من {الحمد لله}. قال سيبويه: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمداً، إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وفي الحديث: "من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه وثناءه عليها ليعلم ذلك عباده، فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبري: {الحمد لله} ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك.

الثامنة: قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} أي مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، فالرب: المالك. وفي الصحاح: والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة. والرب: السيد، ومن قوله تعالى: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢]. والرب: المصلح والمدبر والخابر والقائم. قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربه يربه فهو رب له ورب، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب.

التاسعة: قال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن كما في آخر "آل عمران" وسورة "إبراهيم" وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلاة بين الرب والمربوب مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال.

العاشرة: متى أدخلت الألف واللام على "رب" اختص الله تعالى به، لأنها للعهد وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال: الله رب العباد وزيد رب الدار فالله سبحانه رب الأرباب يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده وإنما يملك شيئا دون شيء وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين.

قوله تعالى: **{الْعَالَمِينَ}** اختلف أهل التأويل في **{العالمين}** اختلافا كثيرا، فقال قتادة: العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم. وقيل: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: **{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ}** [الشعراء: ١٦٥]. وقال ابن عباس: العالمون الجن والإنس، دليله قوله تعالى: **{ليكون للعالمين نذيرا}** [الفرقان: ١] ولم يكن نذيرا للبهائم. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عمّن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين. ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهو معنى قول ابن عباس أيضا: كل ذي روح دب على وجه الأرض. وقال وهب بن منبه: إن الله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها. وقال أبو سعيد الخدري: إن الله أربعين ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد. وقال مقاتل: العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البر وأربعون ألف عالم في البحر. وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: الجن عالم والإنس عالم وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قلت: والقول الأول أصح هذه الأقوال، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى: **{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}** [الشعراء: ٢٣] ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجدته. كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العلم والعلامة والمعلم: ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا وهذا واضح. وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد: الحمد لله، فقال له: أتمها كما قال الله، قل رب العالمين. فقال الرجل: ومن العالمين حتى تُذكر مع الحق؟ قال: قل يا أحيي؟ فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء. وفي كل لحظة وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان. ومن ثم كان الحمد لله ابتداء، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر: **{وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ}**. ومع هذا يبلغ من فضل الله سبحانه وفيضه على عبده المؤمن أنه إذا قال: الحمد لله كتبها له حسنة ترجح كل الموازين. والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله - كما أسلفنا - أما شطر الآية الأخير: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** فهو

يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية، والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية. والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين - أي جميع الخلائق - والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملاً. إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه. وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين. والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة. والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغيب الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة. وكثيراً ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة. ولقد يبدو هذا غريباً مضحكاً. ولكنه كان وما يزال. ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة: **{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }**. وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة، بوصفها أرباباً صغاراً تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون! فإطلاق الربوبية في هذه السورة، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد، تقر له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة، ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة، وإلى أن هذه الرعاية لا تنقطع أبداً ولا تفتر ولا تغيب. لقد جاء الإسلام وفي العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار، يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف، والدين بالخرافة، والفلسفة بالأسطورة. والضمير الإنساني تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون، ولا يستقر منها على يقين.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

{ فَاقْطِعْ ذَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) }

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء؛ ولهذا قال: **{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ }** أي: أتاكم هذا أو هذا **{ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }** أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه؛ ولهذا قال: **{ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }** أي: في اتخاذكم آلهة معه. **{ بَلَى }**

إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} الآية [الإسراء: ٦٧].

وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ} يعني: الفقر والضييق في العيش {وَالضَّرَّاءِ} وهي الأمراض والأسقام والآلام {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.

قال الله تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا} أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا إلينا {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} أي: ما رقت ولا خشعت {وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: من الشرك والمعاصي. {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}، أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم {فَتَحْنَأْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} أي: فتحنأ عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذا بالله من مكره؛ ولهذا قال: {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا} أي: من الأموال والأولاد والأرزاق {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} أي: على غفلة {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} أي:

آيسون من كل خير. قال الوالي، عن ابن عباس: المبلس: الآيس. وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير

أنه يمكر به، فلا رأي له؛ ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}. وقال قتادة: بَغَتِ الْقَوْمُ أَمْرَ اللَّهِ،

وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرهم ونعيمهم فلا تغتروا بالله، إنه لا يعتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه

ابن أبي حاتم أيضا. وقال مالك، عن الزهري: {فَتَحْنَأْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} قال: إرخاء الدنيا وسترها. وقد قال

الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين - يعني ابن سعد أبا الحجاج المهري - عن حزملة بن عمران

التَّجِيبِي، عن عُقْبَةَ بن مسلم، عن عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ

الدنيا على معاصيه ما يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ". ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

فَتَحْنَأْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا

أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عَزَّكَ بن خالد بن يزيد، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن عبادة بن

الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ بَقَاءَ -

أَوْ: نَمَاءَ - رَزَقَهُمُ الْقَصْدَ وَالْعَفَافَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعًا فَتَحَ لَهُمْ - أَوْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ - بَابَ خِيَانَةٍ". {حَتَّىٰ إِذَا

فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}، كما قال: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ}

ويقول الإمام القرطبي:

٤٥ - {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

قوله تعالى: **{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}**، **{لَوْلَا}** تخصيص، وهي التي تلي الفعل بمعنى هلا؛ وهذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا حين نزول العذاب. ويجوز أن يكونوا تضرعوا تضرع من لم يخلص، أو تضرعوا حين لا بسهم العذاب، والتضرع على هذه الوجوه غير نافع. والدعاء مأمور بحال الرخاء والشدة؛ قال الله تعالى: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** وقال: **{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}** أي دعائي **{سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}** وهذا وعيد شديد. **{وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ}** أي صلبت وغلظت، وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية. **{وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** أي أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها. قوله تعالى: **{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}** يقال: لم ذموا على النسيان وليس من فعلهم؟ فالجواب: أن **{نَسُوا}** بمعنى تركوا ما ذكروا به، وذلك لأن التارك للشيء إعراضا عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي، كما يقال: تركه، في النسي. جواب آخر: وهو أنهم تعرضوا للنسيان فجازاز الدم لذلك؛ كما جازاز الدم على التعرض لسخط الله عز وجل وعقابه. **{فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}** أي من النعم والخيرات، أي كثرنا لهم ذلك. **{حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا}**، معناه بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك العطاء لا يبديد، وأنه دال على رضا الله عز وجل عنهم **{أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً}** أي استأصلناهم وسطونا بهم. و**{بَغْتَةً}** معناه فجأة، وهي الأخذ على غرة ومن غير تقدم أمانة؛ فإذا أخذ لإنسان وهو غار غافل فقد أخذ بغتة، وأنكى شيء ما يُفجأ من البغت؛ فكان ذلك استدراجا من الله تعالى كما قال: **{وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ}** نعوذ بالله من سخطه ومكره. قال بعض العلماء: رحم الله عبدا تدبر هذه الآية **{حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً}**. وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه؛ وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه.

قوله تعالى: **{فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}** المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جوابا لشدة ما نزل به من سوء الحال.

قوله تعالى: **{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا}** الدابر الآخر؛ يقال: دبر القوم يدبرهم دبرا إذا كان آخرهم في الجيء. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود "من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا" أي في آخر الوقت؛ والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية. قال قطرب: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا. قال أمية بن أبي الصلت: فأهلكوا بعذاب حص دابريهم فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور.

قوله تعالى: **{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** قيل: على إهلاكهم، وقيل: تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه. وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم، لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم، مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وهم خزنة الجنة وخزنة النار، يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَىٰ! وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيمَا نُفِئْتُمُ الْمُنَكِّبِينَ. وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}. {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى: فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله يتابعونهم ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم ويتوفونهم إذا جاء أحلهم: {وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}.

فهذا المجال الفسيح الذي تتصل فيه حياة البشر بهذا الملاء الأعلى، هو فسحة في التصور، وفسحة في إدراك حقائق هذا الوجود، وفسحة في الشعور، وفسحة في الحركة النفسية والفكرية، يتيحها التصور الإسلامي للمسلم والقرآن يعرض عليه هذا المجال الفسيح، وعالم الغيب المتصل بما هو فيه من عالم الشهود.

{فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)}

هنا- في هذه الموجة- يواجه السياق القرآني فطرة المشركين ببأس الله. بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله. حين تتعري من الركام في مواجهة الهول، وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة وتتجه من فورها إلى ربها الذي تعرفه في قرارها تسأله وحده الخلاص والنجاة! ثم يأخذ بأيديهم ليقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم، وفي الطريق يريهم كيف تجري سنة الله، وكيف يعمل قدر الله. ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم، بعد تكذيبهم برسول الله، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء؛ الابتلاء بالبأساء والضراء، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء، وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة، لينتبهوا من الغفلة، حتى إذا استنفدوا الفرص كلها، وغرهم النعمة بعد أن لم توظفهم الشدة، جرى قدر الله، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة: {فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة يونس:

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)}

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون "الباء" هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} قال: يكون لهم نورا يمشون به. وقال ابن جرير: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عمك، فيجعل له نورا من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح متنتة فيلازم صاحبه ويلازمه حتى يقذفه في النار.

وقوله: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جرير: أُخْبِرْتُ أَنْ قَوْلَهُ: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} قَالَ: إِذَا مَرَّ بِهَمُ الطَّيْرِ يَشْتَهُونَهُ، قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَذَلِكَ دَعْوَاهُمْ فَيَأْتِيهِمُ الْمَلِكُ بِمَا يَشْتَهُونَهُ، فَيَسْلَمُ عَلَيْهِمْ، فَيُرَدُّونَ عَلَيْهِ. فَذَلِكَ

قوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: {وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحيفة من ذهب، فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن. وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}. (!)

وقوله: {وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [الكهف: ١]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال؛ ولهذا جاء في الحديث: "إن أهل الجنة يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما يُلْهَمُونَ النَّفْسَ" وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٠ {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قوله تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} دعواهم: أي دعاؤهم؛ والدعوى مصدر دعا يدعو، كالشكوى مصدر شكا يشكو؛ أي دعاؤهم في الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم، وقيل: إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد. وقيل: ندأؤهم الخدم ليأتوهم بما شاؤوا ثم سبحوا. وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التمني، قال الله تعالى {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ} [فصلت: ٣١] أي ما تتمنون. والله أعلم. {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} أي تحية الله لهم، أو تحية الملك، أو تحية بعضهم لبعض: سلام.

قوله تعالى: {وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

فيه أربع مسائل:

الأولى: قيل: إن أهل الجنة إذا مر بهم الطير واشتهوه قالوا: سبحانك اللهم؛ فيأتيهم الملك بما اشتهووا، فإذا أكلوا حمدوا الله فسؤالهم بلفظ التسبيح والختم بلفظ الحمد.

الثانية: التسبيح والحمد والتهليل قد يسمى دعاء؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم". قال الطبري: كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب. وقال ابن عيينة وقد سئل عن هذا فقال: أما علمت أن الله تعالى يقول "إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين". والذي يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناء عليه ما رواه النسائي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعوة ذي النون إذا دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استحيب له".

الثالثة: من السنة لمن بدأ بالأكل أن يسمي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها".

الرابعة: يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين؛ وحسن أن يقرأ آخر "والصافات" فإنها جمعت تنزيه الباري تعالى عما تُسب إليه، والتسليم على المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}

إن ربكم الذي يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق، الذي خلق السماوات والأرض. خلقها في تقدير وحكمة وتديبر: {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها وتنسيقها وتهيئتها لما أَرَادَهُ اللهُ. ولا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة. فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها. إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية. وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله، الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر. فعلى أن نقف عنده ولا نتعدها. والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام، الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} والاستواء على العرش كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة، باللغة التي

يفهمها البشر ويتمثلون بها المعاني، على طريقة القرآن في التصوير. و«ثم» هنا ليست للتراخي الزمني، إنما هي للبعد المعنوي. فالزمان في هذا المقام لا ظل له. وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه ثم كانت، فهو سبحانه منزّه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان. لذلك نجزم بأن «ثم» هنا للبعد المعنوي ونحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التي يحق فيها للعقل البشري أن يحكم ويجزم. لأننا نستند إلى قاعدة كلية في تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات، وعن مقتضيات الزمان والمكان.

{يُدَبِّرُ الْأُمْرَ} ويقدر أوائله وأواخره، وينسق أحواله ومقتضياته، ويرتب مقدماته ونتائجه، ويختار الناموس الذي يحكم خطواته وأطواره ومصائره. {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} فالأمر كله له، والحكم كله إليه. وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى. وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة، وفقا لتدبيره وتقديره، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح، لا بمجرد التوسل بالشفعاء. {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ} الخلق بالربوبية {فَاعْبُدُوهُ} فهو الذي يستحق الدينونة له دون سواه. {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكّر لهذه الحقيقة المعروفة.

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بما كانوا يَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ. وَنَحْيَيْتُهُمْ فِيهَا سَلَامًا. وَأَخْرَجْنَا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} إن الذين لا يتدبرون النظام الكوني الموحي بأن لهذا الكون خالقا مدبرا، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام، يتم فيها تحقيق القسط والعدل كما يتم فيها إبلاغ البشرية إلى آفاقها العليا. ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا، بما فيها من نقص وهبوط، ويرضونها ويستغفرون فيها، فلا ينكرون فيها نقصا، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر وهم يغادرونها لم يستوفوا كل جزائهم على ما عملوا من خير أو اجترحوها من شر، ولم يبلغوا الكمال الذي تهيئهم له بشرتهم، غافلين عن آيات الله الكونية التي توقظ القلب، وترفع الحس، وتحفز إلى التطلع والكمال، {أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بما كانوا يَكْسِبُونَ}. وبئس المصير! وفي الضفة الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات. الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان، تحقيقا لأمر الله بعمل الصالحات، وانتظارا للآخرة الطيبة، وطريقها هو الصالحات، هؤلاء {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذي يصل ما بينهم وبين الله، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق، ويهديهم إلى الخير بوحى من حساسية الضمير وتقواه، هؤلاء يدخلون الجنة. إن أقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه {دعواهم} هو تسييح الله أولا وحمده أخيرا، يتخلل هذا وذاك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبين ملائكة الرحمن: {دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ. وَنَحْيَيْتُهُمْ فِيهَا سَلَامًا}.

وَأَخِرُّ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها والارتفاع عن ضرورتها وحاجاتها، والرغبة في آفاق الرضى والتسبيح والحمد والسلام. تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الصافات:

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)}

يقول الإمام ابن كثير:

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدها ويرثها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علوا كبيرا- ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}، أي: ذي العزة التي لا ترام، {عَمَّا يَصِفُونَ} أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين. {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربه، وصحته وحقيقته. {وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين". وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سلم قال: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ثم يسلم. إسناده ضعيف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا شابة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يكتب بالملكيات الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}."

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٨٠ {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ} نزه سبحانه نفسه عما أضاف إليه المشركون. {رَبِّ الْعِزَّةِ} على البدل. ويجوز النصب على المدح، والرفع بمعنى هو رب العزة. {عَمَّا يَصِفُونَ} أي من الصاحبة والولد. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى "سبحان الله" فقال: "هو تنزيه الله عن كل سوء".

الثانية: سئل محمد بن سحنون عن معنى {رَبِّ الْعِزَّةِ} لم جاز ذلك والعزة من صفات الذات، ولا يقال رب القدرة ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ فقال: العزة تكون صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: {قَلِيلَ الْعِزَّةِ جَمِيعًا}، وصفه الفعل نحو قوله: {رَبِّ الْعِزَّةِ} والمعنى رب العزة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير إن العزة ها هنا يراد بها الملائكة. قال: وقال بعض علمائنا: من حلف بعزة الله فإن أراد عزته التي هي صفته فحنت فعلية الكفارة، وإن أراد التي جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه. قلت: وعلى الوجهين فلا كفارة إذا نواها الحالف.

الثالثة: روي من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل أن يسلم: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ} إلى آخر السورة؛ ذكره التعليق. قلت: قرأت على الشيخ الإمام المحدث الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمرو الكري بالجزيرة قبالة المنصورة من الديار المصرية، قال أخبرتنا الحرة أم المؤيد زينب بنت عبدالرحمن بن الحسن الشعري بنيسابور في المرة الأولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال حدثنا أبو الحسن عبدالقادر بن محمد الفارسي، قال حدثنا أبو سهل بشر بن أحمد الإسفرايني، قال حدثنا أبو سليمان داود بن الحسين البيهقي، قال حدثنا أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عبدالرحمن التميمي النيسابوري، قال حدثنا هشيم عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

الرابعة: قوله تعالى: {وسلام على المرسلين} أي الذين بلغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة. وقيل: معنى وسلام على المرسلين، أي أمن لهم من الله جل وعز يوم الفزع الأكبر. {والحمد لله رب العالمين} أي على إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين، وقيل: أي على جميع ما أنعم الله به على الخلق أجمعين، وقيل: أي على هلاك المشركين،

دليله: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}؛ قلت: والكل مراد والحمد يعم ومعنى يصفون يكذبون والتقدير عما يصفون من الكذب.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}

والوعد واقع وكلمة الله قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار، وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت نحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون. هذه بصفة عامة. هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية. سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان وكما تنبت الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء. ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء. ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين! ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله. ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى. فيكون ما يريد الله. ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون.. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الراجحة الهينة وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة. وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام. وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام. وعند إعلان هذا الوعد القاطع، وهذه الكلمة السابقة، يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم، ويدعهم لوعده الله وكلمته، ويترب لبيصرهم وقد حقت عليهم الكلمة، ويدعهم لبيصروا ويروا رأى العين كيف تكون: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. أَفَعِزَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ. وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، فتول عنهم، وأعرض ولا تحفلهم ودعهم لليوم الذي تراهم فيه ويرون هم ما ينتهي إليه وعد الله فيك وفيهم وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا، فياويلهم يوم ينزل بهم. فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء، وقد قدم له النذير.

ويختتم السورة بتنزيه الله سبحانه واختصاصه بالعزة. وبالسلام من الله على رسله. وإعلان الحمد لله الواحد رب العالمين بلا شريك. {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وهو الختام المناسب لموضوعات السورة. الملخص للقضايا التي عالجتها السورة.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر:

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)}

يقول الإمام ابن كثير:

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محذقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدمونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} أي: بين الخلائق {بِالْحَقِّ}، ثم قال: {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمه - لله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١] واحتتم بالحمد في قوله: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٧٥] {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين: {وَسِيقَ} بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى

دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين. **{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ}** قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قال المبرد: أي سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب. وقال الزجاج: **{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا}** دخلوها وهو قريب من الأول. وقيل: الواو زائدة. قال الكوفيون وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله: **{جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ}** وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. قال النحاس: فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار: **{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}** دل بهذا على أنها كانت مغلقة، ولما قال في أهل الجنة: **{حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}** دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيؤوها؛ والله أعلم. وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية، قال أبو بكر بن عياش؛ قال الله تعالى: **{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ}** وقال: **{وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ كُلُّبُهُمْ}** وقال **{نَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}** وقد مضى القول في هذا في {براءة} مستوفى وفي {الكهف} أيضاً. قوله تعالى: **{وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا}** قيل: الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها **{وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ}** أي في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش والمعنى واحد. وقال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}** بمعنى التحية **{طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}**. قلت: خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فولذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا"** وحكى النقاش: **إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداها فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}**، ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها **(!): {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}** وهذا يُروى معناه عن علي رضي الله عنه.

قوله تعالى: **{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ}** أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا. **{وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ}** أي أرض الجنة، قيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين وقيل: إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير. **{فِعْمَ أَجْرِ الْعَامِلِينَ}** قيل: هو من قولهم أي نعم الثواب هذا. وقيل: هو من قول الله تعالى؛ أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم.

قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ} يا محمد {حَافِينَ} أي محققين {مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} في ذلك اليوم {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} متلذذين بذلك لا متعبدين به؛ أي يصلون حول العرش شكرا لربهم. والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه. {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا. وقال قتادة في هذه الآية: افتتح الله أول الخلق بالحمد لله، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} وختم بالحمد فقال: {وَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فلزم الاقتداء به والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا القطع الأخير في السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء، المالك المتصرف في كل شيء. فتبدو دعوة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شيء، وهو المتصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك، فأني يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟! {وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}. ومناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهدا فريدا من مشاهد القيامة، ينتهي بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وينطق الوجود كله بحمده {وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. فتكون هذه هي كلمة الفصل في حقيقة التوحيد.

وكل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورونها. ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة، التي لا تتقيد بشكل، ولا تتحيز في حيز، ولا تتحدد بحدود. ثم يأخذ في مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى، وينتهي بانتهاء الموقف، وسوق أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة. وتفرد الله ذي الجلال. وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد. وهو مشهد رائع حافل، يبدأ متحركا، ثم يسير وثيدا، حتى تهدأ كل حركة، وتسكن كل نامة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت، ورهبة الخشوع، بين يدي الله الواحد القهار! {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا. حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا قُتِبَتْ أَبْوَابُهَا} واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا. قَالُوا بَلَىٰ. وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}. فالموقف موقف إذعان وتسليم لا موقف

مخاصمة ولا مجادلة. وهم مقرون مستسلمون! {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا. فَيَسَّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}! ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين. فكيف ركب الجنة؟ ركب المتقين؟ {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا. حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ. فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ} فهو الاستقبال الطيب، والثناء المستحب، وبيان السبب. {طِبْتُمْ} وتطهرتم. كنتم طيبين وجتتم طيبين. فما يكون فيها إلا الطيب. وما يدخلها إلا الطيبون. وهو الخلود في ذلك النعيم. هنا تهنيم أصوات أهل الجنة بالتسبيح والتحميد: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ، وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ، نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}. فهذه هي الأرض التي تستحق أن تورث. وهم يسكنون فيها حيث شاءوا، وينالون منها الذي يريدون، {فَنِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ}. ثم يجتم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله، وما يجتم سورة التوحيد أنسب ختام والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام. وكلمة الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَفُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة غافر:

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)}

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} أي: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لغلا تميد بكم، {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} أي: سقفا للعالم محفوظا، {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ} أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من المأكول والمشرب في الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق، فهو الخالق الرازق، كما قال في سورة البقرة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١ ، ٢٠] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: هو الحي أزلا وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: لا نظير له ولا عديل له، {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: "لا إله إلا الله" أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: من قال: "لا إله إلا الله" فليقل على أثرها: "الحمد لله رب العالمين" فذلك قوله تعالى: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جبیر قال: إذا قرأت: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ١٤]، فقل: "لا إله إلا الله" وقل على أثرها: "الحمد لله رب العالمين" ثم قرأ هذه الآية: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويقول الإمام القرطبي:

{هُوَ الْحَيُّ} أي الباقي الذي لا يموت {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي مخلصين له الطاعة والعبادة. {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال الفراء: هو خير وفيه إضمار أمر أي ادعوه واحمدوه.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ؟ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان. والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك. وهي تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم، ومع رزق الله لهم من الطيبات. وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله. فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق. إن بناء الكون على القاعدة التي بناه الله عليها، ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة في هذه الأرض ونموها وارتقائها، كما أنه هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته. وهو الذي جعل الليل مسكناً له وراحة واستجماماً، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية والحركة، والأرض قراراً صالحاً

للحياة والنشاط، والسماء بناء متماسكا لا يتداعى ولا ينهار، ولا تختل نسبه وأبعاده. وهو الذي سمح بأن تكون هناك طبيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتنبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان، الذي صوره الله فأحسن صورته، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون، الصالحة للظروف التي يعيش فيها مرتبطا بهذا الوجود الكبير. فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد بهذا الترابط. ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق. ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصا له الدين، هاتفا: الحمد لله رب العالمين. ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبدهه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلها. وهو الله. رب العالمين. فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟

{هُوَ الْحَيُّ}، أجل هو وحده الحي. الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة، وغير مبتدئة ولا منتهية، وغير حائلة ولا زائلة. وغير متقلبة ولا متغيرة. وما من شيء له هذه الصفة من الحياة. سبحانه هو المتفرد بالحياة. وهو المتفرد بالألوهية. بما أنه المتفرد بالحياة. فالحي الواحد هو الله: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}. ومن ثم {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} واحمدوه في الدعاء: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

من قبل أن نبرأها

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحديد:

{اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ وهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها: {أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال: {زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ} {آل عمران: ١٤}. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال: {كَمَثَلِ غَيْثٍ} وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْعَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} {الشورى: ٢٨}. وقوله: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يُعجب الزراع ذلك كذلك تُعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها، {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا، أي: يصير يبسًا متحطمًا، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضا طريًا لين الأعطاف، بجمي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وَيَنْفَدُ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} {الروم: ٥٤}. ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير، فقال: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ} أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما

مغفرة من الله ورضوان. وقوله: **{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ}** أي: هي متاع فان غار لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير ووكيع، كلاهما عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"**؛ انفراد بإخراجه البخاري في "الرقاق"، من حديث الثوري، عن الأعمش. ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: **{سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: **{وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [آل عمران: ١٣٣]؛ وقال هاهنا: **{أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** أي: **هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنته عليهم وإحسانه إليهم**، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: "وما ذاك؟". قالوا: يُصَلُّونَ كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعْتَقُونَ ولا نُعْتَقُ. قال: **"أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتكم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين"**. قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"**.

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (٢٢) **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** (٢٣) **الَّذِينَ يَبِخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}** (٢٤)

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، فقال: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ}** أي: في الآفاق وفي نفوسكم **{إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}** أي: **من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة**. وقال بعضهم: **{مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}** عائد على النفوس، وقيل: عائد على المصيبة. **والأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها**، كما قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن، فقال رجل: سله عن قوله: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}**، فسألته عنها، فقال: سبحان الله! ومن يشك في هذا؟ **كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة**. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القُدرة تُفاعة العلم السابق-قبحهم الله- وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة وابن لُحَيْعة قالا حدثنا أبو هانئ الخولاني: أنه سمع أبا عبد الرحمن الجُبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول: "قَدَّرَ اللهُ المقاديرَ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسين ألفَ سنةً". ورواه مسلم في صحيحه، من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن يزيد، وثلاثتهم عن أبي هانئ، به، وزاد بن وهب: "وكانَ عرشه على الماء". ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح. وقوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي: أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وقوله: {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان. {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أي: جاءكم، وبقراء: "آتاكم" أي: أعطاكم. وكلاهما متلازمان، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله وورقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح وجزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً. ثم قال: {الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه، {وَمَنْ يَتَوَلَّ} أي: عن أمر الله وطاعته {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيءُ الْحَمِيدُ}، كما قال موسى عليه السلام: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم : 8].

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢٠] {اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}

الآية: [٢١] {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ} وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفاً من لزوم الموت، فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى. و{وَمَا} صلة تقديره: اعملوا أن الحياة الدنيا لعب باطل وهو فرح ثم ينقضي. وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا،

واللهو ما ألهى عن الآخرة، أي شغل عنها. {وَزِينَةٌ} الزينة ما يُتزين به، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله. {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} أي يفخر بعضكم على بعض بما. وقيل: بالخلقة والقوة؛ وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالأباء. وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد"، وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أربع في أمي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب"، الحديث. {وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. وقيل: المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء. ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع في غيث فقال: {كَمَثَلِ غَيْثٍ} أي مطر، {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}، الكفار هنا: الزراع لأنهم يغطون البذر. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يُستحسن. {ثُمَّ يَهِيحُ} أي يجف بعد خضرته {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي متغيرا عما كان عليه من النضرة، {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} أي فتاتا وتبنا فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر. {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي للكافرين، والوقف عليه حسن، وبيئدئ {وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} أي للمؤمنين. وقال الفراء: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ} تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على {شَدِيدٌ}. {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ} هذا تأكيد ما سبق، أي تفر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تهيدا في العمل للدنيا، وترغيبا في العمل للآخرة. قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم. وقيل: سارعوا بالتوبة، لأنها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبي. {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} لو وصل بعضها ببعض. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتهما. والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله. وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه: رأيت قول الله عز وجل: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} فأين النار؟ فقال لهم عمر: رأيتم الليل إذا ولى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزلت بما في التوراة مثله. {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء. وقد قيل: شرط الإيمان هنا وزاد عليه في {آل عمران}، فقال: {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}. {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} أي أن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله. {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

الآية: [٢٢] {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

الآية: [٢٣] {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}

الآية: [٢٤] {الَّذِينَ يَبْنَحُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ}

قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ} قال مقاتل: القحط وقلة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع. {وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ} بالأوصاب والأسقام، قال قتادة. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواه ابن جريج. {إِلَّا فِي كِتَابٍ} يعني في اللوح المحفوظ. {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} الضمير في {نَبْرَأَهَا} عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يخلق المصيبة. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس. {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي خلق ذلك وحفظ جميعه {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} هين. قال الربيع بن صالح: لما أخذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه. قال: فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ} الآية. ولقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة برهم وتوكلا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}. وقد قيل: إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر.

قوله تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق، وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ثم قرأ {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ} أي كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم. {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أي من الدنيا، قال ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخصب. وروى عكرمة عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبيرا، وغنيمته شكرا. والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: {لَا يُحِبُّ كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} أي متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يردده عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت. وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَبْنَحُونَ} أي لا يجب المختالين {الَّذِينَ يَبْنَحُونَ} في موضع خفض نعتا للمختال. وقيل: رفع بابتداء أي الذين يبخلون فالله غني عنهم. وقال سعيد بن جبير: {الَّذِينَ يَبْنَحُونَ} يعني بالعلم {وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} أي بالأعلموا الناس شيئا. زيد بن أسلم: إنه البخل بأداء حق الله عز وجل. وقيل: إنه البخل

بالصدقة والحقوق، قال عامر بن عبدالله الأشعري. وقال طاوس: إنه البخل بما في يديه. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. {وَمَنْ يَتَوَلَّ} أي عن الإيمان {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} غني عنه. ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بما يأمرون الناس بالبخل بما فإن الله غني عنهم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى، ومن خلوص وتجرد، ومن بذل وتضحية، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر، أشبه ما يكون بنسق السور المكية، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الأسر للقلب والحس والمشاعر! وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه، فيها تعريف به مع الإيجاء الأسر بالخلوص له، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة، وسيطرتها المطلقة على الوجود، ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح. {اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)}

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي: تحقيق حقيقة الإيمان في النفس، حتى ينبثق عنها البذل الخالص في سبيل الله. وفيه من موحيات الإيمان، ومن الإيقاعات المؤثرة، قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول، بعد ذلك المطلع العميق المثير. وهو يبدأ برنة عتاب من الله سبحانه للمؤمنين، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي يريدتها الله لهم وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال، وتحذير من هذا المال، الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم، مع إطماعهم في عون الله الذي يحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها. فإذا انتهت هذه اللمسة تبعثها لمسة أخرى - مجالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا، مع بيان ما أعدده الله لمن يقرضونه في الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم. ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة، حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجدل الذي يستحق الاهتمام. ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة، في جنة عرضها كعرض السماء

والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله. ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ما هم فيه من واقع الحياة وأحداثها، فتعلق قلوبهم بقدر الله فيها في السراء والضراء سواء. ومن ثم يهون عليهم البذل، ولا يزدهيهم من أعراض الأرض شيء وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء.

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله في الأرض، تبدو فيه وحدة المنهج، واستقامة الطريق، وأن الذي يجيد عنه في كل عهد هم الفاسقون. ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط. لينتهي من هذا الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله، ليؤتيهم كفلين من رحمته، ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم. ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون، إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات، في خط واحد ثابت، تتوالى إيقاعاتها على القلوب، منوعة ومتشابهة. فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع! {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ. وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان برها، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصّر ويحدّر. عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستحاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكوره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}. وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقايس عن الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}، وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج. إن هذا القلب البشري سريع القلب، سريع النسيان، وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرف كالشعاع فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبدل وقسا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعمت! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبدل والقساوة. ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبدل، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله. فالله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وترخر بالنبت والزهر، وتمنح الأكل والثمار، وكذلك القلوب حين يشاء الله: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض وما يمدّها بالغذاء والري والدفء: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ

الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. ويتبع هذه اللمسة المحيية، وذلك العتاب المخجل، وذلك التذكير والتحذير، بحافز جديد للبذل والغداء: {إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ، وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}. إن المتصدقين والمتصدقات لا يفضلون على آخذي الصدقات، ولا يتعاملون في هذا مع الناس، إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه. فأبي حافر للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد، وأنه يتعامل مع مالك الوجود؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا وأن له بعد ذلك كله أجرا كريما؟ ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة. ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراده، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة. فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع في هذا المقام الرفيع، ولا حرج على فضل الله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، وتلك خاصية هذا الدين وميزته. إنه طريق مفتوح لجميع البشر، وأفق يتطلع إليه الجميع، ليس فيه احتكار للمقامات، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم. وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات. إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام! روى الإمام مالك في كتابه «الموطأ» عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهل الجنة ليتراؤن أهل الغرف من فوقهم كما تتراؤن الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

واللمسة الثالثة في هذا الشوط تحيي تعقيا على دعوة الإيمان والبذل، ودعوة الغداء والتضحية. تعقيا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها، وتعلقها بالآخرة وقيمها: {اغْلَمُوا أَنَّمَا الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا. وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ. وَمَا الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا. ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها. وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة! لعب، وهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر. هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل. ثم يمضي يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}، والكفار هنا هم الزارع، فالكافر في اللغة هو الزارع، يكفر، أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب. ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا! {ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} للحصاد؛ فهو موقوت الأجل، ينتهي عاجلا، ويبلغ أجله قريبا {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة، ينتهي بمشهد الحطام! فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يُحسب حسابه، ويُنظر إليه، ويُستعد له: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ}، هي لا

تنتهي في لحظة كما تنتهي الحياة الدنيا، وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله. إنها حساب وجزاء، ودوام يستحق الاهتمام! **{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}**، فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع، كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع. وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشري. إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض. هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم، والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة، ليحقق عقيدته ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعا. ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي، للغاية التي تستحق السباق. الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم، والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء: **{سَابِقُوا إِلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}**، فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار! إنما السباق إلى ذلك الأفق، وإلى ذلك الهدف، وإلى ذلك الملك العريض: **{جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}**، وربما كان بعضهم في الزمن الخالي - قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون - يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية. فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود، فإن الحديث عن عرض الجنة، يقع قطعاً موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقاً! فإن ما بين الأرض والشمس مثلاً لا يبلغ أن يكون شيئاً في أبعاد الكون يقاس! وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد، ويسابق إليه كل من يشاء. وعربونه: الإيمان بالله ورسوله. **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}**، **{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}**. وفضل الله غير محجوز ولا محجور، فهو مباح متاح للراغبين والسابقين، وفي هذا فليتسابق المتسابقون، لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان! ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ولا يحصر نفسه ونظرة وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير، لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة. هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس، ويعاني من مقاومة الباطل وتشبثه بموضعه من الأرض ما لا يبصر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة، وأوسع من هذه الأرض، وأبقى من ذلك الفناء. إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة. وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد. والفارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه! ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعلياً على واقع الأرض الصغير، مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال. يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير. ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزل والأبد، وفي ملك الآخرة

الواسع العريض. وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة. وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها.

ثم تجيء اللمسة الرابعة في إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذي لا يكون سواه: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا. إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ }.

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مُقدر من قبل في تصميمه، محسوب حسابه في كيانه، لا مكان فيه للمصادفة، ولا شيء فيه جزاف. وقبل خلق الأرض، وقبل خلق الأنفس، كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدر. وفي علم الله لا شيء ماض، ولا شيء حاضر، ولا شيء قادم. فتلك الفواصل الزمنية إنما هي معالم لنا- نحن أبناء الفناء - نرى بها حدود الأشياء. فنحن لا ندرك الأشياء بغير حدود تميزها. حدود من الزمان وحدود من المكان. نحن لا نملك إدراك المطلق إلا في ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق، عن طريق غير الطريق الذي اعتدناه في إدراك الأشياء. فأما الله سبحانه فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود، بلا حدود ولا قيود. وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان. ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله. فكل مصيبة- من خير أو شر فاللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بخير ولا بشر- تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر أو المخاطبين منهم يومها، هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها، { إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }.

وقيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى، قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها، فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء: { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ }. فالتعامل مع الوجود الكبير، وتصور الأزل والأبد، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدر في علم الله، الثابتة في تصميم هذا الكون، كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة، حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني. إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين يفصل بذاته عن هذا الوجود، ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير. فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمر به، وتمر بغيره، والأرض كلها، ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود، وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق، لازم بعضها لبعض، وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون، حين يستقر هذا في تصوره

وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء، فلا يأسى على فائت أسى يضعضه ويزلزله، ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله، ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضى؛ رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون! وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون. فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله، وذكره بهذه وتلك، والاعتدال في الفرح والحزن. وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء. {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال ولا يفخر بما يُعطاه، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء. فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به، ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه! {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}. فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه، ومن يستحب فإنما يستحب لمصلحته. والله هو الغني فما به من حاجة إلى العباد والمحاويج. والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين!

قالوا لا ضير

قال الله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء

{ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِيِّينَ (٤٢) قَالَ هُمْ مَوْسَى آلْفَوْا مَا أَنْتُمْ مُلْمُونَ (٤٣) فَأَلْفَوْا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةً فِرْعَوْنَ إِنَّآ لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (٤٤) فَأَلْفَى مَوْسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مَوْسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) }

يقول الإمام ابن كثير:

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في "سورة الأعراف" وفي "سورة طه" وفي هذه السورة، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ بِمَا نَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوا من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلا في ذلك، وكان السحرة جمعا كثيرا، وجمعا غفيرا، قيل: كانوا اثني عشر ألفا، وقيل: خمسة عشر ألفا. وقيل: سبعة عشر ألفا، وقيل: تسعة عشر ألفا، وقيل: بضعة وثلاثين ألفا وقيل: ثمانين ألفا، وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم. قال ابن إسحاق: وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم: ساتور وعازور وحطحط ويصقي (!!!).

يقول الإمام ابن كثير في مقدمة كتابه "تفسير القرآن العظيم":

"ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ، وَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدُ مِنَ النَّارِ" رواه البخاري عن عبد الله. ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نُؤمِّنُ به ولا نكذِّبه، وتجوُّزُ حكايته لما تقدَّم. وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك. كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم، وعصا موسى من أيِّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُربَ به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أجمعه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نَقُلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ} إلى آخر الآية [الكهف : ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضَعَّفَ القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لردده كما ردها، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ}، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلع الله عليه، فلهذا قال: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. والله الموفق للصواب.

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم. {فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ} أي: إلى مجلس فرعون وقد ضُرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعنا من أجله، فقالوا: {أَتِنَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْفِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى} * قَالَ بَلْ أَلْفُوا بِعِزَّةِ ٦٥ ، ٦٦]، وقد اختصر هذا هاهنا فقال لهم موسى: {أَلْفُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ} * فَأَلْفُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ

فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ}، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في سورة الأعراف أنهم {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦]، وقال في "سورة طه": {فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٦ ، ٦٩]. وقال هاهنا: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً.

قال تعالى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١١٨ - ١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعدو وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعددهم، ويقول: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ} [طه: ٧١]، وقال: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٢٣].

{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)}. تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيدته به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ}. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل. ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: {لَا ضَيْرَ} أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي: بسبب أن بادرننا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٥٠] {قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ}

الآية: [٥١] {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}

قال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل {لا ضَيْرَ} أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم. يقال: لا ضير ولا ضور ولا ضر ولا ضرر ولا ضارورة بمعنى واحد؛ قال الهروي. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني. والتضور الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع. والضورة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن. {إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} يريد نتقلب إلى رب كريم رحيم {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}. ومعنى {أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} روي ذلك عن ابن مسعود وغيره. (فكم كان عدد شعب مصر حينئذ؟!)

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة، وإلى طمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيتة عما يلقيه من إعراض المشركين وتكذيبهم، وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل، وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة، وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم. وقد وردت حلقات من قصة موسى عليه السلام حتى الآن في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، عدا إشارات إليها في سور أخرى. وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة، أو السياق الذي تعرض فيه، على نحو ما هي في هذه السورة وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق.

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب، وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين، ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين. وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، وقوله: {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}. وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية، بينها فجوات بمقدار ما يسدل الستار

على المشهد، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه. وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة. وهنا سبعة مشاهد: أولها مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى عليه السلام وربه. وثانيها مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء. وثالثها مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى. ورابعها مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء! وخامسها مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده. وسادسها مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إحياء الله لموسى أن يسري بعباده ليلا، والثاني مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل. وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انغلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين. وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة طه. ولكنها عرضت في كل موضع من الجانِب الذي يناسب ذلك الموضع، وبالطريقة التي تتفق مع اتجاهه، وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك. ففي الأعراف مثلا بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعا، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك، وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة. واستطرد بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة. واختصر هذا هنا فلم يُشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدل بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله، وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي يونس بدأ بمشهد المواجهة مختصرا لم يعرض فيه آيتي العصا واليد، واختصر كذلك في مشهد المباراة، بينما توسع هنا في كليهما. وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه، واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلا. ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة. وكذلك لا نجد تكرارا في عرض القصة أبدا على كثرة ما عرضت في سور القرآن. لأن هذا التنوع في اختيار الحلقات التي تعرض، ومشاهدة كل حلقة، والجانِب الذي يُختار من كل مشهد، وطريقة عرضه، كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع. متناسقة مع هذا الموضع.

قوله تعالى: **{ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ }** وحتى لو جئتُك ببرهان واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وفي هذا إخراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى ولو رفض الإصغاء إلى برهانه المبين لدل على خوفه من حجته، وهو يدعي أنه مجنون. ومن ثم وجد نفسه مضطرا أن يطلب منه الدليل: **{ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }**، إن كنت من الصادقين في دعواك أو إن كنت من الصادقين في أن لديك شيئا مبينا. فهو ما يزال يشكك في موسى، خيفة أن تترك حجته في نفوس القوم شيئا. هنا كشف موسى عن معجزتيه الماديتين وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه: **{ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ }**، والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة، وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا. يدل على هذا بقوله: **{ فَإِذَا هِيَ }** فلم يكن الأمر تحييلا، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة. ومعجزة الحياة التي تدب من حيث لا يعلم البشر، معجزة تقع في كل

لحظة، ولكن الناس لا يلقون لها بالا، لطول الألفة والتكرار، أو لأنهم لا يشهدون التحول على سبيل التحدي. فأما في مثل هذا المشهد، وموسى عليه السّلام يلقي في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب. وقد أحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها فأسرع يقاومها ويدفعها وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق القوم من حوله ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه، ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة: **{قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}**. وفي قولة فرعون هذه يبدو إقراره بعظمة المعجزة وإن كان يسميها سحرا فهو يصف صاحبها بأنه ساحر «عليم». ويبدو ذعره من تأثر القوم بما فهو يرغبهم به: **{يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ}**. ويبدو تضعفه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهما، فيطلب أمرهم ومشورتهم: **{فماذا تأمرون}**. ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم. عندئذ يلينون في القول بعد التجبر ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام. ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى. وأشار عليه الملائة وقد خدعتهم مكيدته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية مقربة ذات نفوذ وسلطان وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير، حين ترى معجزتي موسى وتسمع إلى ما يقول، أشاروا عليه أن يلقي سحره بسحر مثله، بعد التهيئة والاستعداد: **{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ. وَإِبعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ}** أي أمهله وأخاه إلى أجل وابعث رسلك إلى مدائن مصر الكبرى، يجمعون السحرة المهرة، لإقامة مباراة للسحر بينهم وبينه.

وهنا يسدل الستار على هذا المشهد ليرفع على مشهد السحرة يُحشدون، والناس يُجمعون للمباراة، وتُثبت فيهم الحماسة للسحرة ومن خلفهم من أصحاب السلطان، وتُهبأ أرض المباراة بين الحق والباطل، أو بين الإيمان والطغيان. **{فَجَمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ}**. وتظهر من التعبير حركة الإهاجة والتحميس للجماهير: **{هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ}** هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد، ليرتقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي! وهكذا تجمع المصريون ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه السّلام! ثم يجيء مشهد السحرة بحضرة فرعون قبل المباراة يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم: **{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ قَالَ نَعَمْ، وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}**. وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما في كل مكان وفي كل زمان. وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع. وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر. يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه، وهو بزعمه الملك والإله! ثم إذا مشهد المباراة الكبرى وأحداثه الجسم: **{قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وَقَالُوا بِعِزَّةِ**

فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَلَا أَصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}. ويبدأ المشهد هادئاً عادياً، إلا أنه يشي منذ البدء باطمئنان موسى إلى الحق الذي معه وقلة اكترائه لجموع السحرة المحشودين من المدائن، المستعدين لعرض أقصى ما يملكون من براعة، ووراءهم فرعون وملؤه، وحولم تلك الجماهير المضللة المخدوعة. يتجلى هذا الاطمئنان في تركه إيابهم يبدؤون: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ}. وفي التعبير ذاته ما يشي بالاستهانة: {أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} بلا مبالاة ولا تحديد ولا اهتمام. وحشد السحرة أقصى مهارتهم وأعظم كيدهم وبدأوا الجولة باسم فرعون وعزته: {فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ} ولا يفصل السياق هنا ما كان من أمر حبالهم وعصيتهم، كما فصله في سورة الأعراف وطه، ليبقى ظل الطمأنينة والثبات للحق، وينتهي مسارعاً إلى عاقبة المباراة بين الحق والباطل لأن هذا هو هدف السورة الأصيل. {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ}. ووقعت المفاجأة المذهلة التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة فلقد بذلوا غاية الجهد في فهم الذي عاشوا به وأتقنوه وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصنعوه، وهم جمع كثير محشود من كل مكان. وموسى وحده، وليس معه إلا عصاه. ثم إذا هي تلقف ما يأفكون واللقف أسرع حركة للأكل. وعهدهم بالسحر أن يكون تخيلاً، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيتهم حقاً، فلا تبقي لها أثراً. ولو كان ما جاء به موسى سحراً، لبقيت حبالهم وعصيتهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتهما. ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلاً! عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلاً. وهم أعرف الناس بأنه الحق: {وَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية. ولكن الحق الذي مس قلوبهم قد حوهم تحويلاً. لقد كانت هزة رجتهم رجاً، وخضتهم خضاً ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حيه خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار. فإذا هم يجدون أنفسهم ملقين سجداً، بغير إرادة منهم، تتحرك ألسنتهم، فتنتطق بكلمة الإيمان، في نضاعة وبيان: {آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}. وإن القلب البشري لعجيب غاية العجب، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلاً. وصدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن. إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه». وهكذا انقلب السحرة المأجورون، مؤمنين من خيار المؤمنين على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه، لا يفكرون فيما يعقب جهنم بالإيمان في وجه الطاغية من عواقب ونتائج، ولا يعينهم ماذا يفعل أو ماذا يقول. ولا بد أن كان لهذا الانقلاب المفاجئ وقع الصاعقة على فرعون وملئه. فالجماهير حاشدة، وقد عبأهم عملاء فرعون وهم يحشدونهم لشهود المباراة. عبأهم بأكذوبة أن موسى الإسرائيلي ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، ويريد أن يجعل الحكم لقومه وأن السحرة سيعلبونه

ويفحّمونه. ثم ها هم أولاء يرون السحرة يلقون ما يلقون باسم فرعون وعزته، ثم يغلبون حتى ليقرون بالغلب ويعترفون بصدق موسى في رسالته من عند الله، ويؤمنون برب العالمين الذي أرسله، ويخلعون عنهم عبادة فرعون، وهم كانوا منذ لحظة جنوده الذين جاءوا لخدمته، وانتظروا أجره، واستفتحوا بعزته! وإنه لانقلاب يتهدد عرش فرعون، إذ يتهدد الأسطورة الدينية التي يقوم عليها هذا العرش، أسطورة الألوهية، أو بنوته للآلهة- كما كان شائعاً في بعض العصور. وهؤلاء هم السحرة، والسحر كان حرفة مقدسة لا يزاؤها إلا كهنة المعابد في طول البلاد وعرضها. ها هم أولاء يؤمنون برب العالمين، رب موسى وهارون، والجماهير تسير وراء الكهنة في معتقداتهم التي يلهوهم بها. فماذا يبقى لعرش فرعون من سند إلا القوة؟ والقوة وحدها بدون عقيدة لا تقيم عرشاً ولا تحمي حكماً. إن لنا أن نقدر زعر فرعون لهذه المفاجأة، وذعر الملأ من حوله، إذا نحن تصورنا هذه الحقيقة وهي إيمان السحرة الكهنة هذا الإيمان الصريح الواضح القاهر الذي لا يملكون معه إلا أن يلقوا سجداً معترفين منبئين. عندئذ جن جنون فرعون، فلجأ إلى التهديد البغيض بالعذاب والنكال، بعد أن حاول أن يتهم السحرة بالتآمر عليه وعلى الشعب مع موسى! **{ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ. فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَأَلْصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }**. **{ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ }**، لم يقل آمنتم به، إنما عده استسلاماً له قبل إذنه. ثم سارع في اتهامهم لتبرير ذلك الانقلاب الخطير: **{ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر }** وهي تهمة عجيبة لا تفسير لها إلا أن بعض هؤلاء السحرة، وهم من الكهنة، كانوا يتولون تربية موسى في قصر فرعون أيام أن تنبه، أو كان يختلف إليهم في المعابد. فارتكن فرعون إلى هذه الصلة البعيدة، وقلب الأمر فبدلاً من أن يقول إنه لتلميذكم قال: إنه لكبيركم. ليزيد الأمر ضخامة وتحويلاً في أعين الجماهير! ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين: **{ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ }**. إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تخرج من قلب أو ضمير. وإنما لكلمة فرعون الطاغية المتحجر الذي يملك تنفيذ ما يقول، فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور! إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمله من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير: **{ قَالُوا لَا ضَيْرَ. إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ }**. **لا ضير، لا ضير** في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف. لا ضير في التصليب والعذاب. لا ضير في الموت والاستشهاد. لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون. وليكن في هذه الأرض ما يكون. فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه **{ أن يغفر لنا ربنا خطايانا }** جزاء **{ أن كنا أول المؤمنين }**. وأن كنا نحن السابقين.

يا لله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر، وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يكسب الطمأنينة في النفوس. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد. هنا يسدل الستار على هذه

الروعة الغامرة. لا يزيد شيئاً. ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق. وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)}

يقول الإمام ابن كثير:

{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) }. أي: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير - {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: أنزل علينا صبرًا من عندك، {ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا} أي: في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز {وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}، قال الله تعالى: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم، {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ}، ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه في أمره فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} الذي كان بيد طالوت {والحكمة} أي: النبوة، {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به صلى الله عليه وسلم، ثم قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} أي: لولاه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، هللكوا كما قال: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} الآية [الحج : ٤٠].

وقال ابن جرير رحمه الله: حدثني أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء". ثم قرأ ابن عمر: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} وهذا إسناد ضعيف فإن يحيى بن سعيد هذا هو أبو زكريا العطار الحمصي وهو ضعيف جدًا. ثم

قال ابن جرير: حدثنا أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم". وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أخبرنا علي بن إسماعيل بن حماد أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد أخبرنا زيد بن الحباب، حدثني حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان - رفع الحديث - قال: "لا يزال فيكم سبعة بهم تُنصرون وبهم تُمطرون وبهم تُرزقون حتى يأتي أمر الله".

وقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي: مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} كذا قراءة الجماعة، إلا نافعاً فإنه قرأ "دفاع"، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل كما يقال: حسبت الشيء حساباً، وآب إياباً، ولقيته لقاءً؛ ومثله كتبه كتاباً، ومنه {كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٢٤]. واختار أبو عبيدة قراءة الجمهور {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ}، وأنكر أن يقرأ "دفاع" وقال: لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد.

الثانية: واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد من هم؟ فقيل: هم الأبدال وهم أربعون رجلاً كلما مات واحد بدل الله آخر، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم؛ اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق. وروي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات منهم رجل أبدله الله مكانه رجلاً يسقى بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء". ذكره الترمذي الحكيم في "نوادير الأصول". وخرج أيضاً عن أبي الدرداء قال: إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال لهم الأبدال؛ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله

لنفسه واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صديقا منهم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يمطرون ومن يرزقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه.(!!!). وقال ابن عباس: ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد. وقال سفيان الثوري: هم الشهود الذين تُستخرج بهم الحقوق. وحكى مكي أن أكثر المفسرين على أن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم؛ وكذا ذكر النحاس والتعلي أيضا. قال الثعلبي وقال سائر المفسرين: ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض، أي هلكت. وقيل: هذا الدفع بما شرع على السنة الرسل من الشرائع، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك فتأمله. {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}، بين سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شر الكافرين فضل منه ونعمة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

وكانت النتيجة هي التي ترقبها واستيقنوها: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}، ويؤكد النص هذه الحقيقة: {بِإِذْنِ اللَّهِ} ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه. إن المؤمنين ستر القدرة يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريد بإذنه. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين، إنه عبد الله اختاره الله لدوره، وهذه منة من الله وفضل. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله، بعد كرامة الاختيار، بفضل الثواب. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أتيب.

ويبرز السياق دور داود: {وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ} وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا، ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو، ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم، ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريد. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريد بها الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}؛ وكان داود ملكا نبيا، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن في مواضعه في سور أخرى، أما في هذا الموضوع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من

وراء القصة جميعا. وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية، حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى، إنها ليست المغام والأسلاب، وليست الأجداد والهالات، إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: {وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ. وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}. وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاحب الموارد. وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تروج بالناس، في تدافع وتسبق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف. لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفذ عنها الكسل والحمول، وتستجيش ما فيها من مكونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة، مستتبطة لدخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج:

{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقال غير واحد من السلف هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد والضحاك وقتادة، وغير واحد. وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن داود الواسطي، حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم - هو البطين - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبينهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال. ورواه الترمذي، والنسائي في التفسير من سننهما، وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف. وقال الترمذي: حديث حسن.

وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا جهدهم في طاعته، كما قال: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ} [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٦]، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٢]، وقال: {وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤَنَّكُمْ} [محمد: ٣١].

والآيات في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} وقد فعل. وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لَشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي- يعنون أهل مِثَى - لياي مِثَى فنقتلهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني لم أؤمر بهذا". فلما بَعَى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَدَّر فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومَعَقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ}. قال العوفي عن ابن عباس: أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، يعني: محمداً وأصحابه. {إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [الممتحنة: ١]، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: {وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجون في بناء الخندق، ويقولون: لا هم لولا أنت ما اهتدينا... ولا تصدقنا ولا صليتنا... فأنزلن سكيناً علينا... وتبَّت الأقدام إن لاقينا... إن الألى قد بعوا علينا... إذا أرادوا فتنةً أبينا،

فيوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: "إذا أرادوا فتنة أينا"، يقول: "أينا"، بمد بها صوته.

ثم قال تعالى: **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}** أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شرَّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف. **{لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ}** وهي المعابد الصغار للربان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك، وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع الجوس. وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق. **{وَبَيْعَ}**: وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية وقاتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف، وغيرهم. وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود. وحكى السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس، والله أعلم.

وقوله: **{وَصَلَوَاتُ}**: قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوتا. وحكى السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهي للمسلمين.

وقوله: **{يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}** فقد قيل: الضمير في قوله: **{يُذَكَّرُ فِيهَا}** عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الربان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا ترقق من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجد، وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: **{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}** كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ}** [محمد: ٧، ٨].

وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** وصَف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوي العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}** [الصفافات: ١٧١ - ١٧٣] وقال الله تعالى: **{كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [المجادلة: ٢١].

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٤٠ {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} هذا أحد ما ظلموا به؛ وإنما أُخرجوا لقولهم: ربنا الله وحده. فقوله: {إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} استثناء منقطع؛ أي لكن لقولهم ربنا الله؛ قال سيبويه. وقال الفراء يجوز أن تكون في موضع خفض، يقدرها مردودة على الباء؛ وهو قول أبي إسحاق الزجاج، والمعنى عنده: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا الله؛ أي أُخرجوا بتوحيدهم، أُخرجهم أهل الأوثان.

الثانية: قال ابن العربي: قال علماءنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله في قوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]. فاستمر الناس في الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوههم عن بلادهم؛ فمنهم من فر إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى. فلما عنت قريش على الله تعالى وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحده وعبدته، وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله في القتال والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا} - إلى قوله - {الأمور}.

....

الرابعة: قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} أي لولا ما شرعه الله تعالى للأبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته آيات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات؛ فكأنه قال: أذن في القتال، فليقاتل المؤمنون. ثم قوي هذا الأمر في القتال بقوله: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ}، الآية؛ أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة. فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه؛ إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يُدب عنه. وأيضاً هذه المواضع التي أتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى؛ أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في

تأويل الآية. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفار عن التابعين فمن بعدهم. وقال مجاهد لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول. وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة. وقال أبو الدرداء: لولا أن الله عز وجل يدفع بمن في المساجد عمن ليس في المساجد، ومن يغزو عمن لا يغزو، لأتاهم العذاب. وقالت فرقة: ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار، إلى غير ذلك من التفصيل المفسر لمعنى الآية؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضي مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه، فتأمله.

الخامسة: قال ابن خويز مناد: تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم، ولا يُتروك أن يحدثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سعة ولا ارتفاعا، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها. وينقض ما وجد في بلاد الحرب من البيع والكنائس. وإنما لم ينقض ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة. ولا يجوز أن يمكنوا من الزيادة لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر. وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعل ذلك عثمان رضي الله عنه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

السادسة: {صَوَامِعُ} جمع صومعة، وزنها فوعلة، وهي بناء مرتفع حديد الأعلى ورجل أصمغ القلب أي حاد الفطنة. والأصمغ من الرجال الحديد القول. وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وعباد الصابئين - قال قتادة - ثم استعمل في مثذنة المسلمين. والبيع جمع بيعة، وهي كنيسة النصارى. وقال الطبري: قيل هي كنائس اليهود؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك. قوله تعالى: {وَصَلَوَاتُ} قال الزجاج والحسن: هي كنائس اليهود؛ وهي بالعبرانية صلوتا. وقال أبو عبيدة: الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم، تسمى صلوتا فعريت فصيل صلوات. وقال ابن عباس: الصلوات: الكنائس. أبو العالية: الصلوات مساجد الصابئين. ابن زيد: هي صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدو وتهدم المساجد؛ فعلى هذا استعير الهدم للصلوات من حيث تعطل، أو أراد موضع صلوات فحذف المضاف. وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرهم يكون الهدم حقيقة. ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر. ولم يذكر في هذه الآية الجوس ولا أهل الإشراك؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع. وقال النحاس: {يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون {يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} عائدا على المساجد لا على غيرها، لأن الضمير يليها. ويجوز أن يعود على {صوامع} وما بعدها؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق. فإن قيل: لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدم بناء.

قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} أي من ينصر دينه ونبيه. {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ} أي قادر. قال الخطابي: القوي يكون بمعنى القادر، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه. {عَزِيزٌ} أي جليل شريف، قال الزجاج. وقيل الممتنع الذي لا يرام.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر، والهدى والضلال. والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان. والشر جامع والباطل مسلح؛ وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم. ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللإحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد، وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان. وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنتهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته: **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}**، وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخدولون حتماً: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}**، وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطين: **{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}**، وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم: **{وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}**، وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق: **{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}** وهي أصدق كلمة أن تقال، وأحق كلمة بأن تقال. ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يُخرجون، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض، التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع! ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة، حاجة العقيدة إلى الدفع عنها: **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}**، والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للربان، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، والصلوات أماكن العبادة لليهود، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين. وهي كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها. فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول. **ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام**

الإنسان هو الإنسان!

لقد حق القول على أكثرهم

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يس:

{يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي آعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَحَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآتَّارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع، حدثنا حميد بن عبد الرحمن التُّرُاسِي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس. ومن قرأ يس كتب الله له بقرآتها قراءة القرآن عشر مرات". ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وهارون أبو محمد شيخ مجهول. وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة منظور فيه. أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول. وأما حديث أبي هريرة فقال أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا زيد- هو ابن الحباب- حدثنا حميد- هو المكي مولى آل علقمة - عن عطاء- هو ابن أبي رباح- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس". ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد. وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا حجاج بن محمد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ يس في ليلة أصبح مغفورًا"

له. ومن قرأ "حم" التي فيها الدخان أصبح مغفوراً له. إسناده جيد. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم - مولى ثقيف - حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا محمد بن جحادة، عن الحسن، عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله، غُفر له". وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "البقرة سينام القرآن وذروتها، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو: فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غُفر له، وقرأوها على موتاكم". ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا ابن المبارك، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان - وليس بالنهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأوها على موتاكم"، يعني: يس. ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة: أنها لا تُقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله. وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله أعلم.

{يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧)}.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول "سورة البقرة"، ورؤي عن ابن عباس وعكرمة، والضحاك، والحسن وسفيان بن عيينة أن "يس" بمعنى: يا إنسان. وقال سعيد بن جبيرة: هو كذلك في لغة الحبشة (!). وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى. {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. {إِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم. {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به منزل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقوله تعالى: {لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} يعني بهم: العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم.

قوله: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بالله، ولا يصدقون رسله.

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تَنْذِيرُكَ مِنَ اتِّبَاعِ الذِّكْرِ

وَحَشِي الرِّحْمَنَ بِالْعَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) .

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحا؛ ولهذا قال: {فَهُمْ مُقْمَحُونَ}، والمقمح: هو الرفع رأسه. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، وكذا هذا، لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا}: قال مجاهد: عن الحق، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} قال مجاهد: عن الحق، فهم يترددون. وقال قتادة: في الضلالات.

وقوله: {فَأَعَشَيْنَاهُمُ} أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، {فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦ ، ٩٧]. وقوله: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم؛ {وَحَشِي الرِّحْمَنَ} أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، {فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ} أي: لذنوبه، {وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [المك: ١٢]. ثم قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد: ١٧].

وقوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} أي: من الأعمال. وفي قوله: {وَأَثَارَهُمْ} قولان: أحدهما: نكتب أعمالهم التي باثروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزهم على ذلك أيضًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كقوله صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا". رواه مسلم، من رواية شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وفيه قصة مجتأبي النمار المضريين. وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده".

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. وقد وَرَدَتْ في هذا المعنى أحاديث: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيْرِيُّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: "إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد". قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: "يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم". وهكذا رواه مسلم. وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، فالله أعلم.

وقوله: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هاهنا هو أم الكتاب. قاله مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ} [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير و شر، كما قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩].

ويقول الإمام القرطبي:

سورة يس، وهي مكية بإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية؛ إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: {نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ} [يس: ١٢] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، على ما يأتي. وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن في القرآن سورة تشفع لقرائها ويغفر لمستمعها ألا وهي سورة يس تدعى في التوراة المعمة" قيل: يا رسول الله وما المعمة؟ قال: "تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه أهويل الآخرة وتدعى الدافعة والقاضية" قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: "تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ومن سمعها كانت له كآلف دينار تصدق بها في سبيل الله ومن كتبها وشرها أدخلت جوفه ألف دواء وألف نور وألف يقين وألف رحمة وألف رافة وألف هدى ونزع عنه كل داء وغل". ذكره الثعلبي من حديث عائشة، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسندا.

الآية: ١ - ٥ {يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}

قوله تعالى: {يس} في "يس" أوجه من القراءات: قرأ أهل المدينة والكسائي {يس والقرآن الحكيم} بإدغام النون في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة {يسن} بإظهار النون. وقرأ عيسى بن عمر {يسن} بنصب النون. وقرأ ابن

عباس وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم {يسين} بالكسر. وقرأ هارون الأعمور ومحمد بن السميعة {يسين} بضم النون؛ فهذه خمس قراءات. القراءة الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأن النون تدغم في الواو. ومن بين قال: سبيل حروف الهجاء أن يوقف عليها، وإنما يكون الإدغام في الإدراج. وذكر سيبويه النصب وجعله من جهتين: إحداهما: أن يكون مفعولا ولا يصرفه؛ لأنه عنده اسم أعجمي بمنزلة هابيل، والتقدير أذكر يسين. وجعله سيبويه اسما للسورة. وقوله الآخر أن يكون مبنيا على الفتح مثل كيف وأين. وأما الكسر فزعم الفراء أنه مشبه بقول العرب جبر لا أفعل، فعلى هذا يكون {يسين} قسما. وقاله ابن عباس. وقالوا في قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ} [الصافات: ١٣٠] أي على آل محمد. وقال سعيد بن جبيرة: هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ودليله {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}. وقال أبو بكر الوراق: معناه يا سيد البشر. وقيل: إنه اسم من أسماء الله، قاله مالك. روى عنه أشهب قال: سألته هل ينبغي لأحد أن يتسمى بياسين؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله: {يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}، يقول هذا اسمي يس. قال ابن العربي هذا كلام بدیع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب إذا كان فيه معنى منه؛ كقوله: عالم وقادر ومرید ومتكلم. وإنما منع مالك من التسمية بـ {يسين}، لأنه اسم من أسماء الله لا يدري معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب فلا يجوز أن يقدم عليه العبد. فإن قيل فقد قال الله تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ} [الصافات: ١٣٠] قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتحوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجى هو الذي تكلم مالك عليه لما فيه من الإشكال؛ والله أعلم. ثم اختلفوا فيه أيضا؛ فقال سعيد بن جبيرة وعكرمة: هو بلغة الحبشة (!). وقال الشعبي: هو بلغة طي. الحسن: بلغة كلب. الكلبي: هو بالسريانية، فتكلمت به العرب فصار من لغتهم. وقد سرد القاضي عياض أقوال المفسرين في معنى {يس} فحكى أبو محمد مكي أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لي عند ربي عشرة أسماء" ذكر أن منها طه ويس اسمان له. قلت: وذكر الماوردي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله" قاله القاضي. وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أنه أراد يا سيد، مخاطبة لنبية صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس قال: هو قسم وهو من أسماء الله سبحانه. وعن كعب: {يس} قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام، قال يا محمد: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، ثم قال: {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}. فإن قدر أنه من أسمائه صلى الله عليه وسلم، وصح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم، ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه. وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بمدايته. أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. وحكى القشيري قال ابن عباس: قالت كفار قريش لست مرسلا وما أرسلك الله إلينا؛ فأقسم الله بالقرآن المحكم أن محمدا من المرسلين. {والحكيم} المحكم حتى لا يتعرض لبطلان وتناقض؛ كما قال: {أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ} [هود: ١]. وكذلك أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل. {عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي دين مستقيم وهو الإسلام.

الآية: ٦ - ٨ {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي
أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ}

قوله تعالى: {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ} {مَا} لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير، منهم قتادة؛ لأنها
نفي والمعنى: لتنذر قوما ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آبائهم؛
قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضا. وقيل: إن {مَا} والفعل مصدر؛ أي لتنذر قوما إنذار آبائهم، ثم يجوز أن تكون
العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء؛ فالمعنى لم يندروا برسول من أنفسهم. ويجوز أن يكون بلغهم الخبر ولكن
غفلوا وأعرضوا ونسوا. ويجوز أن يكون هذا خطابا لقوم لم يبلغهم خبر نبي، وقد قال الله: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ}. وقال: {تُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ} [السجدة: ٣] أي لم يأتم نبي. وعلى قول من قال بلغهم خبر الأنبياء، فالمعنى فهم معرضون الآن
متغافلون عن ذلك، ويقال للمعرض عن الشيء إنه غافل عنه. وقيل: {فَهُمْ غَافِلُونَ} عن عقاب الله. قوله
تعالى: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ} أي **وجب العذاب على أكثرهم** {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} بإنذارك. وهذا فيمن
سبق في علم الله أنه يموت على كفره. ثم بين سبب تركهم الإيمان فقال: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا}. وقرأ ابن
عباس: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ} وقال الزجاج: وقرئ {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْدِيهِمْ}، قال النحاس: وهذه القراءة تفسير ولا
يُقرأ بما خالف المصحف. {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق؛ لأن من علت يده إلى ذقنه
ارتفع رأسه. والإقماح: رفع الرأس وعض البصر؛ يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعا من ضيقه. وشهرا قماح:
أشد ما يكون من البرد، وهما الكانونان سميا بذلك لأن الإبل إذا وردت آذاها برد الماء فقماحت رؤوسها. وقيل: هو
مثل ضربه الله تعالى لهم في امتناعكم من الهدى كامتناع المغلول؛ قال يحيى بن سلام وأبو عبيدة. وكما يقال: فلان
حمار؛ أي لا يبصر الهدى. وفي الخبر: أن أبا ذؤيب كان يهوى امرأة في الجاهلية، فلما أسلم راودته فأبى وأنشأ
يقول:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئا فاستراح العواذل
أراد مُنعنا بموانع الإسلام عن تعاطي الزنى والفسق. وقال الفراء أيضا: هذا ضرب مثل؛ أي حبسناهم عن الإنفاق في
سبيل الله؛ وهو كقوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ} [الإسراء: ٢٩] وقال الضحاك. وقيل: إن هؤلاء
صاروا في الاستكبار عن الحق كمن جعل في يده غل فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعا رأسه لا يخفضه، وغاضبا بصره
لا يفتحه. **والتكبر يوصف بانتصاب العنق.** وقال الأزهري: إن أيديهم لما علت عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقائهم
ورؤوسهم صعدا كالإبل ترفع رؤوسها. وهذا المنع بخلق الكفر في قلوب الكفار، وعند قوم بسلبهم التوفيق عقوبة لهم
على كفرهم. وقيل: الآية إشارة إلى ما يُفعل بأقوام غدا في النار من وضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل؛ كما قال

تعالى: {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ} [غافر: ٧١] وأخبر عنه بلفظ الماضي. {فَهُمْ مُقَمَّحُونَ} تقدم تفسيره. قال مجاهد: {مُقَمَّحُونَ} مغلون عن كل خير.

الآية: ٩ {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَّذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} قال الضحاك: أي الدنيا {وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} أي الآخرة؛ أي عموا عن البعث وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا؛ قال الله تعالى: {فَيَضُنَّا لَهُمْ قُرَّانًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [فصلت: ٢٥] أي زينوا لهم الدنيا ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة. وقيل: على هذا {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا} أي عُوروا بالدنيا {وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} أي تكذبا بالآخرة. وقيل: {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} الآخرة {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} الدنيا. {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَّذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} تقدم في "البقرة" والآية رد على القدرية وغيرهم. وعن ابن شهاب: أن عمر بن عبدالعزيز أحضر غيلان القدري فقال: يا غيلان بلغني أنك تتكلم بالقدر؛ فقال: يكذبون على يا أمير المؤمنين. ثم قال: يا أمير المؤمنين رأيت قول الله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا} [الإنسان: ٢] قال: أقرأ يا غيلان، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} [الإنسان: ٢٩]، فقال اقرأ، فقال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠]، فقال: والله يا أمير المؤمنين إن شعرت أن هذا في كتاب الله قط. فقال له: يا غيلان أقرأ أول سورة [يس] فقرأ حتى بلغ {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلَّذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فقال غيلان: والله يا أمير المؤمنين لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم؛ اشهد يا أمير المؤمنين أني تائب. قال عمر: اللهم إن كان صادقاً فنب عليه وثبته، وإن كان كاذباً فسلط عليه من لا يرحمه واجعله آية للمؤمنين.

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} يعني القرآن وعمل به. {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ} أي ما غاب من عذابه وناره؛ قاله قتادة. وقيل: أي يخشاه في مغيبه عن أبصار الناس وانفراده بنفسه. {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ} أي لذنبه {وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي الجنة.

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ}

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ} أخبرنا تعالى بإحيائه الموتى ردا على الكفرة. وقال الضحاك والحسن: أي نحْييهم بالإيمان بعد الجهل. والأول أظهر؛ أي نحْييهم بالبعث للجزاء. ثم توعدهم بذكره كتب الآثار وهي:

الثانية: وإحصاء كل شيء وكل ما يصنعه الإنسان. قال قتادة: معناه من عمل. وقاله مجاهد وابن زيد. ونظيره قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار: ٥] وقوله {يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣]، وقال: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨] فأثار المرء التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر يجازى عليها؛ من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك؛ أو سيئ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، أو شيء أحدثه فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاذ؛ وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة. وإيقاعات سريعة. ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثا وثمانين، بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون. وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص، فتلاحق إيقاعاتها، وتدق على الحس دقات متوالية، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تلعبها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها. وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار. والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية. وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة. فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها: {يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}. وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه. وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}. كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية. فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون؟ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}. وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى: {وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ. لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ}.

والقضية التي يشند عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة. تجيء في أولها: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}. وتأتي في قصة

أصحاب القرية، فيما وقع للرجل المؤمن، وقد كان جزاؤها العاجل في السياق: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}. ثم ترد في وسط السورة: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}. ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة. وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار: {وَضَرَبْنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}.

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها، تتكرر في السور المكية. ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة، تحت ضوء معين، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها. هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية: مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة، ومشهد الليل يسلم منه النهار فإذا هو ظلام، ومشهد الشمس تجري لمستقر لها، ومشهد القمر يتدرج في منازل حتى يعود كالعرجون القديم، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين، ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين، ومشهد النطفة ثم مشهدها إنسانا وهو خصيم مبین، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون! وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه: منها صورة المكذبين الذين حققت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهْمًا لَا يَبْصُرُونَ}. ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار. ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود. ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط: يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين "يا. سين" وبالقرآن الحكيم، على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه على صراط مستقيم. يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون، وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلا، وأن يحال بينهم وبينها أبدا. وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان. ثم يوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين. كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق. ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به، غير معتبرين بمصارع المكذبين، ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثير. وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة، كما يعرض مشهدها مطولا من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل.

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها. فينفي في أوله أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم شعر، وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً. ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة! ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كذلك النشأة ولا غرابة! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد! ويخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة. وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

والآن نأخذ بعد هذا العرض الجمل في التفصيل:

{يس. وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين: «يا. سين» كما يقسم بالقرآن الحكيم. وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرحح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن. وأن آية كونه من عند الله الآية التي لا يتدبرونها فيرددهم القرآن إليها، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ولكن نسقه التفكير والتعبيري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف. ويصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه {الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ}. والحكمة صفة العاقل. والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة، وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً. ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها. فإن لهذا القرآن لروحاً! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك! والقرآن حكيم. يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه، ويضرب على الوتر الحساس في قلبه، ويخاطبه بقدر. ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه، والقرآن حكيم. يقسم الله سبحانه بيباء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وما به سبحانه من حاجة إلى القسم. ولكن هذا القسم منه جل جلاله بالقرآن وحروفه يخلع على المقسم به عظمة وجلالا، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين. {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر، له سوابق مقررة، فليس هو الذي يراد إثباته، إنما المراد أن يثبت هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المرسلين. ويخاطبه هو بهذا القسم - ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين -

ترفعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة. إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول. **{إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**، وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول. وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة، فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف، ولا التواء فيها ولا ميل. الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس، ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة. يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص. وهي لاستقامتها، بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران، لا تعقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية. وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صوره. وهي مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان، فلا تصدم طبائع الأشياء، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها، إنما هي مستقيمة على نهجها، متناسقة معها، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه. والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم، وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة في تصويره للحق، وفي التوجيه إليه، وفي أحكامه الفاصلة في القيم، ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق. **{تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}**، يُعرف الله عباده بنفسه في مثل هذه المواضع، ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم. فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريد. وهو الرحيم بعباده الذي يفعل بهم ما يفعل، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل. فأما حكمة هذا التنزيل فهي الإنذار والتبليغ: **{لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}**، والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها، ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن يندرهم منذر، أو ينبههم منبه، فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة، الذين لم يأثم ولم يأت آباءهم نذير. ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين وعما نزل بهم من قدر الله، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم. ما كان منه وما سيكون: **{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}**، لقد قُضِيَ في أمرهم، وحق قدر الله على أكثرهم، بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون. وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها. وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون: **{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا. فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}**. إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم، موضوعة تحت أذقائهم، ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم فلو أرخى الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود، وقد سُدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال! ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فإن الإنسان ليلتقي بأناس من هذا النوع، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلاً عنيماً كهذا بينهم

وبينه، وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك مشدودة عن الهدى قسرا وملفوتة عن الحق لفتا، وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك. وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود، وهو يصدع بالحجة، ويدلي بالبرهان، وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان.

{وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فلقد قضى الله فيهم بأمره، بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان، ولا ينفذ الإنذار قلبا غير مهيب للإيمان، مشدود عنه، محال بينه وبينه بالسدود. فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} . والذكر يراد به هنا القرآن- على الأرجح- والذي اتبع القرآن، وخشي الرحمن دون أن يراه، هو الذي ينتفع بالإنذار، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار، وكأما الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خصه به، وإن كان قد عمم. إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب. وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار: {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} ، المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر، والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر. وهما متلازمان في القلب، فما تحل خشية الله في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل. والاستقامة على النهج الذي أراد. وهنا يؤكد وقوع البعث ودقة الحساب، الذي لا يفوته شيء: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى، وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} . وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلا طويلا وسيرد منه في هذه السورة أمثلة متنوعة. وهو يندرج تحت كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار، كلها تُكتب وتُحصى، فلا يند منها شيء ولا ينسى. والله سبحانه هو الذي يحيي الموتى، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبتته. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد الله. والإمام المبين، واللوح المحفوظ، وأمثالها، أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلي القديم وهو بكل شيء محيط.

وبلغ أربعين سنة

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأحقاف:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣] وقال: {أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرني سيمك بن حرب قال: سمعت مُصْعَبَ بن سعد يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} الآية [العنكبوت: ٨]. ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه.

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا} أي: قاست بسببه في حال حملة مشقة وتعبا، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، {وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} أي: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، {وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}، وقد استدل علي، رضي الله عنه، بهذه الآية مع التي في لقمان: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} [لقمان: ١٤]، وقوله: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ} [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضي الله عنهم. قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن بَعْجَةَ بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة

من جُهَيْنَةَ، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما ييكيك؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط، فيقضي الله في ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: **{وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** وقال: **{يُرْضَعُنَّ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}**، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، علي بالمرأة **فوجدوها قد فُرِعَ منها**، قال: فقال بَعَجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابني إني والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات. رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: **{فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [الزخرف: ٨١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةَ بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا، وإذا وضعت لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: **{وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}**. **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}** أي: قوى وشب وارتحل **{وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}** أي: تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين. قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: **متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟** قال: **إِذَا بَلَغْتَ الْأَرْبَعِينَ، فَخُذْ حَذْرَكَ**. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبيد الله القواريري، حدثنا عَزْرَةَ بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولي عنه وزادني قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله حسابه، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحببه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحاسناته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشقعه الله في أهل بيته، وكتب في السماء: أسير الله في أرضه"**. وقد روي هذا من غير هذا الوجه، وهو في مسند الإمام أحمد. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: **تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله، عز وجل.**

{قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي} أي: ألهمني **{أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}** أي: في المستقبل، **{وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}** أي: نسلي وعقبتي، **{إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}** وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها. وقد روى أبو داود في سننه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: **"اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبيل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجننا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنيين بها قابليها، وأتممها علينا"**.

قال الله تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ}** أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يُتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويُتجاوز عن سيئاتهم، فيُغفر لهم الكثير من الزلل، ويُتقبل منهم اليسير من العمل، **{فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}** أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأتاب؛ ولهذا قال: **{وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}**. قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال: **"يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ، فَيُقْتَنَصُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَإِنْ بَقِيَ حَسَنَةٌ وَسِعَ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ"** قال: فدخلت على يزيد فحدثت بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهب الحسنه؟ قال: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}**. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعائي، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله - وزاد عن الروح الأمين، قال: قال الرب، جل جلاله: **يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ الْعَبْدِ وَسَيِّئَاتِهِ... فَذَكَرَهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَإِسْنَادٌ جَيِّدٌ لَا بَأْسَ بِهِ**. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مَعْبُد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلابي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيَّة، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوما: لقد شهدت أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وضعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}**. قال: والله عثمان وأصحاب عثمان - قالها ثلاثا - قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آله لسمعت هذا من علي؟ قال: آله لسمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٥ **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} بين اختلاف حال الإنسان مع أبويه، فقد يطيعهما وقد يخالفهما، أي فلا يبعد مثل هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويكفر البعض. فهذا وجه اتصال الكلام ببعضه ببعض، قاله القشيري.

الثانية: {حسنا} قراءة العامة {حُسْنًا} وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام. وقرأ ابن عباس والكوفيون {إحسانا} وحجتهم قوله تعالى في سورة (الأنعام وبني إسرائيل): {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الأنعام: ١٥١] وكذا هو في مصاحف الكوفة. وحجة القراءة الأولى قوله تعالى في سورة العنكبوت: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} [العنكبوت: ٨]، ولم يختلفوا فيها. والحسن خلاف القبح. والإحسان خلاف الإساءة. والتوصية الأمر.

الثالثة: قوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} أي بكره ومشقة. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكذلك لفظ الكره في كل القرآن بالفتح إلا التي في سورة البقرة: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦] لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر. وقرأ الكوفيون {كرها} بالضم. قيل: هما لغتان مثل الضعف والضعف والشهد والشهد، قاله الكسائي، وكذلك هو عند جميع البصريين. وقال الكسائي أيضا والفراء في الفرق بينهما: إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره، أي قهرا وغضبا، ولهذا قال بعض أهل العربية إن كرها (بفتح الكاف) لحن.

الرابعة: قوله تعالى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} قال ابن عباس: إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرا، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا. وروي أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لسته أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحد، فقال له علي رضي الله عنه: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} وقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} [البقرة: ٢٣٣] فالرضاع أربعة وعشرون شهرا والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قول ولم يحدها. وقيل: لم يعد ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل، لأن الولد فيها نطفة وعلقة ومضغة فلا يكون له ثقل يحس به، وهو معنى قوله تعالى: {فَلَمَّا تَعَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ} [الأعراف: ١٨٩]. والفصال الفطام. وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق؛ وكان حمله وفساله في ثلاثين شهرا، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهرا. وفي الكلام إضمار، أي ومدة حمله ومدة فصاله ثلاثون شهرا، ولو لا هذا الإضمار لنصب ثلاثون على الظرف وتغير المعنى.

الخامسة: قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ} قال ابن عباس: {أَشُدَّهُ} ثماني عشرة سنة. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام للتجارة، فنزلوا منزلا فيه سدر، فقعد النبي صلى الله عليه وسلم في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسأله عن الدين. فقال الراهب: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبدالله بن

عبدالمطلب. فقال: هذا والله نبي، وما استظل أحد تحتها بعد عيسى. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره وحضره. فلما نبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة، صدق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلما بلغ أربعين سنة قال: **{ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّْ }** الآية. وقال الشعبي وابن زيد: الأشد الحلم. وقال الحسن: هو بلوغ الأربعين، وعنه قيام الحجّة عليه. وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص. وقال الحسن: هي مرسلّة نزلت على العموم. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: **{ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي }** أي ألهمني. **{ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ }** في موضع نصب على المصدر، أي شكر نعمتك **{ عَلَيَّ }** أي ما أنعمت به علي من الهداية **{ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّْ }** بالتحنن والشفقة حتى ربياني صغيرا. وقيل: أنعمت علي بالصحة والعافية وعلى والدي بالغنى والثروة. وقال علي رضي الله عنه: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده. ووالده هو فحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم. وأمه أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. **{ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ }** قال ابن عباس: فأجابه الله فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يدع شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"من أصبح منكم اليوم صائما"**؟ قال أبو بكر أنا. قال: **"فمن تبع منكم اليوم جنازة"**؟ قال أبو بكر أنا. قال: **"فمن أطعم منكم اليوم مسكينا"**؟ قال أبو بكر أنا. قال: **"فمن عاد منكم اليوم مريضا"**؟ قال أبو بكر أنا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة"**.

السابعة: قوله تعالى: **{ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي }** أي اجعل ذريتي صالحين. قال ابن عباس: فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا امنوا بالله وحده. ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر. وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلهم لي خلف صدق، ولك عبيد حق. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبرارا لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمال ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلا. وقال مالك بن مقول: اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرف، فقال: استعن عليه بهذه الآية، وتلا: **{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُثِيبُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }**. **{ إِنِّي تُثِيبُ إِلَيْكَ }** قال ابن عباس: رجعت عن الأمر الذي كنت عليه. **{ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }** أي المخلصين بالتوحيد.

الآية: ١٦ **{ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }**

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ} قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ {يَتَقَبَّلُ} و {يَتَجَاوَزُ} بفتح الياء، والضمير فيهما يرجع لله عز وجل. وقرأ حفص وحمره والكسائي {نَتَقَبَّلُ}، وَنَتَجَاوَزُ} النون فيهما، أي نغفرها ونصفح عنها. والتجاوز أصله من جرت الشيء إذا لم تقف عليه. وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ} إلى آخرها مرسله نزلت على العموم. وهو قول الحسن. ومعنى {نتقبل عنهم} أي نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات. قال زيد بن أسلم - ويحكيه مرفوعاً -: إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم. وقيل: الأحسن ما يقتضى الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا عقاب، حكاه ابن عيسى. {فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ} {فِي} بمعنى مع، أي مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي مع جميعهم. {وَعَدَ الصَّدَقُ} نُصِبَ لَهُ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لَمَّا قَبْلَهُ، أَي وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْإِيمَانِ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئِهِمْ وَعَدَ الصَّدَقُ. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الصدق هو ذلك الوعد الذي وعده الله، وهو كقوله تعالى: {حَقُّ الْيَقِينِ} [الواقعة: ٩٥]. {الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} في الدنيا على ألسنة الرسل، وذلك الجنة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحرف. ويبدأ بالوصية بالوالدين. وكثيراً ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث. ذلك أن وشيعة الأبوة والبنوة هي أول وشيعة بعد وشيعة الإيمان في القوة والأهمية، وأولها بالرعاية والتشريف. وفي هذا الاقتران دلالتان: أولاهما هي هذه. والثانية أن آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدمة، ثم تليها آصرة الدم في أوثق صورها.

وفي هذا الشوط نموذجان من الفطرة: في النموذج الأول تلتقي آصرة الإيمان وآصرة الوالدين في طريقهما المستقيم المهتدي الواصل إلى الله. وفي الثاني تفترق آصرة النسب عن آصرة الإيمان، فلا تلتقيان. والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشري. والنموذج الثاني مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب. وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب في مشهد من مشاهد القيامة، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار. {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}، فهي وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً. وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد. فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك. وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً. فما يُعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان. وتكرر في القرآن

الكريم وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الوصية بالإحسان إلى الوالدين. ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة. ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفة بذاتها لا تحتاج إلى مثير، وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيرا ما تصل إلى حد الموت- فضلا على الأم- بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران! أما الجيل الناشئ فقلما يتلفت إلى الخلف. قلما يتلفت إلى الجيل المضحى الواهب الفاني. لأنه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلا ناشئا منه يضحى له بدوره ويرعاه! وهكذا تمضي الحياة! والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضمر وتكبر وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء. والطفل الذي يُحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذًا غير طبيعي في كثير من جوانب حياته- مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة- وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة، هو شعور الحب. فقد ثبت أن الطفل بفطرته يجب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته. ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد. وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا. إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال، يتحاقدون فيما بينهم على الأم الصناعية المشتركة، وتُبدّر في قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبدا. كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية. وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي. فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال. فتنشأ شخصياتهم مخلخلة، ومجرومون ثبات الشخصية. والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم، الذي يستهدف الإسلام إنشائه على أساس الفطرة السليم.

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بما الأمومة، والتي لا يجزيها أبدا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} وتركيب الألفاظ وحرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضحى والكلال: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا. وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة. إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للاتصاق بجدار الرحم. وهي مزودة بخاصية أكالة. تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله فيتوارد دم الأم إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه لتحيا به وتنمو. وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتضم وتتمص، لتصب هذا كله دما نقيًا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكل! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشد امتصاصه للحجر من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير! وهذا كله قليل من كثير! ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة. ثمرة التلبية للفطرة، ومنح

الحياة نبتة جديدة تعيش، وتمتد، بينما هي تذوي وتموت! ثم الرضاع والرعاية. حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود. لا تمل أبدا ولا تكره تعب هذا الوليد. **وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو. فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد!** فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية، مهما يفعل. وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد؟ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها؟ فأجابته: **«لا، ولا بزفرة واحدة».**

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين، واستحاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة في الأم، إلى مرحلة النضج والرشد، مع استقامة الفطرة، واهتداء القلب: **{حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحَ لِي فِي دَرْجَتِي، إِلَيَّ ثُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}** وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين. والأربعون هي غاية النضج والرشد، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات، ويتهيأ الإنسان للتدبير والتفكير في اكتمال وهدوء. وفي هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة. وتدبر المصير والمآل.

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة، وهي في مفرق الطريق، بين شطر من العمر ولى، وشرط يكاد آخره يتبدى. وهي تتوجه إلى الله: **{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ}**. دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة العهد به، المستقل المستصغر لجهده في شكرها. يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله: **{أَوْزِعْنِي}** لينهض بواجب الشكر فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير. **{وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}** وهذه أخرى. فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه. فرضى ربه هو الغاية التي يتطلع إليها. وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه. **{وَأَصْلِحَ لِي فِي دَرْجَتِي}**. وهذه ثالثة. وهي **رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته. وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهي آثر عنده من الكنوز والدخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله. وشفاعته إلى ربه، وشفاعته التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء الخالص لله، هي التوبة والإسلام: {إِنِّي ثُبْتُ إِلَيْكَ وَإِلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**. ذلك شأن العبد الصالح، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه. فأما شأن ربه معه، فقد أفصح عنه هذا القرآن: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ. وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}**. فالجزء بحساب أحسن الأعمال. والسيئات مغفورة متجاوز عنها. والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء. ذلك وفاء بوعدهم الذي وعدوه في الدنيا. ولن يخلف الله وعده. وهو جزاء الفيض والوفى والإنعام.

كما ربياني صغيرا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء:

{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْبَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا {فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا} على إشراكك {مَخْذُولًا} لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرًا ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا بشير بن سلمان، عن سيّار أبي الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغي، إما أجلٌ عاجل وإما غنى عاجل". ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بشير بن سلمان، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْبَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} يقول تعالى أمرًا بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر. قال مجاهد: {وَقَضَىٰ} يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: "ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} أي: وأمر بالوالدين إحسانًا، كما قال في الآية الأخرى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤].

وقوله: {إِنَّمَا يَبْتَلِعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَثُلَ لَّهُمَا أَفٌّ} أي: لا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف
الذي هو أدنى مراتب القول السيئ {وَلَا تَنْهَرُهُمَا} أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي
رباح في قوله: {وَلَا تَنْهَرُهُمَا} أي: لا تنفض يدك على والديك. وما نجاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول
الحسن والفعل الحسن فقال: {وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} أي: لِينًا طَيِّبًا حَسَنًا بِتَأْدَبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ. {وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} أي: تواضع لهما بفعلك {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمَهُمَا} أي: في كبرهما وعند وفاتهما {كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال: "أمين أمين أمين"، فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين".

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زرارة بن أوفى عن مالك بن عمرو القشيري: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، مكان كل عظم من عظامه مُحَرَّرَه بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يُغفر له فأبعده الله عز وجل، ومن ضم يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنة"

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة". صحيح من هذا الوجه، ولم يخرج سوى مسلم، من حديث أبي عوانة وجريير وسليمان بن بلال، عن سهيل.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن العَسِيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه، عن علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من برّ أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: "نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقيهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما". حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريح، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمي؛ أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وحيثك أستشيرك؟ فقال: "فهل لك من أم؟" قال نعم. فقال: "الزمها. فإن الجنة عند رجلها".

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَجْرِ بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدم بن معد يكرب الكندي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب".

{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)}

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك - فقال: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} وقوله تعالى: {فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا} قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب.

ويقول الإمام القرطبي:

فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: قضى: أي أمر وألزم وأوجب، قال بن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر. وقال الضحاك: قال علماءنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر كقوله تعالى: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه معناه أمر، والقضاء بمعنى الخلق كقوله: فقضاهن سبع سماوات في يومين، يعني خلقهن، والقضاء بمعنى الحكم كقوله تعالى: فاقض ما أنت قاض، يعني احكم ما أنت تحكم، والقضاء بمعنى الفراغ كقوله: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان، أي فرغ منه، ومنه قوله تعالى: فإذا قضيتُم مناسككم، وقوله تعالى: فإذا قضيت الصلاة، والقضاء بمعنى الإرادة كقوله تعالى: إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، والقضاء بمعنى العهد كقوله تعالى: وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر؛ فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك لأن الله تعالى لم يأمر بما إنه لا يأمر بالفحشاء.

الثانية: أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، وقال: أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير. وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل قال: "الصلاة على وقتها"، قال: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين"، قال ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن بر

الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام ورتب ذلك بـ"ثم" التي تعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من الكبائر شتم الرجل والديه" قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: "نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه".

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما كما أن برهما موافقتها على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدتهما بأمر وجبت طاعتها فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله وكذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره في حق الولد مندوبا إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في نديته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك"، قال هذا حديث حسن صحيح.

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك". فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب لذكر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا توصل هذا المعنى شهد له العيان وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. وروى عن مالك أن رجلا قال له: إن أبي في بلد السودان وقد كتب إلي أن أقدم عليه وأمي تمنعني من ذلك. فقال له: "أطع أباك ولا تعص أمك"، فدل قول مالك هذا أن برهما متساو عنده، وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم وزعم أن لها ثلثي البر، وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر وهو الحجة على من خالف؛ وقد زعم المحاسبي في كتاب "الرعاية" له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه والله أعلم.

السابعة: لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد، قال الله تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم} [الممتحنة]؛ وفي

صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: "نعم صلي أملك".

الثامنة: من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما، روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال: "أحي والداك؟" قال نعم، قال: "ففيهما فجاهد"، لفظ مسلم في غير الصحيح قال: نعم وتركتهما يكيان، قال: "أذهب فاضحكهما كما أبكيتهما". وفي خبر آخر أنه قال: "نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلعبانك أفضل لك من الجهاد معي" ذكره بن خزيمة مندداً؛ ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يباعه على الهجرة وترك أبويه يكيان فقال: "ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما".

التاسعة: واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية، فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما، وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما؛ قال بن المنذر: والأجداد آباء والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهما، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات؛ وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل.

العاشرة: من تمام برهما صلة أهل ودتهما، ففي الصحيح عن بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي". وروي أبو أسيد وكان بدريا قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به قال: "نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك".

الحادية عشرة: قوله تعالى: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما}، خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلي منه، ولذلك خص هذه الحالة بالذكر، وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنفخ لهما أوداجه ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة وهو السالم عن كل عيب،

فقال: {فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً}. فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة برهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك والشقي من عقهما لا سيما من بلغه الأمر ببرهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: {فلا تقل لهما أف}، أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم. وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القذع الرديء الخفي؛ وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أف، والآية أعم من هذا. والأف والتف وسخ الأظفار ويقال لكل ما يضرح ويستثقل: أف له. وقال القتبي: أصله نفحك الشيء يسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك وللمكان تريد إمالة شيء لتقعده فيه فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل. وروي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علم الله من العقوق شيئاً أردأ من أف لذكره، فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار، وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة". قال علماؤنا: وإنما صارت قولة أف للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة وجحد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل، وأف كلمة مقولة لكل شيء مرفوض، ولذلك قال إبراهيم لقومه: {أف لكم ولما تعبدون من دون الله} أي رفض لكم ولهذا الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: {ولاتنهرهما} النهر: الزجر والغلظة. {وقل لهما قولاً كريماً} أي لينا لطيفاً مثل: يا أبتاه ويا أماه من غير أن يسميهما ويكنيهما. قال عطاء وقال بن البداح التحيبي: قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله: {وقل لهما قولاً كريماً} ما هذا القول الكريم؟ قال بن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمر والعبيد للسادة. وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذل: هو اللين؛ فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظره ولا يجد إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان ولم يذكر الذل في قوله تعالى: واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده، ومن في قوله: من الرحمة لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقاً بك إذ وليك صغيراً جاهلاً محتاجاً فأثراك على أنفسهما وأسهرها ليلهما وجاعاً وأشبعك وتعرباً وكسواك فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبير الحد الذي كنت فيه من الصغر

فتلي منهما ما وليا منك ويكون لهما حينئذ فضل التقدم، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يجزئ ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتره فيعتقه".

السادسة عشرة قوله تعالى: { **كما ربياني** } خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين وقد نهي القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربي، وذكر عن بن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إلى قوله أصحاب الجحيم، فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به ها هنا إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر، لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة، وقيل: ليس هذا موضع نسخ فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حين كما تقدم أو يكون عموم هذه الآية خص بتلك لا رحمة الآخرة لا سيما، وقد قيل إن قوله: وقل رب ارحمهما نزلت في سعد بن أبي وقاص فإنه أسلم فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجردة فذكر ذلك لسعد فقال: لتمت، فنزلت الآية، وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين، والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال بن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحدا فواحدا، ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا". فقال رجل: يا رسول الله وإن ظلماه؟ قال: "وإن ظلماه وإن ظلماه". وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي فقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل: "فأنتي بأبيك" فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه. فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله؟" فقال: سله يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إيه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك" فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي. قال: "قل وأنا أسمع" قال قلت: غذوتك مولودا ومنتك بافعا تعل بما أجني عليك وتنهل، إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرا أتململ، كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني، فعيني تهمل تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل، فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أو مل، جعلت جزائي غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل، فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المصاقب يفعل، فأوليتي حق الجوار ولم تكن علي بمال دون مالك تبخل. قال: فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال: "أنت ومالك لأبيك" قال الطبراني: اللحمي لا يروي يعني هذا الحديث عن بن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد وتفرد به عبيد الله بن خلصة والله أعلم.

قوله تعالى: {ريكم أعلم بما في نفوسكم} أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما أو من غير ذلك من العقوق أو من جعل ظاهر برهما رياء، وقال بن جبير: يريد البادرة التي تبدر كالفلتة والزلة تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما لا يريد بذلك بأسا، قال الله تعالى: {إن تكونوا صالحين} أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة، وقوله: {فإنه كان للأوابين عفورا} وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى؛ قال سعيد بن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب، وقال بن عباس رضي الله عنه: الأواب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياها استغفر منها، وقال عبيد بن عمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل، وهذه الأقوال متقاربة. وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك. أمر في صورة قضاء. فهو أمر حتمي حتمية القضاء. ولفظة «قضى» تخلع على الأمر معنى التوكيد، إلى جانب القصر الذي يفيد النفي والاستثناء {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} فتبدو في جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد. فإذا وضعت القاعدة، وأقيم الأساس، جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية، ولها في النفس ركيزة من العقيدة في الله الواحد، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال. والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هي رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله، إعلانا لقيمة هذا البر عند الله: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}. بهذه العبارات الندية، والصور الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء. ذلك أن الحياة وهي مندفة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولوية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتعطف إلى الخلف، وتتلقت إلى الآباء والأمهات. إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد. إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية-إن أمهلها الأجل- وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية، وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء

من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله. ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال وفي استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان: {إِنَّمَا يَبْتَلِنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} والكبر له جلاله، وضعف الكبر له إيحاؤه وكلمة {عِنْدَكَ} تُصَوِّرُ مَعْنَى الْإِلْتِجَاءِ وَالِاحْتِمَاءِ فِي حَالَةِ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ {فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرْتَهُمَا} وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضييق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب. {وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام. {وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} وهنا يشف التعبير ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان. فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام. {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتَ رَبِّيَ صَغِيرًا} فهي الذكرى الحانية، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الولدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان. وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب. وهو أقدر على جزائهما بما بدلا من دمهما وقلبيهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء. قال الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه: أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - هل أدت حقها؟ قال: "لا. ولا بزفرة واحدة". ولأن الانفعالات والحركات موصولة بالعميقة في السياق، فإنه يعقب على ذلك يرجع الأمر كله لله الذي يعلم النوايا، ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}. وجاء هذا النص قبل أن يمضي في بقية التكاليف والواجبات والآداب ليرجع إليه كل قول وكل فعل وليفتح باب التوبة والرحمة لمن يخطئ أو يقصر، ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير. وما دام القلب صالحا، فإن باب المغفرة مفتوح. والأوابون هم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربه مستغفرين.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان:

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} أي: هو أعظم الظلم. قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}. ثم قرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين. كما قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]. وكثيراً ما يقرون تعالى بين ذلك في القرآن. وقال هاهنا {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ}. قال مجاهد: مشقة وهن الولد. وقال قتادة: جهداً على جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفا على ضعف.

وقوله: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ} [البقرة: ٢٣٣]. ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥]. وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليدكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤]؛ ولهذا قال: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله: {وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} أي: إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما، {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} يعني: المؤمنين، {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند [عن أبي عثمان النهدي]: أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية: {وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} الآية، وقال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: "يا قاتل أمه". فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه،

وهما لغتان، أي وفصاله في انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أي تميّز؛ وبه سمي الفصيل.

الرابعة: الناس مجتمعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص. وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع. وقالت فرقة: إن فطم الصبي قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم.

الخامسة: قوله تعالى: { **أَنِ اشْكُرْ لِي** } { **أَنْ** } في موضع نصب في قول الزجاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحاس: وأجود منه أن تكون { **أَنْ** } مفسرة، والمعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

قوله تعالى: { **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لما أسلم، وأن أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل؛ كما تقدم في الآية قبلها.

السابعة: قوله تعالى: { **وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** } نعت لمصدر محذوف؛ أي مصاحبا معروفا؛ يقال صاحبتة مصاحبة ومصاحبا. و { **مَعْرُوفًا** } أي ما يحسن. والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقير، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق. وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي عليه الصلاة والسلام وقد قدمت عليه خالتها وقيل أمها من الرضاة فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: "نعم". وراغبة قيل معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها. ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبدالرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

الثامنة: قوله تعالى: { **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** } وصية لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و { **أَنَابَ** } معناه مال ورجع إلى الشيء؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقاش أن المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبدالرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزيبر فقالوا: آمنت! قال نعم؛ فنزلت فيه: { **أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَجْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** } فلما سمعها الستة آمنوا؛ فأنزل الله تعالى فيهم: { **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى** } إلى قوله { **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** }.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَأُذِ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ. إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}. وإنها لعظة غير متهممة فما يريد الوالد لولده إلا الخير وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً. وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ظلم عظيم. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين، مرة بتقديم النهي وفصل علتها، ومرة بيانً واللام. وهذه هي الحقيقة التي يعرضها محمد صلى الله عليه وسلم على قومه، فيجادلونه فيها ويشكون في غرضه من وراء عرضها ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة من كل ظنة. ألا إنها الحقيقة القديمة التي تجري على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس يراد بها الخير المحض، ولا يراد بها سواه. وهذا هو المؤثر النفسي المقصود. وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة. ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً. ومعظمها في حالة الواد- وهي حالة خاصة في ظروف خاصة. ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه. فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة، كما يريد الله وإن الوالدين لبيدلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأحدهما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولى الذاهب في أدبار الحياة، بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعرض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما. وهذه الصورة الموحية: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} ترسم ظلال هذا البذل النبيل. والأم بطبيعة الحال تحتل النصيب الأوفر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق. روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده- بإسناده- عن بريد عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أدت حقها؟ قال: "لا. ولا بزفرة واحدة". هكذا، ولا بزفرة، في حمل أو في وضع، وهي تحمله وهنًا على وهن. وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ويرتب الواجبات، فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}. ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة: {إِلَيَّ الْمَصِيرُ} حيث ينفع رصيد الشكر المذخور. ولكن رابطة الوالدين بالوليد- على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة- إنما تأتي في ترتيبها بعد وشيخة العقيدة. فبقية الوصية

للإنسان في علاقته بوالديه: {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}. فيألى هنا ويسقط واجب الطاعة، وتعلو وشيخة العقيدة على كل وشيخة. فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن اقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته- وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم! فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة. ولكن الاختلاف في العقيدة، والأمر بعدم الطاعة في خلافها، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحة الكريمة: {وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلية: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} من المؤمنين {ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ} بعد رحلة الأرض المحدودة {فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران، ومن شرك أو توحيد. روي أن هذه الآية نزلت هي وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك في سعد بن أبي وقاص وأمه (كما قلت في تفسيرها في الجزء العشرين في سورة العنكبوت). وروي أنها نزلت في سعد بن مالك. ورواه الطبراني في كتاب العشرة - بإسناده- عن داود بن أبي هند. والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص، وهو الأرجح. أما مدلولها فهو عام في كل حال مماثلة، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتكاليف. فتجيء الرابطة في الله هي الوشيخة الأولى، ويجيء التكليف بحق الله هو الواجب الأول. والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة ويؤكددها في كل مناسبة وفي صور شتى لتستقر في وجدان المؤمن واضحة حاسمة لا شبهة فيها ولا غموض.

ويقول الأستاذ سيد قطب في تفسيره لآية سورة العنكبوت:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا. وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} إن الوالدين لأقرب الأقرباء، وإن لهما فضلاً، وإن لهما لرحماً وإن لهما لواجباً مفروضاً: واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة، ولكن ليس لهما من طاعة في حق الله. وهذا هو الصراط: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا. وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}. إن الصلة في الله هي الصلة الأولى، والرابطة في الله هي العروة الوثقى. فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية، لا الطاعة ولا الاتباع، وإن هي إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله {إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ويفصل ما بين المؤمنين والمشركين. فإذا المؤمنون أهل ورفاق، ولو لم يعقد بينهم نسب ولا صهر: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة، كما هم في الحقيقة وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر، وتنتهي بانتهاى الحياة الدنيا، فهي روابط عارضة لا أصيلة، لانقطاعها عن العروة الوثقى التي لا انفصام لها. روى الترمذي عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمدة بنت أبي سفيان، وكان باراً بأمه. فقالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت، فتتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثم إنهما

مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني، فكلي إن شئت، وإن شئت فلا تأكلي. فلما أيست منه أكلت وشربت. فأنزل الله هذه الآية آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك. وهكذا انتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم واستبقي الإحسان والبر. وإن المؤمن لعرضة لمثل هذه الفتنة في كل آن فليكن بيان الله وفعل سعد هما راية النجاة والأمان.

وبرا بوالديه

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة مريم:

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ
وَمَا يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) }

يقول الإمام ابن كثير:

وهذا أيضا تضمن محذوفًا، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } أي: تعلم الكتاب { بِقُوَّةٍ } أي: بجد وحرص واجتهاد { وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } أي: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث السن. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت، قال: فلهذا أنزل الله: { وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا }.

وقوله: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } يقول: ورحمة من عندنا، وكذا قال عكرمة وقتادة، والضحاك وزاد: لا يقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِمَ بها زكريا. وقال مجاهد: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } وتعطفًا من ربه عليه. وقال عكرمة: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } قال: محبة عليه. والظاهر من هذا السياق أن: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } معطوف على قوله: { وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } أي: وأتيناه الحكم وحنانا، { وَزَكَاةً } أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها، وحنّت المرأة على زوجها. ومنه سُميت المرأة "حنّة" من الحنّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة. وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه قال: "يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة: يا حنان يا منان".

وقوله: { وَزَكَاةً } معطوف على { وَحَنَانًا } فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب. وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح. { وَكَانَ تَقِيًّا } طهر، فلم يعمل بذنوب.

وقوله: { **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا** } لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، **عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما، قولاً وفعلاً وأمرًا ونهيًا؛** ولهذا قال: { **وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا** } ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: { **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** } أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، { **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** }

ويقول سبحانه وتعالى:

{ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)** }

{ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** } أي: فتعجبت مرثم من هذا وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يُتصور مني الفجور؛ ولهذا قالت: { **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** } والبغي: هي الزانية.

{ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ** } أي: فقال لها الملك مجيبًا لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلامًا، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: { **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ** } أي: **دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم**، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: { **وَرَحْمَةً مِنَّا** } أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: { **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ** } [آل عمران: ٤٥ ، ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة الله ربه في مهده وكهولته.

وقوله: { **وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** } يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: { **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا** } [التحریم: ١٢] وقال { **وَالَّتِي**

أُحْصِنَتْ فَرْجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا} [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: {وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} أي: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضًا ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم.

{فَحَمَلْتُهُ فَأَنْتَبَذْتُ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣)}

يقول تعالى مخبرًا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعًا به ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به. ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. وقال ابن جريج: أخبرني المغيرة بن عثمان بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت (!!!). وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: {فَحَمَلْتُهُ فَأَنْتَبَذْتُ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَالَةِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} [المؤمنون: ١٢ - ١٤] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يومًا وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكانًا قصيًّا، أي: قاصيًّا منهم بعيدًا عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها.

وقوله: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ} أي: فاضطرها وأجأها الطلق إلى جذع النخلة.

وقوله تعالى إخبارًا عنها: {قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا} فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتنح بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا} أي قبل هذا الحال، {وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا} أي لم أخلق ولم أك شيئًا. وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل، استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بعل {وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا} نسي فثرك طلبه، كخزق الحيض إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي.

{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَعَيْنًا فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)}

قرأ بعضهم {مَنْ تَحْتَهَا} بمعنى الذي تحتها. وقرأ آخرون على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا} جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقتادة: إنه الملك جبريل عليه الصلاة والسلام، أي: ناداه من أسفل الوادي. وقال مجاهد: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا} قال: عيسى ابن مريم، وكذا قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى الروایتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها، قال: أولم تسمع الله يقول: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ} [مريم: ٢٩]، واختاره ابن زيد، وابن جرير في تفسيره.

وقوله: {أَلَّا تَحْزِنِي} أي: ناداه قائلاً لا تحزني، {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} قال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السري: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه. وقال إبراهيم النخعي: هو النهر الصغير. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال آخرون: المراد بالسري: عيسى عليه السلام، وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عبّاد بن جعفر. وهو إحدى الروایتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: {وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ} أي: وخذي إليك بجزع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: {تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} أي: طيبي نفساً. وقرأ بعضهم قوله: "تساقط" بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها.

وقوله: {فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا} أي: مهما رأيت من أحد، {فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي؛ لئلا ينافي: {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}. قال أنس بن مالك في قوله: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} أي: صمماً وكذا قال ابن عباس، والضحاك.

{فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتُ هَاهُوْنَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوِيًّا وَمَا كَانَ ثَمَّ بِكَ بَعْثًا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَمَا يَجْعَلُنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)}

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها **فسلمت لأمر الله، عز وجل، واستسلمت لقضائه**، وأخذت ولدها **{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ}** فلما رآوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: **{يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيئًا}** أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد ، وفتادة والسدي ، وغير واحد. **{يَا أُخْتِ هَازُونَ}** أي: يا شبيهة هارون في العبادة **{مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا}** أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة، والسدي: قيل لها: **{يَا أُخْتِ هَازُونَ}** أي: أختي موسى، وكانت من نسله كما يقال للميمي: يا أختا تميم، وللمضري: يا أختا مضر.

وقوله: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}** أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صائمة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، طانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: **{كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}** أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: **{إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ}** أول شيء تكلم به أن **نزه جناب ربه تعالى وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه**.

وقوله: **{آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}**: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. وقوله: **{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ}** قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير.

وقوله: **{وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}** كقوله تعالى لحمد صلى الله عليه وسلم: **{وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}** [الحجر: ٩٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: **{وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}** قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أثبتها لأهل القدر.

{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)} وقوله: **{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي}** أي: وأمري ببر والدتي، **ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين**، كما قال تعالى: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** [الإسراء: ٢٣] وقال **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}** [لقمان: ١٤].

وقوله: **{وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}** أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يقبل على الغضب.

ويقول الإمام القرطبي:

الآيات ١٢-١٣-١٤-١٥: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأْتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا } { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا } { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }

قوله تعالى: { يا يحيى خذ الكتاب بقوة } في الكلام حذف؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للمولود: { يا يحيى خذ الكتاب بقوة } وهذا اختصار يدل الكلام عليه و"الكتاب" التوراة بلا خلاف. "بقوة" أي يجد واجتهاد؛ قاله مجاهد. وقيل العلم به، والحفظ له والعمل به، وهو الالتزام لأوامره، والكف عن نواهيه؛ قاله زيد بن أسلم. { وَأْتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } قيل: الأحكام والمعرفة بها.

قوله تعالى: { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا } "حنانا" عطف على "الحكم". وقال جمهور المفسرين: الحنان الشفقة والرحمة والمحبة؛ وهو فعل من أفعال النفس. وأصله من حنين الناقة على ولدها. ويقال: حنانك وحنانيك؛ قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانيك تشية الحنان. وقال أبو عبيدة: والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك يا رب بمعنى واحد؛ تريد رحمتك. وقال الزمخشري: "حنانا" رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفًا وشفقة. قال ابن الأعرابي: الحنان من صفة الله تعالى مشددا للرحيم والحنان، مخفف: العطف والرحمة. والحنان: الرزق والبكرة. ابن عطية: والحنان في كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور في ذات الله تعالى؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في حديث بلال: والله لئن قتلتهم هذا العبد لأتخذن قبره حنانا؛ وذكر هذا الخبر الهروي؛ فقال: وفي حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذب فقال الله لئن قتلتهم لأتخذن حنانا؛ أي لأتمسحن به. وقال الأزهري: معناه لأتعطفن عليه ولأترحن عليه لأنه من أهل الجنة. قلت: فالحنان العطف، وكذا قال مجاهد. و"حنانا" أي تعطفنا منا عليه أو منه على الخلق. قوله تعالى: { وَزَكَاةً } "الزكاة" التطهير والبركة والتنمية في وجوه الخير والبر؛ أي جعلناه مباركا للناس يهديهم. وقيل: المعنى زكيناها بحسن الثناء عليه كما تركي الشهود إنسانا. وقيل: "زكاة" صدقة به على أبويه؛ قاله ابن قتيبة. { وَكَانَ تَقِيًّا } أي مطيعا لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يلم بها.

قوله تعالى: { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ } البر بمعنى البار وهو الكثير البر. و { جَبَّارًا } متكبرا. وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح.

قوله تعالى: { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ } قال الطبري وغيره: معناه أمان. ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه، وحياه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول. قلت: وهذا قول حسن.

الآية ٢٠: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَعِيًّا}

الآية ٢١: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا}

الآية ٢٢: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا}

الآية ٢٣: {فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا}

الآية ٢٤: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}

الآية ٢٥: {وَهُرِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطْبًا حَنِينًا}

الآية ٢٦: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}

قوله تعالى: {وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ} القصة إلى آخرها هذا ابتداء قصة ليست من الأولى. والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا. {إِذْ انْتَبَدَتْ أَي تَنَحَّتْ وَتَبَاعَدَتْ. والنبد الطرح والرمي؛ قال الله تعالى: {فَنَبِّدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}. {مِنْ أَهْلِهَا} أي ممن كان معها. والانتبذ الاعتزال والانفراد. واختلف الناس لم انتبذت؛ فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره: لتعبد الله؛ وهذا حسن. وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سداثة المعبد وخدمته والعبادة فيه، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب في شرفه لتخلو للعبادة، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقوله: {مَكَانًا شَرْقِيًّا} أي مكانا من جانب الشرق. والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق بفتح الراء الشمس. وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها؛ حكاها الطبري. واختلف الناس في نبوة مريم؛ فقيل: كانت نبية بهذا الإرسال والمخاطبة للملك. وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رئي جبريل في صفة دحية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأول أظهر.

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} قيل: هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة. والظاهر أنه جبريل عليه السلام؛ لقوله: {فَتَمَثَّلَ لَهَا} أي تمثل الملك لها. "بشرا" تفسير أو حال. "سويا" أي مستوي الحلقة؛ لأنها لم تكن لتطبيق أو تنظر جبريل في صورته. ولما رأت رجلا حسن الصورة في صورة البشر قد حرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء. ف{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا} أي ممن يتقي

الله. فقال لها جبريل عليه السلام: **{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}** جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وقرأ ورش عن نافع **{ليهب لك}** على معنى أرسلني الله ليهب لك. فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه **{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** أي بنكاح. **{وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا}** أي زانية. وذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ وقوله: "ولنجعله" متعلق بمحذوف؛ أي ونخلقه لنجعله: "آية" دلالة على قدرتنا عجيبة **{وَرَحْمَةً مِنَّا}** لمن أمن به. **{وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا}** مقدرا **في اللوح مسطورا.**

قوله تعالى: **{فَإِن تَبَدَّلَ بِهٍ مَكَانًا فَصِيبًا}** أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد؛ وإنما بعدت فرارا من تعبير قومها إياها بالولادة من غير زوج. قال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاهر **(لو كان الأمر كذلك فما كانت حاجتها إلى الانتباز بحملها إلى مكان قصي!!!)**.

قوله تعالى: **{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ}** "أجاءها" اضطرها؛ وهو تعديّة جاء بالهمز. يقال: جاء به وأجأه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهب. وقرأ الجمهور **{الْمَخَاضُ}** بفتح الميم. ابن كثير فيما روي عنه بكسرهما وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها. مخضت المرأة تمخض مخاضا ومخاضا. وناقاة ماخض أي دنا ولادها. **{إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ}** كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق. والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة. **{قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا}** تمت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يُظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك. الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك. وعلى هذا الحد يكون تمني الموت جائزا. **{قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا}** النسبي في كلام العرب الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه. وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا: احفظوا أنساءكم، الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقير يُغفل فينسى. وقال الفراء: النسبي ما تلقاه من خرق اعتلاها، فقول مريم **{نَسِيًّا نَسِيًّا}** أي حيضة ملقاة.

قوله تعالى: **{فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا}** قرىء بفتح الميم وكسرهما. قال ابن عباس: المراد ب"من" جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وقاله علقمة والضحاك وقتادة، ففي هذا آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي الله تعالى فيها مراد عظيم. وقوله: **{أَلَا تَحْزَنِي}** تفسير النداء، "وأن" مفسرة بمعنى أي، المعنى: فلا تحزني بولادتك. **{قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}** يعني عيسى. والسري من الرجال العظيم الخصال السيد. قال الحسن: كان والله سريرا

من الرجال. وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريب جذع النخلة. والنهر يسمى سريرا لأن الماء يسري فيه وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلبها؛ والأول أظهر.

قوله تعالى: {وَهَزِّيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِينًا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} فيه أربع مسائل: الأولى: قوله تعالى: {وَهَزِّيْ} أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. والباء في قوله: {بِجِذْعِ} زائدة مؤكدة كما يقال: خذ بالزمام، وأعط بيدك قال الله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ} أي فليمدد سببا. وقيل: المعنى وهزي إليك رطبا على جذع النخلة. {وَتُسَاقِطُ} أي تتساقط فأدغم التاء في السين. {رَطْبًا} نصب بالهز؛ أي إذا هزت الجذع هزرت بهز "رطبا حنيا". "وحنيا" معناه قد طابت وصلحت للاحتناء، وهي من حنيت الثمرة. وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: {رَطْبًا حَنِينًا} فقال: لم يذو. قال وتفسيره: لم يجف ولم يبسس ولم يبعد عن يدي مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح. قال الفراء: الجني والجني واحد يذهب إلى أنهما بمنزلة القليل والمقتول والجريح والمجروح.

الثانية: استدلل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بالأ تهنز.

الثالثة: الأمر بتكليف الكسب الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدر في التوكل، خلافا لما تقولوه جهال المتزهدة. وقد كانت قبل ذلك يأتيتها، رزقها من غير تكسب كما قال: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} الآية، فلما ولدت أمرت بهز الجذع. قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بجديته وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده. قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم؛ ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت وكذلك التحنيك. قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى: {رَطْبًا حَنِينًا} الجني من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد. والنقش أن ينقش من أسفل البسرة حتى ترطب؛ فهذا مكروه؛ يعني مالك أن هذا تعجيل للشيء قبل وقته، فلا ينبغي لأحد أن يفعله، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوزا لبيعه؛ ولا حكما بطيبه. عن طلحة بن سليمان "حنيا" بكسر الجيم للإتباع؛ أي جعلنا لك في السري والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، الثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين. وهو معنى قوله تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} أي فكلي من الجني، وأشربي من السري، وقري عينا برؤية الولد النبي. يقال: قر عينا يقر ويقر بضم القاف وكسرهما وأقر الله عينه فقرت. وهو مأخوذ من القر والقررة وهما البرد. ودمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة. وضعف فرقة هذا وقالت: الدمع كله حار، فمعنى أقر الله عينه أي سكن

الله عينه بالنظر إلى من يجبه حتى تقر وتسكن؛ وفلان قرّة عيني؛ أي نفسي تسكن بقره. وقال الشيباني: {وَقَرِّي عَيْنًا} معناه نامي حضها على الأكل والشرب والنوم. قال أبو عمرو: أقر الله عينه أي أنام عينه، وأذهب سهره.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا تَرِيْنٌ مِّنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: {فَإِنَّمَا تَرِيْنٌ} الأصل في ترين ترأيين فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار "تريين" ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التانيث، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار ترين، ثم حذفت النون علامة للجرم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقي تري، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة، فكسر ياء التانيث لالتقاء الساكنين؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار ترين.

الثانية - قوله تعالى: {فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ} هذا جواب الشرط وفيه إضمار؛ أي فسألك عن ولدك {فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} أي صمتا؛ قاله ابن عباس وأنس بن مالك. وفي قراءة أبي بن كعب {إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا صمتا} وروي عن أنس. والذي تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام. ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام - أو ابنها على الخلاف المتقدم- بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها حجلها، وتبين الآية فيقوم عذرها. وظاهر الآية أنها أبيض لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور.

الثالثة - من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قرية فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس؛ كندر القيام في الشمس ونحوه. وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام. قلت: ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم". وقال عليه الصلاة والسلام: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

{[٢٧] فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} [٢٨] {يَا أُخْتِ هَازُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا}

قوله تعالى: {فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ} روى أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه. قال ابن عباس: خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله، فكان الحمل والولادة في ثلاث ساعات من النهار (!!!).

فلما رأوها ومعها الصبي حزنا وكانوا أهل بيت صالحين؛ فقالوا منكبين: {قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا} أي جئت بأمر عظيم كالآتي بالشيء يفتريه. قال مجاهد: {فَرِيًّا} عظيما. وقال سعيد بن مسعدة: أي مختلفا مفتعلا؛ يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد. والولد من الزنى كالشيء المفترى. قال الله تعالى: {وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِنَّ وَأَنْجُلِهِنَّ} أي بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منه. يقال: فلان يفري الفري أي يعمل العمل البالغ، وقال أبو عبيدة: الفري العجيب النادر. والفري القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا. وقال قطرب: الفري الجديد من الأسبقية؛ أي جئت بأمر جديد بديع لم تسبقني إليه.

قوله تعالى: {يَا أُخْتُ هَارُونَ} اختلف الناس في معنى هذه الأخوة ومن هارون؟ فقيل: هو هارون أخو موسى؛ والمراد من كنا نظنها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا. وقيل: على هذا كانت مريم من ولد هارون أخي موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده.

[٢٩] {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}

[٣٠] {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}

[٣١] {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا}

[٣٢] {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَنْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}

[٣٣] {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت ب {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا} وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها ب "قولي" إنما أريد به الإشارة. ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقرير {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} و"كان" هنا ليس يراد بها الماضي؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبيا، وإنما هي في معنى هو "الآن". وقال ابن الأنباري: لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت "صبيا" ولا أن يقال "كان" بمعنى حدث، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول: كان الحر وتكفني به. والصحيح أن "من" في معنى الجزء و"كان" بمعنى يكن؛ التقدير: من يكن في المهد صبيا فكيف نكلمه؟! كما تقول: كيف أعطي من كان لا يقبل عطية؛ أي من يكن لا يقبل. والماضي قد

يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء؛ كقوله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ خَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي إن يشأ يجعل. وتقول: من كان إلي منه إحسان كان إليه مني مثله، أي من يكن منه إلي إحسان يكن إليه مني مثله. "والمهد" قيل: كان سيراً كالمهد وقيل "المهد" ههنا حجر الأم. وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوم في المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرده {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردا على من غلا من بعده في شأنه. والكتاب الإنجيل، وقيل: أي حكم لي بإتياء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا في الحال؛ وهذا أصح. {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له. {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ} أي لأؤديهما إذا أدركني التكليف، وأمكنني أدائهما، على القول الأخير الصحيح. {مَا دُمْتُ حَيًّا} في موضع نصب على الظرف أي دوام حياتي. {وَوَبَّرًا بِوَالِدَيْ} قال ابن عباس: لما قال {وَوَبَّرًا بِوَالِدَيْ} ولم يقل بوالدي علم أنه شيء من جهة الله تعالى. {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا} أي متعظماً متكبراً يقتل ويضرب على الغضب. وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقا قط {شَقِيًّا} أي خائبا من الخير. ابن عباس: عاقا. وقيل: عاصيا لربه. وقيل: لم يجعلني تاركا لأمره فأشقى كما شقي إبليس لما ترك أمره.

الثالثة - قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت. وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمر عظيم. وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ويدل أيضا على أنه تكلم في المهد خلافا لليهود والنصارى. والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تحد. وإنما صح براءتها من الزنى بكلامه في المهد. ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وير الوالدين كان واجبا على الأمم السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه ولم ينسخ في شريعة أمره.

الرابعة - الإشارة بمنزلة الكلام، وتفهم ما يفهم القول. كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ} وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: {كَيْفَ نَكَلِّمُ}.

وقوله: {يَوْمَ وُلِدْتُ} يعني في الدنيا. {وَيَوْمَ أُمُوتُ} يعني في القبر {وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} يعني في الآخرة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية، الانفعالات في النفس البشرية، وفي «نفس» الكون من حولها. فهذا الكون الذي نتصوره جمادا لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات، تشارك في رسم الجو العام للسورة. حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا: {أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}. أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها. والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة. وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى.

والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال. فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} وهو يناجي ربه نجاء: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيرا. ويكثر فيها اسم «الرَّحْمَنِ». ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حنانا {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوَاتًا وَكَانَ تَقِيًّا}. ومن نعمة الله على عيسى أن جعله برا بوالدته وديعا لطيفا: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَمَنْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}. وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية وديبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال. كما تحس انتفاضات الكون وارتخافات لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته. كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيا خاصا. فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: رضيا. سريرا. حفيا. نجيا.. فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالا في الغالب. مَدًّا. ضَدًّا. إِذَا، هَذَا، أَوْ زَايَا : عَزًّا. أَرَّا.

.....

ويسدل عليه الستار في هذا المشهد ويطوي صفحته ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى يناديه ربه من المأل الأعلى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...}. لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيا، في الفجوة التي تركها السياق بين المشهدين، على طريقة القرآن في عرضه الفني للقصص، ليرز أهم الحلقات والمشاهد، وأشدّها حيوية وحركة. وهو يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة. لأن مشهد النداء مشهد رائع عظيم، يدل على مكانة يحيى، وعلى استحابة الله لـزكريا، في أن يجعل له من ذريته وليا، يحسن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشيّة. فهذا هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى. {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}، والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى، وعليه كان يقوم أنبياءهم يعلمون به ويحكمون. وقد ورث يحيى أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة.

وبعد النداء يكشف السياق عما زود به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً، وَكَانَ تَقِيًّا} فهذه هي المؤهلات التي زوده الله بها وأعدّه وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عند ما ناداه. آتاه الحكمة صبيًا. فكان فذا في زاده، كما كان فذا في اسمه وفي ميلاده. فالحكمة تأتي متأخرة. ولكن يحيى قد زود بها صبيًا. وآتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به. والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس، وتآلفها واجتذابها إلى الخير في رفق. وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع يواجه بها أدران القلوب وذنس النفوس، فيطهرها ويذكرها. {وَكَانَ تَقِيًّا} موصولًا بالله، متحرّجًا معه، مراقبًا له، يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سره ونحوه.

ذلك هو الزاد الذي آتاه الله يحيى في صباه، ليخلف أباه كما توجه إلى ربه وناداه نداء خفيا. فاستجاب له ربه ووهب له غلامًا زكيا. وهنا يسدل الستار على يحيى كما أسدل من قبل على زكريا. وقد رسم الخط الرئيسي في حياته، وفي منهجه، وفي اتجاهه. وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له، وفي نداء يحيى وما زوده الله به. ولم يعد في تفصيلات القصة بعد ذلك ما يزيد شيئا في عبرتها ومغزاها.

والآن فلنلق قصة أعجب من قصة ميلاد يحيى. إنها قصة ميلاد عيسى. وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل! وهي أعجب وأغرب. وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشائه على هذه الصورة، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده. والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجبية الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث. جرت هذه السنة أحقابا طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة، ونسوا الحادث الأول. حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس. فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها. {وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ}.

والسياق يُخرج القصة في مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات، التي تهمز من يقرأها هزا كأنما هو يشهدها: {وَأَدْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا. فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا

رَبِّكَ. قَالَتْ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَمَا يَمَسُّنِي بَشَرٌ وَمَا أَكْبَعِيًّا؟ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا {

فهذا هو المشهد الأول - فتاة عذراء، قديسة، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد. لا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعبد الإسرائيلي المتطهرين - ولا يُعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم. ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدنا فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هولاً: {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا} ... فلنشاهد مريم تنتبد مكاناً قصياً عن أهلها، في موقف أشد هولاً من موقفها الذي أسلفنا. إننا لنتصور الدهشة التي تعلق وجوه القوم وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة، يرونها تحمل طفلاً! {قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا!}. وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب التي لقنها إياها: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}. فماذا نقول في العجب والغيب الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ثم تتبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها! {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}. ولكن ها هي ذي الحارقة العجيبة تقع مرة أخرى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، آتَانِيَ الْكِتَابَ، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَمَا يَجْعَلُنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}.

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله. فليس هو ابنه كما تدعي فرقة. وليس هو إله كما تدعي فرقة. وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة، ويعلن أن الله جعله نبياً، لا ولداً ولا شريكاً. وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته. فله إذن حياة محدودة ذات أمد. وهو يموت ويبعث. وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يعث حياً. والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه. وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال داود الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمته، فليقرأ هؤلاء الآيات: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}** إلى قوله: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**. وقال الحاكم في مستدرکه: حدثنا بكر بن محمد الصيرفي بمرو، حدثنا عبد الصمد بن الفضل، حدثنا مالك بن إسماعيل التَّهْدِي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عباس يقول: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}**. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. قلت: ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن قيس، عن ابن عباس، به. والله أعلم. وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بأرائهم وتسويل الشياطين لهم، **{قُلْ}** لهم **{تَعَالَوْا}** أي: هلموا وأقبلوا: **{أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}** أي: أقص عليكم وأحبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخصمًا، ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده: **{أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}** وكان في الكلام مخدوفًا دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم **{أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}**؛ ولهذا قال في آخر الآية: **{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**. وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل فبشطني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتك دخل الجنة. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر" : وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه، عليه السلام، قال في الثالثة: "وإن رغم أنف أبي ذر" فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبي ذر. ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}** [النساء: ٤٨، ١١٦]. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: "من مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة". والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

وقوله تعالى: **{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** [الإسراء: ٢٣]. **والله تعالى كثيرًا ما يقرون بين طاعته وبر الوالدين**، كما قال: **{أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}** * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** الآية. [البقرة: ٨٣]. والآيات في هذا كثيرة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟

قال: "الصلاة على وقتها". قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين". قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله". قال ابن مسعود: حدثني بمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزدني. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، كل منهما يقول: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم: "أطع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا، فافعل". ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سئلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك". قلت: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك". قلت: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك". ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: ٦٨]. وقوله: {وَمِنْ إِمْلَاقٍ} قال ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقرهم الحاصل، وقال في سورة "سبحان": {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ} [الإسراء: ٣١]، أي: خشية حصول فقر في الآجل؛ ولهذا قال هناك: {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقرهم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا قال: {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}؛ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]. وقد تقدم تفسيرها في قوله: {وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢٠] {وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} إنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠). قال مجاهد: {وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} معصيته في السر والعلانية- وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل. وقال قتادة: {وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} أي: قليله وكثيره، سره وعلانيته. والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا}، الآية [الأعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ} أي: سواء كان ظاهرًا أو خفيًا، فإن الله سيجزئهم عليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر، عن أبيه، عن النّوّاس بن سَمْعَانَ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإثم فقال: "الإثم ما حاك في صدرك، وكهرت أن يطلع الناس عليه". [

وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أحد أعير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن". وقال عبد الملك بن عمير، عن وِزَاد، عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عباد: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربتته بالسيف غير مُصَفَّح. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن".

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يجل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يجل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس". فوالله ما زينت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بدني بدلا منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلونني. رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقوله: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٥١ {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزِلُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

الآية: ١٥٣ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} أي تقدموا واقرأوا حقاً يقينا كما أوحى إلى ربي، لا ظنا ولا كذباً كما زعمتم. ثم بين ذلك فقال {أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} يقال للرجل: تعال، أي تقدم، وللمرأة تعالي، وللاثنتين والاثنتين تعالياً، ولجماعة الرجال تعالوا، ولجماعة النساء تعالين؛ قال الله تعالى: {فَتَعَالَيْنِ أُمْتِعُكُمْ} [الأحزاب : ٢٨].

الثانية: قوله تعالى: {مَا حَرَّمَ} الوجه في {ما} أن تكون خبرية في موضع نصب بـ{تُلُّ} والمعنى: تعالوا أتل الذي حرم ربكم عليكم. {أَلَا تُشْرِكُوا} في موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأول، أي أتل عليكم ألا تشركوا؛ أي أتل عليكم تحريم الإشراف، ويحتمل أن يكون منصوباً بما في {عَلَيْكُمْ} من الإغراء، وتكون {عَلَيْكُمْ} منقطعة مما قبلها؛ أي عليكم ترك الإشراف، وعليكم إحساناً بالوالدين، وألا تقتلوا أولادكم وألا تقربوا الفواحش.

الثالثة: هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم الله عليهم مما حل. قال الله تعالى: {لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧]. وذكر ابن المبارك: أخبرنا عيسى بن عمر عن عمرو بن مرة أنه حدثهم قال: قال ربيع بن خيثم لجليس له: أيسرك أن توتى بصحيفة من النبي صلى الله عليه وسلم لم يفك خاتمها؟ قال نعم. قال فاقراً {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات. وقال ابن عباس: هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة "آل عمران" أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة.

الرابعة: قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهم وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما.

الخامسة: كقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} الإملاق الفقر: أي لا تقدوا من المؤودة- بناتكم خشية العيلة، فإني رازقكم وإياهم. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية. أملق أي افتقر. وأملقه أي أفقره؛ فهو لازم ومتعد.

السادسة: وقد يستدل بهذا من يمنع العزل؛ لأن الواد يرفع الموجود والنسل؛ والعزل منع أصل النسل فتشاهما؛ إلا أن قتل النفس أعظم وزراً وأقبح فعلاً؛ ولذلك قال بعض علمائنا: إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل: "ذلك الواد الخفي" الكراهة لا التحريم وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم. وقال بإباحته أيضاً جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام: "لا عليكم ألا تفعلوا وإنما هو القدر" أي ليس عليكم جناح في ألا تفعلوا. وقد فهم منه الحسن ومحمد بن المثني النهي والزجر عن العزل. والتأويل الأول أولى؛ لقوله عليه السلام: "إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء". قال مالك والشافعي: لا يجوز العزل عن الحرة إلا بإذنها. وكأنهم رأوا الإنزال من تمام لذاتها، ومن

حقها في الولد، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها، إذ لا حق لها في شيء مما ذكر.

السابعة: قوله تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} نظيره {وَدَرُوا ظَاهِرَ الْأَيْمِ وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢٠]. فقوله: {مَا ظَهَرَ} نهي عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. {وَمَا بَطَّنَ} ما عقد عليه القلب من المخالفة.

.....

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم؛ فإنه لما نهي وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقويل السلف. والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام. {مُسْتَقِيمًا} نصب على الحال، ومعناه مستويا قويا لا اعوجاج فيه. فأمر باتباع طريقه الذي طرده على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايته الجنة. وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجأ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار. قال الله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} أي تميل. وقال مجاهد في قوله: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} قال: البدع. فالهرب الهرب، والنجاة النجاة! والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابع. روى الأئمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهاوا".

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذا الشوط الطويل كله في سياق سورة مكية، من القرآن المكي الذي كان موضوعه هو العقيدة والذي لم يتعرض لشيء من الشريعة - إلا ما يختص بتأصيل أصلها الاعتقادي - حيث لم تكن للإسلام دولة تنفذ شريعته فسان الله هذه الشريعة أن تصبح حديث ألسن، وموضوعات دراسة قبل أن يهيئ لها المجتمع الذي يدخل في السلم كافة، ويسلم نفسه لله جملة، ويعبد الله بالطاعة لشريعته، وقبل أن يهيئ لها الدولة ذات السلطان التي تحكم بهذه الشريعة بين الناس فعلا وتجعل معرفة الحكم مقرونة بتنفيذه، كما هي طبيعة هذا الدين، وكما هو منهجه، الذي يكفل له الجدية والحرارة والوقار. وفي نهاية الشوط يدعوهم ليبين لهم ما حرمه الله حقا. وهنا نرى جملة من المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية، في مقدمتها توحيد الله. وبعضها أوامر وتكاليف ولكن التحريمات أغلب، فجعلها عنوانا لكل: لقد نهي الله عن الشرك. وأمر بالإحسان للوالدين. ونهى عن قتل الأولاد من الفقر مع طمأننتهم على الرزق.

ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ونهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. ونهى عن مس مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده. وأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط. وأمر بالعدل في القول - في الشهادة والحكم - ولو كان ذا قرى. وأمر بالوفاء بعهد الله كله. وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهي. هذا الحشد كله الذي يتضمن قاعدة العقيدة ومبادئ الشريعة اللتين تتجمعان هذا التجمع في السياق، وتمتجان هذا الامتزاج وتعرضان جملة واحدة، وكتلة واحدة، بصورة لا تخفى دلالتها على من يطالع هذا القرآن على النهج الذي بيناه. هذا الحشد كله يقال عنه في نهاية الشوط الطويل: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ. ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

{قُلْ تَعَالَوْا أَنَا مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)}

قل: تعالوا أقص عليكم ما حرمه عليكم ربكم- لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم - ! لقد حرمه عليكم «ربكم» الذي له وحده حق الربوبية- وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمة- وإذن فهو اختصاصه، وموضع سلطانه. فالذي يحرم هو «الرب» والله هو وحده الذي يجب أن يكون ربا. {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات. القاعدة التي يجب أن تقوم أولا قبل الدخول في الأوامر والنواهي وقبل الدخول في التكاليف والفرائض، وقبل الدخول في النظام والأوضاع وقبل الدخول في الشرائع والأحكام. يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم لا يشركون معه أحدا في ألوهيته، ولا يشركون معه أحدا في ربوبيته كذلك. يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء. وإن التوحيد- على إطلاقه - لهو القاعدة الأولى التي لا يغني عنها شيء آخر، من عبادة أو خلق أو عمل. من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}. إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا. في موضع من السياق القرآني يحدد المعنى بالشرك الذي تبدأ بالنهي عنه جميع الوصايا! إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط وبالقيم الأساسية التي تحكم الحياة البشرية. فلا تظل نهباً لريح الشهوات والنزوات،

واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات. {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}. إنها رابطة الأسرة بأجياها المتلاحقة- تقوم بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه- ولقد علم الله- سبحانه- أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء. فأوصى الأبناء بالآباء، وأوصى الآباء بالأبناء وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة، والارتباط بربوبيته المتفردة. وقال لهم إنه هو الذي يكفل لهم الرزق، فلا يضيعوا بالتبعات تجاه الوالدين في كبرتهما ولا تجاه الأولاد في ضعفهم، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعا. {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ}. ولما وصاهم الله بالأسرة، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله- وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة. فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيتها. فهو نهي مرتبط تماما بالوصية السابقة عليها. وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا. إنه لا يمكن قيام أسرة، ولا استقامة مجتمع، في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن. إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع. والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تترزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع. والفواحش: كل ما أفحش- أي تجاوز الحد - وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا. ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضوع. لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها، فتكون هذه واحدة منها بعينها. وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش. فتخصيص «الفواحش» هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق، وصيغة الجمع، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها. فالتبرج، والتتهتك، والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين والاستثارة، كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة. وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن. منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح. منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف! وكلها مما يحطم قوام الأسرة، وينخر في جسم الجماعة، فوق ما يُلطخ ضمائر الأفراد، ويحقر من اهتمامهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد. ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية، كان التعبير: {وَلَا تَقْرَبُوا} للنهي عن مجرد الاقتراب، سدا للذرائع، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة. لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة. ولذلك كان التبرج- حتى بالتعطر في الطريق- حراما، وكانت الحركات المثيرة، والضحكات المثيرة، والإشارات المثيرة، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة. فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنقا في المقاومة! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود، ويوقع العقوبات. وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح. وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، والزنا، وقتل النفس. ذلك أمها كلها جرائم قتل في الحقيقة! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة. إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة. والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتما إلى الدمار. والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والانهيار في

الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب للأمم ينخر فيها كل هذا الفساد. وقبل أن يمضي السياق في بيان المحرمات والتكاليف، يفصل بين هذا القسم والذي يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهي بالله. تقريراً لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس، وربطاً للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس! كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل. فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها. وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف في حياة الناس! وهذا وذلك فوق ما في الطائفة الأولى من التجانس. وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس. فجعل هذه في آية، وتلك في آية، وبينهما هذا الإيقاع.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع مَنْ أَحَب، أي: حبا دينيا؛ ولهذا قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}. وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن يَمَّاك بن حرب قال:

سمعت مُصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد، قال: نزلت في أربع آيات. فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمرك الله بالبر؟ والله لا أطعمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاهَا، فأنزل الله {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ} الآية.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت في أربع آيات فذكر قصة فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهَا فنزلت هذه الآية {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا}، الآية. وروي عن سعد أنه قال: كنت بارا بأمي فأسلمت فقالت: لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ويقال يا قاتل أمه، وبقيت يوما ويوما، فقلت: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأته ذلك أكلت ونزلت: {وإن جاهداك لتشرك بي}، الآية. وقال بن عباس: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك، وعنه أيضا: نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صديق وحسنا.

{إلى مرجعكم} وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر، {فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين} كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: لندخلنهم في الصالحين مبالغة على معنى فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا. وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِيَّايَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}.

إن الوالدين لأقرب الأقرباء، وإن لهما لفضلا، وإن لهما لرحما وإن لهما لواجبا مفروضا: واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة. ولكن ليس لهما من طاعة في حق الله. وهذا هو الصراط: إن الصلة في الله هي الصلة الأولى، والرابطة في الله هي العروة الوثقى. فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية، لا الطاعة ولا الاتباع. وإن هي إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع إلى الله.

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)}

ويقول الإمام ابن كثير:

هذه الآية الكريمة حاکمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ" ولهذا قال: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن محمد الطنابيسي، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُعْضُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، قال أبو زرعة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث.

ثم قال: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: باتباعكم للرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال أمرًا لكل أحد من خاص وعام: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: خالفوا عن أمره {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٣١ {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

الحب: المحبة، وكذلك الحب بالكسر. والآية نزلت في وفد بجران إذ زعموا أن ما ادعوه في عيسى حب الله عز وجل؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير. وقال الحسن وابن جريح: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا. وروي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا؛ فأنزل الله عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِ}. قال ابن عرفة: المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد له. وقال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما؛ قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي}. ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران؛ قال الله تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢] أي لا يغفر لهم. وقال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة؛ وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة. وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} قال: "على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس" خرج أبو عبد الله الترمذي. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألا يؤذي جاره". وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء - قال - ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء أن الله يبغض فلانا فأبغضوه - قال - فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض".

الآية: ٣٢ {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} يأتي بيانه في "النساء". {فَإِنْ تَوَلَّوْا} شرط، إلا أنه ماض لا يعرب. والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدم. وقال "فإن الله" ولم يقل "فإنه" لأن العرب إذا عظمت الشيء أعادت ذكره.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

وأخيرا يجيء ختام هذا الدرس قويا حازما، حاسما في القضية التي يعالجها، والتي تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية في السورة. يجيء ليقرر في كلمات قصيرة حقيقة الإيمان، وحقيقة الدين. ويفرق تفريفا حاسما بين الإيمان والكفر في جلاء لا يحتل الشبهات: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيأما بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هدايته، وتحقيق منهجه في الحياة. وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا

مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام. ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول. ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه: «زاد المعاد في هدى خير العباد»: «ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام.. علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط. ولا المعرفة والإقرار فقط. بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا..»

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها، حقيقة الطاعة لشريعة الله، والاتباع لرسول الله، والتحاكم إلى كتاب الله. وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام.

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هذه الحقيقة - كما رأينا في صورة ناصعة كاملة شاملة، لا مهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يكون مسلما. إن الدين عند الله الإسلام، وهذا - وحده - هو الإسلام كما شرعه الله.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) }

يقول الإمام ابن كثير:

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا حجاج بن محمد الأعمور، عن ابن جريج، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي؛ إذ بعثه رسول النبي صلى الله عليه وسلم في سرية. وهكذا أخرج بقية الجماعة إلا ابن ماجه من حديث حجاج بن محمد الأعمور، به. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ولا نعرفه إلا من حديث ابن جريج. وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجتمعوا لي حطبا. ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنوها. قال: فهم القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال لهم: "لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا؛ إنما الطاعة في المعروف". أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش، به. وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثنا نافع، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة". وأخرجاه من حديث يحيى القطان. وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في مَنْشَطِنَا ومكْرَهِنَا، وعسرنا ويسرنا، وأثْرَةً علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: "إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان" أخرجاه. وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة". رواه البخاري. وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشياً مُجَدِّعَ الأطراف. رواه مسلم. وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول: "ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا" رواه مسلم وفي لفظ له: "عبدا حبشياً مجذوعا". وقال ابن جرير: حدثني علي بن مسلم الطوسي، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني عبد الله بن محمد بن عروة عن هشام بن عروة، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سيلكم بعدي ولاة، فيليكم البر بیره، ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم". وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون". قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: "أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم". وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية". وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". رواه مسلم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري؛ وأبو العالية: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. وقد قال تعالى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} [المائدة: ٦٣] وقال تعالى: {فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣]؛ وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصا أميرى فقد عصاني". فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: {أَطِيعُوا اللَّهَ} أي: اتبعوا كتابه {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} أي: خذوا بسنته {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: "إنما الطاعة في المعروف". وقال الإمام

أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أبي مرابة، عن عمران بن حصين، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا طاعة في معصية الله".

وقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله، عز وجل، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى: ١٠] فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: {ذَلِكَ خَيْرٌ} أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع في فصل النزاع إليهما خير {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} أي: وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدي وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تُمْ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)}

هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فحعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا؛ ولهذا قال: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}.

وقوله: {يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} أي: يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [لقمان: ٢١] هؤلاء وهؤلاء بخلاف

المؤمنين، الذين قال الله فيهم: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: ٥١].

{فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا}. ثم قال تعالى في ذم المنافقين: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي: فكيف بهم إذا ساقطتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك، {ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} أي: يعتذرون إليك ويخلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عدك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: ٥٢]. ثم قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} أي هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم، فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم؛ ولهذا قال له: {فَأَعْرَضْ عَنْهُمْ} أي: لا تعنفهم على ما في قلوبهم {وَعِظْهُمْ} أي: وانهمم على ما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)}

يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ} أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله: {بِإِذْنِ اللَّهِ} قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني. يعني: لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك، كقوله: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} [آل عمران: ٥٢] أي: عن أمره وقدره ومشئته، وتسليطه إياكم عليهم.

وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: {لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}.

وقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا

لما جئت به". وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا في شريح من الحرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك" فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتكلم وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك" واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} الآية.

{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا (٦٦) وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)}

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثني إسحاق، حدثنا أبو زهير عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السبيعي، قال: لما نزلت: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن من أمتي لرجال الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي". وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير، حدثنا روح، حدثنا هشام، عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} الآية، قال أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: لو فعل ربنا لفعلنا، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لالإيمان أثبت في قلوب أهل من الجبال الرواسي". ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ} أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي {وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا} قال السدي: أي: وأشد تصديقا. {وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا} أي: من عندنا، {أَجْرًا عَظِيمًا} يعني: الجنة. {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} أي في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} أي: من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أنى عليهم تعالى فقال: {وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}. وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من نبي يجرؤ إلا خبير بين الدنيا والآخرة" وكان في شكواه التي قبض فيه، فأخذته بحجة شديدة فسمعتة يقول: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} فعلمت أنه خَيْرٌ. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: "اللهم في الرفيق الأعلى" ثلاثا ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذَكَرَ سبب نزول هذه الآية الكريمة: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب الثُمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فلان، ما لي أراك محزوناً؟" قال: يا نبي الله شيء فكرت فيه؟ قال: "ما هو؟" قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك. فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم عليه شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فبشره. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}. وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: "سل". فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: "أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قلت: هو ذلك. قال: "فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ". وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: "المرء مع من أحب" قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحب أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما وأرجو أن الله يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم.

ويقول الإمام القرطبي:

٥٩- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً، وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً؛ على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم. قال سهل بن عبدالله التستري: أطيعوا السلطان في سبعة: ضرب الدراهم والدنانير، والمكاييل والأوزان، والأحكام والحج والجمعة والعيدين والجهاد. قال سهل: وإذا نهى السلطان العالم أن يفتي فليس له أن يفتي، فإن أفتى فهو عاص وإن كان أميراً جائراً. وقال ابن خويز منداد: وأما طاعة السلطان فتجب فيما كان له فيه طاعة، ولا تجب فيما كان الله فيه معصية .

قلت: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة؛ فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه؛ لأن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة والعدل، ثم أمر بطاعته.

وقال جابر بن عبدالله ومجاهد: {أُولُوا الْأَمْرِ} أهل القرآن والعلم؛ وهو اختيار مالك رحمه الله، ونحوه قول الضحاک قال: يعني الفقهاء والعلماء في الدين. وحكي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة. وحكي عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة. وقال ابن كيسان: هم أولو العقل، الرأي الذين يدبرون أمر الناس. وروى الصحيحان عن ابن عباس قال: نزل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية. قال أبو عمر: وكان في عبدالله بن حذافة دعاية معروفة؛ ومن دعايته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره على سرية فأمرهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً؛ فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتي؟! وقال: "من أطاع أميرى فقد أطاعني". فقالوا: ما آمننا بالله واتبعنا رسوله إلا لنتجو من النار! فصوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلهم وقال: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال الله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}". وهو حدث صحيح الإسناد مشهور. وروى محمد بن عمرو بن علقمة عن عمر بن الحكم بن ثوبان أن أبا سعيد الخدري قال: كان عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي من أصحاب بدر وكانت فيه دعاية. وذكر الزبير قال: حدثني عبدالجبار بن سعيد عن عبدالله بن وهب عن الليث بن سعد قال: بلغني أنه حل حزام راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع. قال ابن وهب: فقلت لليث ليضحكه؟ قال: نعم كانت فيه دعاية. قال ميمون بن مهران ومقاتل والكلبي: {أُولُوا الْأَمْرِ} أصحاب السرايا. وأما القول الثاني فيدل على صحته قوله تعالى {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}. فأمر تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة؛ ويدل هذا على صحة كون سؤال العلماء واجبا، وامتثال فتواهم لازما. قال سهل بن عبدالله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء؛ فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين

أفسد دنياهم وأخراهم. وحقيقة الطاعة امتثال الأمر، كما أن المعصية ضدها وهي مخالفة الأمر. والطاعة مأخوذة من أطاع إذا انقاد، والمعصية مأخوذة من عصى إذا اشتد. و"أولو" واحدهم "ذو" على غير قياس كالنساء والإبل والخيل، كل واحد اسم الجمع ولا واحد له من لفظه.

الثانية: قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ} أي تجادلتم واختلفتم؛ فكأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها. والنزاع الجذب. والمنازعة مجاذبة الحجج؛ ومنه الحديث "وأنا أقول ما لي ينازعني القرآن". {فِي شَيْءٍ} أي من أمر دينكم. {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم؛ هذا قول مجاهد والأعمش وقتادة، وهو الصحيح. ومن لم ير هذا أحتل إيمانه؛ لقوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. وقيل: المعنى قولوا لله ورسوله أعلم؛ فهذا هو الرد. وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. والقول الأول أصح؛ لقول علي رضي الله عنه: ما عندنا إلا ما في كتاب الله وما في هذه الصحيفة، أو فهم أعطيه رجل مسلم. ولو كان كما قال هذا القائل لبطل الاجتهاد الذي خُص به هذه الأمة والاستنباط الذي أُعطيها، ولكن تُضرب الأمثال ويُطلب المثال حتى يخرج الصواب. قال أبو العالية: وذلك قوله تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}. نعم، ما كان مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه فذلك الذي يقال فيه: الله أعلم. وفي قوله تعالى: {وَإِلَى الرَّسُولِ} دليل على أن سنته صلى الله عليه وسلم يُعمل بها ويُمتثل ما فيها. قال صلى الله عليه وسلم: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه".

الثالثة- قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ} أي ردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير من التنازع. {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} أي مرجعا؛ من آل يؤول إلى كذا أي صار. وقيل: من ألت الشيء إذا جمعته وأصلحته. فالتأويل جمع معاني ألفاظ أشكلت بلفظ لا إشكال فيه؛ يقال: أول الله عليك أمرك أي جمعه. ويجوز أن يكون المعنى وأحسن من تأويلكم.

٦٠- {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}

٦١- {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}

روى يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة. ودعا المنافق اليهودي إلى حكاهم؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم؛ فلما اجتمعا على أن يحكما كاهنا في جهينة؛ فأُنزل الله تعالى في ذلك: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ} يعني المنافق. {وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ} يعني اليهودي. {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} إلى قوله: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}. وانتصب: {ضَلَالًا} على المعنى، أي فيضلون ضلالا؛ ومثله قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}. و {صُدُودًا} اسم للمصدر عند الخليل، والمصدر الصد. والكوفيون يقولون: هما مصدران.

٦٢- {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} ٦٣- {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} أي {فَكَيْفَ} يكون حالهم، أو "فكيف" يصنعون {إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ} أي ترك الاستعانة بهم، وما يلحقهم من الذل في قوله: {فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مِنِّي أَبَدًا وَلَنْ تُثْقَلُوا مِنِّي عَدْوًا}. وقيل: يريد قتل صاحبهم {مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}. وقيل: المعنى ما أردنا بالعدول عنك في المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم، والإحسان بالتقريب في الحكم. ابن كيسان: عدلا حقا؛ نظيرها {وَلْيَخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى}. فقال الله تعالى مكذبا لهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} قال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون. والفائدة لنا: اعلما أنهم منافقون. {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} قيل: عن عقابهم. وقيل: عن قبول اعتذارهم {وَعِظْهُمْ} أي خوفهم. قيل في المألأ. {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} أي ازجرهم بأبلغ الزجر في السر والخلاء. وقد بلغ القول بلاغة؛ ورجل بليغ يبلغ بلسانه كنه ما في قلبه. والعرب تقول: أحق ببلغ وبلغ، أي نهاية في الحماسة. وقيل: معناه يبلغ ما يريد وإن كان أحمق.

٦٤- {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ} "من" زائدة للتوكيد. {إِلَّا لِيُطَاعَ} فيما أمر به ونهى عنه. {بِإِذْنِ اللَّهِ} بعلم الله. وقيل: بتوفيق الله. {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ}. ومعنى {لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} أي قابلا لتوبتهم، وهما مفعولان لا غير.

٦٥- {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

فيه خمس مسائل:

الأولى: قال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره من أراد التحاكم إلى الطاغوت وفيهم نزلت. وقال الطبري: قوله "فلا" رد على ما تقدم ذكره؛ تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقال غيره: إنما قدم "لا" على القسم اهتماما بالنفي وإظهارا لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيدا للتهمة بالنفي، وكان يصح إسقاط "لا" الثانية ويبقى أكثر الاهتمام بتقدم الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي ويذهب معنى الاهتمام. و"شجر" معناه اختلف واختلط؛ ومنه الشجر لاختلاف أغصانه.

.....

الخامسة: قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ} أي ضيقا وشكا؛ ومنه قيل للشجر الملتف: حرج وحرجة، وجمعها حراج. وقال الضحاك: أي إنما بإنكارهم ما قضيت. {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} أي ينقادوا لأمرك في القضاء. {ويسلموا تسليما} أي ويسلموا لحكمك تسليما لا يدخلون على أنفسهم شكا.

٦٦- {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا}

٦٧- {وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا}

٦٨- {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}

سبب نزولها ما روى أن ثابت بن قيس بن شماس تفاخر هو ويهودي؛ فقال اليهودي: والله لقد كتبت علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتلى سبعين ألفا؛ فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا. وقال أبو إسحاق السبيعي: لما نزلت {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ} الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إن من أمتي رجلا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي". و"لو" حرف يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره؛ فأحير الله سبحانه أنه لم يكتب ذلك علينا رفقا بنا لئلا تظهر معصيتنا. فكم من أمر قصرنا عنه مع خفته فكيف بهذا الأمر مع ثقله! لكن أما والله لقد ترك المهاجرون مساكنهم خاوية وخرجوا يطلبون بها عيشة راضية. {مَا فَعَلُوهُ} أي القتل والخروج {إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} "قليل" بدل من الواو، والتقدير ما فعله أحد إلا قليل. وقرأ عبدالله بن عامر وعيسى بن عمر "إلا قليلا" على الاستثناء. وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. الباقون بالرفع، والرفع أجود عند جميع النحويين. وقيل: انتصب على إضمار فعل، تقديره إلا أن يكون قليلا منهم. وإنما صار الرفع أجود لأن اللفظ أولى من المعنى، وهو أيضا يشتمل على المعنى. {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} أي في الدنيا والآخرة. {وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا} أي على الحق. {وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا

أَجْرًا عَظِيمًا} أي ثوابا في الآخرة. وقيل: اللام لام الجواب، و"إذا" دالة على الجزاء، والمعنى لو فعلوا ما يوعظون به لآتيناهم.

٦٩- {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}

٧٠- {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا}

فيه ثلاث مسائل:

قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ} لما ذكر تعالى الأمر الذي لو فعله المنافقون حين وعظوا به وأتابوا إليه لأنعم عليهم، ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله. وهذه الآية تفسر قوله تعالى: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} وهي المراد في قوله عليه السلام عند موته "اللهم الرفيق الأعلى". وقالت طائفة: إنما نزلت هذه الآية لما قال عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصاري- الذي أرى الأذان-: يا رسول الله، إذا مت ومتنا كنت في عليين لا نراك ولا تجتمع بك؛ وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية. وحكى الثعلبي: أنها نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونخل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له: "يا ثوبان ما غير لونك؟" فقال: يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره الواحدي عن الكلبي. وأسند عن مسروق قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا؛ فأنزل الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ}. وفي طاعة الله طاعة رسوله ولكنه تشريفا لقدره وتنويها باسمه صلى الله عليه وسلم وعلى آله. {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} أي هم معهم في دار واحدة ونعيم واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة؛ فإنهم يتفاوتون لكنهم يتزاوون للاتباع في الدنيا والافتداء. وكل من فيها قد رُزق الرضا بحاله، وقد ذهب عنه اعتقاد أنه مفصول. قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ}. والصديق فعيل، المبالغ في الصدق أو في التصديق، والصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقول بلسانه. وقيل {الشُّهَدَاءُ} القتلى في سبيل الله. {وَالصَّالِحِينَ} صالحى أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. الشُّهَدَاءُ، قلت: واللفظ يعم كل صالح وشهيد، والله أعلم. والرفق لين الجانب.

....

الثالثة: قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ} أخبر تعالى أنهم لم ينالوا الدرجة بطاعتهم بل نالوها بفضل الله تعالى وكرمه؛ خلافا لما قالت المعتزلة: إنما ينال العبد ذلك بفعله. فلما امتن الله سبحانه على أوليائه بما آتاهم من فضله، وكان لا يجوز لأحد أن يثني على نفسه بما لم يفعله دل ذلك على بطلان قولهم. والله أعلم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذا الدرس يتناول موضوعا خطيرا، الموضوع الأساسي في حياة الأمة المسلمة. إنه يتناول بيان شرط الإيمان وحدّه ممثلا في النظام الأساسي لهذه الأمة. ومن الموضوع في ذاته، ومن طريقة ارتباطه وامتزاجه بالنظام الأساسي للأمة، يستمد خطورته وخطره. وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي، قائما ومنبثقا من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحدّ الإسلام! إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها والطريقة التي تتلقى بها والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى، وترد إليه ما يجدر من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها، والسلطة التي تطيعها، وعلّة طاعتها ومصدر سلطاتها؛ ويقول: إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام. وعندئذ يلتقي «النظام الأساسي» لهذه الأمة بالعقيدة التي تؤمن بها في وحدة لا تتجزأ ولا تفتقر عناصرها. وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقا كاملا، وهذه هي القضية التي تبدو، بعد مطالعة هذا الدرس، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم» فيها! إنه يقول للأمة المسلمة إن الرسل أرسلت لتطاع- بإذن الله- لا مجرد الإبلاغ والإقناع: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}. ويقول لها إن الناس لا يؤمنون- ابتداء- إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ممثلا- في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم- في أحكام الرسول، وبقايا بعده في مصدره القرآن والسنة بالبداهة ولا يكفي أن يتحاكموا إليه- ليحسبوا مؤمنين- بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين: {فَلَا وَرَتِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}. فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام. ويقول لها إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت- أي إلى غير شريعة الله- لا يُقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله، فهو زعم كاذب، يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أَنْ يُتَّحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}. ويقول لها إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ، رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} ويقول لها إن منهجها الإيمان ونظامها الأساسي أن تطيع الله- عز وجل- في هذا القرآن، وأن تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته، وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} ويقول لها إن المرجع، فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة، والأقضية التي لم ترد

فيها أحكام نصية، إن المرجع هو الله ورسوله، أي شريعة الله وسنة رسوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}. وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات، وأفضية كذلك، أبدأ الدهر، في حياة الأمة المسلمة. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي، الذي لا تكون مؤمنة إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك، ورد المسائل التي تجرد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله، شرط الإيمان وحد الإسلام، شرطا واضحا ونصا صريحا: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} من أن اليهود وُصِموا بالشرك بالله، لأنهم كانوا يتخذون أبحارهم أربابا من دون الله، لا لأنهم عبدوهم، ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحرير ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع، ابتداء من عند أنفسهم، فجعلوا بذلك مشركين، الشرك الذي يغفر الله كل ما عداه، حتى الكبائر "وإن زنى وإن سرق. وإن شرب الخمر"، فرد الأمر كله إلى أفراد الله - سبحانه - بالألوهية، ومن ثم إفراده بالحاكمية، فهي أخص خصائص الألوهية. وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا، ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره الله أبدا، إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام، {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. هذا هو الموضوع الخطير الذي يتناوله هذا الدرس، بالإضافة إلى بيان وظيفة الأمة المسلمة في الأرض، من إقرار مبادئ العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا. وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}. هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلى أهلها. والحكم بين «الناس» بالعدل، على منهج الله وتعليمه. والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى، الأمانة التي ناطق الله بها فطرة الإنسان والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها «الإنسان»، أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة. فكل ما عدا الإنسان أهمه ربه الإيمان به، والاهتداء إليه، ومعرفة، وعبادته، وطاعته. ومن هذه الأمانة الكبرى، تنبثق سائر الأمانات، التي يأمر الله أن تؤدى، ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين، الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له، ترجمة حية في شعورها وسلوكها، حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس. والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيتته، بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية، فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان. ومن هذه الأمانات - الداخلة في ثنايا ما سبق - أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المادية، وأمانة النصيحة للراعي وللرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمت الجماعة وأموالها وثغراتها، وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال، فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ويحملها النص هذا الإجمال. فأما الحكم بالعدل بين «الناس» فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا «بين الناس» جميعا، لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض

فحسب، ولا عدلا مع أهل الكتاب، دون سائر الناس، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه «إنسانا». فهذه الصفة- صفة الناس- هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعا؛ مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداء، سودا وبيضا، عربا وعجماً. والتعقيب على الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل هو التذكير بأنه من وعظ الله- سبحانه- وتوجيهه، ونعم ما يعظ الله به ويوجه: **{إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعِبَادِهِ}**. ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية يعلق الأمر بالله ومراقبته وخشيته ورجائه: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}**. ولا بد من ميزان ثابت، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها. والله يضع هذا الميزان للبشر، للأمانة والعدل، ولسائر القيم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}**. وفي هذا النص القصير يبين الله- سبحانه- شرط الإيمان وحد الإسلام، في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان، وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا، من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام، ليكون هنالك الميزان الثابت، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام! والله واجب الطاعة. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله- ابتداء- وأن يطيعوا الرسول- بما له من هذه الصفة، صفة الرسالة من الله- فطاعته إذن من طاعة الله، الذي أرسله بهذه الشريعة، وبيأها للناس في سنته، وسنته وقضاؤه- على هذا- جزء من الشريعة واجب النفاذ، والإيمان يتعلق- وجودا وعدما- بهذه الطاعة وهذا التنفيذ- بنص القرآن: **{إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}**. فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم. **{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}** أي من المؤمنين. والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك، بما أنه مرسل منه، ويجعل طاعة أولي الأمر، منكم، تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله. وطاعة أولي الأمر، منكم، بعد هذه التقريرات كلها، في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نص بجرمته، ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادئ شريعته، عند الاختلاف فيه، والسنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين: في الصحيحين من حديث الأعمش: «إنما الطاعة في المعروف». وفيهما من حديث يحيى القطان: «السمع والطاعة على المرء المسلم. فيما أحب أو كره. ما لم يؤمر بمعصية. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة الله وسنة رسوله. أمينا على إيمانه هو ودينه. أمينا على نفسه وعقله. أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة، ولا يجعله بجميمة في القطيع تُزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! **{فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}** رده إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته. وهناك في هذا الدين مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية، وتضع لها سياجا خرقة لا يخفى

على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}. تلك الطاعة لله والطاعة للرسول، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول، ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول، هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر. وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي، يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، ذلك خير لكم وأحسن مآلاً، خير في الدنيا وخير في الآخرة. وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك.

ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية: وهي أن الله قد أرسل رسوله ليطاعوا- بإذنه - لا يُخَالَفَ عَنْ أَمْرِهِمْ. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ، فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}. وهذه حقيقة لها وزنها، إن الرسول ليس مجرد «واعظ» يلقي كلمته ويمضي، لتذهب في الهواء بلا سلطان كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول «الدين». إن الدين منهج حياة، منهج حياة واقعية، بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وعباداتها وشعائرها كذلك. وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان. والله أرسل رسوله ليطاعوا، بإذنه وفي حدود شرعه، في تحقيق منهج الدين. وما من رسول إلا أرسله الله، ليطاع، بإذن الله، فتكون طاعته طاعة لله، ولم يرسل الرسل لمجرد التأثير الوجداني، والشعائر التعبديّة، فهذا وهم في فهم الدين لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل. وأمام الذين «ظلموا أنفسهم» ميلهم عن هذا المنهج، الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم- ورغبتهم فيها {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ، فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}. والله تواب في كل وقت على من يتوب. والله رحيم في كل وقت على من يؤوب. وهو- سبحانه- يصف نفسه بصفته، ويعد العائدين إليه، المستغفرين من الذنب، قبول التوبة وإفاضة الرحمة. وأخيراً يجيء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم. إذ يقسم الله- سبحانه- بذاته العلية، أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره كله، ثم يمضي راضياً بحكمه، مسلماً بقضائه. ليس في صدره حرج منه، ولا في نفسه تلجلج في قبوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}. ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام. يقرره الله سبحانه بنفسه، ويقسم عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحدّ الإسلام، ولا تأويل لمؤول.

وبعد أن يقرر أن لا إيمان قبل تحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل الرضى والتسليم بقضائه، يعود ليقول: إن هذا المنهج الذي يدعون إليه وهذه الشريعة التي يقال لهم تحاكموا إليها، لا لسواها، وهذا القضاء الذي يتحتم عليهم قبوله والرضاء به، إنه منهج ميسر، وشريعة سمحة، وقضاء رحيم، إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ولا

يكلفهم عننا يشق عليهم ولا يكلفهم التضحية بعزير عليهم. فالله يعلم ضعف الإنسان ويرحم هذا الضعف، والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة، ما أداها إلا قليل منهم، وهو لا يريد لهم العنت، ولا يريد لهم أن يقعوا في المعصية، ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية. ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التي كتبها الله عليهم واستمعوا للموعظة التي يعظهم الله بها لنالوا خيرا عظيما في الدنيا والآخرة ولأعانهم الله بالهدى، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة، في حدود الطاقة: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا، وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}. إن هي إلا العزيمة، عزيمة الفرد العادي، وإخلاص النية، والبدء في الطريق. وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا. وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}. فمجرد البدء، يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق، ويتبعه الأجر العظيم، وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم. وصدق الله العظيم، فما يخدم الله - سبحانه وتعالى - عباده ولا يعدهم وعدا لا يفي لهم به ولا يحدثهم إلا حديث الصدق، {ومن أصدق من الله حديثا}. في الوقت ذاته ليس اليسر في هذا المنهج هو الترخص. ليس هو تجميع الرخص كلها في هذا الدين وجعلها منهج الحياة. فهذا الدين عزائم ورخص. والعزائم هي الأصل والرخص للملايسات الطارئة.

وفي نهاية هذه الجولة، ونهاية هذا الدرس، يعود السياق إلى الترغيب واستحاشة القلوب والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب، متاع الصحبة في الآخرة للنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}. إنها اللمسة التي تستجيش مشاعر كل قلب، فيه ذرة من خير وفيه بذرة من صلاح وفيه أثاره من التطلع إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في حوار الله الكريم. وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي، إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها، إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحديد:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا صالح المري، عن قتادة، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}** الآية، رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن حسين المروري، عن ابن المبارك، به. ثم قال هو ومسلم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال - يعني الليث - عن عون بن عبد الله، عن أبيه، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}**، الآية إلا أربع سنين كذا رواه مسلم في آخر الكتاب. وقال سفيان الثوري، عن المسعودي، عن القاسم قال: ملأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى: **{تَخَضَّعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}** [يوسف: ٣]، قال: ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: **{اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}** [الزمر: ٢٣]. ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}**. وقال قتادة: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}** ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أول ما يُرفع من الناس الخشوع".

وقوله: **{وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}**، نعى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به

ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد. {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. كما قال: {فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣] أي: فسدت قلوبهم فقسست وصار من سحيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما هو عنه؛ ولهذا نهي الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقوله: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فيه إشارة إلى أنه، تعالى، يُلبين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحبارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١٦] {أَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}

الآية: [١٧] {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

قوله تعالى: {أَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا} أي يقرب ويجين، وماضيه أنى بالقصر يأتي. ويقال: آن لك - بالمد - أن تفعل كذا يعين أي هنا، مثل أنى لك وهو مقلوب منه. وقرأ الحسن {أَلَمْ يَأْنٍ} وأصلها {أَلَمْ} زيدت {مَا} فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و"لم" نفي لقوله: كان كذا. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كنا بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية {أَلَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} إلا أربع سنين. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموحدة، تقول عاتبته معاتبته {أَنْ تَخْشَعَ} أي تذلل وتلين {قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}. روي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية، ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يستبطئكم بالخشوع" فقالوا عند ذلك: خشعنا. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنهم سألو سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة، فنزلت: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} إلى

قوله: {تَحْنُ نَفْصُ عَلِيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} الآية، فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفوا عن سلمان، ثم سأله مثل الأول فنزلت: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السدي وغيره: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا} بالظاهر وأسروا الكفر {أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ}. وقيل: نزلت في المؤمنين. قال سعد: قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل: {تَحْنُ نَفْصُ عَلِيكَ}، فقالوا بعد زمان: لو حدثنا فنزل: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}، ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحب خلقه إليه. وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقسست قلوبهم.

قوله تعالى: {وَلَا يَكُونُوا} أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على {أَنْ تَخْشَعَ}. وقيل: مجزوم على النهي، مجازه ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رويس عن يعقوب {وَلَا تَكُونُوا} بالتاء، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى، أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم. قال عبد الله: ومن يعيش منكم فسيري منكرا، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بعث النبي صلى الله عليه وسلم {فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فأمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسقهم الله. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجذبين، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقسست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتفسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فيها- أو قال في ذنوبكم- كأنكم عبيد، وإنما الناس رجالان: معافي ومبتلى، فأرحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. وهذه الآية {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرف عبدالرحمن بن مروان القلابي قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال حدثنا علي بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا بن أبي أبان، قال حدثنا الليث

بن الحرث قال حدثنا الحسن بن داهر، قال سئل عبد الله بن المبارك^{١٦} عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فمنا، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور، فقممت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السحر، وأراد سنان يغني، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العود الذي بيده - ويقول: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} قلت: **بلى والله!** وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أول زهدي وتشميري. وأما الفضيل بن عياض^{١٧} فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته

^{١٦} عبد الله بن المبارك بن واضح، ولد عام ١١٨ هجرية وتوفي عام ١٨١ هجرية في مدينة مرو أشهر مدن خراسان وهو تركي الأب خوارزمي الأم. ومجموع ما روى من الأحاديث ٢٧٢ حديثاً. ويقول محقق المسند (الطبعة الأولى عن دار المعارف في الرياض سنة ١٩٨٧) نقلاً عن الإمام "حُملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم." وقال الإمام مالك: ابن المبارك فقيه خراسان. وقال ابن عينية عنه "نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلاً عن ابن المبارك إلا صحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وغزاهم معه." وقال اسماعيل بن عياش "ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وحدها فيه." وقال ابن حبان "كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه في الأرض كلها." وقال عبد الله بن إدريس "كل حديث لا يعرفه ابن المبارك فنحن منه براء." وقال أبو أسامة: ما رأيت أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك، رحل إلى الشامات ومصر واليمن والحجاز ويقول أبو الحاتم الرازي: حدثنا عبدة بن سليمان قال: كنا سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، فزادهم عليه الناس، فنظرت فإذا هو عبد الله بن المبارك وإذا هو يكتف وجهه بكمه فأخذت بطرف كفه فمددته فإذا هو هو."

^{١٧} الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي البزيعي الخراساني، أحد أعلام أهل السنة في القرن الثاني الهجري، لقب بـ "عابد الحرمين" (١٠٧ هـ - ١٨٧ هـ) ولد في سمرقند سنة ١٠٧ هـ ونشأ بأبيورد. قال ابن المبارك: ما بقى على ظهر الأرض عندي أفضل من فضيل بن عياض.

من أقواله:

- قال: من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.
- قال: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.
- قال: الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل.
- قيل له: ما الزهد؟ قال: القنوع. قيل: ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم. قيل: ما العبادة؟ قال: أداء الفرائض. قيل: ما التواضع؟ قال: أن تخضع للحق.

ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ } فرجع القهقري وهو يقول: **بلى والله قد آن**، فأواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلاً يقطع الطريق. فقال الفضيل: **أواه! أراني بالليل أسمى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني!**

اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

قوله تعالى: {اعلموا أن الله يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي {يُحْيِي الْأَرْضَ} الجذبة {بَعْدَ مَوْتِهَا} بالمطر. وقال صالح المري: **المعنى يُلِين القلوب بعد قساوتها.** {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه لمحيي الموتى.

الفضيل بن عياض .. الزاهد الذي أبكى هارون الرشيد

عمار علي حسن

الإمام القدوة الراسخ، شيخ الإسلام، كان لصاً قاطع طريق، فتاب الله عليه، وصار واحداً من عشرة كانوا يأكلون الحلال، لا يُدخلون بطونهم إلا حلالاً ولو استفوا ترب الأرض أو لعقوا الرماد. هو من أبكى هارون الرشيد ذات يوم، وردد دائماً: "لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في إمام، فصالح الإمام صلاح البلاد والعباد".

قال شريك: لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم، وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه، فقام فتى من مجلس الهيثم، فلما توارى، قال الهيثم إن عاش هذا الفتى يكون حجة لأهل زمانه، قيل: من كان الفتى؟ قال: أحمد بن حنبل.

- قال: لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في السلطان قيل له: يا أبا علي فسر لنا هذا، قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني، وإذا جعلتها في السلطان صلح فصلح بصلاحه العباد والبلاد.
- قال: عليك بطرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة المالكين
- قال: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة وحتى لا يجب أن يحمد على عبادة الله.
- قال: من استوحش من الوحدة واستأنس بالناس لم يسلم من الرياء، لا حج ولا جهاد أشد من حبس اللسان، وليس أحد أشد غما ممن سجن لسانه.
- قال: كفى بالله محبا، وبالقرآن مؤنسا، وبالموت واعظا.
- قال: خصلتان تقسيان القلب، كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

وصفه ابن مهدي بأنه "رجل صالح"، وقال عنه سفيان بن عيينة إنه "ثقة"، أما العجلي فأشار إلى أنه "هو ثقة متعبد، رجل صالح"، فيما وصفه أبوحاتم بأنه "صدوق"، وزاد النسائي على ذلك ونعته بأنه "ثقة مأمون" وهي الصفة التي وافقه عليها الدار قطنى راوى الحديث . كذلك قال عنه عبدالله بن المبارك "ما بقى على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض... لقد رأيت أعبد الناس عبدالعزيز بن أبي رواد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبا حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله... لقد صدق الفضيل الله فأجرى الحكمة على لسانه، فالفضيل ممن نفعه علمه... ما بقى في الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل، وابنه على، وعلّيّ مقدم في الخوف، وما بقى أحد في بلاد الشام إلا يوسف بن أسباط، وأبو معاوية الأسود، وما بقى أحد في خراسان إلا شيخ حائك يقال له معدان". ووصفه عبيد الله القواريري بأنه أحد أفضل من رأى من المشايخ. ورأى نصر بن المغيرة البخاري أنه أحد أحفظ الناس وأفقههم وأورعهم، مثل وكيع وابن المبارك. وينسب إلى الخليفة هارون الرشيد قوله: "ما رأيت في العلماء أهيّب من مالك، ولا أورع من الفضيل". وقال عنه إسحاق بن إبراهيم الطبري: "ما رأيت أحداً أخوف على نفسه، ولا أرجى للناس من الفضيل. كانت قراءته حزينة، شبيهة، بطيئة، مسترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مرّ بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعداً، يلقى له الحصير في مسجده، فيصلّى من أول الليل ساعة، ثم تغلبه عينه، فيلقى نفسه على الحصير، فينام قليلاً، ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، هكذا حتى يصبح. وكان دأبه إذا نعى أن ينام، ويقال: أشد العباد ما كان هكذا. وكان صحيح الحديث، صدوق اللسان، شديد الهيبة للحديث إذا حدّث، وكان يثقل عليه الحديث جداً، وربما قال لى: لو أنك طلبت منى الدنانير كان أيسر على من أن تطلب منى الحديث. فقلت: لو حدثتني بأحاديث فوائد ليست عندي، كان أحب إلي من أن تهب لى عددها دنانير. قال: إنك مفتون، أما والله لو عملت بما سمعت، لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع، سمعت سليمان بن مهران يقول: إذا كان بين يديك طعام تأكله، فتأخذ اللقمة، فترمى بها خلف ظهرك متى تشبع؟" وذكر إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذكر عنده، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وعمله، وأخذه وعطائه، ومنعه وبذله، وبغضه وحبه، وخصاله كلها غيره. كنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ، ويذكر ويكي كأنه مودع أصحابه، ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء، حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها".

وعلق عنه على بن الحسن: ما رأيت أنصح للمسلمين، ولا أخوف منه، ولقد رأيت في المنام قائماً على صندوق يعطى المصاحف، والناس حوله، فيهم: سفيان بن عيينة، وهارون أمير المؤمنين، فما رأيت يودّع أحداً، فيقدر أن يتم وداعه".

طريق التوبة

تروى إحدى القصص في أسباب توبة ابن عياض، إذ قيل إنه عشق امرأة، وكان يذهب إليها خلسة في الليل البهيم. وذات ليلة، وبينما كان يصعد الجدران، سمع هاتفاً يناديه ويتلو عليه الآية الكريمة التي يقول فيها رب العزة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَحْشَعُوا لَهُمْ لَذَكَرَ اللَّهُ}. فلما سمع الصوت قال: "**بلى يا رب قد آن**"، فرجع، فأواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: نمكث حتى الصباح، فإن فُضِيلاً على الطريق يقطع علينا. وهنا قال الفضيل: "ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا، يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام".

وعلق الإمام الذهبي على هذه القصة قائلاً: "وبكل حال، فالشرك أعظم من قطع الطريق، وقد تاب من الشرك خلق صاروا أفضل الأمة. فنواصي العباد بيد الله، وهو يُضِلُّ من يشاء، ويهدي إليه من أناب".

هارون الرشيد

ثمة قصة أخرى تدل على مدى شجاعة ابن عياض وتغفنه وزهده، وقدرته على مواجهة السلطة، من دون وجل ولا تردد. فبينما كان هارون الرشيد في الحج حدث وزيره الفضل بن الربيع قائلاً: ويحك، قد حك في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت بابه، فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: خذ لما جئتك له، فحدثه ساعة، ثم قال له: عليك دين. قال: نعم. فقال لي: اقض دينه، فلما نَحَضْنَا إِلَيْهِ قَالَ: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً. قلت: ها هنا عبدالرزاق. قال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت الباب فخرج، وحدثه ساعة، ثم قال: عليك دين؟ قال: نعم. قال: أبا عباس، اقض دينه. فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، انظر لي رجلاً أسأله، قلت: ها هنا الفضيل بن عياض، قال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلي، يتلو آية يرددتها، فقال: اقرع الباب، فقرعت، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. قال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله! أما عليك طاعة، فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية، فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله، فقلت في نفسي: ليكلمته الليلة بكلام نقي من قلب نقي، فقال له: خذ لما جئتك له - رحمك الله - فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبدالله، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ. فعد الخلافة بلاء، وعددها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم: إن أردت النجاة، فصم الدنيا وليكن إفظارك منها الموت. وقال له ابن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوَقَّرَ أَبَاكَ، وَأَكْرَمَ أَخَاكَ، وَتَحَنَّنَ عَلَيَّ وَلَدَكَ. وقال له رجاء: إن أردت النجاة من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت، وإني أقول لك هذا، وإني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام، فهل معك، رحمك الله، من يشير عليك بمثل هذا. فبكي بكاء شديداً حتى غشى عليه. فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به

أنا؟ ثم أفاق، فقال له: زدني، رحمك الله، قلت: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكى إليه، فكتب إليه: يا أحمى أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاء شديداً فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام جاء إليه فقال: أمرتني، فقال له: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل. فبكى هارون، وقال: زدني. قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار، فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة. فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دين ربي، لم يحاسبني عليه. فالويل لي إن ساءلني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. قال: إنما أعنى من دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال سبحانه وتعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }، الآيات. فقال: هذه ألف دينار خذها، فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا. سلمك الله، ووقفك. ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا، فقال هارون: أبا عباس، إذا دلتني، فدلتني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين. فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: قد ترى ما نحن فيه من الضيق، فلو قبلت هذا المال. قال: إنما مثلي ومثلكم كمثلي قوم لهم بغير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه، فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل، خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون، فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا، قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف فانصرفنا .

رواية الحديث

كان الفضيل يتحسب رواية الحديث كى لا يكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهنا نصح: "إن استطعت ألا تكون محدثاً ولا قارئاً، ولا متكلماً، إن كنت بليغاً قالوا: ما أبلغه! وأحسن حديثه! وأحسن صوته! فيعجبك ذلك، فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً، ولا حسن الصوت قالوا: ليس يُحسن يُحدّث، وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك، وشق عليك، فتكون مرئياً، وإذا جلست، فتكلمت، فلم تبال من ذمك ومن مدحك، فتكلم"، ثم يقول: "وددت أنه طار في الناس أنى مت حتى لا أذكر. إني لأسمع صوت أصحاب الحديث، فيأخذني البول فرقا منهم". وكان يتوجه إلى أصحاب الحديث ويقول لهم: "لم تُكروهوني على أمر تعلمون أنى كاره له؟ لو كنت عبداً لكم، فكرهتكم كان نُؤلى أن تبيعوني، لو أعلم أنى إذا دفعت ردائي هذا إليكم ذهبتم عنى لفعلت".

وهنا قال يحيى بن أيوب: دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل، فإذا معه شيخ، فدخل زافر وأقعدني على الباب. قال زافر: فجعل الفضيل ينظر إلىّ ثم قال: "هؤلاء المحدثون يعجبهم قرب الإسناد، ألا أخبرك بإسناد لا

شك فيه: رسول الله، عن جبريل، عن الله: { نَارًا وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ } فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس، ثم غشى عليه وعلى الشيخ، وجعل زافر ينظر إليهما، ثم خرج الفضيل، وقمنا والشيخ مغشى عليه. رأى ذات مرة قوماً من أصحاب الحديث يمرحون ويضحكون، فناداهم: "مهلاً يا ورثة الأنبياء، مهلاً ثلاثاً، إنكم أئمة يقتدى بكم".

تصوفه وزهده

قيل لابن عياض: ما الزهد؟ أجاب: القنوع، قيل: ما الورع؟ أجاب: اجتناب المحارم. قيل: ما العبادة؟ أجاب: أداء الفرائض. قيل: ما التواضع؟ أجاب: أن تخضع للحق. وقال: أشد الورع في اللسان. هكذا هو، فقد ترى الرجل ورعاً في مأكله وملبسه ومعاملته، وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه، فإما أن يتحرى الصدق، فلا يكمل الصدق، وإما أن يصدق، فينمق حديثه ليُمدح على الفصاحة، وإما أن يُظهر أحسن ما عنده ليعظم، وإما أن يسكت في موضع الكلام، ليُثني عليه. ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة .

وسأله عبدالله بن مالك ذات يوم: يا أبا علي ما الخلاص مما نحن فيه؟ قال: أخبرني، من أطاع الله هل تضربه معصية أحد؟ قال: لا . قال: فمن يعصى الله هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا، قال: هو الخلاص إن أردت

الخلاص .

وكان ابن عياض يحض على الزهد ويقول لأتباعه: "حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان حتى تزهّدوا في الدنيا"، قال: "رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة، من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم، ومن عمل بما علم وقّقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شأن دينه وحسبه ومروءته" . وكان يقول أيضاً: "لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالى من أكل الدنيا".

وللفضيل أقوال أخرى في ذم الدنيا، من بينها:

- لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وحتى لا يجب أن يُحمد على عبادة الله .
- إذا أحب الله عبداً، أكثر غمه، وإذا أبغض عبداً، وسع عليه دنياه.
ثمة أقوال مأثورة عدة للفضيل، نقلها عنه الرواة، وهي جميعها تدل على حكمته وعمق إيمانه ونفاذ بصيرته وورعه.
ومن بينها:

-إنما أمس مثلٌ، واليوم عمل، وغدا أمل .

-من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد .

-أكذب الناس العائد في ذنبه، وأجهل الناس المبدل بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه، لن يكمل عبد حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه.
-ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما .
-والله ما يحل لك أن تؤذى كلباً ولا خنزيراً بغير حق، فكيف تؤذى مسلماً .

- لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه.
 - بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، ويقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله .
 - لو خيرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً، ولا أرى يوم القيامة، لاخترت ذلك .
 - من أحب أن يذكر، ولم يذكر، ومن كره أن يذكر ذكر .
 - لو حلفت أنى مرء كان أحب إلى من أن أحلف أنى لست بمراء، ولو رأيت رجلاً اجتمع الناس حوله لقلت:
 هذا مجنون، من الذى اجتمع الناس حوله، لا يجب أن يوجد كلامه لهم؟
 - إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم، كبلتك خطيئتك .
 - يُعْفَرُ لِلجَاهِلِ 70 ذَنْباً مَا لَا يَغْفِرُ لِلْعَالَمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ .
 يقال إن الفضيل بن عياض قدم إلى الكوفة وهو مسناً، فسمع الحديث، ثم تعبد، وانتقل إلى مكة ونزلها إلى أن مات
 فيها في أول سنة سبع وثمانين ومائة في خلافة هارون الرشيد.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ،
 فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَكَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ
 الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله
 فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور وأراها من
 آياته في الكون والخلق ما يبصّر ويحدّر. عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستحاشة إلى الشعور بجلال الله،
 والخشوع لذكوره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة
 التنديد والاستبطاء في السؤال. وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتعاس عن
 الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين
 حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق. وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج. إن هذا القلب
 البشري سريع التقلب، سريع النسيان. وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرف كالشعاع فإذا طال عليه الأمد بلا
 تذكير ولا تذكر تبلد وقسا، وانظمت إشراقته، وأظلم وأعمت! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا
 بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة. ولكن لا بأس من
 قلب محمد وحمد وقسا وتبلد، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله. فالله يحيي
 الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر، وتمنح الأكل والثمار. وكذلك القلوب حين يشاء

اللّٰهُ: {اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض وما يمدّها بالغذاء والري والدفء: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

بل مكر الليل والنهار

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة سبأ:

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْخُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)
وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد؛ ولهذا قال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}. قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا} منهم وهم الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم قادتهم وسادتهم {لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} أي: لولا أنتم تصدونا، لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا: {أَنْخُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أننا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك؛ ولهذا قالوا: {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ}. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ {أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا، وتغرّبونا وتمنّونا، وتخبرونا أننا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين}. {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبُهًا وأشياء من المحال تضلونا بها {وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} أي: الجميع من السادة والأتباع، كلُّ ندم على ما سلف منه.

{وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا} وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كلُّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ

لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قُرُوة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضرار بن صُرْد، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقَّاهم لهبها، ثم لَفَحَتْهُمْ لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب".

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّتُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ هُمْ جَزَاءُ الصَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)}

يقول تعالى مسليا لنبية، وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح: {أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الشعراء: ١١١]، {وَمَا تَرْكُ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ} [هود: ٢٧]، وقال الكبراء من قوم صالح: {لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٧٥] ، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَتَفَكَّرُوا فِيهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ آيَاتِنَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ لِيُتَفَكَّرُوا فِيهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ آيَاتِنَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ لِيُتَفَكَّرُوا فِيهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ آيَاتِنَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ لِيُتَفَكَّرُوا فِيهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ آيَاتِنَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ} [الأعراف: ١٢٢]، وقال: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} [الإسراء: ١٦]. وقال هاهنا: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة. قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر. {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} أي: لا تؤمن به ولا تتبعه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم، عن أبي رزين قال: كان رجلا شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أرادل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب؛ قال: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فقال: إلام تدعو؟ قال: إلى كذا وكذا. قال: أشهد أنك رسول الله. قال: "وما علمك بذلك؟" قال: إنه لم يُبعث نبي إلا اتبعه رُدالة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، الآيات، قال: فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرفهم فزعمت بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين: {وَقَالُوا لَنُحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّبِينَ} أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتناؤه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك. قال الله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيِّنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَيِّنَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا.} [المدثر: ١١ - ١٧]. وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين، أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئًا، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

ثم قال: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} أي: ليست هذه دليلا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا كثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". ولهذا قال: {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، {فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} أي: تضاعف لهم الحسننة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف {وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ} أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُخَدَّر منه.

{وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع الرسل والتصديق بآياته، {أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي: جميعهم محزونون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيرا، ويضيّق على هذا ويقتصر على هذا رزقه جدًّا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: {أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوسّع عليه، فكَذَلِكَ هم في الآخرة: هذا في العُرفَات في أعلى الدرجات، وهذا في العَمَرَات في أسفل الدرجات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه". رواه مسلم من حديث ابن عمرو.

وقوله: {وَمَا أَنْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهَوٌ يُولِّئُهُ} أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يُخْلِفُه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول

أحدهما: "اللهم أعط مُسِكًا تَلَقًا"، ويقول الآخر: "اللهم أعط منفقا حَلَقًا"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنفق بلا لا ولا تخش من ذي العرش إقلالا". وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ}: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٣٢] {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} الآيات: [٣٣] {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يريد كفار قريش. {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} قال سعيد عن قتادة: {وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل من الآخرة. وقال ابن جريح: قائل ذلك أبو جهل بن هشام. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسألوه، فلما سأله فوافق ما قال أهل الكتاب، قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال {وَلَوْ تَرَىٰ} يا محمد {إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ} أي محبسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أحرارًا متناصرين. وجواب "لو" محذوف؛ أي لرأيت أمرًا هائلًا فظيعة. ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم قال: {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ} في الدنيا من الكافرين {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم القادة والرؤساء {لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} أي أنتم أغويتمونا وأضللتمونا. واللغة الفصيحة {لَوْلَا أَنْتُمْ} ومن العرب من يقول {لولاكم} حكاها سيبويه. {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} هو استفهام بمعنى الإنكار، أي ما رددناكم نحن عن الهدى بعد إذ جاءكم، ولا أكرهناكم. {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} أي مشركين مصرين على الكفر. {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به بمكر فهو مكار ومكار. قال الأخفش: هو على تقدير: هذا مكر الليل والنهار. قال النحاس: والمعنى - والله أعلم - بل مكركم في الليل والنهار، أي مساواتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكركم بالليل والنهار صدنا؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله

تعالى: {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ} فأضاف الأجل إلى نفسه، ثم قال: {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً} إذ كان الأجل لهم. وهذا من قبيل قولك: ليله قائم ونهاره صائم. قال المبرد: أي بل مكرّم الليل والنهار. وقرأ سعيد بن جبير {بل مكرّم} بفتح الكاف وشد الراء بمعنى الكرور، وارتفاعة بالابتداء والخبر محذوف. ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دل عليه {أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ} كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدنا مكر الليل والنهار. {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} أي أشباها وأمثالا ونظراء. {وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ} أي أظهروها، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء. وقيل: {وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ} أي تبينت الندامة في أسرار وجوههم. قيل: الندامة لا تظهر، وإنما تكون في القلب، وإنما يظهر ما يتولد عنها. وقيل: إظهارهم الندامة قولهم: {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: {وَأَسْرُوا النَّجْوَى} .

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا} الأعلال جمع غل، يقال: في رقبته غل من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل، وأصله أن الغل كان يكون من قد وعليه شعر فيقمل، وغللت يده إلى عنقه؛ وقد غل فهو مغلول. والغل أيضا والغلة: حرارة العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غل الرجل يغل غللا فهو مغلول، على ما لم يسم فاعله؛ عن الجوهري. أي جعلت الجوامع في أعناق التابعين والمتبوعين، قيل من غير هؤلاء الفريقين. وقيل يرجع {الَّذِينَ كَفَرُوا} إليهم. وقيل: تم الكلام عند قوله: {لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ} ثم ابتداء فقال: {وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ} بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} في الدنيا.

الآية: [٣٤] {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}

الآية: [٣٥] {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}

الآية: [٣٦] {قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}

الآية: [٣٧] {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُمُ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ}

الآية: [٣٨] {وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا} قال قتادة: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبارتها وقادة الشر للرسول: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً} أي فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك. {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} لأن من أحسن إليه فلا يعذبه، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ}

أي يوسعه لمن يشاء {وَيَقْدِرُ} أي إن الله هو الذي يفاضل بين عبادته في الأرزاق امتحانا لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدا شيئا. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأملون. ثم قال تأكيدا: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} قال مجاهد: أي قربي. والزلفة القرية. وقال الأخفش: أي إزلافا، وهو اسم المصدر، فيكون موضع {قُرْبَى} نصبا كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا. وزعم الفراء أن التي تكون للأموال والأولاد جميعا. وله قول آخر وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج، يكون المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه. ويجوز في غير القرآن: باللتين وباللاتي وباللواتي وباللذين وبالذين؛ للأولاد خاصة أي لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة، ولا تقربكم تقريبا. {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} قال سعيد بن جبير: المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده في الدنيا. وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنبي المال والولد، فإني سمعت فيما أوحيت {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}. قلت: قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم: جنبي المال والولد المطغيين أو اللذين لا خير فيهما؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعم هذا. {مَنْ} في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، أي لكن من آمن وعمل صالحا بإيمانه وعمله يقربانه مني. {فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} يعني قوله: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} فالضعف الزيادة، أي لهم جزء التضعيف، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: لهم جزء الأضعاف، فالضعف في معنى الجمع، وإضافة الضعف إلى الجزء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حق اليقين، وصلاة الأولى. أي لهم الجزء المضعف، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة. وبهذه الآية استدل من فضل الغنى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنيا تقيا أتاه الله أجره مرتين بهذه الآية {وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ} قراءة العامة {جَزَاءُ الضَّعْفِ} بالإضافة. وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم {جَزَاءُ} منونا منصوبا {الضعف} رفعا؛ أي فأولئك لهم الضعف جزء، على التقديم والتأخير. {آمِنُونَ} أي من العذاب والموت والأسقام والأحزان. {وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا} في إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا. {مُعَاجِزِينَ} معاندين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم. {أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ} أي في جهنم تحضرهم الزبانية فيها.

الآية: [٣٩] {قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَبِيرُ الرَّازِقِينَ}

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} كرر تأكيدا. {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} أي قل يا محمد لهؤلاء المعتزين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه. وفيه إضمار، أي فهو

يخلفه عليكم؛ يقال: أخلف له وأخلف عليه، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا". وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء كما تقدم سواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار؛ والادخار ما هنا مثله في الأجر.

مسألة: روى الدارقطني وأبو أحمد بن عدي عن عبد الحميد الهلامي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل معروف صدقة، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كُتِبَ له صدقة، وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية". قال عبد الحميد: قلت: أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له. وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكن الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه. وكذلك كحفظ بنته وستر عورته، قال صلى الله عليه وسلم: "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وحلف الخبز والماء".

قوله تعالى: { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله والأمير جنده؛ قال: { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفتنى ولا تنهاى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢٨) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٩) قل لكم ميعاد يوم لا تستأجرون عنه ساعة ولا تستقدمون (٣٠) وقال الذين كفروا لئن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موفوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعلمون (٣٣) وما أرسلنا في قبيلة من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون (٣٤) وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعدين (٣٥) قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا

يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الصَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

هذه الجولة تتناول موقف الذين كفروا مما جاءهم به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقف المترفين من كل رسالة، وهم الذين تغرهم أموالهم وأولادهم، وما يجدون من أعراض هذه الدنيا في أيديهم، فيحسبونها دليلاً على اختيارهم وتفضيلهم ويحسبون أنها ما نعتهم من العذاب في الدنيا والآخرة. ومن ثم يعرض عليهم مشاهدتهم في الآخرة، كأنها واقعة، ليروا إن كان شيء من ذلك نافعا لهم أو واقيا. وفي هذه المشاهد يتضح كذلك أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويستعينونهم يملكون لهم في الآخرة شيئا. وفي خلال الجدل يوضح القرآن حقيقة القيم التي لها ثقل في ميزان الله فتتكشف القيم الزائفة التي يعتزون بها في الحياة ويتقرر أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله، وليس دليلاً على رضى أو غضب ولا على قرى أو بعد. إنما ذلك ابتلاء.

يجيء هذا البيان بعد الجولة الماضية، وما فيها من تقرير فردية التبعة وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان، وأمرهم بعد ذلك إلى الله. ويتبعه هنا بيان وظيفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجهلهم بحقيقتها واستعجالهم له بما يعدهم ويوعدهم من الجزاء وتقرير أن ذلك موكول إلى موعده المقدر له في غيب الله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}. هذه هي حدود الرسالة العامة للناس جميعا، التبشير والإنذار. وعند هذا الحد تنتهي، أما تحقيق هذا التبشير وهذا الإنذار فهو من أمر الله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. وهذا السؤال يوحى بجهلهم لوظيفة الرسول وعدم إدراكهم لحدود الرسالة. والقرآن حريص على تجريد عقيدة التوحيد. فما محمد إلا رسول محدد الوظيفة. وهو قائم في حدود وظيفته لا يتخطاها. والله هو صاحب الأمر، هو الذي أرسله، وهو الذي حدد له عمله وليس من عمله أن يتولى - ولا حتى أن يعلم - تحقيق الوعد والوعيد؛ ذلك موكول إلى ربه، وهو يعرف حدوده. فلا يسأل مجرد سؤال عن شيء لم يطلع عليه ربه، ولم يكل إليه أمره. وره يكلفه أن يرد عليهم ردا معينا فيقوم به: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}. وكل ميعاد يجيء في أجله الذي قدره الله له، لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يستقدم لرجاء أحد. وليس شيء من هذا عبثا ولا مصادفة. فكل شيء مخلوق بقدر. وكل أمر متصل بالآخر. وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التي لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له. والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية. ومن ثم فإن أكثر الناس لا يعلمون؛ وعدم العلم يقودهم إلى السؤال والاستعجال. {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى في كل مصادره، لا القرآن، ولا الكتب التي سبقتها،

والتي تدل على صدقه. فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به لا اليوم ولا الغد. ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا في دلائل الهدى كائنة ما كانت. فهو العمد إذن وسبق الإصرار! عندئذ يجبههم بمشهدهم يوم القيامة، وفيه جزاء هذا الإصرار: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ! قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ، بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ! وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. ذلك كان قولهم في الدنيا: {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}. فلو ترى قولهم في موقف آخر. لو ترى هؤلاء الظالمين وهم {مَوْقُوفُونَ} على غير إرادة منهم ولا اختيار، إنما هم مذنبون بالوقوف في انتظار الجزاء {عِنْدَ رَبِّهِمْ}، ربهم الذي يجزمون بأنهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه، ثم ها هم أولاء موقوفون عنده! لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضا، ويؤنب بعضهم بعضا، ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ} فما ذا يرجعون من القول؟ {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}. فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة، وما يتوقعون بعدها من البلاء! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة. كان يمنعهم الدل والضعف والاستسلام، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم، والكرامة التي منحها إياهم، والإدراك الذي أنعم به عليهم. أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب الأليم، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين! {لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا، فهم في البلاء سواء، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء! وعندئذ يردون عليهم باستنكار، ويجبهونهم بالسب الغليظ: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا: أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} فهو التخلي عن التبعة، والإقرار بالهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزنا للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأيا، ولا يعتبرون لهم وجودا، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما اليوم- وأما العذاب- فهم يسألونهم في إنكار: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ}. {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} من ذات أنفسكم، لا تهتدون، لأنكم مجرمون! ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا يبنسون بنت شفة. ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة. ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى وللتمكن للباطل، ولتلبيس الحق، وللأمر بالمنكر، وللاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}، ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين. فلكل جريمته وإثمه. المستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم. والمستضعفون عليهم وزرهم، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين. لقد كرمهم الله

بالإدراك والحرية، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين. فاستحقوا العذاب جميعاً وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهياً: **{وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ}**، وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تقوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه. ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد: **{وَجَعَلْنَا الْأَعْغَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا}**. ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأعغال، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين! **{هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**. ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين، وكلاهما ظالم. هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله. وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان، وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان. وكلهم في العذاب سواء. لا يجزون إلا ما كانوا يعملون. يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص. شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض. وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم. وفي الوقت متسع لتلا في ذلك الموقف لمن يشاء! ذلك الذي قاله المترفون من كبراء قريش قاله قبلهم كل مترف أمام كل رسالة: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}**. فهي قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور. وهو الترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويعشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل، ولا تفتتح للنور. والمترفون تحذعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرمهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويحاولون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب **والجزاء: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}**. والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه، ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة ولا يدل على رضى ولا غضب من الله ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب. إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضى والغضب، يتبع قانوناً آخر من سنن الله: **{قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}**. وهذه المسألة، مسألة بسط الرزق وقبضه وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها، مسألة يحملك منها شيء في صدور كثيرة. ذلك حين تفتتح الدنيا أحياناً على أهل الشر والباطل والفساد، ويحرم من أعراضها أحياناً أهل الخير والحق والصلاح فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام. أو يشك بعض الناس في قيمة الخير والحق والصلاح، وهم يرونها محوطة بالحرمان! ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها. ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وأن هذه مسألة ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما. وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على من هو عليه راض. وقد يُضَيِّقُ الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير. ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة في جميع هذه الحالات. لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة- وفق حكمته وتقديره- بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة، وحزناً وضيقاً ويأساً من رحمة الله، ويتنهدوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال. ولقد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة

كثيرة ما كانوا بالغيتها لو لم ييسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ويزخروا بهذا كله رصيذا من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم. وقد يجرمهم فيلوا صبرهم على الحرمان، وثقتهم برهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم برهم وحده، وهو خير وأبقى وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان. وأيا ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس، ومن حكمة الله، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلا بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله. ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم في الرزق أو المضيق عليهم فيه. فمن وهبه الله مالا وولدا فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله في الثواب جزاء ما أحسن في نعمة الله. وليست الأموال والأولاد بذاتها هي التي تقرهم من الله، ولكن تصرفهم في الأموال والأولاد هو الذي يضاعف لهم في الجزاء: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِي تَقَرُّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ. إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ صَعْفٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ. وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}** ثم يكرر قاعدة أن بسط الرزق وقبضه أمر آخر يريد الله لحكمة منفصلة، وأن ما يُنفق منه في سبيل الله هو الذخر الباقي الذي يفيد، لتقر هذه الحقيقة واضحة في القلوب: **{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ. وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}**. ويختم هذه الجولة بمشهدهم محشورين يوم القيامة، حيث يواجههم الله سبحانه بالملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يدوقون عذاب النار الذي كانوا يستعجلون به، ويقولون متى هذا الوعد؟ كما جاء في أول هذا الشوط: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ. بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ. فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ}**. فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، أو يتخذونهم عنده شفعاء. هؤلاء هم يواجهون بهم، فيسبحون الله تنزيها له من هذا الادعاء، ويتبرأون من عبادة القوم لهم. فكأنما هذه العبادة كانت باطلا أصلا، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة. إنما هم يتولون الشيطان، إما بعبادته والتوجه إليه، وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله. وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان! ذلك إلى أن عبادة الجن عُرفت بين العرب وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة: **{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}**

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة. ويوجه القول إليهم بالتأنيب والتبكي: **{فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا}**؛ لا الملائكة يملكون للناس شيئا، ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئا. والنار التي كذب بها الظالمون، وكانوا يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، ها هم أولاء يرونها واقعا لا شك فيه: **{وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ}**. وبهذا نختم الجولة مركزة على قضية البعث والحساب والجزاء كسائر الجولات في هذه السورة.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة ابراهيم:

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ} أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستتر أحدا. {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: {لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ} ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحق كلمة العذاب على الكافرين. {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢١ {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} قوله تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا} أي برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة. والبروز الظهور. والبراز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه امرأة برزة أي تظهر للناس؛ فمعنى "برزوا" ظهروا من قبورهم. {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} يعني الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم القادة، {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} يجوز أن يكون تبع مصدراً؛ التقدير: ذوي تبع. ويجوز أن يكون تابع، مثل حارس وحرس، وخادم وخدم، وراصد ورصد، وباقر وبقر. {فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ} أي دافعون {عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} أي شيئاً، و"من" صلة؛ يقال: أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع. {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ} أي لو هداانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هداانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل:

لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه. {سَوَاءٌ عَلَيْنَا} هذا ابتداء خبره {أجزعنا}، أي : سواء علينا {أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} أي من مهرب وملجأ.

يسألونك عن الساعة

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف

{مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال تعالى: {مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً، {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [المائدة: ٤١]، قال تعالى: {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]. يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ}، كما قال تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ} [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود. والأول أشبه، لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكديماً بوجودها؛ كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [الشورى: ١٨].

وقوله: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "منتهاها" أي: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟ {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، أي لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى؛ ولهذا قال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قال: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون. قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت، ثقلت على أهل السماوات والأرض، يقول: كبرت عليهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} قال: ليس شيء من

الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جُرَيْج: **{ثُقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** قال: إذا جاءت انشقت السماء وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قاله الله عز وجل ذلك ثقلها. واختار ابن جرير، رحمه الله أن المراد: ثَقُلَ علم وقتها على أهل السماوات والأرض، كما قال قتادة. وهو كما قاله، كقوله تعالى: **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ}** ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السماوات والأرض، والله أعلم. وقال السدي في قوله تعالى **{ثُقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** يقول: **خفيت في السماوات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل. {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ}** قال **يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة.** وقال قتادة في قوله تعالى: **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ}** قضى الله أنها **{لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَةٌ}**.

وقوله تعالى **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه: كما قال العوفي عن ابن عباس: **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الساعة، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا خفي بهم، فأوحى الله إليه: **إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع الله عليها ملكًا مقربًا ولا رسولًا.** والصحيح عن مجاهد - من رواية ابن أبي بَجِيح وغيره-: **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** قال: استخفيت عنها السؤال، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاک، عن ابن عباس: **{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، **{قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ}**. وقال معمر، عن بعضهم: **{كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **{كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا}** **كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه،** وقرأ: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}** الآية [لقمان: ٣٤]. ولهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: **{قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}**. ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ما المسئول عنها بأعلم من السائل"**، أي: **لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد**، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}**، الآية. ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هاء على نحو من صوته، قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ويحك إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟"** قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"المرء مع من أحب"**. فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. ففيه أنه، عليه السلام، **كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.** وقال وَكَيْع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}** الآية [النازعات: ٤٢]. فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة،

ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رضي الله عنهما: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يزد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

يقول الإمام الشافعي في مسنده:

* ١١٩٥ - أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة قال: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عليه فيم أنت من ذكرها فانتهي.

{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)}

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رِصْدًا} [الجن: ٢٦، ٢٧]

وقوله: {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد، {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملا صالحا. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذممة. وفي رواية: كان إذا عمل عملا أثبته؛ فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته. ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٨٧ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَيْهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}، {أَيَّانَ} سؤال عن الزمان؛ مثل متى. وكانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم. وروي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار. و{مُرْسَاهَا} بضم الميم، من أرساها الله، أي أثبتها، أي متى مثبتها، أي متى وقوعها. {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} ابتداء وخبر، أي لم يبينها لأحد؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر. {لَا يُجَلِّيهَا} أي لا يظهرها، {لِوَفَيْهَا} أي في وقتها {إِلَّا هُوَ}. والتجلية: إظهار الشيء؛ يقال: جلا لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه. ومعنى {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} خفي علمها على أهل السماوات والأرض. وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل: كبر مجيئها على أهل السماوات والأرض؛ عن الحسن وغيره. ابن جريج والسدي: عظم وصفها على أهل السماوات والأرض. وقال قتادة وغيره: المعنى لا تطيقها السماوات والأرض لعظمتها، لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب. وقيل: المعنى ثقلت المسألة عنها. {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} أي فجأة، مصدر في موضع الحال. {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} أي عالم بما كثير السؤال عنها. قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء. والحفي: المستقصي في السؤال. يقال: أحفى في المسألة وفي الطلب، فهو محف وحفي على التكثير، مثل مخضب وخصيب. قال محمد بن يزيد: المعنى يسألونك كأنك حفي بالمسألة عنها، أي ملح. {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ليس هذا تكريرا، ولكن أحد العلمين لوقوعها والآخر لكنها.

٣٨٥٥- حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَا أُمَّتَاهُ هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ فَقَالَتْ: لَقَدْ فَتَّ شَبْعَرِي بِمَا قُلْتِ. أَيْنَ أَنْتِ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكُنَّ فَقَدْ كَذَبَ. مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، {وَمَا كِبَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، {وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ}، ثُمَّ قَرَأَتْ {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَبَادَا تُكْسِبُ غَدًا}، {وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ}، ثُمَّ قَرَأَتْ {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} الْآيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ. (رواه البخاري)

* ٧٣٨ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ }، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ " لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ "**. (رواه البخاري)

* يقول الإمام ابن قيم الجوزية في رسالته المعنونة "المنار المنيف في الصحيح والضعيف": والله تعالى يقول: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قال إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قال إنما علمها عند الله }، وقال الله تعالى: {إن الله عنده علم الساعة }، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله"**. وقد جاهر بالكذب بعض من يدعي في زماننا العلم وهو يتشبع بما لم يعط أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم متى تقوم الساعة، قيل له فقد قال في حديث جبريل **"ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"**، فحرفه عن موضعه وقال معناه أنا وأنت نعلمها. وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف، والنبي صلى الله عليه وسلم أعلم بالله من أن يقول لمن كان يظنه أعرابيا أنا وأنت نعلم الساعة، إلا أن يقول هذا الجاهل إنه كان يعرف أنه جبريل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصادق في قوله: **"والذي نفسي بيده ما جاءني في صورة إلا عرفته غير هذه الصورة"**. وفي اللفظ الآخر **"ما شبه علي غير هذه المرة"**، وفي اللفظ الآخر **"ردوا علي الأعرابي فذهبوا فالتمسوا فلم يجدوا شيئا"**. وإنما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه جبريل بعد مدة كما قال عمر: فلبثت مليا، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عمر أتدري من السائل؟ والمحرف يقول علم وقت السؤال أنه جبريل ولم يخبر الصحابة بذلك إلا بعد مدة. ثم قوله في الحديث: **"ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"**، يعم كل سائل ومسؤول، **فكل سائل ومسؤول عن هذه الساعة شأنهما كذلك**. ولكن هؤلاء الغلاة عندهم أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم منطبق على علم الله سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: **{قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب }،** وقال: **{ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير }.** ولما جرى لأُم المؤمنين عائشة ما جرى وراها أهل الإفك بما رموها به لم يكن صلى الله عليه وسلم يعلم حقيقة الأمر حتى جاءه الوحي من الله ببراءتها. وعند هؤلاء الغلاة أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم الحال على حقيقته بلا ريب واستشار الناس في فراقها ودعا الجارية فسألها وهو يعلم الحال، وقال لها إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله، وهو يعلم علما يقينا أنها لم تلم بذنب. ولا ريب أن الحامل هؤلاء على هذا اللغو إنما هو اعتقادهم أنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة، وكلما غلوا وزادوا غلوا فيه كانوا أقرب إليه وأخص به، فهم أعصى الناس لأمره وأشدهم مخالفة لسنته، وهؤلاء فيهم شبه ظاهر من النصارى الذين غلوا في المسيح أعظم الغلو وخالفوا شرعه ودينه أعظم المخالفة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)}

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟} إن الساعة غيب، من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه، ولكن المشركين يسألون الرسول عنها، إما سؤال المختبر الممتحن! وإما سؤال المتعجب المستغرب! وإما سؤال المستهين المستهتر! {أَيَّانَ مُرْسَاهَا}، أي متى موعدها الذي إليه تستقر وترسو؟! والرسول صلى الله عليه وسلم بشر لا يدعي علم الغيب، مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية، وأنه هو بشر لا يدعي شيئا خارج بشريته ولا يتعدى حدودها، إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}. فهو - سبحانه - مختص بعلمها، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها، ولا يكشف غيره عنها. ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها، وإلى الشعور ب هولها وضخامتها ألا وإن أمرها لعظيم، ألا وإن عبثها لثقل. ألا وإنها لتثقل في السماوات والأرضين. وهي - بعد ذلك - لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}، فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها الاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر، ولا تجدي عندها الحيطة، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها، وما لم يستعدوا لها، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية. وما يدري أحد متى تجيء، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع، وألا يضيع بعد ساعة، قد تفجؤه بعدها الساعة! ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الساعة. إنهم لا يدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ولا يعرفون حقيقة الألوهية، وأدب الرسول في جانب ربه العظيم. {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} أي كأنك دائم السؤال عنها! مكلف أن تكشف عن موعدها! ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} قد اختص سبحانه به ولم يطلع عليه أحدا من خلقه. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. وليس الأمر أمر الساعة وحده. إنما هو أمر الغيب كله فله وحده علم هذا الغيب. لا يطلع على شيء منه إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء، في الوقت الذي يشاء. لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم، ولكن عاقبته تكون هي الضر لهم. وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم، ولكن عاقبته المغيبة تجرح عليهم! إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول. ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد، وأمام ستر الغيب المسدل، سيظل يذكره بشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب. والرسول صلى الله عليه وسلم وهو من هو وقربه من ربه هو وقربه، مأمور أن يعلن للناس أنه

أمام غيب الله بشر من البشر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، لأنه لا يطلع على الغيب، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب، ولا يرى مآل أفعاله ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم، وإن رآها سوءاً أحجم. إنما هو يعمل، والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه الممكنون: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}. وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق، من الشرك في أية صورة من صورهِ. وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها، ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحيبهِ ومصطفاه- عليه صلوات الله وسلامه- فعند عتبة الغيب تطف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري. وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتحدد وظيفته: {إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. والرسول صلى الله عليه وسلم نذير وبشير للناس أجمعين. ولكن الذين «يؤمنون» هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة محمد:

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} من الصحابة: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكثرثون له.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، {وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} أي: ألهمهم رشدهم.

وقوله: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} أي: وهم غافلون عنها، {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى أَرَأَيْتَ الْآرْفَةَ} [النجم: ٥٦ ، ٥٧]، وكقوله: {اقتربت الساعة وأنشق القمر} [القمر: ١] وقوله: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} [النحل: ١]، وقوله: {اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون} [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقال الحسن البصري: بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء في أسمائه عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: "بعثت أنا والساعة كهاتين".

ثم قال تعالى: {فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ} أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]، {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٢].

وقوله: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}، هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وحدي، وخطي وعمدي، وكل ذلك عندي". وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت". وفي الصحيح أنه قال: "يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة". وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقلت: استغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: "نعم، ولكم"، وقرأ: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}.

وقوله: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} أي: يعلم تصرفكم في حركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ {هود: ٦}. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٨ { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } قوله تعالى: { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً } أي فجأة. وهذا وعيد للكفار. { فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا } أي أماراتها وعلاماتها. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، فبعثه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك والحسن. وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بُعِثت أنا والساعة كهايتين" وضم السبابة والوسطى، لفظ مسلم؛ وخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه. وقيل: أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها. ومنه يقال للدون من الناس: الشرط. وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان، قال الحسن أيضا. وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام. وواحد الأشراف شرط، وأصله الأعلام. ومنه قيل الشرط، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها. ومنه الشرط في البيع وغيره. ويقال: أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له.

{ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً } { أن } بدل اشتمال من { الساعة }، نحو قوله: { أَنْ تَطَأُوهُمْ } { الفتح: ٢٥ } من قوله: { رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ } { الفتح: ٢٥ }.

قوله تعالى: { فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } { ذِكْرَاهُمْ } ابتداء و { أَنَّى لَهُمْ } الخبر. والضمير المرفوع في { جَاءَتْهُمْ } للساعة، التقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، قال معناه قتادة وغيره. وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة، قاله ابن زيد. وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرا وتخويفا، روى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك" ذكره الماوردي.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النازعات:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

ثم قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، {نُقِلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة قال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل".

وقوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا} أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

وقوله: {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدَّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} قال ابن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة استهزاء، فأنزل الله عز وجل الآية. وقال عروة بن الزبير في قوله تعالى: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}، لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة، حتى نزلت هذه الآية {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}. ومعنى "مرساها" أي قيامها. قال الفراء: رسوها قيامها كرسو السفينة. وقال أبو عبيدة: أي منتهاها، ومرسى السفينة حيث تنتهي، وهو قول ابن عباس. الربيع بن أنس: متى زماها. والمعنى متقارب. {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} أي في أي شيء أنت يا

محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها، وليس لك السؤال عنها. وهذا معنى ما رواه الزهري عن عروة بن الزبير قال: لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت: **{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}** أي منتهى علمها؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك، فقيل له: **لا تسأل، فلست في شيء من ذلك.** ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين في مسألتهم له؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه، ولست ممن يعلمه. روي معناه عن ابن عباس. والذكرى بمعنى الذكر.

قوله تعالى: **{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}** أي منتهى علمها، **فلا يوجد عند غيره علم الساعة؛** وهو كقوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي}** وقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}**. **{إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا}**: أي مخوف؛ وخص الإنذار بمن يخشى، لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذرا لكل مكلف؛ وهو كقوله تعالى: **{إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ}**. **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}** يعني الكفار يرون الساعة **{لَمْ يَلْبُثُوا}** أي في دنياهم، **{إِلَّا عَشِيَّةً}** أي قدر عشية **{أَوْ ضُحَاهَا}** أي أو قدر الضحا الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: **{لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}**. وقال الفراء: يقول القائل: وهل للعشية ضحا؟ وإنما الضحا لصدر النهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب؛ يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

كان المعتنون من المشركين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وما تنتهي إليه من حساب وجزاء، متى أو أيان موعدها، أو كما يحكي عنهم هنا: **{أَيَّانَ مُرْسَاهَا؟}**. والجواب: **{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا؟}**، وهو جواب يوحي بعظمتها وضخامتها، بحيث يبدو هذا السؤال تافها باهتا، وتطفلا كذلك وتجاوزا. فما هو ذا يقال للرسول العظيم: **{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا؟}** إنها لأعظم من أن تسأل أو تُسأل عن موعدها. فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه وليست من شأنك: **{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا}** **فهو الذي ينتهي إليه أمرها، وهو الذي يعلم موعدها، وهو الذي يتولى كل شيء فيها.** **{إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا}**، هذه وظيفتك، وهذه حدودك، أن تنذر بها من ينفعه الإنذار، وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشها ويعمل لها، ويتوقعها في موعدها **الموكل إلى صاحبها سبحانه وتعالى.** ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات وقياس الحياة الدنيا إليها في إحساس الناس وتقديرهم: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**، فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا، وأعمارها، وأحداثها، ومتاعها، وأشياؤها، فتبدو في حس أصحابها

كأنها بعض يوم، عشية أو ضحاها! وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون، والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة، والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان، والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها، تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها. هذه هي: قصيرة عاجلة، هزيلة ذاهبة، زهيدة تافهة. أضمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى! ألا إنها الحماقة الكبرى. الحماقة التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى!

وعنده مفاتيح الغيب

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

{وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُحْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِيَّايْ هُيْتُمْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِيَّايْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال العوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. وفي إسناده علي بن زيد وهو ضعيف. وقال سفيان الثوري، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة وأنا آخذة بزمام ناقه النبي صلى الله عليه وسلم، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. [يقول مصحح كتاب ابن كثير: رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٨/٢٤) من طريق قبيصة عن سفيان به. وقال الهيثمي في الجمع (٢٠/٧): فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق. وقال شريك، عن ليث، عن شهر، عن أسماء قالت: نزلت سورة الأنعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض. ويقول المصحح: قال الفاضل محمد بن رزق طرهوني في كتابه "موسوعة فضائل القرآن" (٢٥٨/١): "الحديث في إسناده ثلاثة ضعفاء في الحفظ وهم المذكورون قبل أسماء، وبالإضافة إلى هذا، ففيه علل أخرى:

الأولى: لفظة: "في مسير" دخلت على أحدهم من حديث نزول المائدة المروي عند أحمد وغيره من حديث ليث عن شهر عن أسماء حيث قالت: "إني لأحذو بزمام العضباء، ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أنزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة".

الثانية: أن ذكر نزول الأنعام هنا وهم في الأصل من ليث أو شهر، ولا دخل لشريك فيه، فقد رواه أحمد بن منيع. (انظر: "إتحاف المهرة" ٧٤/ب/٤) والطبراني (١٧٨/٢٤)، وابن مردويه (انظر: "الدر" ٢/٣) وعلقه ابن كثير - والله أعلم - نقلا من تفسيره ٢٣٣/٣ من طريق الليث عن شهر عن أسماء قالت: "نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم، جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة". ورواه عن ليث سفیان الثوري وإسحاق بن يوسف. والذي من هذا الطريق هو ذكر نزول المائدة كما تقدم، وإنما دخل الوهم في ذلك على ليث أو شهر، وحديث أسماء فيما بعد المحجرة بالتأكيد والأنعام مكية بلا خلاف، ولولا أن ثقل المائدة ليس فضلا خاصا بما بل هو للقرآن جملة؛ لكنت ذكرت شواهد حديث أسماء في ذلك عند سورة المائدة.

الثالثة: وهم شريك في جعل الحديث عن أسماء، وإنما هو من مراسيل شهر أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٤/٢٦٥) أخبرنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب: "نزلت سورة الأنعام ومعها زجل من الملائكة قد نظموا السماء الدنيا إلى الأرض"، وفيه ليث وشهر وكلاهما ضعيف من قبل حفظه، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد (انظر: "الدر" ٣/٣) وقال السُّدِّي عن مرة، عن عبد الله قال: نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفًا من الملائكة. وروي نحوه من وجه آخر، عن ابن مسعود. وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدي، أخبرنا جعفر بن عَوْن، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي، حدثنا محمد بن المُكْدِر، عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سَبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق. ثم قال: صحيح على شرط مسلم. وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا إبراهيم بن دُرُسْتُويه الفارسي، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي، عن نافع بن مالك أبي سهيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسييح والأرض بهم تزَّجج، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم. ثم روى ابن مَرْدُويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف بن عطية، عن ابن عَوْن، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله: نزلت عَلَيَّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيَّعها سبعون ألفًا من الملائكة، لهم زجل بالتسييح والتحميد]

يقول تعالى: وكما بَيَّنَّا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعداء، {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بَصِيرَةٍ} التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُحْرِمِينَ} أي: ولتظهر طريق المحرمين المخالفين للرسول، وقرئ: "وليستبين سبيل المحرمين" أي: وليستبين يا محمد- أو يا مخاطب- سبيل المحرمين. وقوله: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي {وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} أي: بالحق الذي جاءني من عند الله {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} أي: من العذاب، {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَّلَ لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفُصِّلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده.

وقوله: {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: لو كان مرجع ما تستعجلون به إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}.

وقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله": {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان ٣٤]. وفي حديث عمر رضي الله عنه أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له: "خمس لا يعلمهن إلا الله"، ثم قرأ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الآية [لقمان: ٣٤]. وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ} أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، وقوله: {وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}

* - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنزِلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (رواه البخاري)

* ٤٦٩٧ - حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ، قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ

إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ. (رواه البخاري)

* ١٠٣٩ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي عَدِيٍّ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ. (رواه البخاري)

٣٦٥٩ - حدثنا يحيى، عن شعبة... عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله (ابن مسعود) أوتي نبيكم مفاتيح كل شيء غير خمس: "الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير". (رواه أحمد)

* ٦٤٩٦ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانَ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا ضَبَعَتِ الْأَمَانَةُ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ. (رواه البخاري)

ويقول الإمام القرطبي:

قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات.

الآية: ٥٠ {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ} هذا جواب لقولهم: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، فالمعنى ليس عندي خزائن قُدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به. والخزانة ما يخزن فيه الشيء؛ وخزائن الله مقدراته؛ أي لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون {وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} أيضا {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر. قوله تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} ظاهره أنه لا يقطع أمرا إلا إذا كان فيه وحي.

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ} أي الكافر والمؤمن؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: الجاهل والعالم. {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} أي لا يستويان.

الآية: ٥٧ {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْأَفْصِلِينَ}

قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره. {وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} أي بالبينه لأنها في معنى البيان. وقيل يعود على الرب، أي كذبتهم بري لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن. قوله تعالى: {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} أي العذاب؛ فإفهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: {أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا} {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ}. وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها. {إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} أي ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله. {يُقْضَىٰ الْحَقُّ} أي يقص القصص الحق؛ وبه استدلال من منع المجاز في القرآن.

الآية: ٥٨ {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}

قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} أي من العذاب لأنزلته بكم حتى ينفضي الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته. {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} أي بالمشركين وبوقت عقوبتهم.

الآية: ٥٩ {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}

فيه ثلاث مسائل:

الأولى : روي البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله". وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} [النمل: ٦٥]. ومفاتيح جمع مفتاح، هذه اللغة الفصيحة. يقال: مفتاح ويجمع مفاتيح. والمفتاح عبارة عن كل ما يجل غلقا، محسوسا كان كالقفل على البيت أو معقول كالنظر. وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البستي في صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الناس

مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه. وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان؛ ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس أفتح علي كذا؛ أي أعطني أو علمني ما أتوصل إليه به. فالله تعالى عنده علم الغيب، ويده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعها عليها أطلعها، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله؛ بدليل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران: ١٧٩]، وقال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} [الجن: ٢٦ - ٢٧] الآية، وقيل: المراد بالمفتاح خزائن الرزق. وقيل: غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أي عنده الآجال ووقت انقضائها. وقيل: عواقب الأعمار وخواتم الأعمال؛ إلى غير هذا من الأقوال. والأول المختار. والله أعلم.

الثانية: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده. فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وحزم فهو كافر، أخبر عنه بأمانة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال: إن النوء يُنزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه يُنزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء. قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وادعى ذلك عادة لا واجبا في الحلقة لم يكفر ولم يفسق. وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر. أو أخبر عن الكوائن المحملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبه في كفره أيضا. فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ} [يس: ٣٩]. وأما أدبهم فلا أنهم يدخلون الشك على العامة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره؛ فيشوشون عقائدهم ويتروكون قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به. قلت: ومن هذا الباب أيضا ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أتى عرافا فسأل عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". والعراف هو الحازر والمنجم الذي يدعي علم الغيب. وهي من العرافة وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها. والكهانة: ادعاء علم الغيب. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب "الكافي": من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسحت والرشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وادعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللعب والباطل كله. قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان، لا سيما بالديار المصرية؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد أخذ كثير من المنتسبين للفقهاء والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين

فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر.

الثالثة: قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر. ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب وورق ما فيها {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}. وقيل: المعنى {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ} أي من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها، {فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ} بطونها وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية. والله الموفق للهداية. {وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ} بالخفض عطفًا على اللفظ. {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} أي في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه، تعالى عن ذلك. وقيل: كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أي اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب.

الآية: ٦٠ {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} أي ينيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تميزون، وليس ذلك موتًا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت. والتوفي استيفاء الشيء، وتوفي الميت استوفى عدد أيام عمره، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة. والوفاة الموت. وأوفيتك المال، وتوفيته، واستوفيته إذا أخذته أجمع. ويقال: إن الروح إذا خرج من البدن في المنام تبقى فيه الحياة؛ ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته، وصار ميتًا لا يتحرك ولا يتنفس. وقال بعضهم: لا تخرج منه الروح، ولكن يخرج منه الذهن. ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى. وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم. {ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} أي في النهار؛ ويعني اليقظة. {لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى} أي ليستوفي كل إنسان أجلًا ضرب له. {جَرَحْتُمْ} كسبتم. ومعنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شيء عدداً وعلمه وأثبتته، ولكن ليقضي أجلًا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم. وقد دل على الحشر والنشر بالبعث؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذه السورة مكية، من القرآن المكي، القرآن الذي ظل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة. قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا

تكاد تتكرر. ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى! لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد، «قضية العقيدة» ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة. لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله. كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء وكيف جاء وماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟ وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيبا يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يحدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟ وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضا، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد. ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفرعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصابة المختارة من بني الإنسان، التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين.

في روايات عن ابن عباس، وعن أسماء بنت يزيد، وعن جابر، وعن أنس بن مالك وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم جميعا- أن هذه السورة مكية، وأنها نزلت كلها جملة واحدة. وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة، وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي. وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر وتكون هي السورة الخامسة والخمسين. ولكننا لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نحزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور. فالمعول عليه عندهم -في الغالب- في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها -لا جملتها- وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة. إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة. أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة. ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها. غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة، ربما الخامسة أو السادسة، ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها، والتوسع في عرضها على هذا النحو الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين، وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله، أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو كما يقتضي تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طول الصد والإعراض والتكذيب. والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق، أو سيل يتدفق، بلا حواجز ولا فواصل وإن بناها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات، أو على الأقل يرححها ترجيحا قويا. والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع، كل مقطع منها يعالج جانباً من الموضوع، إنما هي موجات. وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها. ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة، إذ أنها في كل لحظة منها وفي كل موقف وفي كل مشهد، تبلغ حد «الروعة الباهرة» التي تبده النفس وتشده الحس، وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدتها وإيقاعاتها وموجياتها...

{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ. إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟}

إنه- صلى الله عليه وسلم- يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرا مجردا من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة. وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء، لا ثراء، ولا ادعاء. إنها عقيدة يحملها رسول، لا يملك إلا هداية الله تنير له الطريق. ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم، إنه لا يقعد على خزائن الله، ليغدق منها على من يتبعه، **ولا يملك مفاتيح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن**، ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا، إنما هو بشر رسول وإنما هي هذه العقيدة وحدها، في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة. على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ومن بيان للحقائق وتقرير للوقائع، يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَاتِ}. أما ختام هذه الآية القصيرة: {وَلَتَسْبِيحٌ سَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ}. فهو شأن عجيب! إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة. إن هذا المنهج لا يعنى بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب. إنما يعنى كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا. إن استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين. وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق!

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)}

هذه الموجة عودة إلى «حقيقة الألوهية» بعد بيان «حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول» في الموجة السابقة لها في السياق المتلاحم وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين. وحقيقة الألوهية في هذه الموجة تتجلى في مجالات شتى بحملها هنا- قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية. تتجلى في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجد في نفسه بينة من ربه، هو منها على يقين، لا يزعزعه تكذيب المكذبين. ومن ثم يخلص نفسه لربه، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه. وتتجلى في حلم الله على المكذبين، وعدم استجابته لاقتراحتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها- كما جرت سنته تعالى- وهو قادر عليه. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك هذا الذي يستعجلون به، ما أمسكه عنهم، ولضاق بشريته بهم وتكذيبهم. فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته.

وتتجلى في علم الله بالغيب وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع في هذا الوجود في صورة لا تكون إلا لله ولا يصورها هكذا إلا الله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}. وتتجلى في هيمنة الله على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم، في النوم والصحو، في الموت والحياة، في الدنيا والآخرة: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ. أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}. تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية، التي تتمثل في شتى الإيقاعات التي تواجه القلب البشري بحقيقة الألوهية في شتى مجالها. ومن بين هذه المؤثرات العميقة، ذلك الإيقاع المتكرر: «قل .. قل .. قل ..» خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغ عن ربه، ما يوحيه إليه وما لا يملك غيره ولا يتبع غيره ولا يستوحي غيره. يأمر الله - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله. ومع أن المقصود في الآية أن يوجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه منهي عن عبادة أي مما يدعون ويسمون من دون الله، فإن التعبير بـ «الذين» في قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، يستوقف النظر. فكلمة الذين تطلق على العقلاء، ولو كان المقصود هي الأوثان، والأصنام، وما إليها لعبر بـ «ما» بدل «الذين». فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر - مع الأصنام والأوثان وما إليها - نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول: «الذين» فغلب العقلاء، ووصف الجميع بوصف العقلاء. وهذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة ومع المصطلحات الإسلامية في هذا المقام من جهة: فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها. ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس، وهم ما كانوا يشركون الناس إلا في أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد. حيث يسنون لهم السنن، ويضعون لهم التقاليد ويحكمون بينهم في منازعاتهم وفق العرف والرأي. وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية، فالإسلام يعتبر هذا شركا ويعتبر أن تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم وجعلهم أندادا من دون الله، وينهى الله عنه نهي عن السجود للأصنام والأوثان فكلاهما في عرف الإسلام سواء، شرك بالله، ودعوة أنداد من دون الله! ثم يجيء الإيقاع الثاني موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ. إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَفْضُلُ الْحَقُّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} وهو أمر من الله - سبحانه - لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يجهر في مواجهة المشركين المكذبين برهم بما يجده في نفسه من اليقين الواضح الراسخ، والدليل الداخلي البين، والإحساس الوجداني العميق، بربه ووجوده، ووحدانيته، ووحيه إليه. فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه ممن يتجلى الله لهم في قلوبهم فيجدونه - سبحانه - حاضرا فيها ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك في أعماقهم تسكب في قلوبهم اليقين بها. وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي

يستعملونه فالذي يملكه هو الله وحده وهو ليس إلهًا، إنما هو رسول: {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يُقْضَى الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}. ومناسبة علم الله- سبحانه- بالظالمين واستطرادا في بيان حقيقة الألوهية يجلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة، مجال الغيب المكنون، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ويرسل سهاما بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت ويابس ورطب.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد- أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل البعيدة الآماد والآفاق والأغوار، مفاتيحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله. ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط. إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع، مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعا، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعا، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعا، إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري وكذلك لا تلحظه العين البشرية ولا تلم به النظرة البشرية، إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملة لعلم الله وحده المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء، الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء، الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب. كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر، على هذا المستوي السامق: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} آماد وآفاق وأغوار في «الجهول» المطلق. في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان. {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ}. آماد وآفاق وأغوار في «المنظور»، على استواء وسعة وشمول تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب. {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} حركة الموت والفناء وحركة السقوط والانحدار، من علو إلى أسفل، ومن حياة إلى اندثار. {وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ} حركة البزوغ والنماء، المنبتقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق. {وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} التعميم الشامل، الذي يشمل الحياة والموت، والازدهار والذبول في كل حي على الإطلاق. فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟ من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله، في مثل هذا النص القصير .. من؟ إلا الله! ثم نقف أمام قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، نقف لنقول كلمة عن «الغيب»

و«مفاتيحه» واختصاص الله - سبحانه - «بالعلم» بما. ذلك أن حقيقة الغيب من «مقومات التصور الإسلامي» الأساسية لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية ومن قواعد «الإيمان» الرئيسية. وذلك أن كلمات «الغيب» و«الغيبية» تلاك في هذه الأيام كثيرا - بعد ظهور المذهب المادي - وتوضع في مقابل «العلم» و«العلمية»، والقرآن الكريم يقرر أن هناك «غيبا» لا يعلم «مفاتيحه» إلا الله. ويقرر أن ما أوتيته الإنسان من العلم قليل. وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم هو - سبحانه - من طاقته ومن حاجته. وأن الناس لا يعلمون - فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه - إلا ظنا، وأن الظن لا يغني من الحق شيئا. كما يقرر - سبحانه - أن الله قد خلق هذا الكون، وجعل له سننا لا تتبدل وأنه علم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ويتعامل معها - في حدود طاقته وحاجته - وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقينا وتأكدا أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق، دون أن يخجل هذا الكشف عن سنن الله التي لا تبدل لها، بحقيقة «الغيب» المجهول للإنسان، والذي سيظل كذلك مجهولا.

وأشرقَت الأرض بنور ربها

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الزمر

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قدره حق قدره ما كذبه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرته الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف.

{وَوُفِّحَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)}

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقله: {وَوُفِّحَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسرا في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولا وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء، ويقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦] ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء. ثم يجيب أول

من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: {ثُمَّ نُفِّخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} أي: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤ ، ١٣]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [الروم: ٢٥].

وقوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلّى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} قال قتادة: كتاب الأعمال، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ} قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأهم بلغوهم رسالات الله إليهم، {وَالشَّهَدَاءِ} أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي: بالعدل {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} قال الله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]، وقال الله تعالى: {وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} أي: من خير أو شر {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}.

{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)}

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ} أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: {رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٤]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣]، {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٥ ، ٣٤].

وقولهم: {وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد: أي أرض الجنة. وهذه الآية كقولهم: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: {نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجزنا على عملنا.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٦٧] {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

الآية: [٦٨] {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}

قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} قال المبرد: ما عظموه حق عظمتهم من قولك فلان عظيم القدر. قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمتهم إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخرج عن قدرته وعظمتهم فقال: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}. ثم نزه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}. وقوله: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ}: "ويقبض الله الأرض" عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي، بمعنى ما فلان إلا في قدرتي، والناس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه وقدرته. وقد يكون معنى القبض والطي إفناء الشيء وإذهابه، فقوله جل وعز: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ} يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة، والمراد بالأرض الأرضون السبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا} ولأن الموضوع موضع تفخيم وهو مقتضى للمبالغة. وقوله: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} ليس يريد به طيا بعلاج وانتصاب، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب؛ يقال: قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره، وانطوى عنا دهر بمعنى المضي والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك؛ ومنه قوله تعالى: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} يريد به الملك؛ وقال: {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} أي بالقوة والقدرة أي لأخذنا قوته وقدرته. قال الفراء والمبرد: اليمين القوة والقدرة. وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا؛ لأن الدعوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}، وقال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} حسب ما تقدم في {الفاتحة}؛ ولذلك قال في الحديث: "ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض".

قوله جل وعز: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، قال: "جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل" وفي هذا الحديث: "إن آخرهم موتا جبريل عليه وعليهم السلام". وقال الحسن: هو الله الواحد القهار وما يدع أحدا من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت. وقال قتادة: الله أعلم بشيائه. وقيل: الاستثناء في قوله: {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى؛ أي فيموت من في السماوات والأرضي إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا.

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون. وقيل: قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم.

الآية: [٦٩] {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}

الآية: [٧٠] {وَوُضِّعَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}

قوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} إشراقها إضاءةها؛ يقال: أشرفت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى: {بِنُورِ رَبِّهَا} بعدل ربها؛ قاله الحسن وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها؛ والمعنى واحد؛ أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. وقيل: إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض. وروي أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى أنها أشرفت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حد إضافة الملك إلى المالك. وقيل: إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهار لا ليل معه. وقد ضل قوم ما هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن مشابهة المحسوسات، بل هو منور السماوات والأرض، فمنه كل نور خلقا وإنشاء.

يقول الإمام مسلم في صحيحه:

* ٢٩١ - (١٧٨) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه (رواه مسلم)

[ش (نور أنى أراه) هكذا رواه جميع الرواة في جميع الأصول والروايات ومعناه حجاب النور فكيف أراه؟ قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله الضمير في أراه عائد على الله سبحانه وتعالى، ومعناه أن النور منعي من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه]

* ٢٩٢ - (١٧٨) حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي ح، وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، كلاهما عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول

الله صلى الله عليه وسلم لسألته، فقال عن أي شيء كنت تسأله؟ قال كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر سألت فقال: رأيت نورا (رواه مسلم)

[ش (رأيت نورا) معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره]

قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} قال ابن عباس: يريد اللوح المحفوظ. وقال قتادة: يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فأخذ يمينه وأخذ بشماله. {وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ} أي جيء بهم فسألهم عما أجابتهم به أمهم. {وَالشُّهَدَاءِ} الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، وقيل: المراد بالشهداء الذي استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله؛ قاله السدي. قال ابن زيد: هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. قال الله تعالى: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها؛ {وَفُضِي بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} أي بالصدق والعدل. {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، قال سعيد بن جبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم. {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ} من خير أو شر. {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد، ومع ذلك فتشهد الكتب، والشهود إلزاما للحجة.

الآية: [٧٤] {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْوًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَبِعَمِّ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}

قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين: {وَسِيقَ} بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يُشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك (!!!)، فشتان ما بين السوقين. {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ} قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا} قيل: الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ} أي في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاها النقاش والمعنى واحد.

قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ} أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا. {وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ} أي أرض الجنة، قيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين، وقيل: إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير. {فَبِعَمِّ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، قيل: هو من قولهم أي نعم الثواب هذا؛ وقيل: هو من قول الله تعالى، أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}، نعم، ما قدروا الله حق قدره وهم يشركون به بعض خلقه؛ وهم لا يعبدونه حق عبادته، وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته، وهم لا يستشعرون جلاله وقوته. ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته، على طريقة التصوير القرآنية، التي تقرب للبشر الحقائق الكلية في صورة جزئية، يتصورها إدراكهم المحدود: {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وكل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورونها. ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة، التي لا تتقيد بشكل، ولا تتحيز في حيز، ولا تتحدد بحدود. ثم يأخذ في مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى، وينتهي بانتهاء الموقف، وسوق أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة. وتفرد الله ذي الجلال، وتوجه الوجود لذاته بالتسييح والتحميد. وهو مشهد رائع حافل، يبدأ متحركاً، ثم يسير وثيداً، حتى تهدأ كل حركة، وتسكن كل نامة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت، ورهبة الخشوع، بين يدي الله الواحد القهار! {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}، أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض. ونور ربها الذي لا نور غيره في هذا المقام.

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ} الحافظ لأعمال العباد، {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} ليقولوا كلمة الحق التي يعلمون. وطوي كل خصام وجدال- في هذا المشهد- تنسيقاً لجوه مع الجلال والخشوع الذي يسود الموقف العام {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهِيَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} فلا حاجة إلى كلمة تقال، ولا إلى صوت واحد يرتفع. ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التي تعرض في مشاهد أخرى. لأن المقام هنا مقام روعة وجلال. {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً}. {حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكروهم بأسباب مجيئهم إليها: {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا. قَالُوا بَلَى. وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} فالموقف موقف إذعان وتسليم. لا موقف مخاصمة ولا مجادلة. وهم مقرون مستسلمون! {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا. فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ}. ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين. فكيف ركب الجنة؟ ركب المتقين؟ {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً. حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. طِبْتُمْ. فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ} فهو الاستقبال الطيب. والثناء المستحب. وبيان السبب. {طِبْتُمْ} وتطهرتم. فما يكون فيها إلا الطيب. وما يدخلها إلا الطيبون. وهو الخلود في ذلك النعيم. هنا تهيئة أصوات أهل الجنة بالتسييح والتحميد: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقْنَا وَعَدَّهُ، وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ، نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}. فهذه هي الأرض التي تستحق أن تورث. وهم يسكنون فيها حيث شاءوا، وينالون منها الذي يريدون. {فَعِمْ أَجْرَ الْعَامِلِينَ}. ثم يختتم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله، وما يختتم سورة التوحيد أنسب ختام والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام. وكلمة الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء:

{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ} كما قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧] وقد قال البخاري: حدثنا مُقَدِّم بن محمد، حدثني عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه". انفرد به من هذا الوجه البخاري، رحمه الله. وقوله: {كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}، قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (!!). وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}، قال: السجل: هو الرجل. قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب - هو العوذدي - عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم. وهكذا رواه أبو داود والنسائي عن قتيبة بن سعيد، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم. ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرِيِّ عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى السجل وهو قوله: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}، قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوي السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ. وقال الخطيب البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر

البَرْقَانِي، أَنبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبِ الْحِجَاجِيِّ، أَنبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْكَرْخِيِّ، أَنَّ حَمْدَانَ بْنَ سَعِيدٍ حَدَّثَهُمْ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، قَالَ: السَّجَلُ: كَاتِبٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا مُنْكَرٌ جَدًّا مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو، لَا يَصِحُّ أَصْلًا وَكَذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ، لَا يَصِحُّ أَيْضًا. وَقَدْ صَرَحَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحَفَازِ بِوَضْعِهِ— وَإِنْ كَانَ فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ— مِنْهُمْ شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْكَبِيرُ أَبُو الْحِجَاجِ الْمَوْزِي، فَسَّحَّ اللَّهُ فِي عَمْرِهِ، وَنَسَأَ فِي أَجَلِهِ، وَخْتَمَ لَهُ بِصَالِحِ عَمَلِهِ. وَقَدْ تَصَدَّقَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ لِلْإِنْكَارِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَرَدَّهُ أتم رد، وَقَالَ: لَا يُعْرَفُ فِي الصَّحَابَةِ أَحَدٌ اسْمُهُ السَّجَلُ، وَكُتِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْرُوفُونَ، وَلَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ اسْمُهُ السَّجَلُ، وَصَدَّقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى نَكَارَةِ هَذَا الْحَدِيثِ. وَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ فِي أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ هَذَا، فَإِنَّمَا اعْتَمَدَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، لَا عَلَى غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالصَّحِيحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السَّجَلُ هِيَ الصَّحِيفَةُ، قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنْهُ. وَنَصَّ عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ؛ لِأَنَّهُ الْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ} أَي: عَلَى هَذَا الْكِتَابِ، بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ، كَقَوْلِهِ: {فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَتَلَّهَ لِلْحَبِيبِ} [الصَّافَاتِ: ١٠٣]، أَي: عَلَى الْجَبِينِ، وَلَهُ نِظَائِرٌ فِي اللُّغَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} يَعْنِي: هَذَا كَاتِبٌ لَا مَحَالَةَ، يَوْمَ يَعِيدُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ خَلْقًا جَدِيدًا، كَمَا بَدَأَهُمْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ، وَذَلِكَ وَاجِبُ الْوُقُوعِ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ وَعْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ وَلَا يَبْدَلُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ وَابْنُ جَعْفَرٍ الْمَعْنِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ النُّعْمَانَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: "إِنكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِفَاةَ عِرَاةٍ غُرْلًا كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"؛ وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِهِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} قَالَ: نَهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، كَمَا كَانَ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمِ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]. وقال: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]. وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}، الآية [النور: ٥٥]. وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب

الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: **{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ}**، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: **{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ}** فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن **ابن عباس: الزبور: القرآن (!)**. وقال سعيد بن جبير: الذكر: الذي في السماء. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وقال مجاهد، عن ابن عباس: **{أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}** قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، وقتادة، والسدي، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثوري رحمهم الله تعالى.

وقوله: **{إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ}** أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم لبلاغاً لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}**: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبُقْسَ الْقَرَارِ}** [إبراهيم: ٢٨ ، ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** [فصلت: ٤٤]. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مروان القزاري، عن يزيد بن كيسان، عن ابن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: **"إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"**. انفراد بإخراجه مسلم. وفي الحديث الآخر: **"إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مَهْدَاة"**.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٠٤ **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}**

قوله تعالى: **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ}** قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح والأعرج والزهري **{نَطْوِي}** بقاء مضمومة **{السَّمَاءَ}** رفعا على ما لم يسم فاعله. مجاهد **{يَطْوِي}** على معنى يطوي الله السماء. الباقيون **{نَطْوِي}**

بنون العظيمة. وانتصاب {يوم} على البدل من الهاء المحذوفة في الصلوة؛ التقدير: الذي كنتم توعدون يوم نظوي السماء. وأراد بالسماء الجنس، دليبه: {وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧]. {كُطِبَ السَّجِّلَ لِلْكِتَابِ} قال ابن عباس ومجاهد: أي كطي الصحيفة على ما فيها؛ فاللام بمعنى "على". وعن ابن عباس أيضا اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوي؛ لأن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم، ولا في أصحابه من اسمه السجل. وقال ابن عباس أيضا وابن عمر والسدي: "السجل" ملك، وهو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه. ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق في كل خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت (!!!). والسجل الصك، وهو اسم مشتق من السجالة وهي الكتابة؛ وأصلها من السجل وهو الدلو؛ تقول: ساجلت الرجل إذا نزعت دلوًا ونزعت دلوًا، ثم استعيرت فسميت المكتابة والمراجعة مساجلة. وقد سجل الحاكم تسجيلًا. والطي في هذه الآية يحتمل معنيين: أحدهما: الدرج الذي هو ضد النشر، قال الله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧]. والثاني: الإخفاء والتعمية والحو؛ لأن الله تعالى يححو ويطمس رسومها ويكدر نجومها. قال الله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} [التكوير: ١ - ٢] {وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} [التكوير: ١١]. {لِلْكِتَابِ} وتم الكلام. ثم استأنف الكلام فقال: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} أي نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بدؤوا في البطون. وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَرَاةَ غُرَلَا أَوَّلَ الْخَلْقِ يَكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثم قرأ- {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} أخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس، قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: "يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام" وذكر الحديث. وقال ابن عباس: المعنى، نملك كل شيء ونفنيه كما كان أول مرة؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ} أي نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا. وقيل: نفني السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها؛ كقول: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨] والقول الأول أصح وهو نظير قوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ٩٤] وقوله عز وجل: {وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} {وَعَدْنَا} نصب على المصدر؛ أي وعدنا وعدا {عَلَيْنَا} إنجازه والوفاء به، أي من البعث والإعادة ففي الكلام حذف. ثم أكد ذلك بقول جل ثناؤه: {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} قال الزجاج: معنى {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} إنا كنا قادرين على ما نشاء. وقيل {إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} أي ما وعدناكم، وهو كما قال: {كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} [المزمل: ١٨].

الآيتان: ١٠٥ - ١٠٦ {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ، إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَابِطِينَ}

قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ {الزُّبُورِ} والكتاب واحد؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور. زبرت أي كتبت وجمعه زبر. وقال سعيد بن جبير: {الزُّبُورِ} التوراة والإنجيل والقرآن. {مَنْ بَعْدَ الذِّكْرِ} الذي في السماء {أَنَّ الْأَرْضَ} أرض الجنة {يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير. الشعبي: {الزُّبُورِ} زبور داود، و {الذِّكْرِ} توراة موسى عليه السلام. مجاهد {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير؛ لأن الأرض في الدنيا قال قد يرثها الصالحون وغيرهم. وقال مجاهد وأبو العالية: ودليل هذا التأويل قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزِنَّا الْأَرْضَ} [الزمر: ٧٤] {إِنَّ فِي هَذَا} أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبية. وقيل: إن في القرآن {لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ}، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: {عَابِدِينَ} مطيعين، والعابد المتذلل الخاضع.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذا الشوط الأخير في السورة بعد عرض سنن الله الكونية، الشاهدة بوحدة الخالق وسنن الله في إرسال الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة الأمة ووحدة العقيدة، يعرض السياق فيه مشهدا للساعة وأشراتها، يتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء ويتفرد الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير. ثم يقرر سنة الله في وراثته الأرض، ورحمة الله للعالمين المتمثلة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وعندئذ يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينفذ يده منهم، وأن يدعهم لمصيرهم، فيترك الحكم لله فيهم ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم، وانصرافهم إلى اللعب واللهو، ويوم الحساب قريب. {وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلًّا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ. وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلِكْنَاهَا أَنتَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها دون تعديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير. إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد، بقدر استعداد كل أمة، وتطور كل جيل وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها، واستعدادها لأنماط من التكليف ومن التشريعات وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلا بعد جيل.

{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}

ويختتم المشهد بمنظر الكون الذي آل إليه. وهو يشارك في تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب، وبزمام الكائنات كلها في ذلك اليوم العصيب: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكَتُوبِ} فإذا السماء مطوية كما يطوي خازن الصحائف صحائفه وقد قضي الأمر، وانتهى العرض، وطوي الكون الذي كان يألفه الإنسان، وإذا عالم جديد وكون جديد: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}. ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء في الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله في وراثته الأرض، وصيرورتها للصالحين من عبادة في الحياة. وبين المشهدين مناسبة وارتباط: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} والزبور إما أن يكون كتابا بعينه هو الذي أوتيته داود عليه السلام، ويكون الذكر إذن هو التوراة التي سبقت الزبور. وإما أن يكون وصفا لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ، الذي يمثل المنهج الكلي، والمرجع الكامل، لكل نواميس الله في الوجود. وعلى أية حال فالمقصود بقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ...} هو بيان سنة الله المقررة في وراثته الأرض: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} فما هي هذه الوراثة؟ ومن هم عباد الله الصالحون؟ لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، وتميئتها وتحويرها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله. ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه في هذه الأرض. منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح. وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته. في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقتها هو وحده المقصود. ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليلبغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة. فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة. وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة. وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة. وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة. وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق. والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح. فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم. وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوراثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ. ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح. وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الآخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان. وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}. فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون.

وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم:

{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته، {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} قال ابن عباس: يئس المجرمون. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية: يكتب المجرمون. {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ} أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

ثم قال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ} قال قتادة: هي - والله - الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني: إذا رفع هذا إلى عليين، وخفض هذا إلى أسفل السافلين، فذاك آخر العهد بينهما؛ ولهذا قال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} قال مجاهد وقاتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحيرة أعم من هذا كله.

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)}

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه: عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح، وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده، مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: هو الحمود على ما

خلق في السموات والأرض. ثم قال: {وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} فالعشاء هو: شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا، كما قال: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: ٣ ، ٤]، وقال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١ ، ٢]، وقال: {وَالصُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [الضحى: ١ ، ٢]، والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن هبة، حدثنا زيان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وني؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسي: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون". وقال الطبراني: حدثنا مطلب بن شبيب الأزدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بشير، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيهقي، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يصبح: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} الآية بكاملها، أدرك ما فاتته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته". إسناده جيد ورواه أبو داود في سننه.

وقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله: {وَيُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} كقوله: {وَأَيُّ لَهْمِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْوُنِ} [يس: ٣٣ ، ٣٤]، وقال: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهِيَجُ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [الحج: ٥ - ٧]، وقال: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: {وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ}.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)}

يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، {ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصوّر فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاما، شكله على

شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحما، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير. ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه. فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ولهذا قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وعُندَر، قالا حدثنا عَوْف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن، وبين ذلك". ورواه أبو داود والترمذي من طرق، عن عوف الأعرابي، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} أي: خلق لكم من جنسكم إناثا يَكُنَّ لكم أزواجا، {لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأضراس^{١٨}. ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي الحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ}.

¹⁸ يقول الأستاذ سيد قطب في تفسيره للآية: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦)} سورة الأعراف:

ينظر الله سبحانه بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة إلى آدم وزوجه، وهنا فقط نعرف أن له زوجا من جنسه، لا ندرى كيف جاءت، فالنص الذي معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجا من جنسه، فصارا زوجين اثنين والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّغَاتِ لِلْعَالَمِينَ (٢٢)
وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ (٢٣)}

يقول تعالى: ومن آيات قدرته العظيمة {خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار. وقوله: {وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ} يعني: اللغات، فهؤلاء بلغاة العرب، وهؤلاء تَتَرَّ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرَبِر، وهؤلاء تَكُرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي خلاهم، فجميع أهل الأرض - بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان؛ وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهرا كان أو خفيا، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي: ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ} أي: يعون. قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السدوسي، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن غلثة، حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت، رضي الله عنه، قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "قل: اللهم غارت النجوم، وهذأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أتم عيني و أهدئ ليلي" فقلتها فذهب عني.

{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)}

يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على عظمته أنه {يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال: {وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء {اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَخْرِجُ} [الحج: ٥]. وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)}

ثم قال: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} كقوله: {وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: ٤١]. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم؛ ولهذا قال: {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٥٢]. وقال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَرْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: ٥٣].

{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)}

يقول تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: ملكه وعبده، {كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً. وفي حديث درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، مرفوعاً: "كل حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقَنُوتَ فَهُوَ الطَّاعَةُ".

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} قال بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هَيِّئٌ. وكذا قال عكرمة وغيره. وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد". انفراد بإخراجه البخاري. وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١١] {اللَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}

الآية: [١٢] {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ}

الآية: [١٣] {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}

والمعروف في اللغة: ألبس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته، ولم يؤمل أن يكون له حجة. وقريب منه: تحير، وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا، وأنه ألبس لأنه انقطعت حجته. النحاس: ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف، وهو في القرآن غير منصرف. الزجاج: الملبس الساكت المنقطع في حجته، اليائس من أن يهتدي إليها. {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ} أي ما عبده من دون الله {شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} قالوا ليسوا بأهله فتبرؤوا منها وتبرأت منهم.

الآية: [١٤] {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ}

الآية: [١٥] {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}

قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ} يعني المؤمنين من الكافرين؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا} قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى {أَمَّا} دع ما كنا فيه وخذ في غيره. وكذا قال سيبويه: إن معناها مهما كنا في شيء فخذ في غير ما كنا فيه. {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} قال الضحاك: الروضة الجنة، والرياض الجنان. وقال أبو عبيد: الروضة ما كان في تسفل، فإذا كانت مرتفعة فهي ترعة. وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ، إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي ترعة. وقد قيل في الترعة غير هذا. وقال القشيري: والروضة عند العرب ما ينبت حول الغدير من البقول؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه. {يُحْبَرُونَ} قال الضحاك وابن عباس: يكرمون. وقيل ينعمون؛ وقاله مجاهد وقتادة. وقيل يسرون. السدي: يفرحون. والحبرة عند العرب: السرور والفرح؛ ذكره الماوردي. وقال الجوهري: الحبر: الحبور وهو السرور؛ قال تعالى: {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} أي يُنعمون ويكرمون ويُسرون. وقيل: أصله من التحبير وهو التحسين؛ فـ {يُحْبَرُونَ} يحسنون. يقال: فلان حسن الحبر والسبر إذا كان جميلاً حسن الهيئة. وقال يحيى بن أبي كثير {فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} قال: السماع في الجنة؛ [وقاله الأوزاعي، قال: إذا أخذ أهل الجنة في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا رددت إلا رددت الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال الأوزاعي: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلواتهم وتسبيحهم. زاد غير الأوزاعي: ولم تبق شجرة في الجنة إلا رددت، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح، ولم تبق حلقة إلا طنت بألوان طنينها، ولم تبق أجمة من أجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من حوار الحور العين إلا غنت بأغانيتها، والطير بألحانها، ويوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بالحنان وأصوات روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره: يا داود قم عند ساق عرشي فمجدني؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات

ويجلبها وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: {فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}. ذكره الترمذي الحكيم رحمه الله [من أين أتى الأزاعي والترمذي بهذا الكلام العجيب ولماذا تفردا به من دون مالك والبخاري ومسلم والشافعي وابن حنبل؟!]. وذكر الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكر الناس؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفي أخريات القوم أعرابي فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: "نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهرا حافتاه الأبقار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة" فسأل رجل أبا الدرداء: بماذا يتغنين؟ فقال: بالتسيح. والخمصانية: المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن، الضخمة الأسفل. [ومن أين أتى هؤلاء بهذا الكلام أيضا؟!]. قلت: وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال. وأين هذا من قوله الحق: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} على ما يأتي. وقوله عليه السلام: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". وقد روي: "إن في الجنة لأشجارا عليها أحراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأحراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا". ذكره الزمخشري. (!!!)

الآية: [١٦] {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} تقدم الكلام فيه. {وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ} أي بالبعث. {فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: معذبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: {إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} أي نزل به؛ قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب.

الآية: [١٧] {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ}

الآية: [١٨] {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ} الآية فيه ثلاثة أقوال: الأول: أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن؛ قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ} صلاة المغرب والعشاء {وَحِينَ تُصْبِحُونَ} صلاة الفجر، {وَعَشِيًّا} العصر {وَحِينَ تُظْهِرُونَ} الظهر؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير.

الثانية - قوله تعالى: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} اعتراض بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمه وألائه. وقيل: معنى {وَلَهُ الْحَمْدُ} أي الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد. والأول أظهر؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى

والحز على عبادته ودوام نعمته؛ فيكون نوعاً آخر بخلاف الصلاة، والله أعلم. وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدم النهار.

الآية: [١٩] {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ}. بين كمال قدرته؛ أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يحييكم بالبعث.

الآية: [٢٠] {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}

الآية: [٢١] {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

الآية: [٢٢] {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ}

الآية: [٢٣] {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِعَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}

الآية: [٢٤] {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

الآية: [٢٥] {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}

الآية: [٢٦] {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}

قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} أي من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب؛ أي خلق أباكم منه والفرع كالأصل. و{أَنْ} في موضع رفع بالابتداء وكذا {أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} قوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قوام معاشكم، فلم يكن ليخلقكم عبثاً؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح. ومعنى: {خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} لتسكنوا أي نساء تسكنون إليها. {مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي من نطف الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حواء، خلقها من ضلع آدم؛ قاله قتادة. {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} قال ابن عباس ومجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض. وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة؛ وروي معناه عن ابن عباس قال: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء. {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} تقدم في {البقرة}. وكانوا يعترفون بأن الله هو الخالق. {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} اللسان في

الفهم؛ وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة؛ فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فَعَلِمَ أن الفاعل هو الله تعالى؛ فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} أي للبر والفاجر. وقرأ حفص: {لِّلْعَالَمِينَ} بكسر اللام جمع عالم. {وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} قيل: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغواكم من فضله بالنهار؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة؛ فجعل النوم بالليل دليلا على الموت، والتصرف بالنهار دليلا على البعث. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} يريد سماع تفهم وتدبر. وقيل: يسمعون الحق فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعد فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيصدقونه؛ والمعنى متقارب. وقيل: كان منهم من إذا تلي القرآن وهو حاضر سد أذنيه حتى لا يسمع؛ فبين الله عز وجل هذه الدلائل عليه. {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} قيل: المعنى أن يريكم، فحذف {أن} لدلالة الكلام عليه؛ وقيل: هو على التقديم والتأخير؛ أي ويريكُم البرق من آياته. وقيل: أي من آياته أنه يريكم البرق خوفا وطمعا من آياته؛ قاله الزجاج، فيكون عطف جملة على جملة. {خَوْفًا} أي للمسافر. {وَطَمَعًا} للمقيم؛ قاله قتادة. الضحاك: {خَوْفًا} من الصواعق، {وَطَمَعًا} في الغيث. يحيى بن سلام: {خَوْفًا} من البرد أن يهلك الزرع، {وَطَمَعًا} في المطر أن يحيي الزرع. ابن بحر: {خَوْفًا} أن يكون البرق برقًا خُلبًا لا يمطر، {وطمعا} أن يكون ممطرا. والبرق الخلب: الذي لا غيث فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز: إنما أنت كبرق خلب. والخلب أيضا: السحاب الذي لا مطر فيه. قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} {أَنْ} في محل رفع كما تقدم؛ أي قيامها واستمسакها بقدرته بلا عمد. وقيل بتدبيره وحكمته؛ أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق. وقيل: {بِأَمْرِهِ} بإذنه؛ والمعنى واحد. {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} أي الذي فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث؛ كما يجيب الداعي المطاع مدعوه. وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بـ{ثم} لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يأهل القبور قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر؛ كما قال تعالى: {ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} و{إذا} الأولى في قوله تعالى: {إِذَا دَعَاكُمْ} للشرط، والثانية في قوله تعالى: {إِذَا أَنْتُمْ} للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وأجمع القراء على فتح التاء هنا في {تَخْرُجُونَ}. واختلفوا في التي في {الأعراف} فقرأ أهل المدينة: {وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} بضم التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد. والمعنيان متقاربان، إلا أن أهل المدينة فرقوا بينهما لنسق الكلام، فنسق الكلام في التي في {الأعراف} بالضم أشبه؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبه بنسق الكلام، أي إذا دعاكم خرجتم أي أطعتم؛ فالفعل بهم أشبه. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة. {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} خلقا وملكا وعبدا. {كُلُّ لَهٗ قَانِثُونَ}، روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال: "كل قنوت في القرآن فهو طاعة". قال النحاس: مطيعون طاعة انقياد. وقيل: {قَانِتُونَ} مقرون بالعبودية، إما قالة وإما دلالة؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسدي. الربيع بن أنس: {كُلُّ لَه قَانِتُونَ} أي قائم يوم القيامة؛ كما قال: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أي للحساب.

الآية: [٢٧] {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أما بدء خلقه فبعلقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فأحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث؛ فجعل ما عُلم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته؛ استدلالا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} وقرأ ابن مسعود وابن عمر: {بَدَأَ الْخَلْقَ} من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ} ودليل قراءة العامة قوله سبحانه: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} و{أَهْوَنُ} بمعنى هين؛ أي الإعادة هين عليه؛ قاله الربيع بن خثيم والحسن. فأهون بمعنى هين لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء. ومنه قولهم: الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبدالله بن مسعود {وهو عليه هين}. وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى أن الإعادة أهون عليه - أي على الله - من البداية، أي أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هينا. ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في {عَلَيْهِ} للمخلوقين؛ أي وهو أهون عليه، أي على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقا ثم مضغا ثم أجنة ثم أطفالا ثم غلمانا ثم شبانا ثم رجالا أو نساء. وقال الربيع بن خثيم في قوله تعالى: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} قال: ما شيء على الله بعزير. عكرمة: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية. {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ} أي ما أراده جل وعز كان. وقال الخليل: المثل الصفة؛ أي وله الوصف الأعلى {فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} كما قال: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ} أي صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: {الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ} قول لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي الذي له الوصف الأعلى، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله؛ ويعضده قوله تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ} على ما نبينه آنفا إن شاء الله تعالى. وقال الزجاج: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي قوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأول. وقال ابن عباس: أي ليس كمثل شيء {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} تقدم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

والذين لا يدركون حكمة النشأة، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة، ولا يقدرونها قدرها، ولا يحسبون حسابها، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود، لا تتخلف مطلقا ولا تحيد. والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورا صحيحا ويظل علمهم بها ظاهرا سطحيا ناقصا، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرتة لكل ما يقع في هذه الأرض. فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون. ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة! ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها. لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ولا يتفقا في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون. فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان، الخليفة في الأرض، المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله. ولارتباط تحقق وعد الله بالنصر بالحق الأكبر الذي يقوم عليه هذا الوجود، وارتباط أمر الآخرة كذلك بهذا الحق استطرد يجول بهم جولة أخرى في ضمير هذا الكون. في السماوات والأرض وما بينهما ويردهم إلى أنفسهم ينظرون في أعماقها ويتدبرون، علمهم يدركون ذلك الحق الكبير، الذي يغفلون عنه حين يغفلون عن الآخرة ويغفلون عن الدعوة التي تقودهم إلى رؤية ذلك الحق وتدبره: **{أَوْمَ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}**. فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحى بأن هذا الوجود قائم على الحق، ثابت على الناموس، لا يضطرب، ولا تتفرق به السبل، ولا تتخلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العمياء، ولا وفق الهوى المتقلب، إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا. وأن من مقتضيات هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة، يتم فيها الجزاء على العمل، ويلقى الخير والشر عقابتهما كاملة. إنما كل شيء إلى أجله المرسوم. وفق الحكمة المدبرة وكل أمر يجيء في موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون! ولكن تأجيلها يغري الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ويخدعهم: **{إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}**. ومن هاتين الجولتين في أغوار الكون وأغوار التاريخ يردهم إلى الحقيقة التي يغفل عنها الغافلون. حقيقة البعث والمآب. وهي طرف من الحق الأكبر الذي يقوم عليه الوجود: **{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}**. وهي حقيقة بسيطة واضحة. والترابط والتناسق بين جزئها أو بين حلقتيها واضح كذلك. فالإعادة كالبداء لا غرابة فيها. وهما حلقتان في سلسلة النشأة، مترابطتان لا

انفصام بينهما. والرجعة في النهاية إلى رب العالمين، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة، لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم في النهاية على ما يعملون. وعندما يصل السياق إلى البعث والمآب يعرض مشهدا من مشاهد القيامة، ويرسم مصائر المؤمنين والمكذبين حين يُرجعون ويكشف عن عبث اتخاذ الشركاء وسخف عقيدة المشركين: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِتِدِ يَنْفَرُتُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ}**. فهذا هي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون، ويكذب بها المكذبون. ها هي ذي تجيء، أو ها هي ذي تقوم! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين، لا أمل لهم في نجاة، ولا رجاء لهم في خلاص. ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع. ثم ها هم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين. ثم ها هو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين: **{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}** ويتلقون فيها ما يفرح القلب ويسر خاطر ويسعد الضمير. **{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ}** وتلك نهاية المطاف. وعاقبة المحسنين والمسيئين.

ومن هذه الجولة في مشاهد القيامة في العالم الآخر يعود بهم إلى هذا العالم، وإلى مشاهد الكون والحياة. وإلى عجائب الخلق وأسرار النفس، وإلى خوارق الأحداث ومعجزات التكوين. ويبدأ هذه الجولة بتسبيح الله حين تغلب الليل والنهار وحمد الله في الكون العريض بالعشي والأطهار. إنها جولة ضخمة هائلة، لطيفة عميقة، بعيدة الآماد والأغوار. جولة تطوّف بالقلب البشري في الأمسيات والأصباح، والسماوات والأرض، والعشي والأطهار، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة في النشوء والذثور. وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى، وإلى ما ركب في فطرته من ميول ونوازع، وقوى وطاقات، وما يقوم بين زوجيه من علائق وروابط، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات. وتوجهه إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقا لاختلاف البيئة والمكان. وإلى تدبر ما يعتري الكائن البشري من نوم وبقظة وراحة وكد. وإلى ما يعتري الكون من ظواهر البرق والمطر، وما تثيره في نفوس البشر من خوف وطمع، وفي بنية الأرض من حياة وازدهار. وتمضي هذه الجولة العجيبة في النهاية بالقلب البشري إلى قيام السماوات والأرض في هذا كله بأمر الله وإلى توجه من في السماوات والأرض كلهم لله. وتنتهي بالحقيقة التي تنجلي حينئذ واضحة هينة يسيرة: إن الله هو يبدئ ويعيد. والإعادة أهون عليه. وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم: **{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}**. إن ذلك التسبيح وهذا الحمد يجيئان تعقيبا على مشهد القيامة في الفقرة السابقة، وفوز المؤمنين بروضة فيها يجبرون، وانتهاء الكافرين المكذبين إلى شهود العذاب. ومقدمة لهذه الجولة في ملكوت السماوات والأرض، وأغوار النفس وعجائب الخلق. فيتسقان مع التعقيب على المشهد وعلى التقديم للجولة كل الاتساق. والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات: الإمساء والإصباح والعشي

والأظهار كما يربطهما بآفاق السماوات والأرض. فيتقضى بهما الزمان والمكان ويربط القلب البشري بالله في كل بقعة وفي كل أوان ويشعر بتلك الرابطة في الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك وظواهر الليل والنهار والعشي والأظهار. ومن ثم يظل هذا القلب مفتوحا يقظا حساسا، وكل ما حوله من مشاهد وظواهر، وكل ما يختلف عليه من آونة وأحوال، يذكره بتسبيح الله وحمده ويصله بخالفه وخالق المشاهد والظواهر والآونة والأحوال. **{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }**. **{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }**. تلك العملية الدائبة التي لا تكف ولا تبي لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان، على سطح الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار. ففي كل لحظة يتم هذا التحول. بل هذه المعجزة الخارقة التي لا تنتبه إليها لطول الألفة والتكرار. في كل لحظة يخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي. وفي كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام. ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والنبات ويوجد الغاز الذي ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة، وتستعد للإخصاب. وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين. إنسان أو حيوان أو طائر. والجنّة التي ترمى في الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات هي مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات، فالحيوان والإنسان! ومثل هذا يتم في أغوار البحار وفي أجواز الفضاء على السواء. إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله.

{ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ }. فالأمر عادي واقعي لا غرابة فيه وليس بدعا مما يشهده الكون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان! **{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ }** والتراب ميت ساكن ومنه نشأ الإنسان. وفي موضع آخر في القرآن جاء: **{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ }** فالطين هو الأصل البعيد للإنسان. ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين. للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك. وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة، وإيجاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التي يعيشون عليها والتي يلتقون بها في أصل تكوينهم، وفي النواميس التي تحكمها وتحكمهم في نطاق الوجود الكبير. والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر، نقلة تثير التأمل في صنع الله وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم. ومن مجال الخلق الأولى لنوع البشر ينتقل إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسي البشر: **{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }**. والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة. ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجا، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكنا للنفس والعصب، وراحة

للجسم والقلب، واستقرارا للحياة والمعاش، وأنسا للأرواح والضمائر، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء. والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويرا موحيا، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس: **{لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**، فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر، ملييا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، واثلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد.

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ}. وآية خلق السماوات والأرض كثيرا ما يشار إليها في القرآن، وكثيرا ما نمر عليها سراعا دون أن نتوقف أمامها طويلا، ولكنها جدية بطول الوقوف والتدبر العميق. إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل. هذا الحشد الذي لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات. تلك التي لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها ولا ظل! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار. ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها، فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان وما عرف عنه إلا أقل من القليل. هذه لحة خاطفة عن آية خلق السماوات والأرض التي نمر عليها سراعا. ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان بين بني الإنسان. ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض. فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان. مع اتحاد الأصل والنشأة في بني الإنسان. وعلماء هذا الزمان يرون اختلاف اللغات والألوان ثم يرون عليه دون أن يروا فيه يد الله، وآياته في خلق السماوات والأرض. وقد يدرسون هذه الظاهرة دراسة موضوعية. ولكنهم لا يقفون ليمجدوا الخالق المدبر للظواهر والبواطن. ذلك أن أكثر الناس لا يعلمون. **{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**. وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها إلا الذين يعلمون: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ}**

{وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} وهذه آية كذلك تجمع بين ظواهر كونية وما يتعلق بها من أحوال البشرية، وتربط بين هذه وتلك، وتنسق بينهما في صلب هذا الوجود الكبير. تجمع بين ظاهري الليل والنهار ونوم البشر ونشاطهم ابتغاء رزق الله، الذي يتفضل به على العباد، بعد أن يبذلوا نشاطهم في الكد والابتغاء، وقد خلقهم الله متناسقين مع الكون الذي يعيشون فيه وجعل حاجتهم إلى

النشاط والعمل يلببها الضوء والنهار وحاحتهم إلى النوم والراحة يلببها الليل والظلام. مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة في هذا ودرجات. وكلها تجد في نظام الكون العام ما يلي طبيعتها ويسمح لها بالحياة. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}. والنوم والسعي سكون وحركة يدركان بالسمع. ومن ثم يتناسق هذا التعقيب في الآية القرآنية مع الآية الكونية التي تتحدث عنها على طريقة القرآن الكريم.

{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكوني ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل مثلا، ينشأ عنها تفريغ في الهواء يتمثل في الرعد الذي يعقب البرق. وفي الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم. وأيا ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارئ وقدره تقديرا. والقرآن الكريم حسب طبيعته لا يفصل كثيرا في ماهية الظواهر الكونية وعللها إنما يتخذ منها أداة لوصول القلب البشري بالوجود وخالق الوجود، ومن ثم يقرر هنا أنها آية من آيات الله أن يريهم البرق {خَوْفًا وَطَمَعًا} وهما الشعوران الفطريان اللذان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة. شعور الخوف من الصواعق التي تحرق الناس والأشياء أحيانا عند ما يبرق البرق. أو الخوف الغامض من رؤية البرق وما يوقعه في الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل. وشعور الطمع في الخير من وراء المطر الذي يصاحب البرق في معظم الأحوال والذي عقب بذكره في الآية بعد ذكر البرق: {وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يحيل أن الأرض كائن حي، يحيا ويموت. وإنما كذلك في حقيقتها التي يصورها القرآن الكريم. ذلك كله بالإضافة إلى أن الماء حين يصيب الأرض، يبعث فيها الخصب، فتنبت الزرع الحي النامي وتموج صفحاتها بالحياة المنبثقة في هذا النبات. ومن ثم في الحيوان والإنسان. والماء رسول الحياة فحيث كان تكون الحياة. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} فهنا للعقل مجال للتدبر والتفكير.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} وقيام السماء والأرض منتظمة سليمة مقدره الحركات لا يكون إلا بقدره من الله وتدبير. وما من مخلوق يملك أن يدعي أنه هو أو سواه يفعل هذا. وما من عاقل يملك أن يقول إن هذا كله يقع بدون تدبير. وإذن فهي آية من آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره، ملببة لهذا الأمر، طائعة له، دون انحراف ولا تلكؤ ولا اضطراب. {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} ومن يرى هذا التقدير في نظام الكون، وهذه السلطة على مقدراته، لا يشك في تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم، بالخروج من القبور! ثم يأتي الإيقاع الأخير ختاماً لهذا التقرير فإذا كل من في السماوات والأرض من خلائق قانتون لله طائعون. {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لا قانتين لله ولا عابدين.

ولكن هذا التقرير إنما يعني خضوع كل من في السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التي تصرفهم وفق السنة المرسومة التي لا تتخلف ولا تحيد. فهم محكومون بهذه السنة ولو كانوا عصاة كافرين. إنما تعصى عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنة، يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه بباقي العبيد وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت. ثم يحتتم تلك الجولة الضخمة الهائلة اللطيفة العميقة بتقرير قضية البعث والقيامة التي يغفل عنها الغافلون: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. وقد سبق في السورة تقرير البدء والإعادة، وهو يعاد هنا بعد تلك الجولة العريضة ويضاف إليه جديد {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. وليس شيء أهون على الله ولا أصعب. {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم، ففي تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله. وهي في طبيعتها أهون وأيسر؟! {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. فهو سبحانه ينفرد في السماوات والأرض بصفاته لا يشاركه فيها أحد، وليس كمثلته شيء، إنما هو الفرد الصمد. {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} العزيز القاهر الذي يفعل ما يريد. الحكيم الذي يدبر الخلق بإحكام وتقدير.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) }

يقول الإمام ابن كثير:

وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافر الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتكم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ } أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جرير، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذِر. وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بما على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله تعالى { مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ } إلى أن قال: { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ } [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يُستخرج من الملح لا من الحلوى. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص هذا الجواب بعينه ابن جرير. والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا } إلى أن قال: { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَالِ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، وقال تعالى عن إبراهيم: { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخبارًا عنهم: { وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ

اللَّهُ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {الأحقاف: ٢٩ - ٣٢}.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} أي: أقرنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم
كائن لا محالة.

قال تعالى: {وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم
للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، {وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} أي: يوم القيامة {أَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ} أي: في الدنيا، بما جاءهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

{ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)} وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)}

يقول تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} أي: إنما أعددنا إلى الثقلين بإرسال الرسل
وإنزال الكتب، لئلا يُعاقب أحد بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعددنا إلى الأمم، وما عدنا أحدًا إلا بعد
إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} {فاطر: ٢٤}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي
كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل: ٣٦}، وقال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ
رَسُولًا} {الإسراء: ١٥}، وقال تعالى: {كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا
نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} {الملك: ٨ ، ٩} والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: ويحتمل قوله تعالى: {بِظُلْمٍ}
وجهين: أحدهما: ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول: لم يكن
يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم من ينبههم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن
بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} {المائدة: ١٩}.

والوجه الثاني: أن {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} يقول: لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير
بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجح الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى،
والله أعلم. وقال: وقوله: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا} أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من
عمله يبلغه الله إياها، ويشبهه بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قلت: ويحتمل أن يعود قوله: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا} أي من كافري الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار
بحسبه، كقوله تعالى {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} {الأعراف: ٣٨}، وقوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} {النحل: ٨٨}. {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} قال ابن جرير:
أي وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه
ومعادهم إليه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٣٠ { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَضِّلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَزَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }

قوله تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ } أي يوم نحشرهم نقول لهم ألم يأتكم رسل فحذف؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم. ومعنى { مِنْكُمْ } في الخلق والتكليف والمخاطبة. ولما كانت الجن ممن يُخاطَب ويعقل قال: { مِنْكُمْ } وإن كانت الرسل من الإنس، وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث. وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي؛ كما قال: { وَلَوْ لَا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ } [الأحقاف: ٢٩]. وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس. وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والندر من الجن؛ ثم قرأ { إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ } [الأحقاف: ٢٩]. وهو معنى قول ابن عباس. وقال الكلبي: كانت الرسل قبل أن يُبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس والجن جميعا. قلت: وهذا لا يصح، بل في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يَعْطِهَنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبَعَثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ" الحديث. وقال ابن عباس: كانت الرسل تبعث إلى الإنس وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الجن والإنس؛ ذكره أبو الليث السمرقندي. وقيل: كان قوم من الجن استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم؛ كالحال مع نبينا عليه السلام. فيقال لهم رسل الله، وإن لم ينص على إرسالهم. وفي التنزيل: { يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ } [الرحمن: ٢٢] أي من أحدهما، وإنما يخرج من الملح دون العذب، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن؛ فمعنى { مِنْكُمْ } أي من أحدكم. وكان هذا جائزا؛ لأن ذكرهما سبق. وقيل: إنما صير الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثقلين قد ضمتها عرصة القيامة، والحساب عليهم دون الخلق؛ فلما صاروا في تلك العرصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، والثواب والعقاب على العبودية، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار، وأصلنا من تراب، وخلقهم غير خلقنا؛ فمنهم مؤمن وكافر. وعدونا إبليس عدوهم، يعادي مؤمنهم ويوالي كافرهم. وقد وصف الله عنهم في سورة "الجن" من قوله: { وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ } [الجن: ١٤]. { وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا } [الجن: ١١]. { قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا } أي شهدنا أنهم بلغوا. { وَعَزَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } قيل: هذا خطاب من الله للمؤمنين؛ أي أن هؤلاء قد غرقتهم الحياة الدنيا، أي خدعتهم وظنوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا. { وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } أي اعترفوا بكفرهم. قال مقاتل: هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك وبما كانوا يعملون.

الآية: ١٣١ { ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }

قوله تعالى: { ذَلِكَ } في موضع رفع عند سبويه؛ أي الأمر ذلك. و { أَنْ } مخففة من الثقيلة؛ أي إنما فعلنا هذا بهم لأني لم أكن أهلك القرى بظلمهم؛ أي بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. وقيل: لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم؛ فهو مثل { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام: ١٦٤]. ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد. وقد قال عيسى: { إِنَّ تَعَدَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ } [المائدة: ١١٨] وأجاز الفراء أن يكون { ذَلِكَ } في موضع نصب، المعنى: فعل ذلك بهم؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم.

الآية: ١٣٢ { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }

قوله تعالى: { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا } أي من الجن والإنس؛ كما قال في آية أخرى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [الأحقاف: ١٨] ثم قال: { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [الأحقاف: ١٩]. وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار؛ كالإنس سواء. وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه. ومعنى { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ } أي ولكل عامل بطاعة درجات في الثواب. ولكل عامل بمعصية دركات في العقاب. { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ } أي ليس بلاه ولا ساه. والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره.

ويقول الأستاذ سيد قطب

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّضْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْعَنِّي ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخِرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) }

هذا المقطع بجملته ليس منفصلا عن الدرس السابق، إنما هو امتداد له، من جنس الموجات المتعاقبة التي يتضمنها. فهو من ناحية استطراد في بيان مصائر شياطين الإنس والجن - بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله - وهو من ناحية استطراد في قضية الإيمان والكفر التي تذكر في هذا الموضع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع، وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية ومنها حقيقة الجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا - بعد النذارة والبشارة - وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعا واستبدال غيرهم بهم، وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله. لقد مضى في الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام فتبقى قلوبهم ذاكرة لا تغفل وأهم ماضون إلى دار السلام، منتهون إلى ولاية ربهم وكفالاته. فالآن يعرض الصفحة المقابلة في المشهد، يعرض شياطين الإنس والجن، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وخداعا وإضلالا، ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي ويوحى بعضهم إلى بعض ليحادلوا المؤمنين في ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام. إن المشهد يبدأ معروضا في المستقبل، يوم يحشرهم جميعا، ولكنه يستحيل واقعا للسامع يتراءى له مواجهة. وذلك بحذف لفظة واحدة في العبارة. فتقدير الكلام، "يوم يحشرهم جميعا - فيقول - يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ". ولكن حذف كلمة "يقول" ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ويحيل السياق من مستقبل يُتَظَرُّ، إلى واقع يُنْظَرُ! وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب. فلنتابع المشهد الشاخص المعروض: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ }، استكبرتم من التابعين لكم من الإنس، المستمعين لإيحاءكم، المطيعين لوسوستكم، المتبعين لخطواتكم. وهو إخبار لا يقصد به الإخبار، فالجن يعلمون أنهم قد استكبروا من الإنس! إنما يقصد به تسجيل الجريمة، جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذي نكاد نلمحه في المشهد المعروض! ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التي تتجمع قرائنها الحية في هذا الحشد المحشود! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء. ولكن الأعرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون: { وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا } وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة في هؤلاء الأتباع كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم في دار الخداع. ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة، حتى حان الأجل، الذي يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذي أمهلهم إليه وأنهم كانوا في قبضته في أثناء ذلك المتاع: { وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا } عند ذلك يجيء الحكم الفاصل بالجزاء العادل: { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } فالنار مثابة ومأوى. { إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } لتبقى صورة المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي. فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور. والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد، ولا في مقرراتها هي. { إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }. يمضي قدره بالناس عن حكمة وعن علم ينفرد بهما الحكيم العليم.

ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } وهو سؤال للتقرير والتسجيل. فالله - سبحانه - يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا. والجواب عليه

إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة. والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس. فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر. ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل، وينطلقون إلى قومهم منذرين به. كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف: **{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ. فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا. فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}**. فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة. والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه! وعلى أية حال فقد أدرك المسئولون من الجن والإنس، أن السؤال ليس على وجهه. إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل كما أنه للتأنيب والتوبيخ فأخذوا في الاعتراف الكامل وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه: **{قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا}** وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول: **{وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}** وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا. فقد غرتم هذه الحياة وقادهم الغرور إلى الكفر. ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به حيث لا تجدي المكابرة والإنكار. وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وراءه من المؤمنين وإلى الناس أجمعين ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم، تقص عليهم آيات الله، وتندرهم لقاء يومهم هذا.. ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار، وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم (أي بشركهم) إلا بعد أن يُنبهوا من غفلتهم وتقص عليهم الآيات، وينذرهم المنذرون: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}. لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربحها؛ فقد تفضل هذه الفطرة؛ وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات. ثم يقرر السياق حقيقة أخرى في شأن الجزاء للمؤمنين وللشياطين سواء: **{وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا. وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}**.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأحقاف:

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)}

يقول الأستاذ سيد قطب:

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التي تعالجها السورة، فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن، فنادوا بالإنصات، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعوهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة، ويجذروهم الإعراض والضلال؛ سياقة الخبر في هذا المجال، بهذه الصورة، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم: «**أَنْصِتُوا**» عند ما طرق أسماعهم، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه، وفيما دعوهم إليه. كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر، الذين جاء القرآن لهم في الأصل. وهو إيقاع مؤثر ولا شك، يلفت هذه القلوب لفترة عنيفة عميقة. وفي الوقت ذاته تحيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويغفل عنها البشر. ولا يخفى ما في هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة. كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السماوات والأرض، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث. وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون.

ومقالة النفر من الجن - مع خشوعهم عند سماع القرآن- تتضمن أسس الاعتقاد الكامل: تصديق الوحي، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن، والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه، والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال، والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى، وهي الأسس التي تتضمنها السورة كلها، والقضايا التي تعالجها في سائر أشواطها، كلها جاءت على لسان النفر من الجن، من عالم آخر غير عالم الإنسان.

ويحسن قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة. إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم- وحكاية ما قالوا وما فعلوا، هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن، ولتقرير وقوع الحادث، ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران، مستعدون للهدى وللضلال، وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة **فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله سبحانه ثبوتاً**. ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني. إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهها وصفة وأثرها، ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار، نعرف منها القليل، ونجهل منها الكثير. وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار، ونذكر بعض هذه القوى، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بذواتها، وتارة بصفاتها، وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا. ولكننا سنظل في حدود

الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة. وفي حدود قول الله سبحانه {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} قليلا بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيومه. فليس لنا - والحالة هذه- أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره أو عدم تصوره من عالم الغيب المجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة. فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى، عن طريق كلامه- لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضا- فسيبنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم. نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها، لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة.

ومن هذا النص القرآني، ومن نصوص سورة الجن، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه، ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن، ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث، نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن ولا زيادة. هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقا اسمه الجن، مخلوق من النار، لقول إبليس في الحديث عن آدم: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}. وإبليس من الجن لقول الله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} فأصله من أصل الجن. وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر. منها خلقته من نار، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس، لقوله تعالى عن إبليس: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}؛ وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس. وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندري أين - لقوله تعالى لآدم وإبليس معا: {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}. والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها، وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن: {وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِيًّا خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}. وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم - غير عباد الله- للنصوص السابقة، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} وغير هذا من النصوص المماثلة. ولكننا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأي أداة. وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به. وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن: {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ. فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعوهم إلى الإيمان، بعد ما وجدوه في نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد. وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن، وهو حسبنا، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل.

فأما الحادث الذي تشير إليه هذه الآيات، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح، فقد وردت فيه روايات متعددة ثبت أصحابها: أخرج البخاري- بإسناده- عن مسدد؛ ومسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة؛ وروى

الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة؛ وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: **«ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم»**. انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها، يتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: **{يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمننا به، ولكن نشارك برئنا أحداً}**. وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: **{قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن}**، وإنما أوحى إليه قول الجن. **وهي قاطعة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما علم بالحادث عن طريق الوحي، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم**. ثم إن هذه الرواية هي الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج وتتفق معها في هذه النقطة رواية ابن إسحاق. كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن: **{إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}** وفي هذا غناء في تحقيق الحادث. لقد كان إذن تدييرا من الله أن يصرف هؤلاء نفر من الجن إلى استماع القرآن، لا مصادفة عابرة. **وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة للشياطين الجن كما هي معدة للشياطين الإنس**. ويرسم النص مشهد هذا نفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن، ويصور لنا ما وقع في حسهم منه، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع. **{فلما حضروه قالوا أنصتوا}** وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع. **{فلما قضى ولوا إلى قومهم مندبرين}** وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن. فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية. فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام: **{قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى، مصدقا لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم}** ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم إنا سمعنا كتاب جديدا أنزل من بعد موسى، يصدق كتاب موسى في أصوله. فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ولكن طبيعتها تشي بأنها من ذلك النبع الذي نبع منه كتاب موسى. وشهادة هؤلاء الجن

البعيد - نسبيًا - عن مؤثرات الحياة البشرية، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن، ذات دلالة وذات إيحاء عميق. ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه، وما أحست ضمائرهم فيه، فقالوا عنه: {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}. ووقع الحق والهدى في هذا القرآن هائل ضخم، لا يقف له قلب غير مطموس ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللثيم. ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة، فإذا هي تنطق بهذه الشهادة، وتعبّر عما مسها منه هذا التعبير. ثم مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المنذع الذي يحس أن عليه واجبا في النذارة لا بد أن يؤديه: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُجِزِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}، فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن واعتبروا محمدا صلي الله عليه وسلم داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له: فنادوا قومهم: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ} وآمنوا كذلك بالآخرة، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب، فبشروا وأنذروا بهذا الذي عرفوه. ويروي ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية. ولكن السياق يوحي بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضا. ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية: {وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ. أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} فهي تكلمة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان. فالاحتمال قوي وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة. وأن الذي لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء. ويذيقه العذاب الأليم فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه. وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالا بينا عن الصراط المستقيم.

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

{فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُمَّ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخِطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم، ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لجزره، وأطاب لهم لفظه: {فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُمَّ} أي: أي شيء جعلك لهم لينا لولا رحمة الله بك وبهم. قال قتادة: {فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُمَّ} يقول: فبرحمة من الله لنت لهم، و"ما" صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: {فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣] وبالنكرة كقوله: {عَمَّا قَلِيلٍ} [المؤمنون: ٤٠] وهكذا هاهنا قال: {فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن تَهُمَّ} أي: برحمة من الله. وقال الحسن البصري: هذا خُلِقَ محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]. وقال الإمام أحمد: حدثنا حيوة، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الخُزْرَاني قال: أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي وقال: أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا أمامة، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِي لِي قَلْبِهِ". انفراد به أحمد.

ثم قال تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} اللفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: {غَلِيظَ الْقَلْبِ} أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم. وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي، أنبأنا بشر بن عبيد

الدارمي، حدثنا عمّار بن عبد الرحمن، عن المسعودي، عن ابن أبي مُليكة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمَدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْقَرَائِصِ"، حديث غريب.

ولهذا قال تعالى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَثَ، تطيباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرَكِ الْعَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم- أيضا- أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهُورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحُدَيْبِيَّة في أن يميل على دَرَارِي المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام في قصة الإفك: "أَشْبِرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ آبَائِنَا أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا". واستشار عليا وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها. فكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطيبا لقلوبهم؟ على قولين. وقد قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف بمصر، حدثنا سعيد بن أبي مرثم، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في قوله: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} قال: أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وروى ابن مَرْدُويه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزم؟ قال "مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ ثُمَّ اتِّبَاعُهُمْ". وقد قال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بكير عن شيبان عن عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المستشار مؤتمن".

وقوله: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.

وقوله: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} وهذا كما تقدم من قوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٦] ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.

{وَلَا يَخْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مِثْلَ لَهْمٍ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّ مِثْلَ لَهْمٍ لَيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)}

يقول تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم: {وَلَا يَخْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} وذلك من شدة حرصه على الناس كان يجزئه مُبَادَرَةَ الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: ولا يخزنك ذلك {إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ} أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيتته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا في الآخرة {وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررًا: {إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ} أي: استبدلوا هذا بهذا {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا} أي: ولكن يضرّون أنفسهم {وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

ثم قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مِثْلَ لَهْمٍ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّ مِثْلَ لَهْمٍ لَيَزِدَّادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} كقوله تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ سِنِينَ نَسْتَدْرِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦]، وكقوله {فَدَرَبْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ يُكذِّبُ بِحَدِّ الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [القلم: ٤٤]، وكقوله {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَهَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} أي: لا بُدَّ أَنْ يَعْقِدَ سَبَابَ مِنَ الْمَحْنَةِ، يَظْهَرُ فِيهِ وَوَلِيهِ، وَيُفْتَضِحُ فِيهِ عَدُوهُ. يُعْرِفُ بِهِ الْمُؤْمِنَ الصَّابِرَ، وَالْمَنَافِقَ الْفَاجِرَ. يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وحياتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}. قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: ميّز بينهم بالجهاد والمحرة. ثم قال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} كقوله {عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن: ٢٦، ٢٧]. ثم قال: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٥٩ {فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}

قوله: "ما" صلة فيها معنى التأكيد، أي فبرحمة؛ كقوله: {عَمَّا قَلِيلٍ} [المؤمنون: ٤٠]، {فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} [النساء: ١٥٥] {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ} [ص: ١١]؛ وليست بزائدة على الإطلاق، وإنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها. ومعنى الآية: أنه عليه السلام لما رفق بمن تولى يوم أحد ولم يعنفهم بيّن الرب تعالى أنه **إنما فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه**. {لَنْتَ} من لان يلين لينا وليانا بالفتح. والفظ الغليظ الجافي. فظظت تفظ فظاظة وفظاظا فأنت فظ. والأنثى فظة والجمع أفضاظ. وفي صفة النبي عليه السلام ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق. ومعنى {لَانْفَضُّوا} لتفرقوا؛ فضضتهم فانفضوا، أي فرفقتهم فتفرقوا. وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك. والمعنى: يا محمد لولا رفقك لمنعهم الاحتشام والهيبه من القرب منك بعد ما كان من توليهم.

في قوله تعالى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} فيه ثمان مسائل:

الأولى: أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ؛ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعه؛ فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعه أيضا، فإذا صاروا في هذه الدرجة صاروا أهلا للاستشارة في الأمور. قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها بجري أو غيره. ويقال للموضع الذي تركض فيه: **مشوار**. الثانية: قال ابن عطية: **والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب؛ هذا ما لا خلاف فيه**. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]. وقال ابن خويز منداد: **واجب على الولاة مشاوره العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها**. وكان يقال: ما ندم من استشار. وكان يقال: من أعجب برأيه ضل.

الثالثة: قوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} يدل على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي؛ فإن الله أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه؛ فقالت طائفة: ذلك في مكائد الحروب، وعند لقاء العدو، وتطبيبا لنفوسهم، ورفع لأقذارهم، وتألفا على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه. روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق

والشافعي. قال الشافعي: هو كقوله "والبكر تُستأمر" تطيباً لقلبها؛ لا أنه واجب. وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم في الأمر، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم وأطيب لنفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم. وقال آخرون: ذلك فيما لم يأتيه فيه وحى. روي ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده. ولقد أحسن القائل:

شاور صديقك في الخفي المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذلك نبيه ... في قوله : "شاورهم" و "توكل"
الرابعة: جاء في مصنف أبي داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المستشار مؤتمن". قال العلماء: وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن يكون عالماً دليماً، وقلما يكون ذلك إلا في عاقل. قال الحسن: ما كمل دين امرئ ما لم يكمل عقله. فإذا استشير من هذه صفته واجتهد في الصلاح وبذل جهده فوقعت الإشارة خطأ فلا غرامة عليه؛ قاله الخطابي وغيره.

الخامسة: وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشارين. والشورى بركة. وقال عليه السلام: "ما ندم من استشار ولا خاب من استخار". وروى سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما شقي قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي". وقال بعضهم: شاور من جرب الأمور؛ فإنه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غالباً وأنت تأخذه مجاناً. وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة - وهي أعظم النوازل - شورى. قال البخاري: وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها. وقال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة ومن يخشى الله تعالى. وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم لأفضل ما يحضر بهم.

السادسة: والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه، إذ هذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية.

السابعة: قوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} قال قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله، لا على مشاورتهم. والعزم هو الأمر المروى المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا، وقال النقاش: العزم والحزم واحد، والحاء مبدلة من العين. قال ابن عطية: وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم قصد الإمضاء؛ والله تعالى يقول: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ}، فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم. والعرب تقول: قد أحزم لو أعزم. قال المهلب: وامتل هذا النبي صلى الله

عليه وسلم من أمر ربه فقال: "لا ينبغي لنبى يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله". أي ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة. فلبسه لأمته صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أحد من أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى عدونا؛ دال على العزيمة. وكان صلى الله عليه وسلم أشار بالعود، وكذلك عبدالله بن أبي أشار بذلك وقال: أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإن هم أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن جاؤونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السكك، وراهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام، فوالله ما حاربنا قط عدو في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا. وأبى هذا الرأي من ذكرنا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب. فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة، ودخل إثر صلاته بيته ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا: يا رسول الله، أقم إن شئت فإننا لا نريد أن نكرهك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي لنبى إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل".

الثامنة: قوله تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} التوكل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز، والاسم التكلان. يقال منه: اتكلت عليه في أمري، وأصله: "أو تكلت" قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وكلته بأمرى توكيلا، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها. واختلف العلماء في التوكل؛ فقالت طائفة من المتصوفة: لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبع أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى. وقال عامة الفقهاء: ما تقدم ذكره عند قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠]، وهو الصحيح كما بيناه. وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله {لَا تَخَافَا}. وقال: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى فُلْنَا لَا تَخَفُ} [طه: ٦٧ - ٦٨]. وأخبر عن إبراهيم بقوله: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفُ} [هود: ٧٠]. فإذا كان الخليل وموسى والكليم قد خافا - وحسبك بهما - فغيرهما أولى.

الآية: ١٦٠ {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}

قوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} أي عليه توكلوا فإنه إن يعنكم ويمنعكم من عدوكم لن تُغلبوا. {وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ} يترككم من معونته. {فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} أي لا ينصركم أحد من بعده، أي من بعد خذلانه إياكم؛ لأنه قال: {وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ} والخذلان ترك العون؛ والمخذول: المتروك لا يُعابأ به. وتخاذلت رجلاه إذا ضعفتا. والله أعلم.

الآية: ١٧٦ { وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

قوله تعالى: { وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ } هؤلاء قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفاً من المشركين؛ فاعتم النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: { وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }. ويقال: إن أهل الكتاب لما لم يؤمنوا شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل كتاب؛ فلو كان قوله حقاً لاتبعوه، فنزلت { وَلَا يَحْزُنْكَ }. وقيل: هو عام في جميع الكفار. ومسارعتهم في الكفر المظاهرة على محمد صلى الله عليه وسلم. قال القشيري: والحزن على كفر الكافر طاعة؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفرط في الحزن على كفر قومه، فنهى عن ذلك؛ كما قال: { فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ } [فاطر: ٨] وقال: { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف: ٦].

قوله تعالى: { إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً } أي لا ينقصون من ملك الله وسلطانه شيئاً؛ يعني لا ينقص بكفرهم. وكما روي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". خرجه مسلم في صحيحه والترمذي وغيرهما، وهو حديث عظيم فيه طول يُكتب كله. وقيل: معنى { لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً } أي لن يضرُوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عز وجل ناصرهم.

قوله تعالى: { يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْباً فِي الآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } أي نصيباً. والحظ النصيب والجد. يقال: فلان أحظ من فلان، وهو محظوظ. وجمع الحظ أحاظ على غير قياس. قال أبو زيد: يقال رجل حظيظ، أي جديد إذا كان ذا حظ من الرزق. وحظظت في الأمر أحظ. وربما جمع الحظ أحظاً. أي لا يجعل لهم نصيباً في الجنة. وهو نص في أن الخير والشر بإرادة الله تعالى.

الآية: ١٧٨ { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيْهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّيْهِمْ لِيَزِدُوا إِيمَانَهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

قوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ} الإملاء طول العمر ورغد العيش. والمعنى: لا يحسن هؤلاء الذين يخوفون المسلمين؛ فإن الله قادر على إهلاكهم، وإنما يُطَوَّل أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لا لأنه خير لهم. ويقال: "أنما نملي لهم" بما أصابوا من الظفر يوم أحد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم؛ وإنما كان ذلك ليزدادوا عقوبة. والتقدير ولا يحسن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ثم يمضي السياق القرآني في جولة جديدة. جولة محورها شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقيقته النبوية الكريمة وقيمة هذه الحقيقة الكبيرة في حياة الأمة المسلمة ومدى ما يتجلى فيها من رحمة الله بهذه الأمة. وحول هذا المحور خيوط أخرى من المنهج الإسلامي في تنظيم حياة الجماعة المسلمة، وأسس هذا التنظيم ومن التصور الإسلامي والحقائق التي يقوم عليها، ومن قيمة هذا التصور وذلك المنهج في حياة البشرية بصفة عامة: {فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ لَوْلَا كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاصْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ. إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ. وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخِطِ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنَفِي ضَالِّالٍ مُبِينٍ}. ونظر في هذه الفقرة، وفي الحقائق الكثيرة الأصيلة المشدودة إلى محورها- وهي الحقيقة النبوية الكريمة- فنجد كذلك أصولا كبيرة تحتويها عبارات قصيرة. نجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وطبيعته الخيرة الرحيمة الهينة اللبنة، المعدة لأن تتجمع عليها القلوب وتتألف حولها النفوس. ونجد أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية- وهو الشورى- يؤمر به في الموضوع الذي كان للشورى- في ظاهر الأمر- نتائج مريرة! ونجد مع مبدأ الشورى مبدأ الحزم والمضي- بعد الشورى- في مضاء وحسم. ونجد حقيقة التوكل على الله- إلى جانب الشورى والمضاء- حيث تتكامل الأسس التصويرية والحركية والتنظيمية. ونجد حقيقة قدر الله، ورد الأمر كله إليه وفاعليته التي لا فاعلية غيرها في تصريف الأحداث والنتائج. ونجد التحذير من الخيانة والغلول والطمع في العنينة. ونجد التفرقة الحاسمة بين من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله، تبرز منها حقيقة القيم والاعتبارات والكسب والخسارة. وتختم الفقرة بالإشادة بالمنة الإلهية الممثلة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأمة، المنة التي تتضاءل إلى جانبها الغنائم، كما تتضاءل إلى جانبها الآلام سواء! هذا الحشد كله في تلك

الآيات القلائل المعدودات! {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.

إن السياق يتجه هنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي نفسه شيء من القوم تحمسوا للخروج، ثم اضطربت صفوفهم، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة وخالفوا- بعد ذلك- عن أمره، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة، ووهنوا أمام إشاعة مقتله، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين، وأفردوه في النفر القليل، وتركوه يشحن بالجراح وهو صامد يدعوهم في أخراهم، وهم لا يلبون على أحد. يتوجه إليه صلى الله عليه وسلم يطيب قلبه، وإلى المسلمين يشعروهم نعمة الله عليهم به. ويذكرهم ويذكرهم رحمة الله الممتلئة في خلقه الكريم الرحيم، الذي تتجمع حوله القلوب، ذلك ليستجيش كوامن الرحمة في قلبه صلى الله عليه وسلم فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبي الرحيم. ثم يدعو أن يعفو عنهم، ويستغفر الله لهم، وأن يشاورهم في الأمر كما كان يشاورهم غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسي في الحياة الإسلامية. فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم فجعلته صلى الله عليه وسلم رحيما بهم، لنا معهم. ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحمل همومهم ولا يعينهم بجمه ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء. وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت حياته مع الناس. ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يده في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم. وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من نفسه الكبيرة الرحبية. وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمرته يذكرهم بها في هذا الموقف ليرتب عليها ما يريد- سبحانه- حياة هذه الأمة من تنظيم: {فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} وبهذا النص الجازم: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم- حتى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم- هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه. أما شكل الشورى، والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملايسات حياتها. وكل شكل وكل وسيلة، تتم بما حقيقة الشورى- لا مظهرها- فهي من الإسلام.

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة! فقد كان من جرائها ظاهريا وقوع خلل في وحدة الصف المسلم! اختلفت الآراء. فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها، حتى إذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة. وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين. وكان من جراء هذا

الاختلاف ذلك الخلل في وحدة الصف. إذ عاد عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الجيش، والعدو على الأبواب- وهو حدث ضخم وخلل مخيف- كذلك بدا أن الخطة التي نفذت لم تكن- في ظاهرها- أسلم الخطط من الناحية العسكرية. إذ أنها كانت مخالفة «للسوابق» في الدفاع عن المدينة- كما قال عبد الله ابن أبي- وقد اتبع المسلمون عكسها في غزوة الأحزاب التالية، فبقوا فعلا في المدينة، وأقاموا الخندق، ولم يخرجوا للقاء العدو منتفعين بالدرس الذي تلقوه في أحد! ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج، ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات؛ لأن إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية. ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي، في هذا الوقت بالذات. على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامي لا تكمل حتى نمضي مع بقية الآية فنرى أن الشورى لا تنتهي أبدا إلى الأرجحة والتعويق، ولا تغني كذلك عن التوكل على الله في نهاية المطاف: **{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}** إن مهمة الشورى هي قلب الرأي، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ، التنفيذ في عزم وحسم، وفي توكل على الله، **يصل الأمر بقدر الله، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء.** وكما ألقى النبي صلى الله عليه وسلم درسه النبوي الرباني، وهو يعلم الأمة الشورى، ويعلمها إبداء الرأي، واحتمال تبعته بتنفيذه، في أخطر الشؤون وأكبرها، كذلك ألقى عليها درسه الثاني في المضاء بعد الشورى، وفي التوكل على الله، **وإسلام النفس لقدره** لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله. درس الشورى ثم العزم والمضي مع التوكل على الله والاستسلام لقدره، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة قلب الرأي من جديد.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} والخلة التي يجيها الله ويجب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون. بل هي التي تميز المؤمنين. والتوكل على الله، ورد الأمر إليه في النهاية، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية. وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة، حقيقة أن مرد الأمر كله لله، وأن الله فعال لما يريد. ولتقرير حقيقة التوكل على الله، وإقامتها على أصولها الثابتة، يمضي السياق فيقرر أن القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة الله، فعندها يُلمس النصر، ومنها تُتقى الهزيمة، وإليها يكون التوجه، وعليها يكون التوكل، بعد اتخاذ العدة، ونفض الأيدي من العواقب، وتعليقها بقدر الله: **{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**. ولكن هذه الحقيقة الكلية المطلقة لا تعفي المسلمين من اتباع المنهج، وطاعة التوجيه، والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد، والتوكل بعد هذا كله على الله: **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**. وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود فينفض يده من كل الأشباح الزائفة والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والاتجاء ويتوكل على الله وحده في إحداث النتائج، وتحقيق المصاير، وتدبير الأمر بحكمته، وتقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنان أيا كان.

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيهِمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ. إِنَّمَا نُمَلِّيهِمْ لِيَازِدُوا إِيمَانًا. وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تحول في بعض القلوب، والعتاب الذي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق، متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر، بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يحسبون أن الله - حاشاه - يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان، فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن الله سبحانه لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل، فيدع للباطل أن يحطم الحق، ولا يتدخل لنصرته! أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟! أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر! ثم يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين يلحون في عتوهم، ويسارعون في كفرهم، ويلجون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!!! وهذا كله وهم باطل، وظن بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك. وما هو ذا الله سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن. إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظا في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه، إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء، فإنما هي الفتنة وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد. ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة، بالابتلاء الموقظ، لا ابتلاهم. ولكنه لا يريد بهم خيرا، وقد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة - غمرة النعمة والسلطان - بالابتلاء! {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}. والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء. وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير. فإذا أصابت أولياءه، فإنما تصيبهم لخير يريد الله لهم، ولو وقع الابتلاء مترتبا على تصرفات هؤلاء الأولياء، فهناك الحكمة المعجية والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين. وهكذا تستقر القلوب، وتطمئن النفوس، وتستقر الحقائق الأصيلة البسيطة في التصور الإسلامي الواضح المستقيم.

وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النمل:

{ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبِي بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرِي مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ (٣١) }

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له، نُهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصدرد [يقول محقق الكتاب: أحده من حديث أبي هريرة إلا عند ابن ماجه في السنن برقم (٣٢٢٣) بلفظ: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الصدرد والضفدع والنملة والهدهد". وهو بهذا اللفظ من حديث ابن عباس في مسند الإمام أحمد (٣٣٢/١) وسنن أبي داود برقم (٥٢٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٢٤)]. وإسناده صحيح.

يخبر تعالى عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: أصدقت في إخبارك هذا، {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} في مقاتلك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك. {اذْهَبِي بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرِي مَاذَا يَرْجِعُونَ}، وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره؛ وذهب إلى بلادهم فحاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوّة التي كانت تحتلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ} فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكته، ثم قالت لهم: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} تعني بكرمه: ما رآته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا

سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قبل سليمان، عليه السلام. وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

وقوله: {أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ}: يقول قتادة: لا تجيروا علي {وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ}. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي.

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِئْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)}

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون} أي: حتى تحضرون وتشيروا. {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِئْسَ شَدِيدٍ} أي: منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربه، فما لنا عاقبة عنه. **وبعد هذا فالأمر إليك، مُري فينا برأيك نمتله ونطيعه.** قال الحسن البصري، رحمه الله: **فوضوا أمرهم إلى عِلْجَة تضطرب ثديها^{١٩}**، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخِّر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا} قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدًا عنوةً أفسدوه، أي: حَرَّبُوهُ، {وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً} أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً}، قال الرب، عز وجل {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}. ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسألة والمخادعة والمصانعة، فقالت: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجًا نحمله إليه في كل عام، ولننتم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

^{١٩}العلاج: كل جاف شديد من الرجال (القاموس الوجيز)

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢٣] {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشُ عَظِيمٍ}

الآية: [٢٤] {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}

الآية: [٢٥] {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}

الآية: [٢٦] {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}

الآية: [٢٧] {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}

الآية: [٢٨] {أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى: {وَتَمَقَّقَدَ الطَّيْرُ} ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدم. والتفقد تطلب ما غاب عنك من شيء. والطيور اسم جامع والواحد طائر، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها. واختلف الناس في معنى تفقده للطير؛ فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والتهمم بكل جزء منها؛ وهذا ظاهر الآية.

الثانية - في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته؛ والمحافظة عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك. ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب لئسأل عنها عمر. فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان. ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأخبار سوء ورهبانها
الثالثة - قوله تعالى: {مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ} أي ما للهدهد لا أراه؛ فهو من القلب الذي لا يعرف معناه. وهو كقولك: ما لي أراك كئيباً، أي مالك. والهدهد طير معروف وهدهدته صوته. وقيل: إنما قال: {مَا لِي لَا أَرَى

الهُدْهُدُ؛ لأنه اعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم، وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر، فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه؛ فقال: **{ مَا لِي }**. قال ابن العربي: وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم، تفقدوا أعمالهم؛ هذا في الآداب، **كَيْفَ بِنَا الْيَوْمَ وَنَحْنُ نَقْصِرُ فِي الْفَرَائِضِ!** وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب: **{ مَا لِي }** بفتح الباء وكذلك في **{ يَس }** **{ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي }** [يس: ٢٢]. **{ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ }** بمعنى بل.

الرابعة - قوله تعالى: **{ لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ }** دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد، أما أنه يرفق بالحدود في الزمان والصفة. **{ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }** أي بحجة بينة. وليست اللام في **{ لَيَأْتِيَنِي }** لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد؛ ولكن لما جاء في أثر قوله: **{ لِأَعْدَبْتَهُ }** وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه.

الخامسة - قوله تعالى: **{ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ }** أي الهدهد. والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها. ومعناه في القراءتين أقام. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا. والضمير في **{ مَكَث }** يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِسُلَيْمَانَ؛ والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل. ومحمتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر. فحاء: **{ فَقَالَ أَحَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ }** وهي:

السادسة - أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب. السابعة - قوله تعالى: **{ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ بَنِيًّا يَقِينٍ }** أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعدده من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: **{ سَبَّأً }** بالصرف. وابن كثير وأبو عمرو: **{ سَبَّأً }** بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأول على أنه اسم رجل نُسِبَ إليه قوم، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل، وقال **{ سَبَّأً }** اسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام.

الثامنة - وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التميم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالوا: لا يتميم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة.

التاسعة - قوله تعالى: **{ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ }**، لما قال الهدهد: **{ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ بَنِيًّا يَقِينٍ }** قال سليمان: وما ذلك الخبير؟ قال: **{ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ }** يعني بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبأ. ويقال: كيف وخفي على

سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف.

العاشرة- روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"، قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه؛ وثقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وقد روي عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق. ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسماع البينة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكن من المرأة كما كانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور، وتديب الأمور وحماية البيضة، وقبض الخراج وردده على مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأنيبه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تحالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظر للنظر؛ لأنها إن كانت فتاة حُرِّم النظر إليها وكلامها، لأن كانت بَرَزَتْ لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده.

الحادية عشرة- قوله تعالى: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}؛ مبالغة؛ أي مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً فحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه. {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} أي سرير؛ ووصفه بالعظيم في الهيئة ورتبة السلطان. قيل: كان من ذهب تجلس عليه. وقيل: العرش هنا المثلث؛ والأول أصح؛ لقوله تعالى: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا} [النمل: ٣٨]. الزمخشري: فإن قلت كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض. قال ابن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعاً، وعرضه أربعين ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثين ذراعاً، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. فتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستتراً بالديباج والحريز، عليه سبعة مغاليق. مقاتل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعاً، وهو مكلل بالجواهر. ابن إسحاق: وكان يخدمها النساء، وكان معها لخدمتها ستمائة امرأة. [من أين أتى هؤلاء جميعاً بهذه الأوصاف ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!] قال

ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

الثانية عشرة - قوله تعالى: {وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى. وقيل: كانوا مجوسا يعبدون الأنوار. {وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} أي ما هم فيه من الكفر. {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} أي عن طريق التوحيد. وبين بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق. {فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة - قوله تعالى: {أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ} بتشديد {أَلَا} قال ابن الأنباري: {فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} غير تام لمن شدد {أَلَا} لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا. {الَّذِي يُخْرِجُ الحَبَّاءَ} حياء السماء قطرها، وحبء الأرض كنوزها ونباتها. وقال قتادة: الحباء السر. النحاس: وهذا أولى، أي ما غاب في السماوات والأرض، ويدل عليه {مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: {سَنَنْظُرُ} من النظر الذي هو التأمل والتصفح. {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ} في مقاتلك. و {كُنْتَ} بمعنى أنت. وقال: {سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ} ولم يقل سننظر في أمرك؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} صرح له سليمان بقوله: سننظر أصدقت أم كذبت، فكان ذلك كفاء لما قاله.

الخامسة عشرة: قوله: {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ} دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدراً العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذرا لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حُجب إليه الجهاد. وفي الصحيح: "ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل". ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لما قال الهدهد: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ} لم يستفزه الطمع، ولا استجره حب الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: {وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} فغاضه حينئذ ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: {سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ}.

السادسة عشرة - قوله تعالى: {أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ}، وقال: {إِلَيْهِمْ} على لفظ الجمع ولم يقل إليها؛ لأنه قال: {وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ} فكأنه قال: فألقه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماما منه بأمر الدين، واشتغالا به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

السابعة عشرة- في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار.

الثامنة عشرة- قوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ} أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك. بمعنى: وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم؛ قال وهب بن منبه. وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي ألقه وارجع. {فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} في معنى التقديم على قوله: {ثُمَّ تَوَلَّ} واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أي ألقه ثم تول، وفي خلال ذلك فانظر أي انتظر. وقيل: فاعلم؛ كقوله: {يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [النبأ: ٤٠] أي اعلم ماذا يرجعون أي يجيبون وماذا يردون من القول. وقيل: {فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} يتراجعون بينهم من الكلام.

الآية: [٢٩] {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}

الآية: [٣٠] {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

الآية: [٣١] {أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}

فيه ست مسائل :

الأولى- قوله تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ} في الكلام حذف؛ والمعنى: فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهي تقول: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ} ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمان عليه السلام؛ وهذا قول ابن زيد. وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه؛ وروي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: لأنه بدأ فيه بـ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أجزم". وقيل: {كَرِيمٌ} حسن؛ كقول: {وَمَقَامٌ كَرِيمٌ} [الشعراء: ٥٨] أي مجلس حسن.

الثانية- الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف؛ ألا ترى قوله تعالى: {إِنَّهُ لَفُرْقَانٌ كَرِيمٌ} [الواقعة: ٧٧] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأنير وبالمرور؛ فإن كان ملك قالوا: العزيز وأسقطوا الكريم غفلة، وهو أفضلها حصلة.

الثالثة- كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم. وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أهل فارس إذا كتبوا بدؤوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه"

الرابعة - وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يُرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر. وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسة - اتفقوا على كتب {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة.

السادسة قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {إِنَّهُ} بالكسر فيهما أي وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام {وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. وقرأ الأشهب العقيلي ومحمد بن السميع: {أَلَا تَعْلَمُونَ} بالغين المعجمة، وروي عن وهب بن منبه؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبر. وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. {وَأَنْتَوْنِي مُسْلِمِينَ} أي منقادين طائعين مؤمنين.

الآية: [٣٢] {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}

الآية: [٣٣] {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}

الآية: [٣٤] {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي} الملأ أشرف القوم. لأخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض، {مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} فكيف في هذه النازلة الكبرى. فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع.

الثانية - في هذه الآية دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩] في إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: ٣٨]. والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجددهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها

وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جواهرهم: {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأَسِّ شَدِيدٍ}.

الثالثة- قوله تعالى: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة؛ فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها. وفي هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام. {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته. وقال ابن عباس: هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتمته بذلك ومخبراً به.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ؟ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ؟ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ، أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}، فهذا هو ذا الملك النبي سليمان في موكبه الفخم الضخم. ها هو ذا يتفقّد الطير فلا يجد الهدهد. ونفهم من هذا أنه هدهد خاص، معين في نوبته في هذا العرض، وليس ههدداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد. كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: سمة اليقظة والدقة والحزم. فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق ويتكث. ويتضح أنه غائب، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن وحيث أن يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجنود. ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: {لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ}. ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: {أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}، أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه.

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول في القصة (أو لعله كان ما يزال قائماً) ويحضر الهدهد، ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن! {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}. فذكر أنه وجدهم تحكّمهم امرأة، {أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب

الحضارة والقوة والمتاع. {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} أي سرير ملك فخم ضخم، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة. وذكر أنه وجد الملكة وقومها {يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فأضلهم، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير {الَّذِي يُخْرِجُ الخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والخبء: المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض، أم كان هو أسرار السماوات والأرض، وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض. {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس ما ظهر منه وما بطن. والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب، الذي لم يقض الملك في أمره بعد فهو يلمح في ختام النبأ الذي يقصه إلى الله الملك القهار، رب الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لا تقاس إليه عروش البشر. ذلك كي يطامن الملك من عظمتة الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} فيلمس قلب سليمان- في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها- بهذه الإشارة الخفية! ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به. إنما يأخذ في تجرئته، للتأكد من صحته. شأن النبي العادل والملك الحازم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}. اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ، فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}. ويستدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب، وهي تستشير الملاء من قومها في هذا الأمر الخطير: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ}. فهي تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب. ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب، أو لا كيف ألقاه. ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به- كما تقول التفاسير- لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم. ولكنها قالت بصيغة المجهول، مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها ولا من ألقاه. وهي تصف الكتاب بأنه {كريم}، وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمة أو شكله، أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملاء: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ}، وهي كانت لا تعبد الله، ولكن صيت سليمان كان ذائعا في هذه الرقعة، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم، مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته. وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة. فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم. ومطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه. أَلْقَتْ الْمَلَكَةَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهَا بِفَحْوَى الْكِتَابِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ الْحَدِيثَ تَطَلُّبَ مَشُورَتِهِمْ، وَتَعْلَنَ إِلَيْهِمْ أَنَّ لَنْ تَقْطَعَ فِي الْأَمْرِ إِلَّا بَعْدَ هَذِهِ الْمَشُورَةِ، بِرِضَاهُمْ وَمُوَافَقَتِهِمْ: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}، وفي هذا تبدو سمة الملكة الأربية فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي ألقى إليها من حيث لا تعلم، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء. وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملاء من قومها وهي تصف الكتاب بأنه «كريم» وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة، ولكنها لا تقول هذا صراحة، إنما تمهد له بذلك الوصف. ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة! وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل. ولكنهم فوضوا للملكة الرأي: {قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا

فُؤَّةٌ وَأُولُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ. وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}. وهنا تظهر شخصية «المرأة» من وراء شخصية الملكة. المرأة التي تكره الحروب والتدمير. والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا، وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}. فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرمتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساؤها وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة. وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه. والهدية تلين القلب، وتعلن الود، وقد تفلح في دفع القتال، وهي تجربة. فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي. وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة، الذي لا يصرفه عنه مال، ولا عرض من أعراض هذه الأرض.

حَبِّ إِيْمَانِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)
وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (٨) }

يقول الإمام ابن كثير:

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون- في نفس الأمر- كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات بني المصطلق. وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بن المصطلق، وهو الحارث بن ضرار، والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويُرسَل إليَّ رسول الله رسولاً لإبَّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سُخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَوَاتِ قومه، فقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخُلف، ولا أرى حيس رسول الله إلا من سُخْطَةٌ كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة،

فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَّقَ - أي: خاف - فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعي الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَلَ عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي". قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ } إلى قوله: { حَكِيم }. ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به.

وقوله: { وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ } أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: { النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ } [الأحزاب: ٦]. ثم بيّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: { لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ } أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وخرجكم، كما قال تعالى: { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون: ٧١].

وقوله: { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ } أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا علي بن مَسْعُودَةَ، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الإسلام علانية، والإيمان في القلب" قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: "التقوى هاهنا، التقوى هاهنا".

{ وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدرج لكمال النعمة.

وقوله: { وَأُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. ثم قال: { فَضُلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً } أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء، ويُضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويُعذب من يشاء، ويُفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تُشترط، ولا يُشترط سوى الدين، لقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ} وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه.

ويقول سبحانه وتعالى:

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)}

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}. وقد استُفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أو مسلم" حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أو مسلم" ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلم أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبو في النار على وجوههم". أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري، به. فقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. ودل ذلك على أن ذلك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. والصحيح أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا

إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله: {وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور: ٢١].

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} أي: لمن تاب إليه وأتاب.

وقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} أي: إنما المؤمنون الكُمَّل {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أي: في قولهم إذا قالوا: "إنهم مؤمنون"، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني عمرو بن الحارث، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه الله، عز وجل".

وقوله: {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} أي: أخبرونه بما في ضمائرهم، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. ثم قال تعالى: {يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله ردّاً عليهم: {قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا بِإِسْلَامِكُمْ}، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه، {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين: "يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟" كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَّنُّ. ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

يقول الإمام القرطبي:

الآية: ٧-٨ {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ} فلا تكذبوا، فإن الله يُعلمه أنباءكم فتفتضحون. {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ} أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، ولعنت من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ومعنى طاعة الرسول لهم: الإلتزام بما يأمر به فيما يبلغونه عن الناس والسماع منهم. والعنت الإثم، يقال: عنت الرجل. والعنت أيضا الفجور والزني، كما في سورة "النساء". والعنت أيضا الوقوع في أمر شاق. {لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ **الْإِيمَانُ**} هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخبرون بالباطل، **أي جعل الإيمان أحب الأديان إليكم**. {وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ} {وَزَيَّنَّا} بتوفيقه. {بِ قُلُوبِكُمْ} أي حسنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا رد على القدرية والإمامية وغيرهم، حسب ما تقدم في غير موضع. فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له. {وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} قال ابن عباس: يريد به الكذب خاصة. وقيل: كل ما خرج عن الطاعة، مشتق من فسقت الرطبة خرجت من قشرها، والفأرة من جحرها. والعصيان جمع المعاصي. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: {أُولَئِكَ} يعني هم الذين وفقهم الله فحبيب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر أي قبحه عندهم {الرَّاشِدُونَ} كقوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} [الروم: ٣٩]. والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، من الرشاد وهي الصخرة. {فَضَلَّ اللَّهُ مَنَ اللَّهُ وَنِعْمَةً} أي فعل الله ذلك بكم فضلا، أي الفضل والنعمة، فهو مفعول له. {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {عَلِيمٌ} بما يصلحكم {حَكِيمٌ} في تدبيركم.

الآية: ١٤ {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

نزلت في أعراب من بني أسد بن خزيمه قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر. وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات وأغلوا أسعاوها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتيناك بالآتقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطينا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا، فنزلت. وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب، لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى. ومعنى {وَلَكِنْ قُولُوا} **أَسْلَمْنَا** أي استسلمنا خوف القتل والسي، وهذه صفة المنافقين، لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر، وذلك يحقن الدم. {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} يعني إن تخلصوا الإيمان {لَا يَلِتْكُمْ} أي لا ينقصكم؛ {مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} لانه يلبته ويلوته: نقصه؛ لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول.

الآية: ١٥ - ١٦ {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أي صدقوا ولم يشكوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية وكذبوا، فنزلت. {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} الذي أنتم عليه. {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

الآية: ١٧ - ١٨ {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال. و"أن" في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا. {قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم} أي بإسلامكم. {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} {أَنْ} في موضع نصب، تقديره بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبدالله {إِذْ هَدَاكُمْ}. {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} صادقين أنكم مؤمنون. {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو بالياء على الخبر، ردا على قوله: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ}. الباقون بالتاء على الخطاب.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية. حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة. وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهديب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات! وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير.

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم والتي تكفل قيامه أولا، وصيانته أخيرا. عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله. عالم نقى القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة. عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره. وهو عالم له منهجه في الثبوت من الأقوال والأفعال، والاستيثاق من مصدرها، قبل الحكم عليها. يستند هذا المنهج إلى تقوى الله، وإلى

الرجوع بالأمر إلى رسول الله، في غير ما تقدم بين يديه، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ، فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ. وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات، تخلص كيانه لو تركت بغير علاج. وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين، ومن حقيقة العدل والإصلاح، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ، وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان. وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}. وهو عالم نظيف المشاعر، مكفول الحرمات، مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنة، ولا تُتبع فيه العورات، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحرمتهم فيه لأدنى مساس: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا. أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا؟ فَكَرِهْتُمُوهُ! وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}.

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب وله ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع. إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب: {يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم، تحدد معالم الإيمان، الذي باسمه دعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم. وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الحافز إلى التلبية والتسليم: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا. قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا. وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ. وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر.

هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ. بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضَلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}. كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها. ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خيره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء. ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق. فتصيب قوماً بظلم عن جهالة وتسرع. فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع.

ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداءً. وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار. ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه، وحرك قلوبهم لحبه، وكشف لهم عن جماله وفضله، وعلق أرواحهم به وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا كله من رحمته وفيضه: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ. أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. فَضَلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} واختيار الله لفريق من عبادِه، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فتفهفو إليه أرواحهم، وتدرك ما فيه من جمال وخير، هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة. والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلاً منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة. وفي تقرير هذه الحقيقة إحياء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة.

وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته، في الرد على الأعراب الذين قالوا: «آمنّا» وهم لا يدركون حقيقة الإيمان. والذين منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أسلموا وهم لا يقدرّون منة الله على عباده بالإيمان: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا. قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا. وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ. وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا. قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

قيل: إنّا نزلت في أعراب بني أسد. قالوا: آمنا، أول ما دخلوا في الإسلام، ومنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك. فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول. وأنهم دخلوا في الإسلام استسلاما، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان. فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر في قلوبهم، ولم تشرها أرواحهم. ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئا. فهذا الإسلام الظاهر الذي لم يخالط القلب فيستحيل إيمانا واثقا مطمئنا. هذا الإسلام يكفي لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار. ولا ينقص من أجرها شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام: {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا} ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة، فيقبل من العبد أول خطوة، ويرضى منه الطاعة والتسليم، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. ثم بين لهم حقيقة الإيمان: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا. وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}. فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله. التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب. التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلحج فيه القلب والشعور. {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، الصادقون في عقيدتهم، الصادقون حين يقولون: إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون.

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها: {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لقد منوا بالإسلام، وزعموا الإيمان. فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام، وأن المنّة لله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان. ونحن نقف أمام هذا الرد، الذي يتضمن حقيقة ضخمة، يغفل عنها الكثيرون، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين. إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض. إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع. إنها المنّة التي

تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة وتجعل له في نظام الكون دورا أصيلا عظيما. {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} والذي يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس، ومكنون الضمائر، وحقائق الشعور ويبصر ما يعمله الناس، فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ولكن من مشاعر تجيش في قلوبهم، وأعمال تصدق ما يجيش في القلوب.